

المحاسن والمساوئ

تأليف

إبراهيم بن محمد البيهقي

الجزء الأول

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

تصحيح سمير رباب



شركة أبناء شريف الانصاري للطباعة والنشر والتوزيع

صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية

الخندق العميق - ص.ب: 11/8355

تلفاكس: 655015 - 632673 - 659875 00961 1

بيروت - لبنان

• الدارة النشرون الحديثة

بوليفار د. نزيه البزري - ص.ب: 221

تلفاكس: 720624 - 729259 - 729261 00961 7

صيدا - لبنان

• المطبعة العصرية

كفر جرة - طريق عام صيدا جزين

07 230195 - 00961 7 230841

تلفاكس: 655015 - 632673 - 659875 00961 1

صيدا - لبنان

الطبعة الأولى

هـ 1437 - 2016

Copyright© all rights reserved

جميع الحقوق محفوظة للناشر

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو، أو بأي طريقة، سواء كانت الكترونية، أو بالتصوير، أو التسجيل، أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدما.

alassrya@terra.net.lb

E. Mail alassrya@cyberia.net.lb

info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت

www.alassrya.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

يضمّ كتاب «المحاسن والمساوى» طائفة من ضروب الآداب وغرر الكلام؛ تدور حول النفس الإنسانية وما يتعلّق بها من الصفات والأفعال، وما يعترئها من دوافع الخير، أو نوازع الشرّ؛ وما تنضح به من سرّي الأخلاق ومحمود الشمائل، أو ما يصدر عنها مما يؤذي المروءة ويخدش كريم الأحساب؛ وبذلك اجتمع فيه من رائع الشعر ورصين القول، وموروث الخبر والحكمة والمثل؛ ما لم يجتمع في كتاب، مع تناسب الأبواب، وتقسيم الفصول، وإحكام الوضع، وجمال التصنيف.

ومع طول البحث في كتب السير والتراجم، وتقصّي أسفار التاريخ والطبقات؛ فإنه لا يعلم شيء عن مؤلف الكتاب؛ سوى أنّ اسمه «إبراهيم بن محمد البيهقي»؛ كما جاء في المقدمة وصفحة العنوان، وكما نقل عنه الدّميري في حياة الحيوان؛ عند الكلام على خلافة عبد الملك بن مروان^(١)؛ وأنه كان يعيش في زمن المقتدر بالله (٢٩٥-٣٢٠هـ)؛ كما يفهم من الخبر الذي أورده المؤلف في باب محاسن المسايرة^(٢) في هذا الكتاب، وهو قدّر لا يسدّ حاجة لباحث أو مؤرخ.

ويرجع الفضل الأول في نشر هذا الكتاب وتيسيره لقرّاء العربية إلى الدكتور فريدريك شوالي؛ أحد المتقدّمين من المستشرقين الألمان؛ ممن عُنا بنشر النفيس من تراث العرب الخالد. حققه؛ وطبعه في سنة ١٩٠٢م، بمطبعة جيسن؛ ووضع له مقدمة باللغة الألمانية؛ وذيّله بحواشٍ ومقابلات باللغة اللاتينية؛ وقد بذل جهداً يشكر، وقام بعمل يذكر.

وفي سنة ١٩٢٥م قام المستشرق الألماني أشر بعمل فهارس له مفصلة؛ كتبها بخطه، ثم صوّرت بالزنگراف؛ وعملت منها نسخ محدودة، لم تعرف إلا في دائرة ضيقة عند العلماء المستشرقين بأوروبا^(٣).

(١) الجزء الأول ص ٥٨، نشرة القاهرة سنة ١٢٨٤هـ.

(٢) ص ٥٠١ - ٥٠٤ (نشرة شوالي).

(٣) الدراسات العربية في أوروبا لجوهان فوك ص ٣١٥ طبع ليبزج سنة ١٩٥٥م.

وعن هذه الطبعة أعيد نشره بمطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٩٠٦م. بعد حذف المقدمة والتعليقات.

وأساس العمل الذي قام به شوالي مخطوطتان:

إحدهما نسخة بمكتبة جامعة ليدن، محفوظة برقم ٢٠٧١، تقع في ٢٩٤ صفحة وتنقص من أولها بمقدار ٣٠ صفحة، ومن آخرها بمقدار صفحتين؛ مكتوبة بخط معتاد؛ ويبدو أن ناسخها على شيء من المعرفة بأصول النسخ، وعنوانات الفصول فيها بخط أكبر، ومتوسط الأسطر فيها ٢٣ سطراً، ومتوسط عدد الكلمات ١٨ كلمة، وقد رمز إليها بالحرف (L).

والنسخة الثانية محفوظة بمكتبة الجمعية الآسيوية البنغالية في كلكتا، وهي نسخة يبدو أن آخرها ناقصاً، إذ أن الناسخ قد أضاف عند نهاية ما وقف عليه من نسخة الأصل التي نقل عنها عبارة الختام مما يوهم أنها كاملة. وقد أتمها نسخاً في ١٣ ربيع الأول سنة ١٣٧٩هـ، وتقع في ٢١٩ ورقة، متوسط الأسطر فيها ٣٠ سطراً، ومتوسط الكلمات ١٢ كلمة، وقد رمز إليها بالحرف (C).

وحينما قصدت إلى إعادة تحقيق هذا الكتاب، اتخذت نشره شوالي أصلاً، واستأنست بنسختين مصورتين عن الأصلين اللذين رجع إليهما، ورمزت إلى المطبوعة بالحرف (ط)، وإلى نسخة ليدن بالحرف (ل)، وإلى نسخة كلكتا بالحرف (ك).

كما أني رجعت إلى كتب الأدب والتاريخ ودواوين الشعراء ومعاجم اللغة، واستعنتُ بكل ذلك على إيضاح المبهم، وردّ المحرّف، وشرح الغريب، مما تراه في حواشي الكتاب.

وكان من أهم الكتب التي أفدت منها في هذا السبيل، كتاب «المحاسن والأضداد» المنسوب إلى الجاحظ (فان فلوتن)^(١). والكثير من نصوص الكتابين تكاد تكون متحدة، والأخبار مشتركة، مما يحمل على الظن أن مؤلفهما واحد، أو أنهما كتابان أخذتا عن أصل مشترك.

وأرجو بما قمت به من الشرح والتعليق، وما صنعتته من الفهارس المتنوعة، أن يكون الكتاب قد أصبح قريب الجني، داني القطاف.

كما أرجو أن يكون عملاً للناس نافعاً، وعند المولى سبحانه مقبولاً.

١٨ شوال سنة ١٣٨٠هـ/ ٤ إبريل سنة ١٩٦١م

محمد أبو الفضل إبراهيم

(١) طبع في ليدن سنة ١٨٩٨م.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه الأمان من الخذلان

الحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على محمد النبي الأمي، الهاشمي الأبطحي، المكي المدني، الهادي المهدي، السراج المضيء، والقمر المنير، التقي الثقي؛ وعلى أهل بيته الطيبين الأخيار، السادة الأطهار، المقسطين^(١) الأبرار، الذين خلّقوا من طينة واحدة؛ وجبلوا على فطرته، ودرّجوا على حوزته، وميّزوا بحكمته، و[ساروا]^(٢) على منهاجه وملّته، وفازوا بطاعته؛ وسلّم تسليمًا كثيرًا دائمًا.

قال الشيخ إبراهيم بن محمد البيهقي: قال مُصعب بن الزُبَيْر: إنَّ الناس يتحدّثون بأحسن ما يحفظون، ويحفظون أحسن ما يكتُبون، ويكتُبون أحسن ما يسمعون، فإذا أخذت الأدب فخذ من أفواه الرجال، فإنك لا تسمع منهم إلا مختاراً^(٣).

وقال لقمان لابنه: يا بُنيّ تنافس^(٤) في طلب الأدب، فإنّه ميراث غير مسلوب، وقرين غير مغلوب، ونفيس حظ في الناس^(٥) مطلوب. وقال الزهري: الأدب ذكر لا يحبّه إلا الذكور من الرجال، ولا يبغضه إلا مؤنّثهم.

وقيل^(٦): إذا سمعت أداً فاكته ولو في حائط.

قال: وقال المنصور بن المهدي للمأمون: أيحسّن بمثلي^(٧) طلب الأدب؟

(١) المقسطون؛ من أقسط في الأمر؛ إذا عدل.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) المحاسن والأضداد: «إنك لا ترى وتسمع».

(٤) المحاسن والأضداد: «نافس».

(٥) المحاسن والأضداد: «من الناس».

(٦) المحاسن والأضداد: «وقال».

(٧) المحاسن والأضداد: «بنا».

قال: لأن^(١) تموت طالباً لأدب خيراً من أن تعيش قانعاً بالجهل؛ قال: فيألى متى يحسن بي ذلك؟ قال: ما حسنت بك الحياة.

وقال الزُّهري: ما سمعتُ كلاماً أوجزَ من كلام عبد الملك بن مَرْوَانَ لَوْلِيهِ حيث يقول: اطلُّبوا معيشَةً لا يَقْدِر عليها سلطانٌ جائرٌ؛ قيل: ما هي؟ قال: الأدب.

وقال بُزْجُمَهْر: يا لَيْتَ شعري أَيَّ شيءٍ أدرك من فاتَه الأدب! أم أَيَّ شيءٍ فات من أدرك الأدب وما دَّتَه من الكُتُب!



وقد أهدى بعضُ الكُتَّابِ إلى صديق له دَفْتَرًا وكتب له: هديتِي هذه - أعزَّكَ الله - تزكُّو^(٢) على الإنفاق، وتربو على الكَد^(٣)، لا تُفسدها العواري^(٤)، ولا تُخلِّقها كثرةُ التقلب؛ وهي أنسُ في الليل والنهار، والسَّفر والحَضَر، تصلح للدينا، والآخرة، تؤنس في الخلوة، وتمتع في الوَحْدة. مسامرٌ مساعدٌ، ومحدثٌ مطواع، ونديمٌ صديق.

وقال بعضهم: الكُتُبُ بساتين العلماء.

وقال آخر: الكتاب جليسٌ لا مؤونة له.

وقال الفضلُ بنُ سَهْلٍ للمأمون وهو بدمشق بدير مُرَّان مُشْرِف على غُوطِتها: يا أمير المؤمنين، هل رأيتَ لحسنها شبيهاً في شيء من مُلك العَرَب؟ يعني الغُوطَة. قال: بلى والله، كتاب فيه أدبٌ يجلو الأفهام، ويُرَكِّي القلوب، ويؤنس الأنفُسَ، أحسنُ منها.



وقال الجاحظ: الكتابُ نِعَمُ الذُّخْرِ والعُقْدَة^(٥)، ونعم الجليس والقُعدَة^(٦)، ونعم النُّشْرَة^(٧) والنُّزْهَة، ونعم المشتغلُ والحِرْفَة، ونعم الأنيسُ سَاعَة الوَحْدة،

(١) ك: «لئن»؛ وصوابه من المحاسن والأضداد.

(٢) تزكو: تنمو.

(٣) ك: «الكسد»؛ وما أثبتته من المحاسن والأضداد.

(٤) في إحدى نسخ المحاسن والأضداد «العوادي».

(٥) العقدة: ما فيه بلاغ الرجل وكفايته.

(٦) الجاحظ في المحاسن: «العمدة»، وفي الحيوان «العدة».

(٧) النشرة: النسيم.

ونعم المعرفة ببلاد العُربَة، ونعم القرين والدَّخِيل، ونعم الوزيرُ والنَّزِيل. الكتاب وعاءٌ مُلئٌ علماً، وظرفٌ حُشيٌّ ظَرْفًا، إن شئتَ كان أعيًا من باقِل، وإن شئتَ كان أبلغَ من سَحْبَانٍ وائلٍ؛ وإن شئتَ ضَحِكْتَ من نَوادره، وإن شئتَ بكيتَ من مَواعظه. ومَنْ لك بواعظٍ مُلهٍ^(١)، وبناسِكٍ فاتك، وناطقٍ أحرَس! ومَنْ لك بطبيبٍ أعرابيٍّ، ورُوميٍّ وهنديٍّ، وفارسيٍّ ويونانيٍّ، ونديمٍ^(٢) مولَّد، ووصيفٍ مُمتع! ومَنْ لك بشيءٍ يجمع الأول والآخِر، والناقصَ والوافيَّ، والشاهدَ والغائبَ، والرفيعَ والوضيعَ، والعَثَّ والسَّمينَ، والشَّكلَ وخلافَه، والجنسَ وضدَه!

وبعد، فما رأيتُ بستاناً يُحمَلُ في رُذنٍ^(٣) ورَوْضَةً تُنقلُ في حِجرٍ، ينطقُ عن الموتى، ويترجمُ عن الأحياء، غيره.

ومَنْ لك بمؤنسٍ لا ينام إلا بنومِك، ولا ينطقُ إلا بما تهوى، آمنٌ مَنْ في الأرض، وأكنمٌ للسَّرِّ من صاحب السَّرِّ، وأحفظُ للودِعة من أربابِ الودِعة.

ولا أعلمُ جاراً أبرَّ، ولا خليطاً أنصَفَ، ولا رفيقاً أطوعَ، ولا معلماً أخضعَ، ولا صاحباً أظهرَ كفايةً ولا عنايةً، ولا أقلَّ إملاً^(٤) وإبراماً، ولا أبعدَ عن مِرَاءٍ، ولا أتركُ لشُعْبٍ، ولا أزهدَ في جدالٍ، ولا أكفَّ عن قتالٍ من كتاب! ولا أعمَّ بياناً، ولا أحسنَ مؤاتاةً، ولا أعجلَ مكافأةً، ولا شجرةً أطولَ عُمرًا، ولا أطيبَ ثمرًا، ولا أقربَ مُجتَنئٍ، ولا أسرعَ إدراكاً، ولا أوجدَ في كلِّ إِبَّانٍ^(٥) من كتاب، ولا أعلمُ نِتاجاً في حادثةٍ سِنَّه، وقُربٍ مِيلادِه، ورُخصٍ ثَمَنه، وإمكانٍ وجُوده. يَجْمَعُ من التدايير العجيبة، والعلوم الغريبة، ومن آثار العقول الصحيحة، ومحمود الأذهان اللطيفة، ومن الحِكم الرِّفِعة، والمذاهب القديمة، والتجارب الحكيمة، والأخبار عن القرون الماضية، والبلاد المترامية، والأمثال السائرة، والأمم البائدة، ما يجمعه كتاب^(٦).

ولولا الحِكمُ المخطوطة^(٧)، والكُتب المدونة، لبطلَ أكثرُ العِلْم، ولغلبَ

(١) ك: «مثله»، وما أثبتته من المحاسن والأضداد، والحيوان.

(٢) الحيوان ١ : ٣٩ ونهاية الأرب ٧ : ١٧ : «وقديم».

(٣) الرذن، بالضم: أصل الكم والجمع أردان.

(٤) ك: «مالالا» تصحيف.

(٥) إبان كل شيء: وقته وحينه الذي يكون فيه.

(٦) ك: «ما يجمع من كتاب»، وما أثبتته من المحاسن والأضداد.

(٧) المحاسن والأضداد «المحفوظة».

سُلْطَانُ النَّسِيَانِ سُلْطَانُ الذِّكْرِ، وَلَمَّا كَانَ لِلنَّاسِ مَفْزَعٌ إِلَى مَوْضِعِ اسْتِذْكَارٍ؛ وَلَوْ لَمْ يَتِمَّ^(١) ذَلِكَ لَحَرِمْنَا أَكْثَرَ النَّفْعِ.

وَمَنْ لَكَ [بِمَنْ] لَا يَبْتَدِئُكَ فِي حَالِ شُغْلِكَ، وَلَا فِي أَوْقَاتِ عَدَمِ نَشَاطِكَ، وَلَا يُحَوِّجُكَ إِلَى التَّمَحُّلِ وَالتَّدْثُمِ! وَمَنْ لَكَ بَزَائِرٌ إِنْ شِئْتَ جَعَلْتَ زِيَارَتَهُ غِبًّا، وَوَرَدَهُ خِمْسًا^(٢)، وَإِنْ شِئْتَ لَزِمَكَ لَزُومَ ظِلِّكَ!

وَالْكِتَابُ هُوَ الْجَلِيسُ الَّذِي لَا يُطْرِكُ، وَالصَّدِيقُ الَّذِي لَا يَقْلِيكَ، وَالرَفِيقُ الَّذِي لَا يُمِلُّكَ، وَالْمُسْتَمِيعُ^(٣) الَّذِي لَا يُؤْذِيكَ، وَالْجَارُ الَّذِي لَا يَسْتَبْطِيكَ، وَالصَّاحِبُ الَّذِي لَا يَرِيدُ اسْتِخْرَاجَ مَا عِنْدَكَ بِالْمَلَقِ، وَلَا يَعَامَلُكَ بِالْمَكْرِ، وَلَا يَخْدَعُكَ بِالنِّفَاقِ. وَالْكِتَابُ هُوَ الَّذِي إِنْ نَظَرْتَ فِيهِ أَطَالَ إِمْتَاعَكَ، وَشَحَذَ طِبَاعَكَ، وَبَسَطَ لِسَانَكَ، وَجَوَّدَ بَيَانَكَ، وَفَحَّمَ أَلْفَاظَكَ، وَعَمَّرَ صَدْرَكَ، وَحَبَّكَ تَعْظِيمَ الْأَقْوَامِ، وَمَنَحَكَ صَدَاقَةَ الْمُلُوكِ؛ يَطِيعُكَ فِي اللَّيْلِ طَاعَتَهُ بِالنَّهَارِ، وَفِي السَّفَرِ طَاعَتَهُ فِي الْحَضَرِ. وَهُوَ الْمَعْلَمُ الَّذِي إِنْ افْتَقَرْتَ إِلَيْهِ لَمْ يَحْقُرْكَ، وَإِنْ قَطَعْتَ عَنْهُ الْمَادَّةَ لَمْ يَقْطَعْ عَنْكَ الْفَائِدَةَ، وَإِنْ عَزَلْتَ لَمْ يَدَعْ طَاعَتَكَ، وَإِنْ هَبَّتْ عَلَيْكَ رِيحُ أَعْدَائِكَ لَمْ يَنْقَلِبْ عَلَيْكَ، وَمَتَى كُنْتَ مُتَعَلِّقًا بِهِ وَمُتَّصِلًا مِنْهُ بِأَدْنَى حَبْلٍ، لَمْ تَضْطَرَّكَ^(٤) مَعَهُ وَخَشَةُ الْوَحْدَةِ إِلَى جَلِيسِ السَّوَاءِ. وَإِنْ أَمَثَلَ مَا يَقْطَعُ بِهِ الْفَرَاغُ نَهَارَهُمْ، وَأَصْحَابُ الْكِفَايَاتِ سَاعَاتِ لَيْلِهِمْ، نَظَرَةٌ فِي كِتَابٍ لَا يَزَالُ لَهُمْ فِيهِ ازْدِيَادٌ أَبَدًا فِي تَجَرِبَةٍ وَعَقْلٍ وَمَرْوَةٍ، وَصَوْنٍ عَرَضٍ، وَإِصْلَاحٍ دِينٍ وَمَالٍ، وَرَبِّ صَنِيعَةٍ وَابْتِدَاءٍ إِنْعَامٍ.

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ فَضْلِهِ عَلَيْكَ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَنَعُهُ لَكَ مِنَ الْجُلُوسِ عَلَى بَابِكَ، وَنَظَرِكَ إِلَى الْمَارَّةِ بِكَ، مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ التَّعَرُّضِ^(٥) لِلْحَقُوقِ الَّتِي تَلْزِمُ، وَمِنْ فُضُولِ النَّظَرِ، وَمَلَابَسَةِ صَغَارِ النَّاسِ، وَمِنْ خُطُورِ^(٦) أَلْفَاظِهِمُ السَّاقِطَةِ، وَمَعَانِيهِمُ الْفَاسِدَةِ، وَأَحْوَالِهِمُ الرَّدِيَّةِ، وَطَرَائِقِهِمُ^(٧) الْمَذْمُومَةِ، وَأَفْعَالِهِمُ الْخَبِيثَةِ الْقَبِيحَةِ؛ لَكَانَ فِي ذَلِكَ السَّلَامَةُ ثُمَّ الْغَنِيمَةُ، وَإِحْرَازُ^(٨) الْأَصْلِ مَعَ اسْتِفَادَةِ الْفَرْعِ. وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ يَشْغُلُكَ عَنْ سُخْفِ الْمَنَى، وَعَنْ اعْتِيَادِ الرَّاحَةِ، وَعَنْ

(١) ك: «وَأَتَمَّ»، وَمَا أَثْبَتَهُ مِنَ الْمَحَاسِنِ وَالْأَضْدَادِ.

(٢) الْخَمْسُ فِي الْأَصْلِ: مِنْ أَظْمَاءِ الْإِبِلِ؛ وَهُوَ أَنْ تَرعى ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَتَرُدَّ الرَّابِعَ.

(٣) الْمُسْتَمِيعُ: طَالِبُ الْعَطَاءِ فِي رَفَقٍ.

(٤) ك: «تَضْرِكُ»، وَالْوَجْهَ مَا أَثْبَتَهُ مِنَ الْحَيَوَانِ.

(٥) ك: «الْتِمَرِيزُ»، وَالصَّوَابُ مَا أَثْبَتَهُ مِنَ الْمَحَاسِنِ وَالْأَضْدَادِ.

(٦) الْحَيَوَانُ: «حُضُورٌ». (٧) الْمَحَاسِنُ وَالْأَضْدَادُ: «وَجْهَاتُهُمْ».

(٨) ك: «وَإِحْزَانٌ»، وَمَا أَثْبَتَهُ مِنَ الْمَحَاسِنِ.

اللَّعِبُ وَكُلُّ مَا أَشْبَهَهُ، لَقَدْ كَانَ فِي ذَلِكَ عَلَى صَاحِبِهِ أَسْبَغُ النِّعْمَةِ، وَأَعْظَمُ الْمِنَّةِ. وهو الذي يَزِيدُ فِي الْعَقْلِ وَيَسْحَدُهُ، وَيَدَاوِيهِ وَيَهْدِيهِ، وَيَنْفِي الْخَبْثَ عَنْهُ، وَيَفِيدُ الْعِلْمَ، وَيَصَادِقُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْحَقِّ، وَيَقْوِدُكَ لِلْأَخْذِ بِالثِّقَةِ، وَيَعْمُرُ الْحَالَ، وَيَكْسِبُ الْمَالَ. وَهُوَ مَنبَهَةٌ^(١) لِلْمُورَثِ، وَكَنَزٌ عِنْدَ الْوَارِثِ، غَيْرُ أَنَّهُ كَنْزٌ لَا زَكَاةَ فِيهِ، وَلَا حَقٌّ لِلسُّلْطَانِ يَخْرُجُ مِنْهُ. هُوَ كَالضَّيْعَةِ الَّتِي لَا تَحْتَاجُ إِلَى سَقْيٍ وَلَا إِسْجَالٍ بِإِيغَارٍ^(٢)، وَلَا إِلَى شَرْطٍ وَلَا إِكْثَارٍ، وَلَيْسَ عَلَيْهَا عَشْرٌ لِلسُّلْطَانِ وَلَا خَرَاجٌ.

وَلَوْ لَا مَا رَسَمْتُ لَنَا الْأَوَائِلَ فِي كُتُبِهَا، وَخَلَدْتُ مِنْ عَجِيبِ حِكْمِهَا، وَدَوَّنتُ مِنْ أَنْوَاعِ سِيرِهَا؛ حَتَّى شَاهَدْنَا بِهَا مِنْ غَابِ عَنَّا، وَفَتَحْنَا بِهَا كُلَّ مَنغْلِقٍ عَلَيْنَا؛ فَجَمَعْنَا فِي قَلِيلِنَا كَثِيرَهُمْ، وَأَدْرَكْنَا مَا لَمْ نُدْرِكْهُ إِلَّا بِهِمْ، لَقَدْ كَانَ بُخْسٌ حَظَّنَا مِنْهُ. وَأَكْثَرَ كُتُبِهِمْ نَفْعًا، وَأَشْرَفَ مِنْهَا حَظًّا، وَأَحْسَنُ مَوْقِعًا؛ كُتُبُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الَّتِي فِيهَا الْهُدَى وَالرَّحْمَةُ، وَالْإِخْبَارُ عَنْ كُلِّ عِبْرَةٍ، وَتَعْرِيفُ كُلِّ سَيِّئَةٍ وَحَسَنَةٍ. وَمَا زَالَتْ كُتُبُ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا فِي الْأَلْوَاغِ وَالصُّحُفِ وَالْمَصَاحِفِ، فَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿أَمْ لَمْ يُبَيَّنَّا بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [سورة النجم: ٣٦، ٣٧]، فَذَكَرَ صَحِيفَةَ مُوسَى الْمَوْجُودَةَ، وَصَحْفَ إِبْرَاهِيمَ الْبَائِدَةَ، وَقَالَ: ﴿الَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [سورة البقرة: ٢٠١]. وَقُلَّ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [سورة الأنعام: ٣١]. وَقَالَ: ﴿كَرَامًا كُنِينٍ﴾ [سورة الانفطار: ١١]. وَقَالَ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ [سورة الانشقاق: ١٠]. وَقَالَ: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [سورة الإسراء: ١٤].

وَلَوْ لَمْ تَكُنْ تُكْتَبُ أَعْمَالُهُمْ لَكَانَتْ مَحْفُوظَةً لَا يَدْخُلُ ذَلِكَ الْحِفْظُ نَسِيَانًا، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى جَدُّهُ، عَلِمَ أَنَّ نَسْخَهُ أَوْكَدُ وَأَبْلَغُ وَأَهْيَبُ فِي الصَّدُورِ، فَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الجاثية: ٢٩].

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ الْبَشَارَاتِ بِالْمُرْسَلِينَ عَلَى الْأَلْسِنَةِ وَلَمْ يُوَدِّعْهَا الْكُتُبَ لَفَعَلَ، وَلَكِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ أَتَمُّ وَأَبْلَغُ وَأَكْمَلُ وَأَجْمَعُ. وَفِي قَوْلِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَذْهَبَ يَكْتَلِي هَكَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ﴾ [سورة النمل: ٢٨]، وَقَدْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْ يَبْلُغِ الرِّسَالَةِ عَلَى تَمَامِهَا مِنْ عَفْرِيَةٍ وَإِنْسِيٍّ وَغَيْرِهِمَا، فَرَأَى الْكِتَابَ أَبْهَى وَأَحْسَنَ، وَأَكْرَمَ وَأَفْخَمَ، وَأَنْبَلَ مِنَ الرِّسَالَةِ^(٣). وَلَوْ شَاءَ النَّبِيُّ ﷺ، أَلَّا يَكْتُبَ إِلَى

(١) فِي ك: «شبهة»، تَحْرِيفٌ، وَالْمَنْبَهَةُ: الْمَشْرِقَةُ وَالْمَعْلَاةُ، مِنَ النَّبَاهَةِ؛ وَهِيَ ضِدُّ الْخُمُولِ.

(٢) الْإِسْجَالُ، مِنَ أَسْجَلَ الْحَوْضَ، إِذَا مَلَأَهُ، وَالْإِيغَارُ: اسْتِيفَاءُ الْعَامِلِ الْخَرَاجَ.

(٣) فِي الْكَلَامِ حَذْفُ الْمَبْتَدَأِ، وَالتَّقْدِيرُ: «وَفِي قَوْلِ سُلَيْمَانَ... مَا يَنْوِي بِشَأْنِ الْكِتَابِ»؛ وَالْغَرَضُ مِنَ الْحَذْفِ التَّفْخِيمُ.

قِصْر وكسرى والتجاشي والمقوقس، وإلى ابْنِي الْجُلُنْدَى^(١) وإلى العَبَاهِلَة من جَمِير، وإلى هَوْدَة والملوك العظماء، والسادة النجباء، لَفْعَل، وَلَوْجَد المَبْلَغ المعصوم من الخطأ والزَّل والنبدل؛ ولكِنَّه ﷺ عَلِمَ أَنَّ الْكِتَابَ أَشْبَهُ بِتِلْكَ الْحَالَةِ، وَأَلِيقَ بِتِلْكَ الْمَرَاتِبِ، وَأَبْلُغَ فِي تَعْظِيمِ مَا حَوَاهِ الْكِتَابَ.

وَحَمَلُهُ وَإِنْ كَثُرَ وَرَقُهُ، فَلَيْسَ مِمَّا يُمِلُّ؛ لِأَنَّهُ وَإِنْ كَانَ كِتَابًا وَاحِدًا، فَإِنَّهُ كُتِبَ كَثِيرَةً، فَإِنْ أَرَادَ قِرَاءَةَ الْجَمِيعِ لَمْ يَصِلْ عَلَى الْبَابِ الْأَوَّلِ حَتَّى يَهْجُمَ عَلَى الثَّانِي، وَلَا الثَّالِثَ حَتَّى يَهْجُمَ عَلَى الرَّابِعِ، فَهُوَ أَبَدًا مُسْتَفِيدٌ وَمُسْتَظَرَفٌ^(٢)، وَبَعْضُهُ يَكُونُ حَاقًا لِبَعْضٍ، وَلَا يَزَالُ نَشَاطُهُ زَائِدًا؛ مَتَى خَرَجَ مِنْ أَثَرٍ صَارَ فِي خَبَرٍ، حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ خَبَرٍ إِلَى شِعْرٍ، وَمِنْ الشَّعْرِ إِلَى النَّوَادِرِ، وَمِنْ النَّوَادِرِ إِلَى نُتْفٍ وَإِلَى مَوَاعِظٍ، حَتَّى يُفْضِيَ بِهِ إِلَى مَزْحٍ وَفَكَاهَةٍ، وَمُلَحٍّ وَمَضَاحِكٍ وَخُرَافَةٍ. وَكَانُوا يَجْعَلُونَ الْكِتَابَ نَقْرًا فِي الصَّخُورِ، وَنُقْشًا فِي الْحِجَارَةِ، وَحَلَقَةً مُرَكَّبَةً فِي الْبُنْيَانِ - وَرَبَّمَا كَانَ الْكِتَابُ هُوَ النَّاتِيءُ^(٣)، وَرَبَّمَا كَانَ الْكِتَابُ هُوَ الْمُحْفُورُ - إِذَا كَانَ ذَلِكَ تَارِيخًا لِأَمْرٍ جَسِيمٍ، أَوْ عَهْدًا لِأَمْرٍ^(٤) عَظِيمٍ، أَوْ مَوْعِظَةً يُرْتَجَى نَفْعُهَا، أَوْ إِحْيَاءَ شَرَفٍ وَيُرِيدُونَ تَخْلِيدَ ذِكْرِهِ؛ كَمَا كَتَبُوا عَلَى قُبَّةِ غَمْدَانَ^(٥)، وَعَلَى بَابِ الْقَيْرَوَانِ، وَعَلَى بَابِ سَمَرْقَنْدٍ، وَعَلَى عَمُودِ مَأْرَبٍ^(٦)، وَعَلَى رُكْنِ الْمُشَقَّرِ^(٧)، وَعَلَى الْأَبْلَقِ^(٨) الْفَرْدِ مِنْ تَيْمَاءَ، وَعَلَى بَابِ الرَّهَا^(٩)، يَعْمَدُونَ إِلَى الْمَوَاضِعِ الرَّفِيعَةِ الْمَشْهُورَةِ، وَالْأَمَاكِنِ الْمَذْكُورَةِ، وَيَضَعُونَ الْخَطَّ فِي أَبْعَدِ الْمَوَاضِعِ مِنَ الدُّثُورِ، وَأَمْنَعِهَا مِنَ الدُّرُوسِ، وَأَجْدَرُ أَنْ يَرَاهَا مِنْ مَرٍّ، وَلَا تُنْسَى عَلَى مَرُورِ الدَّهْوَرِ. وَعَمَدُوا إِلَى الرِّسُومِ وَنُقُوشِ الْخَوَاتِيمِ، فَجَعَلُوهَا سَبَبًا لِحِفْظِ الْأَمْوَالِ وَالْخَزَائِنِ؛ وَلَوْلَاهَا لَدَخَلَ عَلَى النَّاسِ الضَّرَرُ الْكَبِيرُ. وَلَوْلَا خُطُوطُ الْهِنْدِ لَضَاعَ مِنَ الْحِسَابِ أَكْثَرُهُ، وَلَبَطَلَتْ مَعْرِفَةُ التَّضَاعِيفِ؛ وَنَفَعَ الْحِسَابُ مَعْلُومٌ، وَالْخَلَّةُ فِي مَوْضِعٍ فَقَدِهِ مَعْرُوفَةٌ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ

(١) هما جيفر وعمرو ملكا عمان، إمتاع الأسماع ١: ٤٣٣.

(٢) ك: «مستظرف».

(٣) ك: «الباني»، وما أثبتته من المحاسن والأضداد.

(٤) ك: «عهد عظيم»، وما أثبتته عن المحاسن والأضداد.

(٥) غمدان: قصر بصنعاء، بناه أليشرح بن يحصب.

(٦) مأرب: قصر بين صنعاء وحضرموت من بلاد اليمن.

(٧) المشقر: حصن بالبحرين.

(٨) الأبلق الفرد: حصن السموأل بن عادياء، وتيماء: بلد بين الحجاز والشام.

(٩) الرها: مدينة بالجزيرة.

وَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِئَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالْجَسَابَ﴾ [سورة يونس: ٥].

ولولا الكتبُ المدونةُ، والأخبارُ المخلّدة، والحِكمُ المخطوطة^(١) التي تجمع الحسابَ وغيرَ الحساب، لبطلَ أكثرُ العلم. ولولا الكتابُ لم يكن يعلم أهلُ الرِّقَّةِ والمُوصلُ وبغدادَ وواسطَ ما كان بالبصرة أو حَدَثَ بالكوفة في بياض يوم؛ حتى تكون الحادثةُ بالكوفة غدوةً، فيعلمُها أهلُ البصرة قبل المساء، وذلك مشهور في الحمام إذا أُرسِلت.

وكانت العربُ تَعْتَمِدُ^(٢) في مآثرها على الشعرِ الموزون والكلامِ المقفَى، وكان ذلك ديوانها، على أَنَّ الشعرَ يفيدُ فضيلةَ البيان على الشاعرِ الراغب، وفضيلةَ الأثر على السيّدِ المرغوبِ إليه. وكانت العجمُ تقيّدُ مآثرها بالبيان، فبنت مثلاً بناءً أرْدَشِيرَ، وبناءً إصْطَخَرَ وبيضاءَ المدائن، وشِيرِينَ^(٣)، والمدنَ والحصون، والقناطر والجسور.

ثم إن العربَ شاركتِ العجمَ في البيان، وتفردت بالشعر، فلها من البيان عُمدان، وكعبة^(٤) نَجْران، وقصرُ مأرب، وقصرُ شُعوب^(٥) والأبلى الفرد، وغيرُ ذلك من البيان.



وتصنيفُ الكتبِ أشدَّ تقييداً للمآثر على مرّ الأيام والدَّهور من البيان؛ لأنَّ البيان لا محالة يدرُس وتغفو رُسومُه، والكتابُ باقي يقع من قرْن إلى قرن، فهو أبداً جديداً، والناظر فيه مستفيد. وهو أبلغُ في تحصيل المآثر من البيان والتَّصاوِير. وأهلُ العلم والنظر وأصحابُ الفكر والعبر، والعلماء بمخارج المِلَل وأرباب النُّحل وورثة الأنبياء، وأعوان الخلفاء؛ يكتبون كتب الظرفاء والملحاء، وكتب الملاهي والفكاهات، وكتب أصحاب المرء والخصومات، وكتب أصحاب العصبيةِ وحميةِ الجاهليةِ؛ فمنهم من يفرِّط [في] التعلّم في أيام جهله، وخمول ذكره، وحادثة سنّه.

(١) المحاسن والأضداد: «المحفوظة».

(٢) ك: «تعقد»، وما أثبتته عن الحيوان.

(٣) قصر شيرين: قريب من قورمين في طريق بغداد.

(٤) كعبة نجران: بنية بناها بنو عبد المدان على بناء الكعبة وعظموها مضاهاةً للكعبة.

(٥) قصر شعوب: قصر باليمن معروف بالارتفاع.

ولولا جِيَادُ الْكُتُبِ وَحِسَانُهَا لَمَا تَحَرَّكَتْ هِمَمٌ هَؤُلَاءِ لَطَلِبَ الْعِلْمَ، وَنَارَعَتْ إِلَى حُبِّ الْأَدَبِ، وَأَيَّفَتْ مِنْ حَالِ الْجَهْلِ، وَأَنْ تَكُونَ فِي غِمَارِ الْحُشْوَةِ^(١)، وَيَدْخُلَ عَلَيْهِمُ الضَّرَرُ وَالْحَقَارَةُ وَسَوْءُ الْحَالِ بِمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ لَا يُمْكِنُ الْإِخْبَارُ عَنْ مَقْدَارِهِ إِلَّا بِالْكَلَامِ الْكَثِيرِ، وَلِذَلِكَ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تَسُودُوا. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: ذَهَبَتِ الْمَكَارِمُ إِلَّا مِنَ الْكُتُبِ.



وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [سورة العلق: ٣، ٤]. فوصف نفسه تعالى جدُّه بأنه علَّم بالقلم، كما وصف نفسه بالكرم، واعتدَّ بذلك في نِعَمِهِ الْعِظَامِ، وَأَيَادِيهِ الْجِسَامِ، وَوَضَعَ الْقَلَمَ فِي الْمَكَانِ الرَّفِيعِ، وَنَوَّهَ بِذِكْرِهِ، وَأَقْسَمَ بِهِ كَمَا أَقْسَمَ بِمَا يَخْطُ بِهِ، فَقَالَ: ﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [سورة القلم: ١].

والقلم أَرْجَحُ مِنَ اللِّسَانِ؛ لِأَنَّ كِتَابَتَهُ تُقْرَأُ بِكُلِّ مَكَانٍ، وَيَظْهَرُ مَا فِيهِ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ، وَيُوجَدُ مَعَ كُلِّ زَمَانٍ. وَمُنَاقَلَةُ اللِّسَانِ وَهْدِيَّتُهُ لَا يَجَاوِزَانِ مَجْلِسَ صَاحِبِهِ وَمَبْلَغَ صَوْتِهِ، وَالْكِتَابُ يَخَاطِبُكَ مِنْ بَعِيدٍ؛ وَقَدْ قَالُوا: الْقَلَمُ أَحَدُ اللَّسَانَيْنِ. وَقَالُوا: كُلُّ مَنْ عَرَفَ النِّعْمَةَ فِي بَيَانِ اللِّسَانِ، كَانَ أَعْرَفَ بِفَضْلِ النِّعْمَةِ فِي بَيَانِ الْقَلَمِ. وَقَدْ يَعْتَرِي الْقَلَمَ مَا يَعْتَرِي الْمُؤَدِّبَ عِنْدَ ضَرْبِهِ وَعِقَابِهِ، فَمَا أَكْثَرَ مَنْ يَعْزِمُ عَلَى عَشْرَةِ أَسْوَاطٍ فَيَضْرِبُ مَائَةً، لِأَنَّهُ ابْتَدَأَ الضَّرْبَ وَهُوَ سَاكِنُ الطَّبَاعِ، فَأَرَاهُ السَّكُونَ أَنَّ الصَّوَابَ فِي الْإِقْلَالِ، فَلَمَّا ضَرَبَ تَحَرَّكَ دُمُهُ فَأَشَاعَ الْحَرَارَةَ فِيهِ، وَزَادَ فِي غَضَبِهِ، فَأَرَاهُ الْغَضَبُ أَنَّ الرَّأْيَ فِي الْإِكْثَارِ، وَكَذَا صَاحِبُ الْقَلَمِ، فَمَا أَكْثَرَ مَنْ يَبْتَدِئُ الْكِتَابَ وَهُوَ يَرِيدُ مَقْدَارَ سَطْرَيْنِ فَيَكْتُبُ عَشْرَةَ!

وقد قيل: القلم الشاهد والغائب، يُقْرَأُ بِكُلِّ لِسَانٍ، وَفِي كُلِّ زَمَانٍ. وَقَالُوا: ظَاهِرُ عُقُولِ الرِّجَالِ فِي اخْتِيَارِهَا، وَمَدْوَنٌ فِي أَطْرَافِ أَقْلَامِهَا؛ وَمُصْبَاحُ الْكَلَامِ حَسَنُ الْاخْتِيَارِ.

وقالوا: القلم مَجْهَزٌ جِيُوشُ الْكَلَامِ، يَخْدُمُ الْإِرَادَةَ، وَلَا يَمَلُّ الْاسْتِزَادَةَ، وَيَسْكُتُ وَاقِفًا، وَيَنْطِقُ سَائِرًا عَلَى الْأَرْضِ، بِيَاضِهِ مَظْلَمٍ، وَسَوَادِهِ مُضِيءٍ؛ وَقَالَ الشَّاعِرُ:

قَوْمٌ إِذَا خَافُوا عِدَاوَةَ مَعْشَرٍ سَفَكُوا الدِّمَاءَ بِأَسِنَّةِ الْأَقْلَامِ
وَلَمْ شَقَّةً مِنْ كَاتِبٍ بِمَدَادِهِ أَمْضَى وَأَقْطَعُ مِنْ صَنِيعِ حُسَامِ

(١) الحشوة: رذال الناس.

وقال آخر أيضاً:

لَعَمْرُكَ مَا السَّيْفُ سَيْفُ الْكَمِيِّ
لَهُ غَايَةٌ إِنْ تَأَمَّلْتَهَا
أَدَاةُ الْمَنْيَّةِ فِي جَانِبَيْهِ
سِنَانُ الْمَنْيَّةِ فِي جَانِبِ
أَلَمِ تَرَفِي صَدْرِهِ كَالسَّانِ
فِيَجْرِي بِهِ الْكَفُّ فِي حَالَةٍ
وقال آخر أيضاً ملغزاً:

وَأَعْجَفَ رَجُلَاهُ فِي رَأْسِهِ
مَطَايَاهُ مِنْ تَحْتِهِ الْإِصْبَعَانِ
وقال آخر سامحه الله:

وَأَعْجَفَ مُنَشَقَّ الشَّبَابِ مُقْلَمٌ
إِذَا هُوَ أَضْحَى فِي الدَّوَاةِ فَأَعْجَمٌ
يُنَاجِي مَنَاجَاةً أَغْرَ مُرَزَّاً
وقال آخر رحمه الله:

لَكَ الْقَلَمُ الَّذِي لَمْ يَجِرْ يَوْمًا
وَمَبْتَسَمٌ عَنِ الْقِرْطَاسِ يَأْسُو
فَمَا الْمَقْدَادُ أَعْضَبَ مِنْ شَبَاهُ
وقال وأجاد:

أَحْسَنُ مِنْ غَفْلَةِ الرَّقِيبِ
وَالنَّعْمِ وَالنَّفْرِ مِنْ كَعَابِ
وَمِنْ بَنَاتِ الْكُرومِ رَاحاً
كَتَبُ أَدِيبٍ إِلَى أَدِيبِ
فَنَمَّقَتْ كَفُّهُ سَطُوراً
وَلَحَظَةُ الْوَعْدِ مِنْ حَبِيبِ
مُصِيبَةِ الْعُودِ وَالْقَضِيبِ
فِي رَاحَتَيَّ شَادِنِ رَبِيبِ
طَالَتْ بِهِ مَدَّةُ الْمَغِيبِ
تَنَمَّقُ الصَّبْرَ فِي الْقُلُوبِ

(١) لابن الرومي، ديوانه الورقة ١٦، وهي أيضاً في زهر الأدب ٤٣٢ مع اختلاف في الرواية.

(٢) القرا: الظهر.

تترك من سَطَرَتْ إِلَيْهِ أَطْرَبَ مِنْ عَاشِقٍ طَرُوبٍ
وقال آخر:

إذا استمدّت صرفت الطرفَ عن يدها خوفاً عليها لما أخشى من التُّهم
كأنما قَابِلَ القُرطاسِ إذ مَشَقَّتْ منها ثلاثة أَقلامٍ على قَلَمٍ^(١)

وقال أشجع في جعفر البرمكي:

إذا أَخَذْتَ أَنَامِلَهُ تَبَيَّنَ فَضْلُهُ الْقَلَمُ
تَطَاوَأَ كُلُّ مَرْتَفَعٍ لِفَضْلِ الْكُتُبِ مُذْ نَجَمَا
يَقْدَمُ وَيُؤَخَّرُ، أَرَادَ: إذا أَخَذْتَ أَنَامِلَهُ الْقَلَمُ تَبَيَّنَ فَضْلُهُ.



وفي الخطّ قال: نظر المأمون إلى مؤامرة بَخَطُ حَسَنَ، فقال: لله درّ القلم،
كيف يحوك وشي المملكة!

وقال يحيى بن خالد البرمكي: الخطُّ صورةٌ رُوحُها البيان، ويدها السُّرعة،
وقدماها التَّسوية، وجوارحُها معرفة الفصول.

وقال في مثله رحمه الله تعالى:

تَقُولُ وَقَدْ كَتَبْتَ دَقِيقَ خَطِّي فِدَيْتُكَ مِمَّ تَجْتَنِبُ الْجَلِيلَا
فَقُلْتُ لَهَا: نَحَلْتُ فَصَارَ خَطِّي دَقِيقاً مِثْلَ صَاحِبِهِ نَحِيلَا



وقال علي بن الجهم في صفة الكُتُبِ: إذا غَشَيْنِي الثُّعَاسُ فِي غَيْرِ وَقْتِ النَّوْمِ
تَنَاوَلْتُ كِتَاباً، فَأَجِدُ اهْتِزَازِي مِنَ الْفَوَائِدِ [التي] فِيهِ، وَالْأَرِيحِيَّةُ الَّتِي تَعْتَادُنِي
وَتَعْتَرِينِي مِنْ سُرُورِ الْاسْتِنْبَاهِ^(٢) وَعَزَّ التَّبْيِينُ؛ أَشَدَّ إِيقَظاً مِنْ نَهْيِ الْحِمَارِ، وَهَذِهِ
الْهَدْمُ^(٣). وَإِنِّي إِذَا اسْتَحْسَنْتُ كِتَاباً وَاسْتَجَدُّتُهُ رَجَوْتُ فِيهِ فَائِدَةً؛ فَلَوْ تَرَانِي سَاعَةً
بَعْدَ سَاعَةٍ أَنْظِرْكُمْ بَقِيَّ مِنْ وَرْقِهِ، مَخَافَةَ اسْتِنْفَادِهِ وَانْقِطَاعِ الْمَادَّةِ مِنْ قَبْلِهِ، وَإِنْ كَانَ
الْكِتَابُ عَظِيمَ الْحَجْمِ، وَكَانَ الْوَرَقُ كَبِيرَ الْقَدَرِ، [فَقَدْ تَمَّ عَيْشِي، وَعَظَمَ
سُرُورِي]^(٤).

(١) المشق: مد أحرف الكتابة.

(٢) الحيوان ١: ٥٢، «الاستبانة».

(٣) الهدم: الصوت.

(٤) تكملة من الحيوان ١: ٥٢.

وَذَكَرَ لَهُ الْعُثْبِيُّ كِتَاباً لِبَعْضِ الْقَدَمَاءِ، فَقَالَ: لَوْلَا طَوْلُهُ لَنَسَخْتُهُ؛ فَقَالَ: مَا رَغِبْتِي إِلَّا فِيمَا زَهَدْتَ عَنْهُ، وَمَا قَرَأْتَ كِتَاباً كَبِيراً فَأَخْلَانِي مِنْ فَائِدَةٍ، وَلَا أَحْصِي كَمْ قَرَأْتُ مِنْ صِغَارِ الْكُتُبِ فَخَرَجْتُ مِنْهَا كَمَا دَخَلْتُ فِيهَا^(١).

قَالَ ابْنُ دَاحَةَ: كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَا يَجَالِسُ النَّاسَ، وَنَزَلَ مَقْبَرَةً مِنَ الْمَقَابِرِ وَكَانَ لَا يَكَادُ يُرَى إِلَّا وَفِي يَدِهِ كِتَابٌ يَقْرَأُ فِيهِ^(٢)، فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ وَعَنْ نَزْوِلِهِ الْمَقْبَرَةَ، فَقَالَ: لَمْ أَرَأَوْعْظَ مِنْ قَبْرِ، وَلَا آتَسَّ مِنْ كِتَابٍ، وَلَا أَسْلَمَ مِنَ الْوَحْدَةِ^(٣).

وَقِيلَ لَابْنِ دَاحَةَ وَقَدْ أُخْرِجَ إِلَيْهِ كِتَابُ أَبِي الشَّيْمَقِ وَهُوَ فِي جُلُودِ كُوفِيَّةٍ، وَدَقَّتَيْنِ^(٤) طَائِفَتَيْنِ لَا بَخْطٌ عَجِيبٌ، فَقَالَ: لَقَدْ ضَيَّعَ دَرَاهِمَهُ صَاحِبُ هَذَا الْكِتَابِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ إِنَّ الْقَلَمَ لِيُعْطِيكُمْ مِثْلَ مَا تَعْطُونَهُ؛ وَلَوْ اسْتَطَعْتُ أَنْ أُوْدِعَهُ سُوَيْدَاءَ قَلْبِي وَأَجْعَلَهُ مَخْطُوطاً عَلَى نَازِئٍ لَفَعَلْتُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كُنْتُ عِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ، وَكُنْتُ أَكْتُبُ عَنْهُ بَعْضاً وَأَدْعُ بَعْضاً، فَقَالَ لِي: أَكْتُبْ كُلَّ مَا تَسْمَعُ، فَإِنْ أَحْسَسَ مَا تَسْمَعُ خَيْرٌ مِنْ مَكَانِهِ أَبْيَضَ. وَقِيلَ:

أَمَّا لَوْ أَعْيَى كُلَّ مَا أَسْمَعُ	وَأَحْفَظُ مِنْ ذَاكَ مَا أَجْمَعُ ^(٥)
وَلَمْ أَسْتَفِدْ غَيْرَ مَا قَدْ جَمَعْتُ	لَقِيلَ هُوَ الْعَالِمُ الْمُقْنَعُ ^(٦)
وَلَكِنْ نَفْسِي إِلَى كُلِّ نَوْ	عَ مِنَ الْعِلْمِ تَسْمَعُهُ تَنْزَعُ
فَلَا أَنَا أَحْفَظُ مَا قَدْ جَمَعْتُ	تُتْ، وَلَا أَنَا مِنْ جَمْعِهِ أَشْبَعُ ^(٧)
وَمَنْ يَكُ فِي عِلْمِهِ هَكَذَا	يُرَى ذَهْرُهُ الْقَهْقَرَى يَرْجَعُ
إِذَا لَمْ تَكُنْ حَافِظاً وَاعِياً	فَجَمْعُكَ لِلْكَتُبِ لَا يَنْفَعُ

(١) الحيوان ١: ٥٣، ٥٤.

(٢) الحيوان: «يقرؤه».

(٣) الحيوان ١: ٦٢؛ وذكر بعدها: «فَقِيلَ لَهُ: قَدْ جَاءَ فِي الْوَحْدَةِ مَا جَاءَ! فَقَالَ: مَا أَفْسَدَهَا لِلْجَاهِلِ، وَأَصْلَحَهَا لِلْعَاقِلِ».

(٤) فِي ك: «وورقتين طابقتين ما يخط»، وما أثبتته من الحيوان ١: ٦١.

(٥) محاسن الجاحظ ١٣، ونسبها إلى الأصمعي، والحيوان ١: ٥٩، ونسبها إلى محمد بن يسير.

(٦) الحيوان: «المصقع».

(٧) بعده في الحيوان:

وَأَخْصَرُ بِالْعِي فِي مَجْلِسِي وَعِلْمِي فِي الْكُتُبِ مُسْتَوْدَعُ

وقال بعضهم: الحفظ مع الإقلال أمكن، ومع الإكثار أبعد؛ وهو للطبائع مع رطوبة القضيبي أقبل.

ومنها قول الشاعر:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبي خالياً فتمكناً^(١)
وقيل التعلم في الصغر، كالنقش في الحجر؛ فسمع ذلك الأحنف فقال:
الكبير أكثر عقلاً، ولكنه أكثر شغلاً.

وكما قال:

وإن من أدبته في الصبا كالعود يسقى الماء في غرسه^(٢)
حتى تراه مورقاً ناضراً بعد الذي أبصرت من يبرسه
والصبي على الصبا أفهم، وله آلف، وإليه أنزع، وكذلك العالم على العلم،
والجاهل على الجهل، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾
[سورة الأنعام: ٩]؛ لأن الإنسان عن الإنسان أفهم، وطباعه بطباعه آنس، ومن
التقط كتاباً جامعاً كان له غنمه، وعلى مؤلفه غرمه، وكان له نفعه، وعلى
صاحبه كدّه، ومتى ظفر بمثله صاحب علم فهو وادع جام، ومؤلفه متعوب
مكدود، وقد كفي مؤونة جمعه وتبعه، وأغناه عن طول التفكير، واستنفاد
العمر، وكان عليه أن يجعل ذلك من التوفيق والتسديد إذا بالغ صاحبه في
تصنيفه، وأجاد في اختياره.

قال أبو هفان:

إذا آنس الناس ما يجمعون	أنست بما يجمع الدفتر
له وطري وله لذتي	على الكأس؛ والكأس لا تحصر
تدور على الشرب محمودة	لها المورد الخرق والمضد ^(٣)
يغنيهم ساحر المقلتين	كشمس الضحى طرفة أحور
وريحانهم طيب أخلاقهم	وعندهم الورد والعنبر ^(٤)
على أن هممتنا في الحروب	فتلك الصناعة والمتجر

(١) للمجنون، ديوانه ٢٨٣.

(٢) الحيوان ١: ٤٠، ٤١، ونسبهما إلى صالح بن عبد القدوس.

(٣) الخرق: الكريم.

(٤) ك: «المبقر».

قال: لَمَّا قَلَّتْهَا عَرْضُهَا عَلَى ابْنِ دِهْقَانَ، فَقَالَ: إِذَا سَمِعَ بِهَا الْخَلِيفَةُ اسْتَغْنَى بِهَا عَنِ النَّدَمَاءِ.

وَأَنشَدَ غَيْرُهُ:

نَعَمْ الْمَحَدَّثُ وَالرَفِيقُ كِتَابٌ تَلْهُو بِهِ إِنْ خَانَكَ الْأَصْحَابُ
لَا مَفْشِيًّا سِرًّا إِذَا اسْتَوْدَعْتَهُ وَتُنَالُ مِنْهُ حِكْمَةٌ وَصَوَابُ
وَقَالَ آخَرُ:

نَعَمْ الْجَلِيسُ بَعْقَبُ قَعْدَةِ ضَجْرَةٍ لِّلْمَلِكِ وَالْأَدْبَاءِ وَالْكِتَابِ
وَرَقٌّ تَضَمَّنَ مِنْ خُطُوطِ أَنْامِلٍ مَرَعَى مِنَ الْأَخْبَارِ وَالْآدَابِ
يَخْلُوبُهُ مَنْ مَلَّ مِنْ أَصْحَابِهِ فَيُقَالُ خَلَوْ، وَهُوَ فِي الْأَصْحَابِ
قال: وَأَنشَدَنَا أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ هَارُونَ بْنِ يَحْيَى النَّدِيمُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

إِذَا مَا خَلَوْتُ مِنَ الْمُؤَنَسِ
فَلَمْ أَخْلُ مِنْ شَاعِرٍ مُحَسِّنِ
وَمِنْ حِكْمٍ بَيْنَ أَثْنَائِهَا
وَإِنْ ضَاقَ صَدْرِي بِأَسْرَارِهِ
وَإِنْ صَرَخَ الشَّعْرُ بِاسْمِ الْحَبِيبِ
وَإِنْ عُذْتُ مِنْ ضَجْرَةٍ بِالْهَجَاءِ
فَنَادَيْتُ مِنْهُ كَرِيمَ الْمَغِيبِ
فَلَسْتُ أَرَى مُؤَثَّرًا مَا حَيِّتُ
وَقَالَ فِي الذَّهْنِ:

إِذَا مَا عَدْتُ طَلَّابَةَ الْعِلْمِ مَا لَهَا
عَدَوْتُ بِتَشْمِيرٍ وَجَدَّ عَلَيْهِمْ
وَقَالَ آخَرُ:

يَأْيُهَا الطَّالِبُ الْآدَابِ مَبْتَدِرًا
فَحَمْلُهَا أَدَبٌ تَحْوِي بِهِ أَدَبًا
وَلَيْسَ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِمَكْنًا قَلَمٌ
لَا تَسُهُ عَنْ حَمْلِكَ الْأَلْوَحَ لِلْأَدَبِ
وَسَوْفَ تَنْقُلُ مَا فِيهَا إِلَى الْكِتَابِ
وَدَفْتَرِيَا عَدِيمَ الْمِثْلِ فِي الْحَسَبِ



(١) المنذر: من يأتي بالنادر من القول أو الفعل، وفي ك: «مبدر» تحريف.

وكلُّ ما تقدّم ذكره من مناقب الكُتُب ووصفِ محاسنها؛ فهو دون ما يستحقّه كتابنا هذا؛ فقد اشتمل على محاسن الأخبار، وطرائف الآثار؛ وترجمناه بكتاب «المحاسن والمساوى»؛ لأن المصلحة في ابتداء أمر الدنيا إلى انقضاء مدّتها، امتزاج الخير بالشرّ، والضارّ بالنافع، والمكروه بالمحبوب؛ ولو كان الشرُّ صِرْفاً مَحْضاً لَهْلَكَ الخَلْق، ولو كان الخيرُ مَحْضاً لسقطت المحبّة، وتقطّعت أسباب الفِكرَة، ومتى بطل التخيّر، وذهب التميّز، لم يكن صبرٌ على مكروهه، ولا شكرٌ على محبوبه، ولا تعاملٌ ولا تنافس في درجة، وما توفيقنا إلا باللّهِ، وهو حسبنا ونعم الوكيل.



وافتحنا كتابنا هذا بذكر النبي ﷺ، وعلى آله وأصحابه الطيّبين الطاهرين الأبرار الأخيار، لِمَا رَجَوْنَا فِيهِ مِنَ الْفَضْلِ وَالْبَرَكَةِ، وَالْيُمْنِ وَالتَّوْفِيقِ. وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَإِخْوَتِهِ مِنَ النَّبِيِّينَ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ أَجْمَعِينَ.

محاسن رسول الله ﷺ

اختاره^(١) الله من خير أرومات^(٢) العرب عنصراً، ومن أعلى ذوائب قريش قرعاً، وأكرم عيدان قصي مجداً، ثم لم يزل بلطفه لنبيه ﷺ وآله، واختياره إياه بالآباء الأخير، والأمتها الطواهر؛ حتى أخرجه في خير زمان، وأفضل أوان. تفرع من شجرة باسقة الندى، شامخة العلا، عربية الأصل، قرشية الأهل، منافية الأعطان، هاشمية الأغصان، ثمرتها القرآن. تندى بماء ينابيع العلم، في رياض الجلم، لا يدوي عودها، ولا تجف ثمرتها، ولا يضل أهلها، أصلها ثابت، وفرعها نابت^(٣). فيا لها من شجرة ناضرة، خضراء ناعمة! غرست في جبل قفر، وبلد وعمر، محل ضرع غير ذي زرع؛ عند بيتك المحرم، وبلدك المكرم، فهو صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الأخيار كما قال بعض الحكماء: لئن كان سليمان عليه السلام أعطي الرّيح غدوها شهر ورواحها شهر؛ لقد أعطي نبينا ﷺ البراق الذي هو أسرع من الرّيح. ولئن كان موسى عليه السلام أعطي حجراً تتفجر منه اثنتا عشرة عيناً، لقد وضع أصابعه عليه وعلى آله السلام في الإناء والماء ينبع من بين أصابعه حتى ارتوى أصحابه رضي الله عنهم وما لهم من الخيل. ولقد كان رديف^(٤) عمه أبي طالب بذى المجاز^(٥)، فقال: يابن أخي قد عطشت، فقال: عطشت يا عم؟ قال: نعم، فثنى وركه فنزل، وضرب بقدمه الأرض، فخرج الماء، فقال: اشرب؛ فشرب حتى روي. ولئن كان عيسى عليه السلام أحيا النّفس بإذن الله، لقد رفع ﷺ ذراعاً إلى فيه فأخبرته أنها مسمومة، وكان ﷺ يخبر بما في الضمائر، وما يأكلون، وما يدخرون.

ثم دعاؤه المستجاب الذي لا تأخير فيه، وذلك أن النبي ﷺ، لما لقِيَ من

(١) ك: «اختار».

(٢) الأرومة، بفتح الهمزة وضمها: أصل الشجرة؛ وتستعار للحسب.

(٣) ك: «ثابت».

(٤) الرديف: «الراكب خلف الراكب».

(٥) ذو المجاز: موضع بعرفة؛ كان به سوق تقام ثمانية أيام في الجاهلية.

قريش والعرب من شدة أذاهم له، وتكذيبهم إيّاه، واستعانتهم عليه بالأموال، دعا أن تجذب^(١) بلادهم، وأن يدخل الفقر بيوتهم، فقال: «اللَّهُم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف. اللَّهُم اشدّد وطأتك^(٢) عَلَي مُضَرَّ». فأمسك الله عزّ وجلّ عنهم القطر حتى مات الشجر، وذهب الثمر، وقلت المراعي، فماتت المواشي، حتى اشتبوا القِدَّ^(٣)، وأكلوا العُلْهز^(٤)، فعند ذلك وفد حاجبُ بن زُرارة إلى كِسرى يشكو إليه الجهد والأزل^(٥)، ويستأذنه في رعي السّواد، وهو حين ضَمِنَ عن قومه وأرهنه قوسه^(٦). فلما أصاب مُضَرَّ خصاصة الجهد، ونهكهم الأزل، وبلغت الحجة مبلغها، وانتهت الموعظة منتهاها، دعا بفضله ﷺ الذي كان بدأهم به، فسأل ربّه عزّ وجلّ الخصب وإدراة الغيث^(٧)، فأناهم منه ما هدم بيوتهم، ومنعهم^(٨) حوائجهم، فكلّموه في ذلك، فقال: «اللَّهُم حوالينا ولا علينا»، فأمطر الله ما حوّلهم.

ودعا صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم على المستهزئين بكتاب الله عزّ وجلّ. وكانوا اثني عشر رجلاً، فكفاه الله جلّ اسمه أمرهم، فقال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾^(٩) [سورة الحجر: ٩٥].

وقصة عامر بن الطفيل ودعاؤه عليه^(١٠). وناطقه ﷺ ذئب، وأظلمت غمامة، وحنّ إليه عُود المنبر، وأطعم عسكراً من ثريدة^(١١) في جسم قطاة، وسقى عامراً، ووضاهم من ميضأة جسم صاع. ورسوخ قوائم فرس سُراقَة بن جُعشم^(١٢) في الأرض، وإطلاقه له بعد أن أخذ موثقته، ومريه ضرع شاة حائل^(١٣) فعادت كالحامل، والتزاق الصخرة بيد أربد، وما أراه الله عزّ وجلّ أبا جهل حين أهوى

(١) ك: «تخرب».

(٢) ك: «أوطانك»؛ والصواب ما أثبتته من الكامل ٢: ٨٢.

(٣) القد: السير يقد من الجلد غير مدبوغ. (٤) العلّهز: طعام من الدم والوبر.

(٥) الأزل: الشدة والجهد. (٦) أرهنه الشيء: جعله رهناً.

(٧) إدراة الغيث: غزارته وشدته. (٨) ك: «ومنعه».

(٩) والخبر في الكشف ٢: ٤٦.

(١٠) في خبر ذكره المبرد في الكامل ٤: ٣١، ٣٢؛ قال فيه: إن عامراً قال للنبي عليه السلام: لأغزونك على ألف أسقر وألف شقراء. فقال عليه السلام: «اللَّهُم إن لم تهد عامراً فاكفنيه»، ثم ذكر أن عامراً غدّ بعد ذلك ومات في ديار بني سلول بن صعصعة.

(١١) الثريدة: كسرة الخبز المبلولة بماء اللحم.

(١٢) ك: «جعثم»؛ والصواب ما أثبتته من القاموس.

(١٣) في الإحياء ٢: ٣٨٦ في فصل عن معجزاته ﷺ: «ومسح ضرع شاة حائل لا لبن لها».

بالصخرة نحو رأس رسول الله ﷺ وهو ساجد، فظهر له فحل ليلقم رأسه، فرمى بالصخرة، ورجع يشد إلى أصحابه، قد انتقع لونه، فقالوا له: ما بالك؟ فقال: رأيت فحلاً لم أر مثله، يريد هامتي.



وأما ما أراه الله أعداءه من الآيات فأكثر من أن يحصى.

منها ما رواه عبد الله بن وهب^(١) عن الليث بن سعد، قال: أتى أربد بن ربيعة وعامر بن الطفيل إلى رسول الله ﷺ، فقال أحدهما للآخر: أنا أشغلُه بالكلام حتى تقتله، فوقف أحدهما على النبي ﷺ، فلما طال عليه انصرف، فقال لصاحبه: ما صنعت شيئاً! قال: رأيت عنده شيئاً رجله في الأرض ورأسه في السماء، لو دنوت منه أهلكني، وأما أربد فأصابته صاعقة، وأنزل الله تعالى: ﴿لَكُم مَّعْقَبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [سورة الرعد: ١١]؛ وأما عامر فإنه قال لرسول الله ﷺ: لنا أهل الوبر، ولكم أهل المدر، فقال ﷺ: «لكم الأعتة»، فقال: لأملأنها خيلاً عليكم ورجلاً، فلما ولى قال رسول الله ﷺ: «اللهم اكفنيه»، فأخذته غدة فقتلته.

وعن محمد بن عبد الله، قال: بينا رسول الله ﷺ قائم يصلي، إذ رآه أبو جهل، فقال لنفر من قريش: لأذهبن فأقتلن محمداً، فدنا منه؛ قال: ورسول الله ﷺ قائم يصلي ويقرأ: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [سورة العلق: ١، ٢] حتى بلغ آخرها، فانصرف أبو جهل وهو يقول: هذا وأبيكم وعيد شديد، فلقي أصحابه فقالوا له: ما بالك لم تقتله! قال: والله إن بيني وبينه رجلاً له كتيبت^(٢) ككتيت الفحل يعدو بي يقول: أذن أذن.

وعن عبد الله، أن أعرابياً جاء بعُكَّة^(٣) من سمن، فاشتراها أبو جهل، فأمسك العُكَّة وأمسك الثمن، فشكاه الأعرابي إلى قريش فكلموه، فأبى عليهم، فقال بعض المستهزئين: يا أعرابي، أتحب أن تأخذ عُكَّتَكَ وثمانها؟ قال: بلى، قال: أترى هذا الرجل المار؟ ألقه فكلمه - يعني النبي ﷺ. فاتاه الأعرابي وشكا

(١) في ك: «وهب بن منه»؛ وهو خطأ؛ فوهب بن منه مات سنة ١١٠ على المشهور، والليث بن سعد مات سنة ١٧٥؛ ولعل الصواب ما أثبت؛ فالليث من شيوخ ابن وهب؛ والخبر في تفسير الطبري، برويه عن يونس عن ابن وهب. وانظر: تهذيب التهذيب ٨: ٤٥٩.

(٢) الكتيبت: أول هدر البكر.

(٣) العكة للسمن كالشكوة اللبن، وهي أصغر من القربة.

إليه أمر العُكَّة، فخرج ﷺ حتى وقف بباب أبي جهل فناده باسمه، فخرج إليه تُرعد فرائضه، فقال له: أد إلى هذا عُكَّتَه وثمرتها. فدخل أبو جهل، فدفَعَ إلى الرجل العُكَّة، فخرج الأعرابي إلى قريش وأخبرهم بذلك، ثم خرج أبو جهل، فقالت له قريش: كَلَمْنَاكَ أَنْ تُؤدِّيَ الأعرابيَّ حَقَّه فأبيت، ثم جاءك ابن عبد المطلب فدفعتَ إليه ذلك! فقال: إنَّ معه لَجَمَلًا فاتحاً فاه، ينظر ما أقول، فيلتقم رأسي، فما وجدتُ بداً مِنْ إعطائه حَقَّه.



وأما أنس الوحش به، فَمِمَّا حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ يَحْيَى بن محمد، عن سعيد بن سيف بن عمر، عن أبي عمير، عن الأسود قال: سأل رجل هند بن أبي هالة... (٢) فقال: حَدَّثَنَا بِأَعْجَبِ مَا رَأَيْتُ أَوْ بَلَّغَكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فقالت: كُلُّ أَمْرِهِ كَانَ عَجَبًا، وَأَعْجَبُ مَا رَأَيْتُ، أَنَّهُ كَانَ لِي رِبَابٌ وَحَش كُنْتُ أَنَسَ بِهِنَّ وَالْفُهْنَّ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُهُ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ عِنْدِي لَمْ يَزَلْنَ قِيَامًا صَوَافَّ يَنْظُرْنَ إِلَيْهِ، وَلَا يُلْهِيهِنَّ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِ شَيْءٌ، وَلَا يَنْظُرْنَ إِلَى غَيْرِهِ، فَإِذَا شَخَصَ قَائِمًا سَمَوْنَ إِلَيْهِ بِأَبْصَارِهِنَّ، فَإِذَا انْطَلَقَ مُوَلِّيًا لَاحِظْنَهُ النَّظَرَ، فَإِذَا غَابَ شَخَصَهُ عَنْهُنَّ ضَرِبْنَ بِأَذَانِهِنَّ وَأَذَانَهُنَّ، وَكَانَ ذَلِكَ يُعْجِبُنِي.

وعن عبد الملك بن عُمَيْر، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِظُبْيَةٍ عِنْدَ قَانِصٍ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ ضَرْعِي قَدْ امْتَلَأَ، وَتَرَكْتُ خِشْفَيْنِ (٣) جَائِعَيْنِ، فَخَلَّنِي حَتَّى أَذْهَبَ وَأُرْوِيهِمَا، ثُمَّ أَعُودَ إِلَيْكَ فَتَرْبِطَنِي، فَقَالَ: «صِيدِ قَوْمَ وَرَبِيطْتُهُمْ»، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنِّي أُعْطِيكَ عَهْدَ اللَّهِ لَأَرْجِعَنَّ، فَأَخَذَ عَلَيْهَا عَهْدَ اللَّهِ، ثُمَّ أَطْلَقَهَا وَأَرْسَلَهَا، فَمَا لَبِثَتْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى جَاءَتْ وَقَدْ فَرَّغَتْ مَا فِي ضَرْعِهَا، فَقَالَ ﷺ: «لَمَنْ هَذِهِ الظُّبْيَةُ؟» قَالُوا: لِفُلَانٍ، فَاسْتَوْهَبَهَا مِنْهُ، ثُمَّ خَلَّى سَبِيلَهَا، وَقَالَ: «لَوْ أَنَّ الْبَهَائِمَ تَعْلَمُ مَا تَعْلَمُونَ مِنَ الْمَوْتِ، مَا أَكَلْتُمْ سَمِينًا» (٤).



(١) ك: «بنت»، تصحيف؛ وهند بن أبي هالة التميمي، ربيب النبي ﷺ، أمه خديجة. وانظر: الإصابة ٣: ٥٧٨.

(٢) بياض بالأصل، والحديث بما يقرب من هذه الرواية نقله صاحب إمتاع الأسماع (٣: ٦٢٧- مصورة دار الكتب المصرية) عن عائشة من عدة طرق.

(٣) الخشف: ولد الظبية أول ما يولد.

(٤) ك: «سمناً».

وأما محاسن شهادات السَّبَّاح له بالنبوة، فمن ذلك ما رُوي أن أبا سفيان بن حرب وصفوا بن أمية، خرجا من مكة، فإذا هما بذئب يكُدُّ ظبيةً؛ حتى إنَّ نفسه كاد أن يبلغ ظهر الظبية أو شبيهاً بذلك، إذ دخل الطَّبِيُّ الحرم، فرجع الذئب، فقال أبو سفيان: ما أرضُ سكَّنها قوم أفضل من أرض أسكنها الله إيانا؛ أما رأيت ما صنع الذئب! أعجب منه حين رجع! فقال الذئب: أعجب من ذلك محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بالمدينة، يدعوكم إلى الجنة، وتدعونه إلى النار. فقال أبو سفيان: واللَّات والعُزَّى، لئن ذكرت ذلك بمكة لتركها خلواً!

وذكروا أن رافع بن عميرة بن جابر كان يرعى غنماً، إذ غار الذئب عليها، فاحتَمَلَ أعظمَ شاةٍ منها، فشدَّ عليه رافعٌ ليأخذها منه، وقال: عجباً للذئب يَحْتَمِلُ ما حَمَلَ! قال: فأفَعَى الذئب غيرَ بعيد؛ وقال: أعَجَبُ منه أنت! أخذت مِنِّي رزقاً رَزَقْنِيه الله تعالى؛ فقال رافع: يا عجباً للذئب يتكَلَّم! فقال الذئب: أعجب من ذلك، الخارج من تِهامة يدعوكم إلى الجنة، وتَأْبُونَ إِلَّا دخولَ النار! فأقبل الرجلُ إلى النبي ﷺ، وقد جاءه جبريل عليه السلام فأنبأه بما كان؛ فقصَّ النبي ﷺ ما كان، فأَمَنَ وصدَّق، وقال^(١):

رَعَيْتُ الضَّأْنَ أَحْمِيهَا بِنَفْسِي	من اللَّصِّ الْخَفِيِّ وَكُلِّ ذِيبٍ ^(٢)
فَلَمَّا أَنْ رَأَيْتُ الذَّئْبَ يَعْوِي ^(٣)	وَبَشَّرَنِي بِأَحْمَدَ مِنْ قَرِيبٍ
يُبَشِّرُنِي بِدِينِ الْحَقِّ حَتَّى	تَبَيَّنَتِ الشَّرِيعَةُ لِلْمَنِيبِ
رَجَعْتُ لَهُ وَقَدْ شَمَّرْتُ ثَوْبِي	عَنِ الْكَعْبَيْنِ مَعْتَمِداً رُكُوبِي ^(٤)
فَأَلْفَيْتُ النَّبِيَّ يَقُولُ قَوْلًا	صَوَابًا لَيْسَ بِالْقَوْلِ الْكَذُوبِ
أَلَا أَبْلُغُ بَنِي عَمْرٍو بِنَ عَوْفٍ	وَأُخْتَهُمُ جَدِيلَةً أَنْ أَجِيبِي
دُعَاءَ الْمُصْطَفَى لَا شَكَّ فِيهِ	فَإِنَّكَ إِنْ تُجِيبِي لَا تَخِيبِي



ومن محاسن رسول الله ﷺ وبركته، ما رواه محمد بنُ إسحاق، عن سعيد بن ميناء، عن جابر بن عبد الله قال: عملنا مع رسول الله ﷺ في الخندق، وكانت عندي شُوَيْهَةٌ غَيْرَ سَمِينَةٍ، فقلت: والله لو صنعتُ هذه الشاة لرسول الله ﷺ! قال: فأمرت امرأتِي، فطحنَتْ شيئاً من شعير، فصنعت له منه خبزاً، وذبحت الشاة،

(١) الاستيعاب ١٧٥.

(٢) الاستيعاب: «من اللصت»، واللس واللصت سواء.

(٣) الاستيعاب: «فلما أن سمعت».

(٤) الاستيعاب: «على الساقين قاصرة الركيب».

فشويتها، فلما أمسينا، وأراد رسول الله ﷺ الانصراف، قلت: يا رسول الله، إني صنعت لك شويهة وشيئا من خبز الشعير، وأحب أن تنصرف معي إلى منزلي - وإنما أريد أن ينصرف معي رسول الله ﷺ وحده - فلما قلت له ذلك. قال: نعم، ثم أمر بصارخ فصرخ: «انصرفوا إلى بيت جابر»، فقلت: «إنا لله وإنا إليه راجعون»! وأقبل رسول الله ﷺ والناس معه، فأخرجتها إليه، فسمي ثم أكل وتواردها الناس، كلما فرغ قوم قاموا وجاء قوم حتى صدر أهل الخندق عنها.

وروي عن محمد بن إسحاق أن ابنة لبشير بن سعد، قالت: دعيتي أمي عمرة ابنة رواحة فأعطتني حَفَنَةً تَمُر في ثوبي وقالت: يا بُنَيَّة، اذهبي إلى أبيك بهذا. قالت: فأخذتها وانطلقت بها، فمررت برسول الله ﷺ وأنا أتمس أبي. فقال عليه الصلاة والسلام: «تعالني يا بُنَيَّة، ما هذا معك؟» قلت: تمر بعثت به أمي إلى أبي بشير بن سعد، فقال: «هاتي به». فصبيته في كَفِّي رسول الله ﷺ فما ملائتهما، ثم أمر بثوب فَبَسِط، ثم دَحَا^(١) التمر عليه فتبدد فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده: «ناد في أهل الخندق، أن هلموا إلى الغداء». فاجتمع أهل الخندق عليه، فجعلوا يأكلون منه، وجعل هو يزداد حتى صدر أهل الخندق عنه وهو يسقط من أطراف الثوب^(٢).



ومن آياته ﷺ ما لا يعرفها إلا الخاصة، وهي محاسن أخلاقه وأفعاله التي لم تجتمع لبشر من قبله، ولا تجتمع لأحد من بعده؛ وذلك أنا لم نر، ولم نسمع لأحد قط صبره وحلمه^(٣)، ووفاءه وزهده، وجوده ونجدته وصدق لهجته وكرم عشيرته، وتواضعه، وعلمه وحفظه، وصمته إذا صمت، ونطقه إذا نطق، ولا كعفوه وقلة امتنانه. ولم نجد شجاعاً قط إلا وقد فر؛ مثل؛ عامر فر عن أخيه الحكم يوم الرِّقَم^(٤)، وعيينة فر عن أبيه يوم نِسار^(٥)، وبسطام عن قومه يوم العُطالي^(٦).



(١) دحاه: بسطه.

(٢) سيرة ابن هشام ٣: ٢٣٣، مع اختلاف في الرواية.

(٣) «وحمله».

(٤) يوم الرق، لغطفان على بني عامر، والرقم: جبال دون مكة.

(٥) لضبة وتميم على بني عامر، والنسار: جبال صغار.

(٦) ذكره ياقوت، وقال: «وفر بسطام بن قيس الشيباني في هذا اليوم، فقال فيه ابن حوشب:

فإن بك في يوم الغبيط ملامّة فيوم العُطالي كان أخزى وألومًا
وفر أبوا الصهباء إذ حبس الوغى وألقى بأبذان السلاح وسلّمًا

وكان له ﷺ وقائع، مثل أحد وحُنين وغيرهما، فلا يستطيع منافق أن يقول: هابَ حَرْباً أو خاف.



وأما زهده ﷺ، فإنه مَلَكَ من أقصى اليمن إلى شِخْرِ عُمان، إلى أقصى الحجاز، إلى عِذار^(١) العراق، ثم توفّي ﷺ وعليه دَيْن، وِدْرَعُه^(٢) مرهون في ثمن طعام أهله، لم يَبْنِ داراً، ولا شَيْدَ قصرًا، ولا غرس نخلاً، ولا شَقَّ نهرًا، ولا استنبت عينا. واعتبر بُرْدِيهِ اللّذين كان يلبسهما، وخاتمه.

وكان ﷺ يأكل على الأرض، ويلبس العَبَاءَ، ويجالس الفقراء، ويمشي في الأسواق، ويتوسّد يده، ولا يأكل متكثراً، ويقتص من نفسه.

وكان ﷺ يقول: «إنما أنا عبد أَكُلُ كما يأكل العبد، وأشرب كما يشرب، ولو دُعيت إلى ذراع لأَجَبْتُ، ولو أُهْدِي إليّ كُرَاع^(٣) لَقَبَلْتُ».

ولم يأكل قطّ وحده، ولا ضرب عبده، ولم يُر عليه الصلاة والسلام أدار رجله بين يدي أحدٍ، ولا أخذ بيده أحدٌ فانتزع يده من يده؛ حتى يكون الرجل هو الذي يُرسلها.



وأما كرمه ﷺ في فتح مكّة، وقد قتلوا أعمامه ورجاله وأولياءه وأنصاره، وآذوه وأرادوا نفسه، فكان يتلقّى السّفَه بالحلم، والأذى بالاحتمال، وكان متى كان [لهم] أكرم وعندهم أصفح، كانوا الأُم وعليه الح. والعجب أنهم كانوا أحلَمَ جيل إلا فيما بينهم وبينه، فإنهم كانوا إذا ساروا إليه أفحشوا عليه، وأفرطوا في السّفَه، ورمّوه بالفَرث والدماء، وألقوا على طريقه الشوك، وحثّوا في وجهه التراب، وكان لا يتولّى هذا منه إلا العظماء والأخوال والأعمام، والأقرب فالأقرب، فإذا كانوا كذلك كانَ أشدَّ للغِيظ، وأثَبَّت للحِفْد؛ فلما دخل عليه السلام مكّة قام فيهم خطيباً، فحمد الله عزّ وجلّ وأثنى عليه، ثم قال: أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [سورة يوسف: ٩٢].



(١) عذار: موضع بين الكوفة والبصرة.

(٢) الدرع: ثوب ينسج من زرد الحديد يلبس في الحرب؛ يذكر ويؤنث.

(٣) الكراع: ما دون الركبة من الساق.

وأما محاسن قوله الحق، فإنه ذكر زيد بن صُوحان فقال: «زيد وما زيد! يَسْبِقُهُ عضو منه إلى الجنة»، فَقُطِعَتْ يَدُهُ يَوْمَ نَهَاوْنُدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ^(١).

ووعَد أصحابه بيضاءَ إصْطَخَر، وبيضاء المدائن، وقال لعدي بن حاتم: «لا يَمْنَعُكَ ما ترى - يعني ضَعَفَ أصحابه وَجَهَدَهُمْ - فَكَأَنَّهُمْ بِيَضَاءِ الْمَدَائِنِ قَدْ فُتِحَتْ عَلَيْهِمْ، وَكَأَنَّهُمْ بِالظَّعِينَةِ تَخْرُجُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَأْتِيَ مَكَّةَ بِغَيْرِ خَفِيرٍ^(٢)»؛ فَأَبْصَرَ ذَلِكَ كُلَّهُ عَدِي^(٣).

وقال لعمَّار بن ياسر: «تَقْتُلُكَ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ»، فكان كما قال؛ حتى قال معاوية: إنما قَتَلَهُ مِنْ أَخْرَجَهُ.

وَضَلَّتْ نَاقَتُهُ ﷺ، فَأَقْبَلَ يَسْأَلُ عَنْهَا، فَقَالَ الْمَنَافِقُونَ: هَذَا مُحَمَّدٌ يُخْبِرُنَا عَنْ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَهُوَ لَا يَدْرِي أَيُّ نَاقَتِهِ! فَصَعِدَ الْمَنْبَرَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ رَجُلًا يَقُولُ فِي بَيْتِهِ: إِنَّ مُحَمَّدًا يُخْبِرُنَا عَنْ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَهُوَ لَا يَدْرِي أَيْنَ نَاقَتُهُ! أَلَا وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ إِلَّا مَا عَلَّمَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، وَقَدْ أَخْبَرَنِي أَنَّهَا فِي وَادِي كَذَا وَكَذَا، تَعْلَقُ زِمَامُهَا بِشَجَرَةٍ». فَبَادَرَ النَّاسُ إِلَيْهَا، وَفِيهِمْ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ وَزَيْدُ بْنُ لَصِيبٍ^(٤)، فَإِذَا هِيَ كَذَلِكَ^(٥).

ولما استأمن أبو سفيان بن حرب إليه عليه الصلاة والسلام، أمر^(٦) عَمَّهُ الْعَبَّاسَ أَنْ يَأْخُذَهُ إِلَى خِيْمَتِهِ حَتَّى يَصْبَحَ، فَلَمَّا صَارَ فِي قَبَّةِ الْعَبَّاسِ نَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، وَقَالَ فِي نَفْسِهِ: مَا صَنَعْتُ! دَفَعْتُ بِيَدِي هَكَذَا؛ أَلَا كُنْتُ أَجْمَعُ جَمْعًا مِنَ الْأَحَابِيشِ^(٧) وَكَنَانَةَ وَأَلْقَاهُ بِهِمْ، فَلَعَلِّي كُنْتُ أَهْزِمُهُ! فَنَادَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ خِيْمَتِهِ: إِذَا كَانَ اللَّهُ يَخْزِيكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ! فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَا عَبَّاسُ، أَدْخَلَنِي عَلَى

(١) الخبر كما في الاستيعاب ١٩٢: «روي من وجوه؛ أن النبي ﷺ. كان في مسيرة له، فبينما هو يسير؛ إذ هوم؛ فجعل يقول: زيد، وما زيد! جندب وما جندب! فسئل عن ذلك فقال: رجلان من أمتي؛ أما أحدهما فتسبقه يده - أو قال بعض جسده - إلى الجنة، يتبعه سائر جسده، وأما الآخر فيضرب ضربة يفرق بها بين الحق والباطل». قال ابن عبد البر: أصيبت يد زيد يوم جلولا ثم قتل مع علي رضي الله عنه يوم الجمل».

(٢) ك: «حقير»، تصحيف، وفي الإصابة: «بغير جوار».

(٣) وانظر: الخبر برواية أخرى في الإصابة ٢: ٤٦١.

(٤) لصيب: ضبطه ابن حجر في الإصابة، بلام مهملة ومثناة مصغراً.

(٥) الخبر في الإصابة ١: ٥٥٤.

(٦) ك: «أتى».

(٧) أحابيش قريش؛ سموا بذلك لأنهم تحالفوا بالله أنهم ليد على غيرهم؛ ما سجا ليل، ووضح نهار، وما رسا حبشي. وحبشي: جبل بأسفل مكة.

ابن أخيك، فقال له العباس: ويلك، يا أبا سفيان! ما آن لك ذلك! فأدخله على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، قد كان في النفس شيء؛ وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله حقاً!

وقوله ﷺ لما يكون من بعده؛ مما حدث به محمد بن عبد الرحمن بن أذينة، عن سليمان بن قيس، عن سلمان بن عامر، عن سلمان الفارسي، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني رأيت على منبري هذا اثني عشر رجلاً من قريش يخطب كلهم: رجلان من ولد حرب بن أمية، وعشرة من ولد أبي العاص بن أمية»، ثم التفت إلى العباس، وقال: «هلاكم على يدي ولدك».



وأما جماله وبهاؤه ومحاسن ولادته ﷺ، فما روي عن عثمان بن أبي العاص، قال: أخبرتني أمي أنها حضرت أمانة أم النبي ﷺ لما ضربها المخاض، قالت: جعلت أنظر إلى النجوم تتدلى حتى قلت: لتقعن عليّ؛ فلما وضعته خرج منها نور أضاء له البيت والدار، حتى صرت لا أرى إلا نوراً. قالت: وسمعت أمانة تقول: لقد رأيت وهو في بطني أنه خرج مني نور أضاء له قصور الشام، ثم ولد ﷺ، فخرج معتمداً على يديه، رافعاً رأسه إلى السماء كأنه يخطب أو يخاطب.

وروي عن أنس بن مالك، قال: كان رسول الله ﷺ أشجع الناس، وأحسن الناس، وأجود الناس، ما مسست بيدي ديباجاً ولا حريراً ولا خزاً، ألين من كف رسول الله ﷺ.

وعن جابر بن سمرة، قال: رأيت رسول الله ﷺ في ليلة البدر وعليه حلة حمراء، فجعلت أنظر إليه وإلى القمر، فلهو أحسن في عيني من القمر.

وعن جابر بن زيد، عن أبيه، قال: أتيت النبي ﷺ في مسجد الخيف^(١)، فناولني يده، فإذا هي أطيب من المسك، وأبرد من الثلج.

[ومن]^(٢) فضله الذي أبر به على جميع الخلائق ومحاسنه ما روي عن وهب بن منبه أنه قال: لما خلق الله عز وجل الأرض ارتجت واضطربت، فكتب في أطرافها: «محمد رسول الله»؛ فسكنت.



(١) الخيف: موضع في منى.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

[وَأَمَّا] ^(١) عَقْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عَقُولَ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي جَنْبِ عَقْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَرَمَلَةٌ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ رَمَالِ الدُّنْيَا.



وَمِنْ مَحَاسِنِهِ ﷺ الْإِسْرَاءُ، وَهُوَ مَا رُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ أَبِي الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - يَرْفَعُهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنِّي لَنَائِمٌ فِي الْحِجْرِ إِذَا جَاءَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَعَمَزَنِي ^(٢) بِرِجْلِهِ، فَجَلَسْتُ فَلَمْ أَرْ شَيْئًا، ثُمَّ عَدْتُ لِمُضْجَعِي، فَجَاءَنِي الثَّانِيَةُ فَعَمَزَنِي، فَجَلَسْتُ وَأَخَذَ بَعْضُي، فَخَرَجَ بِي إِلَى بَابِ الصَّفَا، وَإِذَا أَنَا بِدَابَّةٍ أَبْيَضَ بَيْنَ الْحِمَارِ وَالْبَعْلِ، لَهُ جَنَاحَانِ فِي فَخْذَيْهِ، يَضَعُ حَافِرَهُ مَتْنَهَى طَرَفِهِ، فَقَالَ لِي جَبْرِيلُ: ارْكَبْ يَا مُحَمَّدُ، فَدَنَوْتُ إِلَيْهِ لِارْكَبَ، فَتَنَحَّيْتُ عَنِّي، فَقَالَ لَهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا بَرَّاقُ مَا لَكَ! فَوَاللَّهِ مَا رَكِبَكَ خَيْرٌ مِنْهُ قَطُّ. فَارْكَبْتُ وَخَرَجْتُ وَمَعِيَ صَاحِبِي لَا أَفُوتُهُ وَلَا يَفُوتُنِي؛ حَتَّى انْتَهَى بِي إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ. فَوَجَدْتُ فِيهِ نَفَرًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَدْ جُمِعُوا لِي، فَأَمَمْتُهُمْ، ثُمَّ أُتِيََتْ بِإِنَاءَيْنِ مِنْ خَمْرٍ وَلَبَنٍ فَتَنَاوَلْتُ اللَّبَنَ وَشَرِبْتُ مِنْهُ وَتَرَكْتُ الْخَمْرَ. فَقَالَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: هُدَيْتَ وَهُدَيْتَ أَمَّتُكَ، وَحُرِّمْتَ عَلَيْهِمُ الْخَمْرَ. ثُمَّ أَصْبَحْتَ بِمَكَّةَ. قَالَ: فَلَمَّا ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَلِكَ، ارْتَدَّ كَثِيرٌ مِمَّنْ كَانَ آمَنَ بِهِ، وَقَالُوا: سَبَحَانَ اللَّهِ! أَذْهَبَ مُحَمَّدٌ إِلَى الشَّامِ فِي سَاعَةٍ مِنَ اللَّيْلِ ثُمَّ رَجَعَ وَالْعِيرُ تَطْرُدُ شَهْرًا مَدْبِرَةً وَشَهْرًا مُقْبِلَةً! فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَأَقْبَلَ حَتَّى جَلَسَ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا يَقُولُ هَؤُلَاءِ! يَزْعُمُونَ أَنَّكَ حَدَّثْتَهُمْ بِأَنَّكَ قَدْ أُتِيَْتَ الشَّامُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ وَرَجَعْتَ مِنْ لَيْلَتِكَ؛ قَالَ: قَدْ كَانَ ذَلِكَ؛ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ فَصَفَ لِي الْمَسْجِدَ، قَالَ: فَجَعَلْتُ أَصْفُهُ لِأَبِي بَكْرٍ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ. فَكَلَّمَا حَدَّثْتَهُ عَنْ شَيْءٍ قَالَ: صَدَقْتَ. أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ! حَتَّى فَرَعْتُ مِنْ صِفَتِهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ: «فَأَنْتَ الصَّدِيقُ يَا أَبَا بَكْرٍ!»

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) في ابن هشام: «فهمزني».

محاسن المعراج

عبد بن^(١) سلمان، عن سعيد بن أبي عروبة^(٢)، عن قتادة، عن أنس بن مالك، قال: أخبرنا نبيُّ الله ﷺ، قال: بينا أنا بين اليقظان والنائم عند البيت؛ إذ سمعتُ قائلاً يقول: أحدُ الثلاثة بين الرجلين. فانطلق بي فشرح صدري، واستخرج قلبي، ثم أتيتُ بطست من ذهب؛ فيه من ماء زمزم، فغُسل به، ثم أُعيد مكانه، وحُشي إيماناً وحكمة، ثم أتيتُ بدابة فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند أقصى طرفه. فحملتُ عليه، فانطلقنا حتى أتينا السماء الدنيا، فاستفتح جبريلُ، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل؛ قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: نعم؛ ففتح لنا، قالوا: مرحباً به! ولنعم المجيء جاء! فأتيتُ على آدم، فقلتُ له: يا جبريل، مَنْ هذا؟ قال: هذا أبوك آدم، فسَلَّمْتُ عليه، فقال: مرحباً بالابن الصالح والنبّي الصالح! وانطلقنا حتى أتينا السماء الثانية، فاستفتح جبريل عليه السلام، فقيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريل؛ قيل: ومن معك؟ قال: محمد؛ قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: نعم. ففتح لنا؛ وقالوا: مرحباً به؛ ولنعم المجيء جاء! فأتيتُ على يحيى وعيسى، فقلت: يا جبريل، من هذان؟ قال عيسى ويحيى؛ قال: فسَلَّمْتُ عليهما. فقالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبّي الصالح! ثم انطلقنا حتى أتينا السماء الثالثة؛ فكان مثل قولهم الأول. فأتيتُ على يوسف فسَلَّمْتُ عليه فقال: مرحباً بالأخ الصالح والنبّي الصالح! ثم انطلقنا حتى أتينا السماء الرابعة، فأتيتُ على إدريس عليه السلام. فسَلَّمْتُ عليه، فقال: مرحباً بالأخ الصالح والنبّي الصالح! ثم أتينا السماء الخامسة. فأتيتُ على هارون، فسَلَّمْتُ عليه، فقال مثل ذلك؛ ثم أتينا السماء السادسة، فأتيتُ على موسى عليه السلام، فقال مثل ذلك. ثم أتينا السماء السابعة فأتيتُ على إبراهيم عليه وعلى آله السلام، فقال: مرحباً بالابن الصالح والنبّي الصالح! ثم رُفِعَ لنا البيت المعمور، فقلت: يا جبريل، ما

(١) ل، «ابن أبي سليمان»، والصواب ما أثبتته من ك؛ وانظر: ترجمته في طبقات الحفاظ ١: ٢٨٦.

(٢) ورد الاسم في الأصلين مصحفاً، والصواب ما أثبتته؛ وانظر: ترجمته في طبقات الحفاظ ١:

هذا؟ قال: البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك. إذا خرجوا منه لا يعودون فيه. ثم رُفِعَتْ لَنَا سِدْرَةُ الْمُتْنَهَى. فإذا أربعة أنهار يخرجون من أسفلها، فقلتُ: يا جبريل، ما هذه الأنهار؟ قال: أما النهران الظاهران؛ فالنيل والفرات. وأما الباطنان فنهران في الجنة، ثم أُتِيَتْ بِإِنَاءَيْنِ مِنْ خَمْرٍ وَلَبَنٍ، فاخترت اللبن، فقيل لي: أصبت! أصاب الله بك أمتك على الفطرة. وفرضت عليّ خمسون صلاة. فأقبلت بها حتى أتيت على موسى عليه السلام، فقال: بِمَ أُمِرْتَ؟ قلت: بخمسين صلاة كل يوم، قال: أمتك لا يطيقون ذلك؛ فإني قد بلوت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشدَّ المعالجة؛ فارجع إلى ربك عز وجل فاسأله التخفيف؛ قال: فرجعت إلى ربي؛ فحطَّ عني خمسا. فأتيت على موسى عليه السلام فقال: بِمَ أُمِرْتَ؟ فأنبأته بما حطَّ عني، فقال مثل مقالته الأولى. فما زلتُ بين يدي ربي عز وجل أستحيط حتى رجعت إلى خمس صلوات. فأتيت على موسى عليه السلام فقال: بِمَ أُمِرْتَ؟ فقلت: بخمس صلوات كل يوم، قال: أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك جل ذكره واسأله التخفيف؛ فقلت: لقد رجعت إلى ربي تبارك وتعالى حتى استحييت، لا ولكني أرضى وأسلم، فلما جاوزتُ نوديت: إني قد خففتُ عن عبادي وأمضيت فريضتي، وجعلتُ بكلِّ حسنةٍ عشرةً أمثالها.



وانظر إلى رَوْنَقِ أَلْفَاظِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَصَحَّةِ مَعَانِيهِ وَمَوْضِعِ ذَلِكَ مِنَ الْقُلُوبِ، مَعَ قَلَّةِ تَعَمُّقِهِ وَبُعْدِهِ مِنَ التَّكَلُّفِ، كَقَوْلِهِ ﷺ: «رُؤِيتَ لِي الْأَرْضُ؛ فَأَرِيتُ مُشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَسَيَّلْتَ لِي أُمَّتِي مَا رُؤِيَ لِي مِنْهَا»^(١). قوله: «رؤيت»: جُمِعَتْ.

ومثله: «إِنَّ الْمَسْجِدَ لَيَنْزَوِي مِنَ الثُّخَامَةِ كَمَا تَنْزَوِي الْجِلْدَةُ فِي النَّارِ»^(٢). ولا يكون الانزواء إلا بانحراف مع تقبُّص. وقال: «إِنَّ مِنْبِرِي هَذَا عَلَى تَرْعَةٍ مِنْ تَرْعِ الْجَنَّةِ»^(٣). «وهي لروضة تكون في المكان المرتفع».

(١) ابن ماجه ٢: ١٣٠٤، واللسان ١٩: ٨٣، والنهاية ٢: ١٣٥ مع اختلاف في الروايات.

(٢) النهاية ٢: ١٣٥، وقال في شرحه: «أَي يَنْضُم وَيَنْقَبِضُ، وَقِيلَ أَهْلُ الْمَسْجِدِ وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ».

(٣) النهاية ١، ١١٣، ونقل عن ابن قتيبة: «معناه أن الصلاة والذكر في هذا الموضوع يؤديان إلى الجنة؛ فكأنه قطعة منها».

وقال «إِنَّ قَرِيشًا قَالَتْ: إِنِّي صُنْبُورٌ^(١)». وهي النخل تَبَقَّى منفردة وَيَدِقُّ أَصْلُهَا، تقول: إنه قَرْدٌ ليس له ولد، فإذا مات انقطع ذكره.

وقال في أبي بكر رضي الله عنه: «ما أَحَدٌ من الناس عَرَضْتُ عليه الإسلام إِلَّا كانت له كَبُوةٌ غير أبي بكر فإنه لم يَتَلَعَّمْ»^(٢). أي لَمْ يَنْتَظِرْ وَلَمْ يَمُكِّثْ، وَالْكَبُوةُ مِثْلُ الوقعة.

وقال في عمر رحمه الله: «لَمْ أَرْ عَبْقَرِيًّا يَفْرِي فَرِيَّهُ»^(٣). والعبقري: السيد، يقال: هذا عبقريٌّ قومه؛ أي سيدهم. ويفري فريه، أي يَعْمَلْ عَمَلَهُ.

وقال في علي بن أبي طالب رضوان الله عليه: «إِنَّ لَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ، وَإِنَّكَ ذُو قَرْئِنِهَا». يريد أنه ذو طَرْفَيْهَا.

وقال في الحسين بن علي رحمه الله، حين بال عليه وهو طفل، فَأَخَذَ مِنْ حَجَرِهِ: «لَا تُزْرِمُوا ابْنِي»^(٤).

الإزرام: الْقَطْعُ، يقال للرجل يقطع بوله: أَزْرَمَ.

وقال في الأنصار: «إِنَّهُمْ كَرِشِي وَعَيْبَتِي، وَلَوْ لَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأَةً مِنْهُمْ»^(٥).

أي من الأنصار. الكَرِش: الجماعة. والعيبة، أي هم موضع سِرِّي، ومنه أَخَذْتُ الْعَيْبَةَ.

وقال ﷺ: «لَعَنَ اللَّهُ النَّامِصَةَ وَالْمَتَنِّصَةَ، وَالْوَاشِرَةَ وَالْمُوتِشِرَةَ، وَالْوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ»^(٦)، والواشمة والموتشمة»^(٧).

فالنَّامِصَةُ: التي تنتف الشعر من الوجه، ومنه قيل للمِنْقَاشِ المِنْمَاصِ. والمَتَنِّصَةُ التي يُفْعَلُ بها ذلك. والواشِرَةُ: التي تشر أسنانها، وذلك أَنَّهَا تَفْلَجُهَا. وتحددها حتى يكون لها أُشْرٌ؛ والأشُر: تحدُّدٌ وَرِقَّةٌ في أطراف الأسنان. [والموتشرة: التي تأمر من يفعل بها ذلك]^(٨)، والواصلة: التي تصل شعرها بشعر

(١) النهاية ٣: ٢، وقال في شرحه: «وأصل الصنبور سعة تنبت في جذع النخلة لا في الأرض. وقيل: هي النخلة المنفردة التي يدق أسفلها، أرادوا أنه إذا قلع انقطع ذكره؛ كما يذهب أثر الصنبور لأنه لا عقب له».

(٢) النهاية ٤: ٦.

(٣) النهاية ٣: ١٩٩؛ قال، ويروى: «فريه» بسكون الراء والتخفيف.

(٤) النهاية ٢: ١٢٤. (٥) النهاية ٣: ١٤٢، ٤: ١٥.

(٦) كذا في النهاية واللسان. (٧) النهاية ٤: ١٧٧، ٢١٢، ٢١٤.

(٨) تكملة من النهاية واللسان.

غيرها، والمستوصلة: التي تأمر من يفعل بها ذلك^(١). والواشمة: المرأة تغرز ظهرَ كفِّها ومِعصمِها بإبرة حتى تؤثر فيه، وتحشوه بالكحل. [والموشمة التي يفعل بها ذلك]^(٢).

وذكر أيام التشريق فقال: «هي أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَبَعَالٍ»^(٣). يعني النكاح. وقال: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً بُهِمَا»^(٤).

وهو البهيم الذي لا يخالط لونه لون سواه، من سواد كان أو غيره، يقول: ليس فيهم شيء من الأمراض والعاهات التي تكون في الدنيا. وقال في صلح الحديدية: «لا إغلال ولا إسلال»^(٥). والإسلال: السرقة، والإغلال: الخيانة.

وقال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ، وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ» - الحوب^(٦) إذا كان بالباء، والكون إذا كان بالنون، تقول: يكون في حالة جميلة فيرجع عنها، وإذا كانا جميعاً بالراء فهو التَّقْصَانُ بعد الزيادة^(٧).

وقال ﷺ: «خَمِّرُوا آيَتَكُمْ، وَأَوْكُوا أَسْقِيَتَكُمْ، وَأَجِيفُوا الْأَبْوَابَ»^(٨). وَأُطِفُّوا المصابيح، واكفُّوا صبيانكم، فإن للشيطان انتشاراً وخطفة، يعني بالليل. التخمير: التغطية. والإيكاء: الشد، واسم الخيط الذي يُشدُّ به السقاء الوكاء. واكفُّوا: يعني ضمُّوهم إليكم.

وقال في دعائه: «لا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدُّ»^(٩).

الجَدُّ بفتح الجيم: الغنى والحظ في الرزق، ومنه قيل: لفلان في هذا الأمر جدٌ، إذا كان مرزوقاً.

وقال: «إِنْ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي؛ أَنْ نَفْسًا لَا تَمُوتُ حَتَّى تَسْتَوْفَى - أَوْ تَسْتَكْمَلَ - رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ»^(١٠).

(١) تكملة من النهاية واللسان.

(٢) النهاية ١: ٨٦.

(٣) النهاية ١: ١٠١.

(٤) النهاية ٣: ١٨. وقال: «وقيل: الإغلال لبس الدروع والإسلال: سل السيوف».

(٥) النهاية ١: ٢٦٩.

(٦) قال في النهاية: «وأصله من نقض العمامة بعد لفها».

(٧) النهاية ١: ٣٢٠، ٤٠، ٢٥، ٢٢٩.

(٨) النهاية ١: ٤٧، وقال في معناه: «لا ينفع ذا الغنى منك غناء، وإنما ينفعه الإيمان والطاعة».

(٩) النهاية: ٤: ١٦٠.

قوله: «نَفَثَ فِي رُوعِي»، بضم الراء؛ النَّفَثَ شبيهه بالنَّفَح، ورُوعِي، يقول: في خَلْدِي.

وقال ﷺ: «صُومُوا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن حال بينكم^(١) وبينه سبحانه أو ظلمة أو هَبْوة، فأكملوا العدة»^(٢). هَبْوة، يعني غُبْرة.

وقال ﷺ: «إن العرش على منكب إسرافيل، وإنه ليتواضع لله عز وجل حتى يصير مثل الوَصع^(٣)». الوَصع: ولد العصافير^(٤).

وقال ﷺ حين سئل: أين كان ربُّنا جلَّ جلاله قبل أن يخلق السموات والأرضين؟ فقال: «كان في عماء تحته هواء»^(٥). العماء: السحاب.

وقال ﷺ: «عم الرجل صنو أبيه»^(٦). يعني أن أصلهما واحد، وأصل الصَّنو إنما هو في النَّخل، قال الله عز وجل: ﴿صَنَوَانٌ مِّثْلُ نَوْنٍ﴾ [سورة الرعد: ٤]، الصنوان المجتمع، وغير الصنوان المتفرق.

وقال: «من تعلم القرآن ثم نسيه لقي الله عز وجل وهو أجذم»^(٧). أي مقطوع اليد.

وقال لرجل أتاه، وقال: يا رسول الله، أيدالك الرجل امرأته بمهرها؟ قال: «لا؛ إلا أن يكون مُلْفَجاً»^(٨)؛ فقال له أبو بكر رضي الله عنه: بأبي وأمي أنت يا رسول الله! إنما نشأت فيما بيننا، ونحن قد سافرنا وأنت مقيم، فنراك تتكلم بكلام لا نعرفه ولا نفهمه! فقال ﷺ وعلى آله وسلم: «إن الله عز وجل أدبني وأحسن أدبي، وهذا الرجل كلمني بكلامه فأجبتُه على حسبه».

(١) في الأصلين. «بينك»، والصواب ما أثبتته من نهاية ابن الأثير.

(٢) النهاية ٤: ٢٣٨.

(٣) النهاية ٤: ٢١٦.

(٤) النهاية: «هو طائر أصغر من العصفور، والجمع صيعان».

(٥) النهاية ٣: ١٣٠.

(٦) النهاية ٣: ٣.

(٧) النهاية ٢: ٢٩، ٤: ٦٢.

(٨) النهاية ١: ١٥١.

قال: أَيْدَالِكَ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ بِمَهْرِهَا، أَيْ يُمَاطِلُهَا. فَقُلْتُ: لَا، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُلْفَجًا، أَيْ مُعْدِمًا.



فكلامه ﷺ وأخلاقه ومذاهبه، تدلّ على أنه موافق لقول الله عزّ وجلّ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٤]. ولقوله: ﴿وَلَقَدْ آخَرْتَهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الدخان: ٣٢]. وقال جلّ ذكره: ﴿خُذِ الْعَوْفَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٩٩]، فلمّا علم أنه قد قبل أدبه قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: ٤]. فلما استحکم له ما أحبّ قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ وَمَا تَكُن لِّكَايِلَةٍ مِنَ الْعَاكِفِينَ﴾ [سورة الحجر: ٩١].

مساوىء من تنبأ

رُويَ أَنَّ مُسَيْلِمَةَ بْنَ حَبِيبِ الْكَذَّابِ، كَتَبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَذَلِكَ فِي آخِرِ سَنَةِ عَشْرٍ:

مِنْ مُسَيْلِمَةَ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَدْ شُرِكتُ^(١) فِي الْأَمْرِ مَعَكَ، وَإِنَّا لَنَا نِصْفَ الْأَرْضِ، وَلَقَرِيشِ نِصْفِ الْأَرْضِ، وَلَكِنَّ قَرِيشاً قَوْمٌ يَعْتَدُونَ. فَقَدِمَ عَلَيْهِ رَسُولَانِ مِنْ قَبْلِ مُسَيْلِمَةَ بِهَذَا الْكِتَابِ، فَقَالَ: «أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ لَا أَنَّ الرِّسْلَ لَا يُقْتَلُونَ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمْ»^(٢). ثُمَّ كَتَبَ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ؛ السَّلَامُ»^(٣) عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهَدْيَ. أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مِنْ عِبَادِهِ مَنْ يَشَاءُ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»^(٤).

قِيلَ: وَأَتَاهُ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ مَعَ عَمِّهِ، فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ. قَالَ الْأَحْنَفُ لِعَمِّهِ: كَيْفَ رَأَيْتَهُ؟ قَالَ: لَيْسَ بِمُتَنَبِّئٍ صَادِقٍ، وَلَا بِكَذَّابٍ حَازِقٍ.



وَمِنْهُمْ طَلِيحَةُ، تَنَبَّأَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ يَقُولُ: إِنَّ ذَا التُّونِ^(٥) يَأْتِيهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَقَدْ ذَكَرَ مَلَكاً عَظِيماً، فَلَمَّا كَانَ أَيَّامَ الرَّدَّةِ بَعَثَ أَبُو بَكْرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ - خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَيْهِ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى عَسْكَرِهِ^(٦) وَجَدَهُ قَدْ ضُرِبَتْ لَهُ قُبَّةٌ مِنْ أَدَمٍ، وَأَصْحَابُهُ حَوْلَهُ، فَقَالَ: لِيَخْرُجْ إِلَيَّ طَلِيحَةُ، فَقَالُوا: لَا تُصَغِّرْ نَبِيّاً

(١) الطبري: «أشركت».

(٢) فِي إِحْدَى رَوَايَاتِ الطَّبْرِيِّ عَنْ نَعِيمٍ: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لَهْمَا حِينَ قَرَأَ كِتَابَ مُسَيْلِمَةَ: فَمَا تَقُولَانِ أَنتُمَا؟ قَالَا: نَقُولُ كَمَا قَالَ. فَقَالَ: أَمَّا وَاللَّهِ، وَسَاقَ بَقِيَّةَ الْخَبَرِ.

(٣) الطبري: «سلام».

(٤) الْخَبَرُ فِي تَارِيخِ الطَّبْرِيِّ ٣: ١٦٦، ١٦٧، وَهُوَ أَيْضاً فِي ابْنِ الْأَثِيرِ ٢: ٢٠٤، ٢٠٥، وَذَكَرَ بَعْدَهُ: «وَقِيلَ إِنْ دَعَا مُسَيْلِمَةَ وَغَيْرَهُ النَّبُوءَةُ كَانَتْ بَعْدَ حِجَّةِ الْوَدَاعِ وَمَرَضَتِهِ الَّتِي مَاتَ فِيهَا، فَلَمَّا سَمِعَ النَّاسُ بِمَرَضِهِ وَثَبَ الْأَسْوَدُ الْعَنْسِيُّ بِالْيَمَنِ، وَمُسَيْلِمَةُ بِالْإِمَامَةِ، وَطَلِيحَةُ فِي بَنِي أَسَدٍ».

(٥) ابْنُ الْأَثِيرِ: «جبريل».

(٦) ل: «مكنه».

هو طَلْحَة. فخرج إليه، فقال خالد: إِنْ مِنْ عَهْدِ خَلِيفَتِنَا أَنْ يَدْعُوكَ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فقال: يَا خَالِدُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ! فَلَمَّا سَمِعَ خَالِدُ ذَلِكَ أَنْصَرَفَ عَنْهُ، وَعَسَكَرَ بِالْقُرْبِ مِنْهُ عَلَى مِيلٍ.

فَقَالَ عُيَيْنَةُ بْنُ حَصْنٍ لَطَلِيحَةَ: لَا أَبَا لَكَ! هَلْ أَنْتَ مُرِينَا بَعْضَ نَبَوَّتِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَكَانَ قَدْ بَعَثَ عِيُونًا لَهُ حِينَ سَارَ خَالِدُ مِنَ الْمَدِينَةِ مُقْبِلًا إِلَيْهِمْ، فَعَرَفُوهُ خَبَرَ خَالِدِ، فَقَالَ: «لَنْ بَعَثْتُمْ فَارَسِينَ، عَلَى فَرَسَيْنِ أَغْرَيْنِ مُحَجَّلَيْنِ، مِنْ بَنِي نَصْرِ بْنِ قُضَيْمٍ، أَتَوْكُم مِّنَ الْقَوْمِ بَعِينٍ». فَهَيَّؤُوا فَارَسِينَ فَبَعَثُوهُمَا، فَخَرَجَا يَرْكُضَانِ، فَلَقِيَا عَيْنًا لِّخَالِدٍ مُّقْبِلًا إِلَيْهِمْ، فَقَالَا^(١): مَا خَبَرُ خَالِدٍ؟ أَوْ قَالَا: مَا وَرَاءَكَ؟ قَالَ: هَذَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي الْمُسْلِمِينَ قَدْ أَقْبَلَ، فَزَادَهُمْ فَتَنَةً، وَقَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ! فَلَمَّا كَانَ فِي السَّحَرِ نَهَضَ خَالِدٌ إِلَى طَلِيحَةَ فَيَمْنُ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا التَقَى الصَّفْقَانِ تَزَمَّلَ^(٢) طَلِيحَةُ فِي كِسَاءٍ لَهُ يَنْتَظِرُ زَعْمَ الْوَحْيِ، فَلَمَّا طَالَ ذَاكَ عَلَى أَصْحَابِهِ، وَأَلْحَ عَلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ بِالسَّيْفِ، قَالَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ: هَلْ أَتَاكَ بَعْدُ^(٣)؟ قَالَ طَلِيحَةُ مِّنْ تَحْتِ الْكِسَاءِ: لَا، وَاللَّهِ مَا جَاءَ بَعْدُ، فَقَالَ عُيَيْنَةُ: تَبَّأَ لَكَ آخِرُ الدَّهْرِ! ثُمَّ جَذَبَهُ جَذْبَةً جَاشَ^(٤) مِنْهَا، وَقَالَ: قَبَّحَ اللَّهُ هَذِهِ مِنْ نَبْوَةٍ! فَجَلَسَ طَلِيحَةُ، فَقَالَ لَهُ عُيَيْنَةُ: مَا قِيلَ لَكَ؟ قَالَ: قِيلَ لِي: «إِنَّ لَكَ رَحًا كَرَحَاهُ، وَأَمْرًا لَا تَنْسَاهُ»؛ فَقَالَ عُيَيْنَةُ: قَدْ عَلِمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ سَيَكُونُ لَكَ أَمْرٌ لَا تَنْسَاهُ؛ هَذَا كَذَابٌ مَا بُورِكَ لَنَا وَلَا لَهُ فِيمَا يَطَالِبُ. ثُمَّ هَرَبَ عُيَيْنَةُ وَأَخُوهُ، فَأَدْرَكَوهُ وَأَسْرَوْهُ، وَأَفْلَتَ أَخُوهُ، وَخَرَجَ طَلْحَةُ مِنْهَزِمًا، وَأَسْلَمَهُ شَيْطَانُهُ حَتَّى قَدِمَ الشَّامَ، فَأَقَامَ عِنْدَ بَنِي جَفْنَةَ الْغَسَّانِيِّينَ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَجْنَادِينَ^(٥)، وَتَوَفَّى أَبُو بَكْرٍ وَأَسْلَمَ طَلِيحَةُ إِسْلَامًا صَحِيحًا، وَقَالَ:

وَأِنِّي مِّنْ بَعْدِ الضَّلَالَةِ شَاهِدٌ شَهَادَةٌ حَقٌّ لَسْتُ فِيهَا بِمُلْحِدٍ^(٦)

(١) فِي كَ، لَ: «وَقَالَا».

(٢) تَزَمَّلَ: تَلَفَفَ.

(٣) الطَّبْرِي: «هَلْ أَتَاكَ جَبْرِيلُ بَعْدُ».

(٤) جَاشَ: هَاجَ وَاضْطَرَبَ.

(٥) أَجْنَادِينَ: مَوْقِعٌ بِالشَّامِ مِنْ نَوَاحِي فَلَسْطِينَ؛ كَانَتْ بِهِ الْوَقْعَةُ الْمَشْهُورَةُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالرُّومِ؛ قَالَ يَاقُوتُ: «وَكَانَتْ لِاثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً بَقِيَتْ مِنْ جَمَادَى الْأُولَى سَنَةَ ثَلَاثِ عَشْرَةٍ، قَبْلَ وَفَاةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِنَحْوِ شَهْرٍ».

(٦) انْظُرْ: تَارِيخُ الطَّبْرِيِّ ٣: ٢٢٧، وَتَارِيخُ ابْنِ الْأَثِيرِ ٢: ٢٣٢.

ومنهم من تنبأ بعد في أيام الرشيد، رجل زعم أنه نوح، ف قيل له: أنت نوح الذي كان، أم نوح آخر؟ قال: أنا نوح الذي لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وقد بُعث إليكم لأفَي الخمسين عاماً، تمام الألف سنة. فأمر الرشيد بضربه وصلبه، فمرَّ به بعض المخنثين وهو مصلوب، فقال: صلى الله عليك يا أبانا! ما حصل في يدك من سفينتك إلا دقلها! وهو الذي يكون في وسط السفينة كجذع طويل^(١).



ومنهم رجل تنبأ في أيام المأمون، فقال للحاجب: أبلغ أمير المؤمنين أنَّ^(٢) نبي الله بالباب. فأذن له، فقال ثمامة: ما دليل نبوتك؟ قال: تحضر لي أمك فأوقعها^(٣) فتحمل من ساعتها، وتأتي بسلام مثلك. فقال ثمامة: صلى الله عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته^(٤)، أهون عليَّ من إحضارك أمي ومواقعيتها^(٥).

(١) العقد لابن عبد ربه ٦ : ١٤٧.

(٢) ك: «أنِّي».

(٣) في العقد: «تحضر لي يا ثمامة امرأتك أنكحها بين يديك فتلد غلاماً ينطق في المهد ويخبر أنك نبي».

(٤) العقد: «فقال ثمامة: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال المأمون: ما أسرع ما آمنت به! قال: وأنت يا أمير المؤمنين، ما أهون عليك أن تتناول امرأتي على فراشك!».

(٥) العقد ٦ : ١٤٨.

محاسن أبي بكر الصديق رضوان الله عليه ورحمته

رُوِيَ عن ابن عمر رضي الله عنهما؛ قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد، وأبو بكر عن يمينه وعمر عن شماله، «هكذا نبعث يوم القيامة».

وقال ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى أيدني من أهل السماء بجبريل وميكائيل، ومن أهل الأرض بأبي بكر وعمر»، ورآهما مقبلين فقال: «هذان السمع والبصر». ورُوِيَ عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: لو وُزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لَرَجَحَ بهم.

ورُوِيَ عن عمر رضي الله عنه أنه قال: أمر رسول الله ﷺ بالصدقة، ووافق ذلك مالا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته، فجئتُه بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قلت: النصف. وجاء أبو بكر بكلِّ ماله، فقال له النبي ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟»، قال: الله حَقًّا ورسوله؛ فقلت: والله لا أسبقك إلى شيء أبداً.

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: «وددت أني شجرة في صدر أبي بكر»، رضي الله عنه.

وعن عطاء، عن أبي الدرداء، أنه مشى بين يدي أبي بكر رضي الله عنه، فقال له رسول الله ﷺ: «أتمشي^(١) بين يدي من هو خير منك؟ ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أحدٍ أفضل من أبي بكر»^(٢).

وعن علي بن أبي طالب رضوان الله ورحمته عليه، قال: قال النبي ﷺ: «يا علي، هل تحبُّ الشيخين؟»، قلت: نعم يا رسول الله، قال: «لا يجتمع حُبُّك وحُبُّهما إلا في قلب مؤمن».

وعن أبي أمامة الباهلي، قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله أبا بكر!

(١) ط: «المشي»؛ تحريف.

(٢) الحديث في الرياض النضرة ١: ٩١، مع اختلاف في الرواية.

رَوَّجَنِي ابْنَتَهُ، وَحَمَلَنِي إِلَى دَارِ الْهَجْرَةِ، وَعَتَقَ بِلَالاً مِنْ مَالِهِ».

وعن أنس، عن أبي بكر رضي الله عنه، قال: قلتُ للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ فِي قَدَمَيْهِ لِأَبْصَرَنَا! فقال: «يا أبا بكر، ما ظَنُّكَ باثنين، اللَّهُ عزَّ وجلَّ ثالثَهُما!».

وعن أبي سعي الخُدْرِي رضي الله عنه، قال: خرج علينا رسول الله في مرضه الذي مات فيه، وهو عاصِبٌ رَأْسَهُ، حَتَّى صَعِدَ الْمَنْبَرَ فَقَالَ: «إِنِّي قَائِمٌ السَّاعَةَ عَلَى الْحَوْضِ، وَإِنَّ عَبْدًا عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا، فَاخْتَارَ الْآخِرَةَ». فلم يَفْطِنْ لَهَا أَحَدٌ إِلَّا أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، فقال: بأبي أنت وأمي! بل نُفْذِيك بَابَانَا وَأَبْنَانَا، وَأَنْفُسَنَا وَأَمْوَالَنَا! وبكى، فقال: «لَا تَبْكُ يَا أبا بكر، إِنَّ مِنْ أَمَنِ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أبا بكر، ولو كُنْتُ مَتَّخِذًا خَلِيلًا مِنَ النَّاسِ لَاتَّخَذْتُ أبا بكر، ولكن أَخِي فِي الْإِسْلَامِ. لا يَبْقَى فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلَّا سَدَّ إِلَّا بَابَ أَبِي بَكْرٍ»، فبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: أَنَا وَمَالِي لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ!

وعن ابن المنكدر، قال: قال رسول الله ﷺ: «دَعُوا لِي صَاحِبِي! إِنِّي بُعِثْتُ وَقَالَ النَّاسُ كُلُّهُمْ: كَذَبْتُ، وَقَالَ لِي: صَدَقْتَ» - يُعْنِي أبا بكر رضي الله عنه.

وعن محمد بن عُبَيْد، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، قال: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ^(١)، فِجَاءً وَقَدْ ظَهَرَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «عَائِشَةُ»؛ قَالَ: لَسْتُ أَسْأَلُكَ عَنِ النِّسَاءِ. قَالَ: «إِذَا أَبُوَهَا أَبُو بَكْرٍ».

وعن الحسن، قال: قال رسول الله ﷺ: «يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، لَيْسَ مِنْهَا بَابٌ إِلَّا وَعَلَيْهِ مَلَكٌ يَهْتِفُ بِهِ: هَلَمْ هَلَمْ ادْخُلْ! فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ هَذَا لَسَعِيدٌ، قَالَ: «هُوَ ابْنُ أَبِي قَحَافَةَ».

وعن سليمان بن يسار، أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «فِي الْمُؤْمِنِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ خَصْلَةً مِنَ الْخَيْرِ، إِذَا جَاءَ بِوَاحِدَةٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ»، قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! أَفَيَّ مِنْهَا شَيْءٌ؟ قَالَ: «هِيَ كُلُّهَا فَيْكَ يَا أبا بكر».

وعن ابن عمر رضي الله عنه، قال: بينا النبي ﷺ جالس وعنده أبو بكر رضي الله عنه، وعليه عَبَاءَةٌ قَدْ خَلَّهَا^(٢) فِي صَدْرِهِ بِخِلَالٍ، إِذْ نَزَلَ عَلَيْهِ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ

(١) السلاسل: ماء بأرض جذام؛ وبه سميت الغزوة، كانت سنة ثمان. ابن الأثير ١: ١٥٦.

(٢) ك: «خللها».

السلام، فقال: يا رسول الله، ما لي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خَلَّها في صدره؟ قال: «أنفقَ ماله عليَّ قبل الفَتْحِ»، قال: فأقرَّئه من الله عزَّ وجلَّ السلام وقل له: يقول لك ربُّك تبارك وتعالى: «أراض أنت عني في فقرك أم ساخط؟»، فقال أبو بكر: أَعَلَى رَبِّي أَغْضَبَ! أنا عن ربي راضٍ^(١).

وعن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: كنتُ جالساً عند النبي ﷺ، إذ طلع أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال ﷺ: «هذان سيِّدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين، ممَّن مَضَى، وممَّن بقي، إلَّا النبيَّين والمرسلين. لا تُخْبِرهما يا عليّ».

وعن جابر، قال: كنتُ مع رسول الله ﷺ، فسمعتُه يقول: «يطلع علينا من هذا الفَجِّ^(٢) رجل من أهل الجنة»، فطلع أبو بكر رضي الله عنه، ثم قال: «يطلع علينا من هذا الفَجِّ رجل من أهل الجنة»، فطلع عمر رضي الله عنه، ثم قال: «يطلع علينا من هذا الفَجِّ رجل من أهل الجنة، اللهم اجعله علياً»، فطلع عليُّ رضي الله عنه.

وعن ابن عباس، قال: قال أبو بكر: يا رسول الله، ما أحسن هذه الآية؟ قال: أَيْتُهَا؟ قال: قوله تبارك وتعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ أَرْجَىٰ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرَضِيَةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [سورة الفجر: ٢٧-٣٠]. فقال: يا أبا بكر، إن المَلَك سيَقولُها لك.

وقيل: إنَّه لما أسلم أبو قُحافة، لم يعلم أبو بكر رضي الله عنه بإسلامه حتى دخل على النبي ﷺ، فقال: أَلَا أَبْشُرُك يا أبا بكر بما يَسُرُّكَ؟، قال: مثلك يا رسول الله من يُبَشِّرُ بالخير، فما هي؟ قال: «أَسْلَمَ أبو قُحافة»، قال: يا رسول الله، لو بَشَرْتَنِي بإسلام أبي طالب كان أَقَرَّ لعيني فإنه أَقَرُّ لعينك! فبكى رسولُ الله ﷺ حتى علا بكَاؤُه جزعاً لما فاتَه من إسلام أبي طالب، وقال: «رحمك الله يا أبا بكر!»، ثلاثاً.

(١) الرياض النضرة ١: ١٣٤.

(٢) الفج: الطريق الواسع بين جبلين.

محاسن عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ورحمته

عن أبي هريرة رحمه الله، قال: قال النبي ﷺ: «بيننا أنا نائم، إذ رأيتني على قليب^(١)، وعليها ذلّو، فنزعت ما شاء الله، ثم أخذها مني أبو بكر - أو قال ابن أبي قحافة - فنزع منها ذنوباً^(٢) أو ذنوبين، وفي نزعها ضعف، والله عز وجل يغفر له، ثم أخذها عمر فلم أر عبقرياً من الناس يفري فريته^(٣) حتى ضرب الناس^(٤) بعطن».

وروي أن امرأة في الجاهلية تسمى عاصية أسلمت فكرهت اسمها، فأتت عمر رحمه الله، فقالت: إنني كرهت اسمي، فسمّني، فقال: أنت جميلة، فغضبت وقالت: سميتني باسم الإمام! ثم أتت رسول الله ﷺ، فقلت: بأبي أنت وأمي! إنني كرهت اسمي، فسمّني، فقال: «أنت جميلة»، فقالت: يا رسول الله، إني أتيت عمر فسمّاني جميلة، فغضبت، فقال: «أو علمت أن الله عز وجل عند لسان عمر ويده!».

وعن سعيد بن جبير في قوله عز وجل: ﴿وَصَلِّحْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة التحريم: ٤] قال: نزلت في عمر خاصة.

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله عمر! يقول الحق وإن كان مراً؛ تركه الحق ما له من صديق!».

وعن سعيد بن جبير، قال: إن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ: اقرأ على عمر السلام، وأعلمه أن غضبه عز، ورضاه حكم.

وعن عثمان بن مظعون قال: مر بنا عمر رضي الله عنه ونحن جلوس عند

(١) القليب: البئر العادية القديمة.

(٢) الذنوب: الدلو، تذكر وتؤنث.

(٣) يقال: هو يفري الفري، أي يأتي بالأمر العجب.

(٤) ضرب الناس بعطن، أي أرووا إبلهم، ثم آووها إلى عطنها، والحديث في صحيح مسلم ٤:

النبي ﷺ، فقال: «هذا أغلق بابَ الفِتنة، لا يزال بينكم وبين الفِتنة بابٌ ما عاش هذا بين أظهركم - أو ظهورانيكم». فقال بيمينه، وشبك بين أصابعه.

وعن ابن عباس، عن النبي ﷺ، قال: «جاءني جبريلُ حين أسلمَ عمرُ فقال لي: تباشرتِ الملائكةُ بإسلامِ عمر، وعمرُ سراجُ أهل الجنة».

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «بيننا أنا في الجنة إذ رأيتُ داراً، فأردتُ أن أدخلها، فسألت لمن هي؟ فقيل: هي لعمر بن الخطاب، فذكرت غيرته فرجعتُ»، فقال عمر: يا رسول الله، لست ممّن يغار عليه^(١).

وعن علي رضي الله عنه؛ ما كنا نُبعد أن السكينة كانت تنطق على لسان عمر^(٢).

وعن عطاء، عن ابن عباس قال: لَمَّا نزلت هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾، إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾، فقال عمر: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [سورة المؤمنين: ١٢-١٤]. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لقد ختمها الله عز وجل بما قلت يا عمر».

وعن سعد بن أبي وقاص رحمه الله، قال: استأذن عمر على رسول الله ﷺ، وعنده نسوةٌ من قريش قد علّت أصواتهنّ، فأذن له، فلمّا دخل بادرن الحجاب، فضحك رسول الله ﷺ، فقال عمر: أضحك الله سنك، بأبي أنت وأمي! ممّ ضحكك؟ فقال: «أعجب من اللواتي كنّ عندي لَمّا سمعن صوتك بادرن الحجاب»، فقال: أنت كنت أحق أن يهبن يا رسول الله! ثم أقبل عليهنّ، وأغلظ لهنّ، وقال: أتهبّني ولا تهبن رسول الله ﷺ! قلن: نعم، إنك أظف وأغلظ، فقال رسول الله ﷺ: «يا عمر، والذي نفسي بيده، ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً إلّا سلك فجاً غير فجعك».

(١) الحديث في صحيح مسلم ٤: ١٨٢٢، وفيه: «أو عليك يغار!».

(٢) النهاية لابن الأثير ٢: ١٧٢.

محاسن عثمان بن عفان رضي الله عنه ورحمه

عن أنس بن مالك، قال: كان رسول الله ﷺ في حائط من حيطان المدينة، فجاء أبو بكر رحمه الله، فقال: افتح له، وبشّره بالجنة، ثم جاء عمر رحمه الله، فقال: افتح له وبشّره بالجنة. ثم جاء عليّ رضوان الله عليه فقال: افتح له وبشّره بالجنة. فلما جاء عثمان رحمه الله ورحمهم أجمعين، وقد بدت من فخذ رسول الله ﷺ ناحية، فقال: افتح له وبشّره بالجنة، وغطّاها، فقالوا: يا رسول الله، ما لك لم تغطّها حين جئنا؟ فقال: «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة!»

وعن النبي عليه السلام، قال: «إن الله عزّ وجلّ أمرني أن أزوّج كريمي عثمان بن عفان»، رحمه الله.

مَحَاسِنُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَرَحْمَتُهُ

عن أبي حيان التميمي^(١)، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب رحمه الله، قال: قال النبي ﷺ: «رحم الله علياً! اللهم أدِرِ الحقَّ معه حيث دار».

وعن عليٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر قريش، والله لَيَبْعَثَنَّ اللهَ عليكم رجلاً منكم، قد امتحن الله قلبه للإيمان، يضرب رقابكم على الدين»، فقال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا، فقال عمر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا، ولكنه خاضفُ النعل»، وأنا أخضفُ نعلَ رسول الله ﷺ.

وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ لعلِّي: «هذا وليكم بعدي إذا كانت فتنة». وعن مصعب، عن أبيه، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «ما لكم ولعلي^(٢)! مَنْ آذَى علياً فقد آذاني».

وعن عليٍّ رضي الله عنه، قال: هلك فيَّ رجلان: عدو مبغض، ومحِبٌّ مفرط. وقال: لِيُحِبُّنِي أَقْوَامٌ حَتَّى يُدْخِلَهُمْ حَبِّي النَّارَ، وَيُبْغِضُنِي أَقْوَامٌ حَتَّى يَدْخُلَهُمْ بَغْضِي النَّارَ، هُمُ الرَّاغِضَةُ^(٣) وَالنَّاصِبَةُ^(٤).

وعن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يَحِبُّ عَلِيّاً مُنَافِقٌ، وَلَا يُبْغِضُ عَلِيّاً مُؤْمِنٌ».

وعن عمرو^(٥) بن الأصم، قال: قلت للحسن بن علي رضوان الله عليهما:

(١) في ك، ل: «التميمي»، والصواب ما أثبت؛ وهو يحيى بن سعيد بن حيان الكوفي، وانظر: تهذيب التهذيب ١١: ٢١٤.

(٢) ل: «ولي».

(٣) الروافض: قوم من الشيعة؛ سمووا بذلك لأنهم تركوا زيد بن علي. قال الأصمعي: كانوا بايعوه ثم قالوا له: ابرأ من الشيخين نقاتل معك؛ فأبى وقال: كانا وزيرَي جدي، فلا أبرأ منهما، فرفضوه ورفضوا عنه، فسموا رافضة اللسان - رفض.

(٤) الناصبة: قوم كانوا يتدينون ببغضة علي. اللسان - نصب.

(٥) ل: «عمر».

هؤلاء الشيعة يزعمون أن علياً مبعوث الآن، قال: كَذَبُوا، واللَّه ما أولئك بشيعة! ولو كانوا كما يقولون ما أنكحنا نساءه، ولا قسمنا ميراثه.

وعن فاطمة رضي الله عنها قالت: دخل عليّ عليٌّ، وأنا عند النبي ﷺ، فقال: «أبشُرْ يا أبا الحسن، أما إِنَّكَ في الجنة، وإنَّ قوماً يزعمون أنهم يحبُّونك، يرفضون الإسلام، يَمُرُقُون منه كما يَمُرُقُ السهم من الرميَّة، لهم نَبَزٌ^(١)، يقال لهم الرافضة، فإن أدركتهم فقاتلهم فإنهم مشركون».

قال: وحدَّثنا رجل حضر مجلسَ القاسم بن المجمع، وهو والي الأهواز، قال: حضر مجلسه رجلٌ من بني هاشم، فقال: أصلح الله الأمير! ألا أحدثُك^(٢) بفضيلةٍ لأمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه! قال: نعم إن شئت، قال: حدَّثني أبي، قال: حضرت مجلسَ محمد بن عائشة بالبصرة، إذ قام إليه رجل من وَسَطِ الحَلَقَةِ، فقال: يا أبا عبد الرحمن، مَنْ أَفْضَلُ أَصْحَابِ رسول الله ﷺ؟ فقال: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح. فقال له: فأين عليٌّ بن أبي طالب؟ قال: يا هذا، تستفتي^(٣) عن أصحابه أم^(٤) عن نفسه؟ قال: بَلْ عن أصحابه. قال: إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ [سورة آل عمران: ٦١]، فكيف يكون أصحابه مثل نفسه!

وعن عطاء، قال: كان لعليٍّ رحمه الله موقفٌ من رسول الله ﷺ يوم الجمعة، إذا خرج أخذ بيده فلا يخطو خطوةً إلا قال: «اللَّهُمَّ هذا عليٌّ أتبع مَرْضَاتِكَ، فأَرْضَ عنه»، حتى يصعد المنبر.

وحديثنا إبراهيم بن أحمد الغضائري^(٥) بإسناد يرفعه إلى أبي مالك الأشجعي، أن النبي ﷺ قال: «هبط عليٌّ جبريلُ يوم حُيِّنَ فقال: يا محمد، إن ربك تبارك وتعالى يُقرِّئك السلام، وقال: ادفع هذه الأثرجة إلى ابن عمِّك ووصيِّك عليٍّ بن

(١) في حاشية ل: «لقب».

(٢) في ل أقحم بعدها كلمة: «بحديث».

(٣) ك: «تسأل».

(٤) في ك، ل: «أو».

(٥) ك: «محمد».

الغضائري؛ ضبطه ابن الأثير في اللباب: «بفتح الغين والضاد المعجمتين والياء تحتها نقطتان، وفي آخرها راء»، وقال: هذه النسبة إلى الغضار، وهو الإناء الذي يؤكل فيه؛ نسب جماعة إلى عمله، أو واحد من آبائهم.

أبي طالب؛ فدفعتهإ إليه، فوضعتها في كفه، فانفلقت بنصفين، فخرج منها رق أبيض مكتوب فيه: «من الطالب الغالب، إلى علي بن أبي طالب».

أبو عثمان قاضي الرّي، عن الأعمش، عن سعيد بن جبير، قال: كان عبد الله بن عباس بمكة يحدث على شفير زمزم ونحن عنده، فلما قضى حديثه قام إليه رجل فقال: يا بن عباس، إني امرؤ من أهل الشام؛ من أهل حمص، إنهم يتبرؤون من علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ويلعنونه! فقال: بل لعنهم الله في الدنيا والآخرة، وأعد لهم عذاباً مهيناً! ألبعد قرابته من رسول الله ﷺ، وأنه لم يكن أول ذكران العالمين إيماناً بالله ورسوله، وأول من صلى وركع وعمل بأعمال البر! قال الشامي: إنهم والله ما ينكرون قرابته وسابقتة؛ غير أنهم يزعمون أنه قتل الناس. فقال ابن عباس: ثكلتهم أمهاتهم! إن علياً أعرف بالله عز وجل وبرسوله وبحكمهما منهم؛ فلم يقتل إلا من استحق القتل. قال: يا بن عباس، إن قومي جمعوا لي نفقة، وأنا رسولهم إليك وأمينهم، ولا يسعك أن تردني بغير حاجتي، فإن القوم هالكون في أمره، ففرج عنهم فرج الله عنك! فقال ابن عباس: يا أبا أهل الشام، إنما مثل علي في هذه الأمة في فضله وعلمه، كمثّل العبد الصالح الذي لقيه موسى عليه السلام؛ لما انتهى إلى ساحل البحر فقال له: ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تَعْلَمَ مِمَّا عَلِمْتَ رُشْدًا﴾؟ قال العالم: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً! قال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾. قال له العالم: ﴿فَإِنْ أَتَبَعْتَنِي فَلَا تَتَلَبَّنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ فأنطلقا حتى إذا ركباً في السفينة خرقها - وكان خرقها لله عز وجل رضاء، ولأهلها صلاحاً، وكان عند موسى عليه السلام سُخْطاً وفساداً - فلم يصبر موسى عليه السلام، وترك ما ضمن له، فقال: ﴿أَخْرَقَهَا لِنُغْرَقَ أَهْلُهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾! قال له العالم: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾! قال موسى: ﴿لَا تُؤْخَذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾. فكف عنه العالم، ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ - وكان قتله لله عز وجل رضاء، ولأبويه صلاحاً، وكان عند موسى عليه السلام ذنباً عظيماً - قال موسى ولم يصبر: ﴿أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾^(١) بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً! قال العالم: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ قال إن سألنك عن شيء بعد هذا فلا تصحبني قد بلغت من لدني عذراً فأنطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية

(١) زاكية، بألف بعد الزاي وتخفيف الياء؛ هي قراءة نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس، أي طاهرة من الذنوب. وقرأ الباقون «زكية»؛ بتشديد الياء من غير ألف. إتحاف فضلاء البشر ٢٩٣.

أَسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ ﴿٧٧﴾ - وكانت إقامته لله عزَّ وجلَّ رضا، وللعالمين صلاحاً - فقال: ﴿لَوْ شِئْتُ لَنَخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴿٧٨﴾ [سورة الكهف: ٧٧ - ٧٨].

وكان العالم أعلم بما يأتي موسى عليه السلام، وكَبُرَ على موسى الحقُّ وعَظُمَ، إذ لم يكن يعرف هذا، وهو نبيُّ مرسل من أولي العزم، ممن قد أخذ الله عزَّ وجلَّ ميثاقه على النبوة، فكيف أنت يا أخا أهل الشام وأصحابك! إن علياً رضي الله عنه لم يقتل إلا من كان يُستَحَلُّ قتله؛ وإني أخبرك أن رسول الله ﷺ كان عند أم سلمة بنت أبي أمية، إذ أقبل عليٌّ عليه السلام يريد الدخول على النبي ﷺ، فنقر نقرًا خفيًا، فعرف رسول الله ﷺ نقره، فقال: «يا أم سلمة، قومي فافتحي الباب»، فقالت: يا رسول الله، مَنْ هذا الذي يبلغ خطره أن أستقبله بمحاسني ومعاصمي! فقال: «يا أم سلمة، إن طاعتي طاعة الله عزَّ وجلَّ، قال: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [سورة النساء: ٨٠]، قومي يا أم سلمة، فإنَّ بالباب رجلاً ليس بالخرق ولا النزق، ولا بالعجل في أمره، يحبُّ الله ورسوله، ويحبُّه الله ورسوله. يا أم سلمة، إنَّه إن تفتحي الباب له فلن يدخل حتى يخفى عليه الوطء»، فلم يدخل حتى غابت عنه وخفي عليه الوطء، فلما لم يحس لها حركة دفع الباب ودخل، فسلم على النبي ﷺ، فردَّ عليه السلام وقال: «يا أم سلمة، هل تعرفين هذا؟»، قالت: نعم، هذا عليُّ بن أبي طالب، فقال رسول الله ﷺ: «نعم هذا عليٌّ، سيط^(١) لحمه بلحمي، ودُمُّه بدمي، وهو منِّي بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبيَّ بعدي. يا أم سلمة، هذا عليٌّ سيِّدٌ مبجلٌ مؤمِّلُ المسلمين، وأميرُ المؤمنين، وموضع سريِّ وعلمي، وبابي الذي آوي إليه، وهو الوصي على أهل بيتي، وعلى الأخيار من أمتي. وهو أخي في الدنيا والآخرة، وهو معي في السَّناء الأعلى، أشهدي يا أم سلمة أن علياً يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين».

قال ابن عباس: وقتلهم لله رضا، وللأمة صلاح، ولأهل الضلالة سُخط. قال الشامي: يابن عباس، من الناكثون؟ قال: الذين بايعوا علياً بالمدينة ثم نكثوا، فقاتلهم بالبصرة؛ أصحاب الجمل، والقاسطون معاوية وأصحابه، والمارقون أهلُ التَّهْرَوان ومن معهم؛ فقال الشامي: يابن عباس، ملأت صدري نُوراً وحكمة، وفرجت عني فرج الله عنك! أشهد أن علياً رضي الله عنه مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة.



(١) سيط: اختلط.

وَيُرَوَّى أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ: عَقِمَ النِّسَاءُ أَنْ يَجْتَنَّ بِمِثْلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ مَا رَأَيْتُ مَحْرَبًا يُزَنُّ بِهِ^(١)، لَرَأَيْتُهُ يَوْمَ صِفِّينَ وَعَلَى رَأْسِهِ عِمَامَةٌ بِيضَاءُ، وَكَأَنَّ عَيْنَيْهِ سِرَاجًا سَلِيطٌ^(٢)، وَهُوَ يَقِفُ عَلَى^(٣) شِرْذِمَةٍ بَعْدَ شِرْذِمَةٍ مِنَ النَّاسِ، يَعِظُهُمْ وَيَحْضُهُمْ وَيَحْرُضُهُمْ، حَتَّى انْتَهَى إِلَيَّ وَأَنَا فِي كَنَفٍ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَ: مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ، اسْتَشْعِرُوا الْخَشْيَةَ^(٤)، وَأَكْمِلُوا اللَّأَمَةَ^(٥)، وَتَجَلَّبَبُوا^(٦) السَّكِينَةَ، وَغُضُّوا الْأَصْوَاتَ، وَالْحِطُّوا الشَّرَّ^(٧)، وَاطْعَنُوا الْوَجْرَ^(٨)، وَصَلُّوا السَّيْفَ بِالْخَطَا، وَالرِّمَاحَ بِالنَّبْلِ^(٩)، وَامْشُوا إِلَى الْمَوْتِ مَشْيَةَ سَجْحَا^(١٠)؛ فَإِنَّكُمْ بَعَيْنُ اللَّهِ، وَمَعَ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَقَاتِلُونَ عَدُوَّ اللَّهِ. عَلَيْكُمْ بِهَذَا السَّوَادِ الْأَعْظَمِ، وَالرِّوَاقِ الْمَطْنَبِ^(١١)، فَاضْرِبُوا ثَبَجَهُ^(١٢)، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ رَاكِسٌ فِي كِسْرِهِ^(١٣)، [نَافَجٌ حِضْنِيهِ]^(١٤)، مَفْتَرِشٌ ذِرَاعِيهِ، قَدْ قَدَّمَ لِلْوُثْبَةِ يَدًا^(١٥)، وَأَخَّرَ لِلنَّكُوصِ رَجُلًا، فَصَمَدًا صَمَدًا^(١٦)! حَتَّى يَنْجَلِيَ لَكُمْ الْحَقُّ؛ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَمُ^(١٧) أَعْمَالَكُمْ^(١٨).



- (١) فِي الْفَاتِقِ: «يَزَنُّ بِهِ، أَيِ يَتَهَمُ لِمَشَاكَلَتِهِ». (٢) السَّلِيطُ: الزَّيْتُ.
- (٣) الْفَاتِقُ: «وَهُوَ يَحْمِشُ أَصْحَابَهُ»، وَيَحْمِشُهُمْ: يَحْضُهُمْ.
- (٤) اسْتَشْعَرَ، أَيِ لَبَسَ الشَّعَارَ؛ وَهُوَ مَا يَلْبَسُ الْبَدَنُ مِنَ الثِّيَابِ.
- (٥) اللَّأَمَةُ: الدَّرْعُ؛ وَإِكْمَالُهَا: أَنْ يَزَادَ عَلَيْهَا الْبَيْضَةُ.
- (٦) تَجَلَّبَبَ: لَبَسَ الْجَلْبَابَ.
- (٧) لَحَظَ الشَّرَّ: النَّظَرَ بِمَوْخَرِ الْعَيْنِ؛ وَهُوَ نَظَرُ الْمُبْغِضِ؛ وَذَلِكَ أَهْيَبُ.
- (٨) الْوَجْرُ: الطَّعْنُ؛ قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: «مَنْ الْمَعْرُوفُ فِي الطَّعْنِ: أَوْجَرْتَهُ الرِّمَحَ، وَلَعَلَّهُ لُغَةٌ فِيهِ. وَفِي الْفَاتِقِ: «وَاطْعَنُوا الشَّرَّ»، وَقَالَ فِي شَرْحِهِ: «الطَّعْنُ الشَّرَّ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَالِ». وَفِي ل: الْوَجْرُ.
- (٩) قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: «صَلُّوا السَّيْفَ بِالْخَطَا؛ أَيِ إِذَا قَصَرْتَ عَنِ الضَّرَائِبِ تَقَدَّمْتَ حَتَّى تَلْحَقُوا الرِّمَاحَ بِالنَّبْلِ، أَيِ إِذَا قَصَرْتَ الرِّمَاحَ عَنِ الْمَطْعُونِينَ لِبَعْدِهِمْ فَارْمُوهُمْ».
- (١٠) الْمَشْيَةُ السَّجْحُ: السَّهْلَةُ، وَالسَّجْحَاءُ، تَأْنِيثُ الْأَسْجَحِ، وَهُوَ السَّهْلُ.
- (١١) الرِّوَاقُ: الْفُسْطَاطُ، الْمَطْنَبُ: الْمَشْدُودُ بِالْأَطْنَابِ، جَمْعُ طَنْبٍ، وَهُوَ حَبْلٌ يَشُدُّ بِهِ سَرَادِقُ الْبَيْتِ.
- (١٢) الثَّبَجُ: الْوَسْطُ.
- (١٣) الْكِسْرُ: الْجَانِبُ.
- (١٤) مِنَ الْفَاتِقِ، وَالنَّافَجُ: الْمَفْرَجُ، وَالْحِضْنَانُ: الْجَنْبَانُ.
- (١٥) يُرِيدُ بِقَوْلِهِ: «قَدْ قَدَّمَ لِلْوُثْبَةِ يَدًا»، أَنَّهُ إِنْ أَصَابَ فُرْصَتَهُ وَثَبَ.
- (١٦) الصَّمَدُ: الْقَصْدُ.
- (١٧) لَنْ يَتَرَكَمُ: لَنْ يَنْقُصَكُمْ.
- (١٨) مِنْ خُطْبَةٍ لَهُ فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ ١: ١١٤ - ١١٥، وَمِنْهَا فَقَرَّ فِي الْفَاتِقِ ١: ٥٤٣.

وعن ابن عباس، أنه قال: لقد سبقَ لعلِّي رضي الله عنه سوابق؛ لو أنَّ سابقةً منها قُسمتْ على الناس لوسعتهم خيراً.

وعنه قال: كان لعلِّي رضي الله عنه خِصال ضَوَّارِسُ قواطع: سِطَّةٌ^(١) في العشيِّرة. وصِهْرٌ بالرسول، وعلم بالتنزيل، وفقه في التأويل، وصبرٌ عند النزال ومقاومة الأبطال، وكان ألدَّ إذا أعْضِل، ذا رأي إذا أَشْكَل.



قيل: ودخل ابن عباس على معاوية فقال: يا بنَ عَبَّاس، صف لي عليّاً؛ قال: كأَنَّكَ لم تَرَهُ! قال: بلى، ولكنِّي أَحَبُّ أن أسمع منك فيه مقالاً. قال: كان أمير المؤمنين - رضوان الله عليه - غزيرَ الدُّمعة، طويلَ الفِكرة، يعجبه من اللباس ما حَسُنَ، ومن الطعام ما جَشَبَ^(٢)، يُديننا إذا أَتَيْنَاهُ، ويجيبنا إذا دَعَوْنَاهُ. وكان مَعَ تَقْرِيبِهِ إِيَّانَا وَفُرْبِهِ مَنَا؛ لا نبدؤه بالكلام حتى يَبْتَسِمَ، فإذا هو تَبَسَّمَ فعن مثل اللؤلؤ المنظوم. أما والله يا معاوية، لقد رأيتُه في بعض مَواقِفِهِ، وقد أرخى الليلُ سُدُولَهُ، وغارت نجومُه؛ وهو قابض على لحيته، يبكي ويَتَمَلَّمَل تَمَلَّمَل السَّليم^(٣)، وهو يقول: يا دنيا إِيَّاي تُعَرِّين! أمِثلي تشوِّقين! لا حانَ حَيُّنُكَ؛ بل زال زوالُكَ! قد طَلَقْتُكَ ثلاثاً لا رَجعةَ فيها، فعيشُكَ حقير، وعُمُرُكَ قصير، وخطُوك يسير، آه آه من بعد السَّفَر، ووَحْشة الطريق، وقلة الزاد!

قال: فأجَهَشَ معاويةُ وَمَنْ مَعَهُ بالبكاء.



وقال خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين^(٤)، يصف محاسنَ أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب، ومن حَضَرَهُ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ في قصيدة له:

رَأَوْا نِعْمَةً لِلَّهِ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ	عَلَيْكَ، وَفَضْلاً بَارِعاً لَا تَنَارَعُهُ
فَعَضُّوا مِنَ الْغَيْظِ الطَّوِيلِ أَكْفَهُمْ	عَلَيْكَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَاللَّهُ خَادِعُهُ
مِنَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا جَمِيعاً لَكَ الْمَنَى	وَفَوْقَ الْمَنَى أَخْلَاقُهُ وَطِبَائِعُهُ



(١) السطة: المتوسط.

(٢) جشِب: اللدغ.

(٣) السليم: اللدغ.

(٤) لقبه رسول الله ﷺ بذي الشهادتين وجعل شهادته بشهادة رجلين، وقال فيه: «من شهد له

خزيمة فحسبه».

(٢) جشِب الطعام: غلظ، أو كان بلا إدام.

ورؤي أن عدي بن حاتم دخل على معاوية بن أبي سفيان فقال: يا عدي، أين الطّرفات؟ يعني بنيه: طريفاً وطارفاً وطرفّة - قال: قُتِلوا يومَ صِفّين بين يدي علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: ما أنصفك ابنُ أبي طالب إذ قدّمَ بَنِيكَ وأخَر بنيه! قال: بل ما أنصفْتُ أنا عليّاً إذ قُتِلَ وبقيتُ. قال: صف لي عليّاً، فقال: إن رأيتَ أن تُعفيني! قال: لا أعفيك. قال: كان والله بعيد المَدَى، شديد القُوَى؛ يقول عدلاً، ويحكم فضلاً، تتفجّر الحكمة من جوانبه، والعِلْم من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته. وكان والله غزير الدّعة، طويل الفِكرة، يحاسب نفسه إذا خلا، ويقلب كفيّه على ما مضى، يعجبه من اللباس القصير، ومن المعاش الحَسن. وكان فينا كأحدنا؛ يُجيبنا إذا سألناه، ويُديننا إذا أتينا، ونحن مع تقربه لنا^(١)؛ وقربه منا؛ لا نكلّمه لهيئته، ولا نرفع أعيننا إليه لعظمته، فإن تبسّم فعن اللؤلؤ المنظوم، يعظم [أهل]^(٢) الدّين، [و]^(٣) يتحبّب إلى المساكين، لا يخاف القويّ ظلّمه، ولا يئأس الضعيف من عدله، فأقسم لقد رأيته ليلةً وقد مثّل في محرابه، وأرّخى الليل سرباله، وغارت نجومه، ودموعه تتحادر على لحيته، وهو يتملّم تملّم السّليم، ويبكي بكاء الحزين، فكأنّي الآن أسمعُه وهو يقول: يا دنيا، إليّ تعرّضت؛ أم إليّ أقبلت! غُري غيري؛ لا حان حينك، قد طلقك ثلاثاً لا رجعة لي فيك، فعيشك حقير، وخطرك يسير، آه من قلة الزاد وبعد السّفَر، وقلة الأُنيس!

قال: فوكّفت عينا معاوية، [وجعل]^(٣) ينشّفهما بكّمه، ثم قال: يرحم الله أبا الحسن! كان كذا، فكيف صبرك عنه؟ قال: كصبر من ذُبَح ولُدّها في حجرها، فهي لا ترقأ^(٤) دمعُها، ولا تسكن عبْرُتها. قال: فكيف ذكرك له؟ قال: وهل يتركني الدهر أن أنساه!

وهذا الخبر أتم من خبر ابن عباس رحمه الله^(٥).

(١) المسعودي: «إيانا».

(٢) تكملة من المسعودي.

(٣) من ل.

(٤) رقاً الدمع: سكن.

(٥) والخبر أيضاً في الرياض النضرة ٢: ٢١٢، والمسعودي ٢: ٤٣٣.

محاسن من أمسك عن الوقوع في أصحاب النبي

ﷺ

قال: قَدِمَ عبد الله بن جعفر على عَبْدِ الملك بن مروان، فقال له يحيى بن الحكم، عَمَّ عبد الملك بن مروان: ما تقول في عليّ وعثمان؟ قال: أقول ما قال من هو خيرٌ مِنِّي فيمن هو شرٌّ منهما: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة المائدة: ١١٨].

عصام بن يزيد؛ قال: كُنْتُ عند حَمْزَةَ؛ حَتَّى أَتَاهُ رَجُلٌ فَسَأَلَهُ عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فقال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٤١].

وروي أنه كتب إسماعيل بن عليّ إلى الأعمش: أن أكتب لنا بمناقب عليّ، ووجوه الطُّغْنِ على عثمان رضي الله عنهما، فكتب: لو أنّ عليّاً لَقِيَ اللَّهَ عزَّ وجلَّ بحسنات أهل الدنيا لم يَزِدْ ذلك في حسناتك، ولو لَقِيَهِ عثمانُ رضي الله عنه، بسيئات أهل الأرض لم ينقص ذلك من سيئاتك.



وعن عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر، قال: كان إياس بن معاوية لي صديقاً، فدخلنا على عبد الرحمن بن القاسم بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وعنده جماعة من قريش يتذاكرون السَّلَفَ، ففَضَّلَ قَوْمُ أبا بكر وقوم عُمَرَ، وآخرون عليّاً رضي الله عنهم أجمعين، فقال إياس: إنّ عليّاً رحمه الله كان يَرَى أَنَّهُ أَحَقُّ النَّاسِ بِالْأَمْرِ، فلما بايع الناسُ أبا بكر، ورأى أَنَّهُمْ قد اجتمعوا عليه، وأنَّ ذلك قد أَصْلَحَ الْعَامَّةَ، اشترى صلاحَ الْعَامَّةِ بنقض رأيِ الْخَاصَّةِ - يعني بني هاشم - ثم وَلَّى عُمَرَ رحمه الله ففعل مثل ذلك به وبعثمان رضي الله عنه، فلما قُتِلَ عثمان رحمه الله واختلفت الناس، وَفَسَدَتِ الْخَاصَّةُ وَالْعَامَّةُ، وجد أعواناً، فقام بالحق ودعا إليه.



وقيل إنه حضر مجلس عمر بن عبد العزيز رحمه الله جماعة من أهل العلم، فذكروا عليًا وعثمانَ وطلحةَ والزُّبير رضي الله عنهم أجمعين وما كان بينهم، فأكثرُوا وعمر ساكت، قال القوم: ألا تتكلم يا أمير المؤمنين! فقال: لا أقول شيئاً؛ تلك دماء طهر الله منها كَفِّي، فلا أغمس فيها لساني!

مساوىء تلك الحروب ومن تنقص علي بن أبي طالب رضوان الله ورحمته وبركاته عليه

أبو نُعيم، قال: حَدَّثَنَا عبد الجبَّار بن العباس الهمداني، عن عمَّار الدُّهني^(١)، عن سالم بن أبي الجعد، قال: ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ بعضَ أمَّهات المؤمنين، فضحكت عائشة رضي الله عنها، فقال: انظري يا حُميراء، ألا تكوني أنت هي! ثم التفت إلى عليّ رضوان الله عليه، فقال: انظر يا أبا الحسن، إن وليت من أمرها شيئاً فارق بها.

وقال الزُّهري: لما سارت عائشةُ ومعها طلحةُ والزبير رضي الله عنهم، في سبعمائة من قريش، كانت تنزل كلَّ منزل، فتسأل عنه حتى نبحتُها كلابُ الحوَّء، فقالت: رُدُّوني، لا حاجة لي في مسيري هذا، فقد كان رسولُ الله ﷺ نهاني، فقال: «كيف أنتِ يا حُميراء، لو قد نبحتُ عليكِ كلابُ الحوَّء»^(٢) - أو أهل الحوَّء - في مسيرك، تطلبين أمراً أنت عنه بمَعزِل!؛ فقال عبد الله بن الزبير: ليس هذا بذلك المكان الذي ذكره رسولُ الله ﷺ، ودارَ على تلك المياه حتى جمع خمسين شيخاً قَسامةً^(٣)، فشهدوا أنه ليس بالماء الذي تزعمُ أنه نهيت عنه، فلمَّا شهدوا قُبِلت وسارت حتى وافت البصرة، فلما كان حربُ الجمل، أقبلت في هَوْدَج من حديد، وهي تنظر من مَنْظَرٍ قد صُيِّر لها في هَوْدَجها، فقالت لرجلٍ من ضَبَّة، وهو أخذ بخِطام جَمَلِها أو بغيرها: أين ترى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه؟ قال: ها هو ذا واقف رافع يده إلى السماء، فنظرتُ فقالت: ما أشبهه بأخيه! قال الضبي: ومن أخوه؟ قالت: رسولُ الله ﷺ، قال: فلا أراني أقاتل رجلاً هو أخو رسول الله ﷺ! فَبَذَلَ خِطَامَ راحِلَتِها من يده، ومال إليه.



(١) كذا في ل، وهو يوافق ما في تهذيب التهذيب ٧: ٣٠٦، وفي ك: «الذهبي» تصحيف.

(٢) الحوَّاب: موضع في طريق البصرة.

(٣) القسامة، بالفتح: الجماعة يقسمون على الشيء، ويحلفون.

وعن الحسن البصري رحمه الله، أن الأحنف بن قيس، قال لعائشة رحمها الله يومَ الجمل: يا أم المؤمنين، هل عهد إليك رسولُ الله ﷺ هذا المسير؟ قالت: اللهم لا، قال: فهل وجدته في شيء من كتاب الله جل ذكره؟ قالت: ما نقرأ إلا ما تقرأون. قال: فهل رأيت رسول الله ﷺ استعان بأحد^(١) من نسائه إذا كان في قلة والمشركون في كثرة؟ قالت: اللهم لا. قال الأحنف: فإذا ما هو ذنبنا!

قال: وقال الحسن البصري: تقلدتُ سيفي وذهبتُ لأنصرُ أم المؤمنين، فلقيني الأحنف، فقال: إلى أين تريد؟ فقلت^(٢): أنصرُ أم المؤمنين. فقال: والله ما قاتلت مع رسول الله ﷺ المشركين، فكيف تقاتل معها المؤمنين! قال: فرجعتُ إلى منزلي، ووضعتُ سيفي.

(١) كذا في ل، وفي ك «بشيء».

(٢) ك، ل: «فقال»، تصحيف.

مساوىء من عادى علي بن أبي طالب رضي الله عنه

قال: ولما فرغ أمير المؤمنين عليه السلام من قتال أهل الجمل، دخل عليه عبد الله بن الكواء، وقيس بن عبادة اليشكري، فقالا: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن مسيرك هذا الذي سرت، يضرب الناس بعضهم رقاب بعض! أراً رأيته حين تفرقت الأمة، واختلفت الدعوة؟ فإن كان رأياً رأيته أجبناك في رأيك، وإن كان عهداً عهدته إليك رسول الله ﷺ، فأنت الموثوق به، المأمون فيما حدثت عنه. فقال: والله لئن كنت أول من صدق به لا أكون أول من كذب عليه؛ أما أن يكون عندي عهد من رسول الله ﷺ فيه فلا، والله لو كان عندي ما تركت أخا تيم وعدي على منبر رسول الله ﷺ، ولكن نبينا ﷺ لم يقتل قتلاً، ولم يمّت فجأة، ولكنّه مرض ليالي وأياماً، فأتاه بلال ليؤذنه بالصلاة، فيقول: إيت أبا بكر، وهو يرى مكاني، فلما قبض ﷺ نظرنا في الأمر، فإذا الصلاة علم الإسلام، وقوام الدين، فرضينا لدنيانا من رضى رسول الله ﷺ لدينا، فولينا أمورنا أبا بكر، فأقام بين أظهرنا؛ الكلمة واحدة، والدين جامع – أو قال: الأمر جامع – لا يختلف عليه منّا اثنان، ولا يشهد منّا أحد على أحد بالشرك، وكنت أخذ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني^(١)، وأضرب الحدود بين يديه بسيفي وسوطي على كراهة منه لها، وودّ أبو بكر لو أنّ واحداً منّا يكفيه، فلما حضرت أبا بكر رحمه الله الوفاة، ظننت أنه لا يعدل عني لقرايتي من رسول الله ﷺ وسابقتي وفضلي، فظن أبو بكر أن عمر أقوى مني عليها، ولو كانت أثرة لآثر^(٢) بها ولده، فولّى عمر على كراهة كثير من أصحابه، فكنت فيمن رضى، لا فيمن كره. فوالله ما خرج عمر من الدنيا حتى رضى به من كان كرهه، فأقام عمر رحمه الله بين

(١) أغزاني، أي بعثني للغزو.

(٢) ك: «لكان آثر».

أظهرنا؛ الكلمة واحدة، والأمر واحد؛ لا يختلف عليه منّا اثنان، فكنْتُ آخذُ إذا أعطاني وأغزو إذا أغزاني، وأضربُ الحدودَ بين يديه بسوطي وسيفي، أتبع أثره أتباعَ الفَصِيلِ أمّه، لا يعدل عن سبيل صاحبيه، ولا يَحِيدُ عن سُنَّتِهِما، فلما حضرتُ عمرَ رضي الله عنه الوفاةُ، ظننتُ أنه لا يَعْدِلُ عَنِّي لِقْرَابِنِي وسابِقَتِي وَفَضْلِي، فظنُّ عمرُ أنه إن استخلف خليفَةً فَعَمَلٌ بِخَطِيئَةٍ لِحَقَّتِهِ فِي قَبْرِهِ، فأخرجَ منها ولده وأهلَ بيته، وجعلها سُورَى فِي سُنَّةِ رَهْطٍ، منهم عبد الرحمن بن عَوْفٍ، فقال: هل لكم أن أدعَ لكم نصيبي على أن أختارَ لله ولرسوله! قلنا: نعم؛ فأخذ ميثاقنا على أن نسمع ونطيع لمن ولّاه؛ وأخذنا ميثاقه على أن يختارَ لله ولرسوله فوقَ اختياره على عثمان رضي الله عنه، فنظرتُ فإذا طاعني قد سَبَقْتُ بَيْعَتِي، وإذا ميثاقي قد أُخِذَ لغيري، فاتَّبَعْتُ عثمانَ، وأدِيتُ إليه حقّه على أثره منه، وتقصيرٍ عَنْ سُنَّةِ صاحِبِيهِ، فلَمَّا قُتِلَ عثمانُ رضي الله عنه، نظرتُ فكنْتُ أَحَقُّ بِهَا من جميع الناس.

فقالا: صدقتُ وبررتُ، فأخبرنا عن طلحة والزبير بِمَ استحلَّلتَ قتالهما، وقد شَرَكَاكَ فِي الهَجْرَةِ مع رسول الله ﷺ وفي الشُّورى من عمر رحمه الله؟ فقال: قد شَرَكاني فِي الهَجْرَةِ وفي الشُّورى، ولكنَّهما بايَعاني بالحجاز، وخَلَعاني بالعراق؛ ولو فَعَلَا ذلك بأبي بكر وعمر لقاتلَاهما.

فقالا: صدقتُ وبررتُ، وأنتَ أميرُ المؤمنين.



قال: ولمّا كان حربُ صِفِّينَ كتبَ أميرُ المؤمنين رضوان الله عليه إلى معاويةَ بن أبي سُفْيَانَ: ما لك يُقَتِّلُ الناسَ بيننا! أُبْرزُ^(١) لي فإن قتلتنِي استرحتُ مِنِّي، وإن قتلْتُكَ استرحتُ منك. فقال له عمرو بن العاص: أَنْصَفَكَ^(٢) الرجل فابْرزْ إليه، قال: كَلَّا يا عمرو، أردتُ أن أُبْرزَ له فيقتلني وتثب على الخلافة بعدي! قد علمتُ قريشُ أن ابن أبي طالب سيدها وأسدّها، ثم أنشأ يقول:

يا عمرو قد أسررتَ تهمةَ غادرٍ برضاكَ لي تحتَ العجاجِ برازي^(٣)

(١) ك: «أبرز لقتالي».

(٢) ك: «أنصفك الرجل من نفسه».

(٣) وقعة صفين ٣١٢، ورواية الشطر الأول في هذا البيت هناك:

* يا عمرو إنك قد قشرت لي العَصَا *

ما للملوك وللبراز وإنما
 إن الذي منتك نفسك خالياً^(٢)
 حَتَفُ الْمُبَارِزِ خَطْفَةً مِنْ بَازِي^(١)
 قَتَلِي، جَزَاكَ بِمَا نَوَيْتَ الْجَازِي!
 ولقد كشفت قناعها مدمومةً
 فأجابه عمرو بن العاص:

مُعَاوِيَ إِنِّي لَمْ أَجْنِ ذَنْباً
 فما ذنبي بأن نادى عليّ
 وما أنا بالذي يُدعى بخازي^(٣)
 وكبشُ القوم يُدعى للبراز!
 فَلَوْ بَارَزْتَهُ لِلْقَيْتِ قِرْناً
 حديد الناب شهماً ذا اعتزاز^(٤)
 أَجُبْنَا فِي الْعَشِيرَةِ يَابْنَ هِنْدٍ
 وعند الباه كالتيس الحجازي!

ثم كتب معاوية إلى عليّ رحمه الله: أما بعد؛ فإننا لو علمنا أن الحرب تبلى بنا وبك ما بلغت، لم يجنبنا بعضنا على بعض، وإن كنا قد غلبنا على عقولنا؛ فقد بقي لنا ما نرّم به ما مضى، ونصلح ما بقي. وقد كنت سألتك الشام على أن تلزمني لك طاعة، فأبيت ذلك عليّ. وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس، وإنك لا ترجو من البقاء إلا ما أرجو، ولا تخاف من الفناء إلا ما أخاف، وقد والله رقت الأجناد، وذهبت الرجال، ونحن بنو عبد مناف؛ ليس لأحد منا على أحد فضل نستذل به عبداً، أو نسترق به حرّاً.

فأجابه عليّ:

من عليّ بن أبي طالب إلى معاوية بن أبي سفيان. أما بعد؛ فقد جاءني كتابك تذكر أنك لو علمت أن الحرب تبلى بنا وبك ما بلغت، لم يجنبنا بعضنا على بعض. وأنا وإياك لم نلتمس غاية لم نبلغها بعد. فأما طلبك الشام فإني لم أكن لأعطيك اليوم ما منعك عنه أمس؛ وأما استواؤنا في الخوف والرجاء، فلست بأمضى على الشك مني على اليقين، وليس أهل

(١) صفين: «للبازي».

(٢) صفين: «إذا الذي منتك نفسك».

(٣) صفين ٣١٤؛ وقيله:

مُعَاوِيَ إِن نَكَلْتُ عَنْ الْبَرَازِ لَكَ الْوِيْلَاتُ فَانْظُرْ فِي الْمَخَازِي

(٤) رواية البيت في صفين:

فَلَوْ بَارَزْتَهُ بَارَزْتَ لَيْثاً حديد الناب يخطف كلّ بازي

الشام بأحرصَ على الدنيا من أهل العراق على الآخرة .

وأما قولك : «إِنَّا بنو عبد منافٍ» ، فكذلك نحن ، وليس أُمِّيَّة كهاشم ، ولا حَرْب كعبد المطلب ، ولا أبو سفيان كأبي طالب ، ولا الطليق كالمهاجر ، ولا المحق كالمبطل . في أيدينا فضلُ النبوة التي قبلنا بها العِزَّ ، ونفينا بها الخِزي .



عن الشَّعْبِيِّ ، أَنَّ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ دخل على معاوية وعنده ناس ، فلما رآه مُقْبِلًا استضحك ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، أضحك اللهُ سِنِّكَ ، وأدام سرورك ، وأقرَّ عينك ! ما كلُّ ما أرى يوجب الضَّحِكَ ! فقال معاوية : خطر ببالي يومُ صِفِّين ، يومَ بارزت أهل العراق ، فحمل عليك عليُّ بنُ أبي طالب ، فلما غَشِيكَ طرحتَ نفسك عن دابَّتكَ ، وأبديتَ عورتَكَ^(١) . كيف حضركَ ذَهْنُكَ في تلك الحال ! أما والله لقد واقفته هاشميًّا منافيًّا ، ولو شاء أن يَقْتُلَكَ لَقَتَلَكَ .

فقال عمرو : يا معاوية ، إن كان أضحككَ شأني فمن نفسك فاضحك . أما والله لو بدا له من صفحتك مثلُ الذي بدا له من صفحتي لأوجع قَذَالِكَ^(٢) وأيتَمَ عيالك ، وأنهبَ مَالَكَ ، وعزلَ سلطانَكَ ، غير أنك تحرزتَ منه بالرجال في أيديها العوالي^(٣) . أما إني قد رأيتك يومَ دعاكَ إلى البراز ؛ فاحولتَ عينَكَ ، وأزبدَ شِدْقَاكَ ، وتنشَّرَ مِنخْرَاكَ ، وعرقَ جبينَكَ ، وبدا من أسفلك ما أكره ذكره .

فقال معاوية : حسبك حيث بلغت ! لم تُرد كلَّ هذا .



قال : وذكر أَنَّ أميرَ المؤمنين عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه ، قال : زعم ابن النابغة^(٤) أَنِّي تلعبُةٌ تِمزَاحُةٌ^(٥) ؛ ذو دُعابة ، أعافس وأمارس^(٦) ، لا

(١) ك : «سوءتك» . (٢) القذال : جماع مؤخر الرأس .

(٣) العوالي : الرماح .

(٤) النابغة : المرأة المشهورة بما لا يليق بالنساء ، يريد بها أم عمرو بن العاص .

(٥) التلعباة والتمزاحة : الكثير اللعب والمزاح .

(٦) المعافسة : معالجة النساء بالمغازلة ، ومثلها الممارسة .

رَأَيْ لِي فِي الْحُرُوبِ، هِيَهَات! يَمْنَعُنِي مِنَ الْعِفَاسِ وَالْمِرَاسِ ذِكْرُ الْمَوْتِ
وَالْبَعْثِ؛ فَمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ فِي هَذَا عَنْ هَذَا وَاعْظُ. أَمَا وَشَرُّ الْقَوْلِ الْكَذِبُ،
إِنَّهُ لِيَحْدِثُ فِيكَذِبٍ، وَيَعِدُ فَيُخْلِفُ، فَإِذَا كَانَ الْبَاسُ فَأَعْظَمُ مَكِيدَتِهِ أَنْ يَمْنَحَ
الْقَوْمَ إِسْتَه!



قال: وقال عمرو بن العاص لابنه عبد الله يوم صَفَيْنَ: تَبَيَّنَ لِي هَلْ
تَرَى عَلَيَّ بَنَ أَبِي طَالِبٍ! قال عبد الله: فَنَظَرْتُ فَرَأَيْتُهُ، فَقُلْتُ: يَا أَبَتِ، هَا
هُوَ ذَاكَ عَلَى بَغْلَةٍ شَهْبَاءَ، عَلَيْهِ قَبَاءٌ أَبْيَضُ، وَقُلْنُسُوءَةٌ بِيضَاءَ. قال: فَاسْتَرْجِعْ
وَقَالَ: وَاللَّهِ مَا هَذَا بِيَوْمِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ، وَلَا بِيَوْمِ الْيَرْمُوكِ، وَلَا يَوْمِ
أَجْنَادِينَ! وَدِدْتُ أَنْ بَيْنِي وَبَيْنَ مَوْقِفِي بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ. فَنَزَلَ سَعْدُ بْنُ أَبِي
وَقَاصٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو، وَقَالَا: وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ صَوَاباً إِنَّهُ لَعَظِيمٌ مَشْكُورٌ،
وَلَوْ أَنَّ كَانَ خَطِئاً إِنَّهُ لَصَغِيرٌ مَغْفُورٌ. فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَتِ، فَمَنْ يَمْنَعُكَ مِنَ الَّذِي
فَعَلَا! فَوَاللَّهِ مَا يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ أَحَدٌ. فقال:

إِنْ يَرْجِعِ الشَّيْخُ وَلَمْ يُعَذِّرْ إِذْ نَزَلَ الْقَوْمُ بِضَنْكَ فَاَنْظُرِ
ثُمَّ تَأَمَّلْ بَعْدَ هَذَا أَوْ ذَرِ

وقال بعض الشعراء في معاوية ومحاربتة أمير المؤمنين علي بن أبي
طالب:

قَدْ سَرَتْ سَيْرُ كُلَيْبٍ فِي عَشِيرَتِهِ لَوْ كَانَ فِيهِمْ غَلَامٌ مِثْلُ جَسَّاسٍ!
الطَّاعِنُ الطَّعْنَةَ النَّجْلَاءَ عَانِدُهَا كَطُرَّةِ الْبَرْدِ أَعْيَا فَتَقُفُهَا الْآسِي^(١)



عبد الله بن السائب، قال: جمع زيادُ أهلَ الكوفة يحرضهم على
البراءة من عليّ كرم الله وجهه. فملاً منهم المسجد والرحبة، قال: فَعَفَوْتُ
عَفْوَةً، فَإِذَا أَنَا بِشَيْءٍ لَهُ عُنُقٌ مِثْلَ عُنُقِ الْبَعِيرِ، أَهْدَلُ أَهْدَبَ^(٢)، فَقُلْتُ لَهُ:
مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: أَنَا النَّفَادُ ذُو الرِّقْبَةِ، بُعِثْتُ إِلَى صَاحِبِ الْقَصْرِ. فَانْتَبَهْتُ
فَزِعَاً؛ فَمَا كَانَ بِأَسْرَعَ مِنْ أَنْ خَرَجَ عَلَيْنَا خَارِجٌ مِنَ الْقَصْرِ، فَقَالَ: انصرفوا،

(١) النجلاء: الواسعة، والعائد هنا: الدم السائل.

(٢) البعير الأهدب: الذي طال هذب عينه، والأهدل: المسترخي المشفر.

فإن الأمير في شُغل عنكم اليوم، فإذا هو قد فُلِحَ، فقال عبد الله في ذلك :
 ما كان منتهياً عما أراد بنا حتى تأتي له النِّقَادُ ذو الرِّقَبِ
 فأسْقَطَ الشَّقَّ منه ضربةً ثَبَتَتْ لَمَّا تَنَاولَ ظُلماً صاحبَ الرِّحْبِ
 أراد عليّاً، لأنه قُتِلَ في رَحْبة المسجد .



الأصمعيّ، قال : سمع عامر بن عبد الله بن الزبير ابنه ينال من عليّ رضي
 الله عنه، فقال : يا بُنَيَّ، إِيَّاكَ وَذَكَرَ عَلِيٍّ ؛ فَإِنَّ بَنِي أُمَيَّةَ تَنَقَّصَتْهُ سَتِينَ عَاماً ؛ فَمَا
 زَادَهُ اللَّهُ بِذَلِكَ إِلَّا رِفْعَةً !

قال : وقال عبدُ الملك بنُ مروانَ للحجاج بن يوسف : جُنِّبْنِي دِمَاءَ آلِ أَبِي
 طالب، فَإِنِّي رَأَيْتُ بَنِي حَرْبٍ لَمَّا قَتَلُوا الْحُسَيْنَ نَزَعَ اللَّهُ مُلْكَهُمْ .

مَحَاسِنُ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ ابْنَيْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

رُوِيَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ: لَمْ يَكُنْ فِي أَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ أَحَدٌ أَشْبَهُ بِهِ مِنَ الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ؛ لَعَلَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُصَلِّحَ بِهِ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»، وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ طَهْرٌ وَاحِدٌ، وَكَانَ أَسْخَى أَهْلِ زَمَانِهِ.



وَذَكَرُوا أَنَّهُ أَتَاهُ رَجُلٌ فِي حَاجَةٍ فَقَالَ: اذْهَبْ فَاصْطَلِبْ حَاجَتَكَ فِي رُقْعَةٍ، وَارْفَعْهَا إِلَيْنَا نَقْضِهَا لَكَ. قَالَ: فَرَفَعَ إِلَيْهِ حَاجَتَهُ فَأَضَعَهَا لَهُ! فَقَالَ بَعْضُ جُلَسَائِهِ: مَا كَانَ أَعْظَمَ بَرَكَةِ الرُّقْعَةِ عَلَيْهِ يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ! فَقَالَ: بَرَكْتُهَا عَلَيْنَا أَعْظَمَ حِينَ جَعَلْنَا لِلْمَعْرُوفِ أَهْلًا. أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْمَعْرُوفَ مَا كَانَ ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ، فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَتْهُ بَعْدَ مَسْأَلَةٍ؛ فَإِنَّمَا أُعْطِيَتْهُ بِمَا بَدَّلَ لَكَ مِنْ وَجْهِهِ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ بَاتَ لَيْلَتُهُ مَتَمَلِّمًا أَرْقًا، يَمِيلُ بَيْنَ الْيَأْسِ وَالرَّجَاءِ، لَا يَعْلَمُ بِمَ يَتَوَجَّهُ مِنْ حَاجَتِهِ! أَبْكَابَةُ الرَّدِّ، أَمْ بِسُرُورِ التُّجَحُّ؟ فَيَأْتِيكَ وَفَرَاثُصُهُ تُرْعِدُ، وَقَلْبُهُ خَائِفٌ يَخْفِقُ، فَإِنْ قَضَيْتَ لَهُ حَاجَتَهُ فَبِمَا بَدَّلَ لَكَ مِنْ وَجْهِهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ أَعْظَمُ مِمَّا نَالَ مِنْ مَعْرُوفِكَ.



قِيلَ: وَكَانَ لِرَجُلٍ عَلَى ابْنِ أَبِي عَتِيقٍ مَالٌ، فَتَقَاضَاهُ، فَقَالَ لَهُ: ائْتِنِي الْعَشِيَّةَ فِي مَجْلِسِ الْوَلَايَةِ، فَسَلَّنِي عَنْ بَيْتِ قَرِيشٍ، فَوَافَاهُ الْغَرِيمُ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ، فَقَالَ لَهُ: إِنَّا تَلَاخَيْنَا فِي بَيْتِ قَرِيشٍ، وَرَضِينَا بِكَ حَكَمًا، فَقَالَ: آلَ حَرْبٍ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: آلَ أَبِي الْعَاصِ - وَالْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حَاضِرٌ - فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: فَأَيْنَ بَنُو عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! فَقَالَ: لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنْ تَسْأَلَنِي عَنْ غَيْرِ بَيْتِ الْأَدَمِيِّينَ، فَأَمَّا إِذَا صَرْتَ تَسْأَلَنِي عَنْ بَيْتِ الْمَلَائِكَةِ، وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَسَيِّدِ كُلِّ شَهِيدٍ، وَالطَّيَّارِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ، فَمَنْ يَسَاوِي هَؤُلَاءِ فَخْرًا إِلَّا وَهُوَ مُنْقَطِعٌ دُونَهُمْ! قَالَ: فَانْجَلِي عَنْ

الحسن عليه السلام، ثم قال: إني لأحسب أنّ لك حاجة! قال: نعم يابن رسول الله، لهذا عليّ كذا وكذا.
فاحتملها عنه، ووصله بمثلها.



قال: وأتاه رجل آخر فقال: يابن رسول الله، إني عصيت رسول الله ﷺ، فقال: بنس ما صنعت! فبماذا عصيت؟ قال: قال ﷺ: «شاوروهم وخالفوهم»، وإني أطعت صاحبتي، فاشتريت غلاماً فأبق. قال له: اختر واحدة من ثلاث: إن شئت ثمن الغلام... قال: بأبي أنت وأمي! قف على هذه ولا تجاوزها؛ قال: أعرض عليك الثلاث، فقال: حسبي هذه، فأمر له بثمن الغلام.



وذكروا أنّ رجلين: أحدهما من بني هاشم، والآخر من بني أمية، قال هذا: قومي أسمع، وقال هذا: قومي أسمع، قال: فسل أنت عشرة من قومك، وأنا أسأل عشرة من قومي، فانطلق صاحب بني أمية، فسأل عشرة، فأعطاه كلّ واحد منهم عشرة آلاف درهم، وانطلق صاحب بني هاشم إلى الحسن بن علي رضي الله عنه، فأمر له بمائة وخمسين ألف درهم، ثم أتى الحسين عليه السلام، فقال: هل بدأت بأحد قبلي؟ قال: بدأت بالحسن، قال: ما كنت أستطيع أن أزيد على سيدي شيئاً، فأعطاه مائة وخمسين ألفاً من الدراهم، فجاء صاحب بني أمية فحمل مائة ألف درهم من عشرة أنفس، وجاء صاحب بني هاشم فحمل ثلاثمائة ألف درهم من نفسين، فغضب صاحب بني أمية، فردّها عليهم، فقبلوها، وجاء صاحب بني هاشم فردّها عليهما فأبيا أن يقبلاها، وقالوا: ما كنا نبالي أخذتها أم ألقيتها في الطريق!

وكان الحسن بن علي رضوان الله عليهما أشبه برسول الله ﷺ من صدره إلى قدمه.

وكان أيضاً أحد الأجواد، دخل على أسامة بن زيد وهو يجود بنفسه ويقول: واكرّباه! واخرّناه! فقال: وما الذي أحرّك يا عم؟ قال: يابن رسول الله، ستون ألف درهم دين عليّ لا أجد لها قضاء. قال: هي عليّ، قال: فك الله رهائتك يابن النبي ﷺ. ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

مساوىء قتلة الحسين بن علي رضوان الله عليهما

حدَّثنا عبد الله بن أحمد بن إبراهيم، عن يحيى بن معين، عن الحجاج عن أبي معشر، قال: لما مات معاوية بن أبي سفيان، وذلك في النصف من رجب سنة ستين، وردَّ خبره على أهل المدينة في أول شعبان، وكان على المدينة يومئذ الوليد بن عتبة بن أبي سفيان - وكان غلاماً حدثاً يتحرَّج^(١) - فلما جاءه ما جاءه ضاق به صدره، فأرسل إلى مروان بن الحكم - وهو الذي صُرفَ به مروان عن المدينة - وكان في مروان جدَّة، فقال له الوليد: يا أبا عبد الملك، إنه قد جاءنا اليوم شيء لم نكن نستغني معه^(٢) عن استشارتك. قال: وما هو؟ قال: موت أمير المؤمنين، قال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٥٦]! مات رحمه الله! قال: نعم. قال: أتطيع أمري؟ قال: نعم. قال: أُرسل إلى الحسين بن علي وإلى عبد الله بن الزبير، فإن بايعا فخلَّ سبيلهما، وإن أبيا فاضرب أعناقهما.

فأرسل إلى الحسين رضوان الله عليه، وإلى عبد الله بن الزبير رحمه الله، وابتدأ بالحسين. فمَرَّ الحسين في المسجد، فأشار إليه ابن الزبير وهو قائم يصلي، فأتاه، فقال للحرسِيَّ: تأخَّر أيها العبد، فتأخَّر الحرسِيُّ، فقال له: يا أبا عبد الله، أتدري لأي شيء دعيت؟ قال: لا، قال: مات طاعيتهم، فدعوك للبيعة. فلا تُبايع، وقل له: بالغداة على رؤوس الملاء.

قال: فدخل الحسين عليه السلام، فقال له الوليد: يا أبا عبد الله، دعوناك لخير، قال: أي شيء هو؟ قال: مات أمير المؤمنين، وقد عرفتم وليَّ عهدكم ومفزعكم، وقد بايع أهل الشام والناس، فادخل فيما دخل فيه الناس. قال: نعم بالغداة إن شاء الله؛ قال: لا بل الساعة، قال: ومثلي يُبايع في جوف البيت! بالغداة على رؤوس الناس، قال: لا بل الساعة، قال: ما أنا بفاعل، وخرج من عنده.

(١) يقال: تحرَّج من الأمر؛ أي تأثَّم، وحقيقته: جانب الحرج؛ أي الإثم.

(٢) كذا في ل، وفي ك: «فيه».

فأرسل إلى ابن الزبير فقال: يا أبا بكر، دعوناك لخير، قال: وما هو؟ قال: مات أمير المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾! رحمه الله عليه. قال: فجعل يردد الترحم عليه، وقد نظر ابن الزبير قبل ذلك إلى مروان وهو يناجي الوليد، فتلا هذه الآية: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]. فقال: يا أبا بكر، قد عرفتم ولي عهدكم ومفزعكم، وقد بايع أهل الشام والناس، فادخل فيما دخل فيه الناس، قال: نعم، بالغداة إن شاء الله، قال: لا بل الساعة، قال: ومثلي يبايع في جوف البيت! أبايعك على رؤوس الملاء. قال: لا بل الساعة، قال: ما أنا بفاعل.

فقال مروان للوليد: ما تصنع! أطعني واضرب أعناقهما، لئن خرجا من البيت لا تراهما أبداً إلا في شر - وكان الوليد متحرّجاً - فقال: ما كنت لأقتلها؛ فقال ابن الزبير لمروان: يابن الزرقاء، أو تقدر على قتلنا؟ فقال مروان: إنه والله لو أطاعني ما خرجت ولا صاحبك من البيت حتى تُضرب أعناقكما.

قال: فدعا الحسين عليه السلام برواحله، فركب يتوجّه نحو مكة على المنهج الأكبر، وركب ابن الزبير رحمه الله دواب له، وأخذ طريق الفرع^(١)، فأتى الحسين عليه السلام عبد الله بن مطيع وهو على بئر، فنزل إليه، وقال: يا أبا عبد الله، أين تريد؟ قال: العراق؛ مات معاوية، وجاءني أكثر من حمل ضُحِف. قال: لا تفعل، فوالله ما حفظوا أباك وكان خيراً منك! ووالله لئن قتلوك لا تبقى حرمة بعدك إلا استُجِلَّت. فمرّ الحسين عليه السلام حتى نزل مكة، فأقام بها هو وابن الزبير رحمه الله. وقدم عمرو بن سعيد بن العاص في رمضان أميراً على المدينة وعلى الموسم، وعزل الوليد بن عتبة، فلما استوى على المنبر رَعِفَ. فقال أعرابي: مه! جاء والله بالدم. قال: فتلقيه رجلٌ بالعمامة، فقال: مه! عم الناس والله، ثم قام^(٢) وبيده عصاً لها شُعْبَتَانِ: [فقال]^(٣): قد شُعب^(٤) الناس والله، ثم خرج إلى مكة فقدمها قبل التَّروية^(٥) بيوم، وخرج الحسين عليه السلام، فقيل له: خرج الحسين، فقال: اركبوا كلّ بغير وفرس بين السماء والأرض في طلبه فاطلبوه. قال: فكان الناس يتعجبون من قوله هذا، فطلبوه فلم يدركوه،

(١) الفرع بالضم: قرية من نواحي الربدّة، على طريق مكة.

(٢) ط: «قال»، والصواب ما أثبتته من العقد.

(٣) تكملة من العقد.

(٤) شعب القوم: تفرقوا. وفي العقدة: «لشعب».

(٥) يوم التروية: الثامن من ذي الحجة.

فأرسل عبد الله بن جعفر ابنه: عَوْنًا ومحمداً ليردّا الحسين، فأبى الحسين أن يرجع، وخرج بآبئني عبد الله معه، ورجع عمرو بن سعيد إلى المدينة، وبعث بجيش يقاتلون ابن الزبير، وقدم الحسين عليه السلام مسلم بن عقيل إلى الكوفة ليأخذ عليهم البيعة، وكان على الكوفة حين مات معاوية، النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري، فلما بلغه خبر الحسين عليه السلام قال: لابن بنت رسول الله ﷺ أحب إلينا من ابن بنت بحدل^(١). فبلغ ذلك يزيد، فأراد أن يعزله، فقال لأهل الشام: أشيروا عليّ من أستمعل على الكوفة؟ فقالوا: أترضى برأي معاوية؟ قال: نعم، قالوا: فإن العهد بإمرة عبيد الله بن زياد على العراقيين قد كُتب في الديوان، فاستعمله على الكوفة. فقدم الكوفة قبل أن يقدم الحسين عليه السلام، وقد بايع مسلم بن عقيل أكثر من ثلاثين ألفاً من الرجال من أهل الكوفة، فخرجوا معه يريدون عبيد الله بن زياد، فجعلوا كلما انتهوا إلى زقاق انسلّ ناسٌ منهم حتّى بقي في شُرْذِمَةٍ قليلة، وجعل الناس يرمونه بالآجر من فوق البيوت، فلما رأى ذلك دخل دار هانيء بن عروة المُراديّ - وكان له فيهم رأي - فقال له هانيء: إن لي من زياد مكاناً، وسوف أتمارض، فإذا جاء يعودني فاضرب عنقه، فقيل لابن زياد: هانيء بن عروة شاكٍ بقيء الدم - وكان شرب المغرة^(٢) - فجعل يقيئها، فجاء ابن زياد يعوده، وقال هانيء لمسلم: إذا قلت اسقوني ولو كانت نفسي فيه فاضرب عنقه، فقال: اسقوني، فأبطأوا عليه، فقال: ويحكم اسقوني ولو كانت فيه نفسي!

قال: فخرج ابن زياد ولم يصنع الآخر شيئاً - وكان أشجع الناس، ولكن أخذته كَبُوة - فقيل لابن زياد: والله إنّ في البيت رجلاً متسلّحاً، فأرسل ابن زياد إلى هانيء، فدعاه فقال: إني شاكٍ^(٣)، فقال: ائتوني به وإن كان شاكياً، قال: فأسرّجت له دابةً فركب، وكانت معه عصاً، وكان أعرج، فجعل يسير قليلاً قليلاً، ثم يقف ويقول: ما لي ولابن زياد! فما زال حتّى دخل عليه، فقال: يا هانيء، أما كانت يد زياد عندك بيضاء؟ قال: بلى، قال: فيدي؟ قال: بلى، فتناول العصا التي كانت في يد هانيء فضرب بها وجهه حتّى كسر جبهته، ثم قدّمه فضرب عنقه، ثم أرسل إلى مسلم بن عقيل فخرج عليهم بسيفه، فما زال يُناوِشُهم، ويقاثلهم حتّى

(١) هي ميسون بنت بحدل بن أنيف، من بني حارثة بن جناب الكلبي، أم يزيد بن معاوية. تاج العروس ٧: ٢٢٢.

(٢) المغرة: الطين الأحمر.

(٣) الشاكي هنا: المريض.

جُرح وأسر، فعطش وقال: اسقوني ماءً، ومعه رجل من آل أبي مُعيط ورجلٌ من بني سُليم، فقال شَمِرُ بْنُ ذِي جَوْشَنَ: واللَّهِ لا نَسْقِيكَ إِلَّا مِنَ الْبُئْرِ؛ وقال المعيطي: واللَّهِ لا نَسْقِيهِ إِلَّا مِنَ الْفِرَاتِ؛ فأتاه غلام له بإبريق من ماء، وقدح قوارير ومِندِيل، فسقاه، فتمضمض، فخرج الدم، فما زال يَمُجُّ الدَّمَ ولا يَسِيغُ شيئاً حتى قال: أَخْزَهُ عَنِّي، فلما أصبح دعاه عبيد الله ليضرب عنقه فقال له: دَعْنِي أَوْص، فقال: أَوْص، فنظر في وجوه الناس، فقال لعمر بن سعد: ما أرى هاهنا أحداً من قريش غيرك، فاذنُ مِنِّي حتى أَكَلِّمَكَ؟ قال: فدنا منه فقال له: هل لك أن تكون سيّد قريش؟ قال: نعم؛ قال: إِنْ حُسِيناً وَمَنْ مَعَهُ وَهُمْ تَسْعُونَ إِنْسَاناً بَيْنَ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ فِي الطَّرِيقِ، فاردّدْهُمْ، واكتب إليه بما أَصَابَنِي. ثم أمر عبيد الله فَضْرِبَ عنقه، فقال عمر: أَتَدْرِي ما قال؟ قال: اكتم على ابن عمّك، قال: هو أعظم من ذاك، قال: اكتم على ابن عمّك! قال: هو أعظم من ذاك؛ قال: أي شيء هو؟ قال: أَخْبَرَنِي أَنَّ حُسِيناً قَدْ أَقْبَلَ وَمَعَهُ تَسْعُونَ إِنْسَاناً بَيْنَ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ، فقال: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ إِلَيَّ أَسَرَّ لَرَدَدْتُهُمْ، لا وَاللَّهِ لا يَقَاتِلُهُمْ أَحَدٌ غَيْرُكَ، فبعث معه جيشاً.

وجاء الحسين عليه السلام الخبر وهو بشراف فهم أن يرجع، ومعه خمسة من بني عَقِيل، فلقى الجيش على خيولهم بوادي السَّبَاع، فقال بنو عَقِيل: أترجع وقد قُتِلَ أَخُونَا! فقال الحسين عليه السلام: ما لي عن هؤلاء من صَبْرٍ - يعني بني عَقِيل، فأصاب أصحابه العطش، فقالوا: يا ابنَ رسولِ الله، اسقنا؛ فأخرج لكلِّ فارس صحيفةً من ماء، فسقاهم بقدر ما يَمْسِكُ رَمَقَ أَحَدِهِمْ، ثم قالوا: سِرُّ بَنَا، وأخذوا به على الجُرْفِ حتى نزلوا كَرْبَلاءَ، فقال: هذا كَرْبُ وَبَلاءَ، فنزلوا وبينهم وبين الماء يسير، قال: فأراد الحسين عليه السلام وأصحابه الماء، فحالوا بينهم وبينه، فقال له شَمِرُ بْنُ ذِي جَوْشَنَ: لا تشربوا أبداً حتى تشربوا من الحميم، فقال العباس بن عليٍّ للحسين عليه السلام: يا أبا عبد الله، ألسنا على الحق؟ قال: نعم، فحمل عليهم، فكشفهم عن الماء حتى شربوا وأسقوا.

ثم بعث عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد أن قاتلهم. فقال الحسين عليه السلام: يا عمر، اخترتني إحدى ثلاث: تتركني أرجع كما جئت، وإن أبيت هذه فسيرني إلى الترك أقاتلهم حتى أموت، وإن أبيت هذه فأبعث بي إلى يزيد لأضع يدي في يده. وأرسل إلى ابن زياد بذلك، فهم أن يسيره إلى يزيد، فقال له

شَمِرُ بْنُ ذِي جَوْشَنٍ: قد أمكنك الله منه - أو قال: من عدوك - وتسير إلى الأمان! لا، إلا أن ينزل على حكمك. فأرسل إليه بذلك، فقال: لا حُبًّا ولا كرامة! أنزل على حكم ابن سُمَيَّة!

وكان مع عمر بن سعد قريب من ثلاثين رجلاً من أهل الكوفة، فقالوا: يعرض عليكم ابن بنت رسول الله ﷺ ثلاث خصال فلا تقبلون منها شيئاً! فتحولوا مع الحسين عليه السلام، فقاتلوا حتى قُتلوا، وقُتل الحسين رضي الله عنه وجميع من معه رحمهم الله، وحُمِلَ رأسه إلى عبيد الله بن زياد، فوضع بين يديه على تُرس، فُبِعْثَ به إلى يزيد، فأمر بَعْثُله، وجعله في حَريرة، وضرب عليه خِيْمة ووَكَلَ به خمسين رجلاً. فقال واحد منهم: نمت وأنا مفكر في يزيد وقتله الحسين عليه السلام، فبينما أنا كذلك إذ رأيت سحابة خضراء فيها نور قد أضاءت ما بين الخافقين، وسمعتُ صهيلَ الخيل ومنادياً ينادي: يا أحمد، اهبط، فهبط رسول الله ﷺ ومعه جماعة من الأنبياء والملائكة، فدخل الخيمة وأخذ الرأس، فجعل يقبله ويبكي ويضمُّه إلى صدره، ثم التفت إلى من معه فقال: انظروا إلى ما كان من أمتي في ولدي! ما بالهم لم يحفظوا فيه وصيتي، ولم يعرفوا حقي! لا أنالهم الله شفاعتي. قال: وإذا بعدة من الملائكة يقولون: يا محمد، الله تبارك وتعالى يقرئك السلام، وقد أمرنا بأن نسمع لك ونطيع، فمرنا أن نقلب البلاد عليهم. فقال ﷺ: «خَلُّوا عَنْ أُمْتِي فَإِنْ لَهُمْ بُلْغَةٌ وَأَمْدٌ». قالوا: يا محمد، إن الله جلَّ ذِكْرُهُ أمرنا أن نقتل هؤلاء النفر، فقال: «دُونَكُمْ وما أَمِرتُم به». قال: فرأيت كلَّ واحد منهم قد رمى كلَّ واحد منَّا بحربة، فَقُتِلَ القوم في مَضاجعهم غيري، فإني صحتُ: يا محمد، فقال: «أَوَ أَنْتَ مُسْتِيقِظٌ؟»، قلتُ: نعم، قال: «خَلُّوا عَنْهُ، يعيش فقيراً ويموت مذموماً». فلما أصبحت دخلتُ على يزيد وهو منكسر مهموم، فحدَّثته بما رأيتُ، فقال: امضِ على وجهك وتب إلى ربِّك^(١).



أبو عبد الله غلام الخليل رحمه الله، قال: حدثنا يعقوب بن سليمان، قال: كنت في ضيعتي، فصلَّينا العَتَمَةَ، وجعلنا نتذاكر قتل الحسين عليه السلام، فقال رجل من القوم: ما أحدٌ أعانَ عليه إلا أصابه بلاء قبل أن يموت؛ فقال شيخٌ كبير من القوم: أنا مِنَّ شَهِدَها، وما أصابني أمر كرهته إلى ساعتِي هذه. وخبا السراج،

(١) الخبر في العقد ٤: ٣٧٦ - ٣٨٠ مع اختلاف في الرواية.

فقام يصلحه، فأخذته النار، وخرج مبادراً إلى الفُرات وألقى نفسه فيه، فاشتعل وصار فحمة.



قيل: ودخل سنانُ بن أنس على الحجاج بن يوسف فقال: أنت قتلت الحسينَ بن عليٍّ؟ فقال: نعم، قال: أما إنكما لن تجتمعا في الجنة، فذكروا أنهم رأوه مَوسوساً يلعب ببوله كما يلعب الصبيان.

قال: وقال محمد بن سيرين: ما رُئيت هذه الحُمرة في السماء إلا بعد ما قُتل الحسين عليه السلام، ولم تُطْمَث امرأة بالروم أربعة أشهر إلا أصابها وَضَح. فكتب ملك الروم إلى ملك العرب: قتلتم نبياً، أو ابن نبِيّ.

وروي أَنَّهُ لما قُتل رضي الله عنه احمرَّت آفاقُ السماء، واقتسموا ورساً كان معه فصار رَماداً، وكانت معه إِبِلٌ فجزروها فصارت جَمرةً في منازلهم.

مساوىء الحرّة

قال: ولمّا كان من أمر الحسين عليه السلام ما كان، قدّم عمرو بن حفص بن المغيرة - وكان تزوّج يزيد بن معاوية ابنته، وأعطاه مالا كثيرا - فلما قدّم المدينة، جاءه محمد بن عمرو بن حزم، وعبيد الله بن حنظلة، وعبد الله بن مطيع بن الأسود، وناس من وجوه أهل المدينة، قالوا: ننشدك الله ربّ هذا البيت، وربّ صاحب هذا القبر، إلّا أخبرتنا عن يزيد! فقال: إنه ليشرب الخمر، ويُنادم القرد، ويفعل كذا، ويصنع كذا. فقالوا: والله ما لنا بأهل الشام من طاقة، ولكن ما يحلّ لنا أن نُبائع رجلاً على هذه الحال، فقال محمد بن عمرو لأهله: هاتوا درّعي. ثم خرج.

فخرج أهل المدينة وخلعوا يزيد، وأخرجوا عثمان بن محمد بن أبي سفيان وبني أمية من المدينة - وكان عثمان والي - المدينة - ثم قال محمد بن أبي جهم لأهل المدينة: أطيعوا أمري اليوم، واعصوني الدهر. اقتلوا سبعة عشر رجلاً من بني أمية لا تروا شراً أبداً. فأبى أهل المدينة أن يقتلوهم، وأخذوا عليهم الموائيق ألا يرجعوا إلى المدينة مع جيش أبداً. فبعث عثمان بن محمد بن أبي سفيان قميصه مشقوقاً إلى يزيد، وكتب إليه: واغوثاه! إن أهل المدينة أخرجوا قومنا من المدينة، وشقوا ثوبي، وارتكبوا مني^(١).

قال أبو معشر: حدّثنا رجل قال: خرج علينا يزيد بعد العتمة ومعه شمعتان: شمعة عن يمينه، وشمعة عن يساره، وعليه مُعصفرتان كأنهما قطرتا دم، وإزار ورداء، وقد نفش جُمته كأنها برّس^(٢). فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، يا أهل الشام، فإنّه كتب إليّ عثمان بن محمد بن أبي سفيان: إن أهل المدينة أخرجوا قومنا من المدينة، ووالله لأنّ تقع الخضراء على العبراء أحبّ إليّ من هذا! قال: وكان معاوية أوصى يزيد: إن رابك من قومك ريب، أو انتقص

(١) كذا في الأصول، وفي العقد: «كتب عثمان بن محمد إلى يزيد بما أجمع عليه أهل المدينة من خلاف».

(٢) في الأصول: «ترس»، والبرس: القطن المندوف.

عليك منهم أحد، فعليك بأعور بني مُرة فاستشره - يعني مسلم بن عُبّة. فلمّا كان تلك الليلة قال: أين مسلم بن عُبّة؟ فقام فقال: هأنذا، قال: كن معي، فجعل يزيد يعبّي الجيوش - وكان ابن سنان نازلاً على مسلم - فقال له: إنّ أمير المؤمنين قد بعثني إلى المدينة ومكة، قال: استعفه، قال: لا، قال: فاركب فيلاً أو فيلة وتكنّ أبا يكسوم. فمرض مسلم قبل خروجه من الشام، فدخل عليه يزيد بن معاوية، فقال: قد كنت وجهتُك لهذا البعث، وأراك مُدنفًا! فقال: يا أمير المؤمنين، أشدك الله ألا تحرمني أجراً ساقه الله إليّ، إنما هو أمر خفيف، وليس عليّ من بأس. قال: فلم يُطق من الوجع أن يركب بعيراً ولا دابة. قال: فوُضِع على سرير، وحمله الرجال على أعناقهم حتى جاؤوا به مكاناً يقال له البُراء^(١)، فأراد النزول به، فقال: ما اسم هذا المكان؟ قيل البُراء، قال: لا تنزلوا به، فنزلوا بَقهر^(٢). ثم ارتحلوا حتى نزلوا الحرّة.

فأرسل إلى أهل المدينة: إنّ أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ويقول: أنتم الأصل والعشيرة، فاتّقوا الله واسمعوا وأطيعوا، فإنّ لكم في عهد الله وميثاقه عطاءً في كلّ سنة: عطاءً في الشتاء، وعطاءً في الصيف، ولكم عندي في عهد الله أن أجعل سِعرَ الحنطة عندكم سعر الخبْط - والخبْط يومئذ سبعة^(٣) أصُوع بدرهم - فقالوا: نخلعه كما نخلع عمائمنا ونعالنا، فقَاتَلهم فَهَزَمَهم، وقَتَلَ عبد الله بن حنظلة، وابن حَزْم، وبضعة عشر رجلاً من الوجوه، وتسعون رجلاً من قریش، وبضعة وسبعون رجلاً من الأنصار، وقَتَلَ من سائر الناس نحو أربعة آلاف رجل، وقَتَلَ ابنان لعبد الله بن جعفر، وقَتَلَ أربعة من ولد زيد بن ثابت. وقال مسلم لعبد الله بن جعفر: أخرج عن المدينة لا يقع بصري عليك. وأنهب المدينة ثلاثاً، فقتل الناس^(٤)، وضجّت النساء، وذهبت الأموال، فلما فرغ مسلم من القتال، انتقل إلى قصر ابن عامر، فدعا أهل^(٥) المدينة ليبياعوه، وكان ناس منهم قد تحصّنوا في عَرَصَة سعيد؛ منهم محمد بن أبي جَهْم ونفرٌ معه، فدعاهم للبيعة، فقال: تباعون لعبد الله يزيد أمير المؤمنين على أنكم خَوَلُوه؛ ممّا أفاء الله عليه بأسياف المسلمين، إن شاء وَهَب، وإن شاء أعتق، وإن شاء استرقّ. فباعه

(١) البُراء؛ ذكره صاحب مراصد الاطلاع وقال: اسم جبل.

(٢) القهر: أسافل الحجاز مما يلي نجد.

(٣) ك: «تسعة».

(٤) ل، ك: «النساء».

(٥) ك: «بأهل».

ناس منهم على ذلك، وجاء عمرو بن عثمان بيزيد بن عبد الله بن زَمْعَة - وجدته أم سلمة زوج النبي ﷺ، وكان عمرو بن عثمان قال لأم سلمة: أرسلني معي ابن ابنتك ولك مني عهد الله وميثاقه أن أردّه إليك كما أخذته منك. فجاء به إلى مسلم، فجلس عمرو بن عثمان على طَرْف سريره، فلما تقدّم يزيد بن عبد الله، قال: تباع ليزيد أمير المؤمنين على أنك من حوله مما أفاء الله عليه بأسيايف المسلمين، إن شاء وهب، وإن شاء أعتق، وإن شاء استرق. فقال: لا، أنا أقرب إلى أمير المؤمنين منك، فقال: والله لا أستقبلها منك أبداً. فقال عمرو بن عثمان: أنشدك الله فإني أخذته من أم سلمة بعهد الله وميثاقه أن أردّه إليها.

قال: فركّله ورَمَى به من فوق السرير، فقال: لو قلتها ما أقلتُك، فقتل يزيد بن عبد الله، ثم أتى بمحمد بن أبي جهم، فقال له: أنت القائل: اقتلوا سبعة عشر رجلاً من بني أمية لا تروا شراً أبداً! قال: قد قلتها، ولكن لا يطاع لقصير أمر، أرسل يدي من غلي، وقد برئت مني الذمة، قال: لا حتى أقدمك إلى النار، فضرب عنقه، ثم جاؤوه بمعقل بن سنان وكان جالساً في بيته، فأتاه مائة رجل من قومه، فقالوا: اذهب بنا إلى الأمير حتى نبايعه، فقال: إني قد قلت له كلمة، وإني أتخوفه، قالوا: لا والله لا يصل إليك أبداً. فلما بلغوا الباب أدخلوا معقلاً وغلّقوا الباب، فلما نظر إليه مسلم قال: إني أرى الشيخ قد لعب، اسقوه من الثلج الذي زودنيه أمير المؤمنين. قال: فخاضوا^(١) له ثلجاً بعسل، فشربه، فقال: أشربت؟ قال: نعم. قال: والله لا تبولهُ من مثائتك أبداً، أنت القائل: اركب فيلاً أو فيلة، وتكنّ أبا يكسوم! قال: أما والله لقد تخوفتُ ذلك منك، ولكن غلبتني عشيرتي، قال: فجعل يفرزُ جبةً عليه من بُرود ويقول: أما والله يا أعداء الله، ما شققتها جزعاً من الموت، ولكني أخشى أن تُسلَبوا منها. فضربت عنقه. ثم سار إلى مكة حتى إذا بلغ قفا المشلل^(٢) دَنَف، فدعا بحصين بن ثُمير الكندي، فقال: يا بردعة الحمار، والله ما خلق الله أحداً هو أبغض إليّ منك، ولولا أن أمير المؤمنين أمرني أن أستخلفك ما استخلفتك، أسمع؟ قال: نعم. قال: لا يكون إلا الوقاف ثم الثقاف ثم الانصراف^(٣)، لا تمكّن أذنك من قریش.

ثم مات مسلم لا رحمه الله، فدفن بقفا المشلل وكانت أم يزيد بن

(١) خاضوا له، أي خلطوا.

(٢) المشلل: جبل يهبط منه إلى قديد، من ناحية البحر.

(٣) الوقاف: أن يقف كل واحد للآخر مقام خصومة أو حرب. والثقاف: الجلاذ.

عبد الله بن زمعة بأسناده، فخرجت إليه فنبشته وأحرقته بالنار، وأخذت أكفانه فشققتها وعلقتها بالشجرة^(١).

قال أبو معشر: أقبلت من مكة حتى إذا كنت بقفا المشلل عند قبر مسلم، إذا رجل من أهل الشام ممّن حضر وقعة الحرّة يسايرني، فقلت له: هذا قبر مسلم بن عقيب؛ فقال: أحذّك بالعجيب، كان مع مسلم رجل من أهل الشام يقال له: أبو الغراء، فإذا نصف شعره أسود، ونصفه أبيض، فقلت له: ما شأنك؟ قال: لما كانت ليلة الحرّة جئت قباء، فدخلت بيتاً، فإذا فيه امرأة جالسة معها صبي لها، وليس عليها شيء إلا درع، وقد ذهب بكل شيء لها، فقلت لها: هل من مال؟ قالت: لا والله! لقد بايعت رسول الله ﷺ على أني لا أزني ولا أسرق ولا أقتل ولدي. قال: فأخذت برجل الصبي فضربت به الحائط، فنثر دماغه، فخرجت فإذا نصف رأسي أبيض ونصفه أسود كما ترى.



محاسن ما قيل فيهم من الأشعار

قال كعب بن زهير في الحسين بن عليّ رحمة الله عليهما:

مَسَحَ النَّبِيُّ جَبِينَهُ فَلَهُ بَيَاضٌ فِي الْخُدُودِ^(٢)
وَبُوجْهِهِ دِيْبَاجَةٌ كَرُمُ النَّبِوَّةِ وَالْجُدُودِ
قال: وأنشد الحميري في الحسن والحسين^(٣):

أَتَى حَسَنًا وَالْحُسَيْنَ الرَّسُولُ^(٤) وَقَدْ بَرَزَا حَجْرَةً يَلْعَبَانِ^(٥)
فَضَمَّهُمَا وَتَفَدَّاهُمَا^(٦) وَكَانَا لَدَيْهِ بِذَلِكَ الْمَكَانِ
وَمَرَّ وَتَحْتَهُمَا عَاتِقَاهُ^(٧) فَنَعْمَ الْمَطِيَّةُ وَالرَّاكِبَانِ!

قال: وقال المأمون: أنصف شاعر الشيعة حيث يقول:

إِنَّا وَإِيَّاكُمْ نَمُوتُ فَلَا أَفْلَحَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ نَدِمَا

(١) الخبر في العقد ٤: ٣٨٧ - ٣٩١.

(٢) ملحق ديوانه ٢٥٩.

(٣) الأغاني ٧: ٢٥٩ (طبعة الدار) مع اختلاف في الرواية.

(٤) الأغاني: «النبى».

(٥) حجرة: ناحية.

(٦) الأغاني: «فقداهما ثم حياهما».

(٧) الأغاني: «فراح وتحتهما».

وقال المأمون :

وَمِنْ عَاوِ يَعْصُ عَلِيٍّ غِيْظاً
يُحَاوِلُ أَنْ نَوْرَ اللّٰهِ يُطْفِئَ
فَقُلْتُ أَلَيْسَ قَدْ أُوتِيَتْ عِلْماً
وَعُرِفَتْ احتجاجي بالمثاني
بِأَيَّةِ خَلَّةٍ وَبِأَيِّ مَعْنَى
عَلِيٍّ أَعْظَمُ الثَّقَلَيْنِ حَقّاً
وقال غيره وأجاد :

إِنَّ الْيَهُودَ بِحُبِّهَا لِنَبِيِّهَا^(١)
وَذُوَّ الصَّلِيبِ بِحُبِّ عِيسَى أَصْبَحُوا
وَالْمُؤْمِنُونَ بِحُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ
وقال آخر سامحه الله :

يَا لَكَ مِنْ مَتَجَرَّةٍ كَاسِدَةٍ
إِذَا تَذَكَّرْتَ بَنِي أَحْمَدٍ
فَقُلْ لِمَنْ يَلْحَاكَ فِي حُبِّهِمْ
وقال دِعبِل رحمه الله تعالى :

قُلْ لِإِبْنِ خَائِنَةِ الْبُعُولِ
إِنَّ الْمَذْمَةَ لِلْوَصِيِّ
أَتَذُمُّ أَوْلَادَ النَّبِيِّ
المَوْصِلِي النِّصْرَانِي :

عَدِي وَنُعَيْمٌ لَا أَحَاوِلُ ذِكْرَهُمْ
وَهَلْ تَأْخُذْنِي فِي عَلِيٍّ وَحُبِّهِ
يَقُولُونَ مَا بَالُ النَّصَارَى تُحِبُّهُ
فَقُلْتُ لَهُمْ إِنِّي لِأَحْسِبُ حُبَّهُ

إِذَا أَدْنَيْتُ أَوْلَادَ الْوَصِيِّ
وَنَوْرَ اللّٰهِ فِي حِصْنِ أَبِي
وَبَانَ لَكَ الرَّشِيدُ مِنَ الْغَوِيِّ!
وبالمعقول والآثر القوي
تَفَضَّلْ مُلْحِدِينَ عَلَى عَلِيٍّ!
وأفضلهم سوى حق النبي

أَمِنْتُ مَعَرَّةَ دَهْرِهَا الْخَوَّانِ
يَمْشُونَ زَهْواً فِي قُرَى نَجْرَانِ
يُرْمَوْنَ فِي الْآفَاقِ بِالنَّيِّرَانِ

بَيْنَ شَيَاطِينَ عَتَتْ مَارِدَهُ
تَنَافَرُوا كَالْإِبِلِ الشَّارِدَةِ
خَانَتْكَ فِي مَوْلِدِكَ الْوَالِدَةِ

وَابْنُ الْجَوَادَةِ وَالْبَخِيلِ
هِيَ الْمَذْمَةُ لِلرَّسُولِ
وَأَنْتَ مِنْ وَلَدِ التَّغُولِ^(٢)

بِسُوءٍ وَلَكِنِّي مُحِبٌّ لَهَا شِمٍ
إِذَا لَمْ أَعْثُ يَوْماً مَلَامَةً لَائِمٍ
وَأَهْلُ التَّقَى مِنْ مَعْرَبٍ وَأَعَاجِمٍ!
طَوَاهُ إِلَهِي فِي قُلُوبِ الْبَهَائِمِ

(١) ل: «لحبها».

(٢) نغل المولود، أي فسد نسبه.

وفي بني أمية، قيل: دخل خالد بن خليفة الأقطع على أبي العباس، وعنده
علي بن هشام بن عبد الملك، فأشار إلى أبي العباس وهو يقول شعراً:
إن تُعاقبهم على رقة الديـ ن فقد كان دينهم سامرياً
كان فحلاً زمانهم يرمحُ النا س، فأضحى الزمان منهم خصيّاً

محاسنُ السَّبْقِ إلى الإسلام

رُوي عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج أبو بكر رضي الله عنه يريد رسول الله ﷺ قبل الإسلام، وكان له صديقاً في الجاهلية، فلقيه، فقال: يا أبا القاسم، قعدت في^(١) مجالس قومك، واتهموك بالعيب لآبائها وأذيائها. فقال رسول الله ﷺ: «إني رسول الله، أدعوك إلى الله»؛ فما كان إلا أن سمع أبو بكر كلام رسول الله ﷺ، فشرح الله صدره، فأسلم، فانصرف عنه رسول الله ﷺ وما بين الأخشين^(٢) أحدٌ أكثر سروراً بإسلام أبي بكر رضي الله عنه منه. ومضى أبو بكر حتى أتى طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا. ثم [مضى] عثمان بن مظعون وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف وأبو سلمة بن عبد الأسد والأرقم بن أبي الأرقم مع أبي بكر، فأسلموا.



وأما إسلام عمر رضي الله عنه، فإن قريشاً بعثت بعمر رضي الله عنه ليقتل النبي ﷺ، فخرج عمر متقلداً سيفه في أثر رسول الله ﷺ، وهو يومئذ في دارٍ في أضل الصفا، فلقيه نعيم بن عبد الله بن أسيد - وقد أسلم - فقال: يا عمر، أين أراك تريد؟ قال: أريد محمداً؛ هذا الذي سقّه عقولنا، وشتّم آلهتنا، وخالف جماعتنا، لأقتلنه! قال نعيم: لبئس المَشْيُ واللّه مشيت يا عمر، ولقد أفرطت وأردت هلكة عدي بن كعب بمعادتك بني هاشم! أو ترى أنك آمن من أعمامه وبني زهرة وقد قتلت محمداً! فتحاوَرَا، حتى ارتفعت أصواتهما، فقال له عمر: واللّه لأظنّك قد صَبَّأت، ولو أعلم ذلك منك لبدأت بك. فلما رأى نعيم أنه غير منتهٍ قال: أما إن أهلك قد أسلموا وتركوك وما أنت عليه. فلما سمع ذلك نفر وقال: أيهم؟ قال: ختُّك وابنُ عمِّك وأختُك، فانطلق إلى أخته، وقد كان رسول الله ﷺ اجتمع عليه طائفة من ذوي الفاقة من أصحابه، فقال لأولي السَّعة:

(١) ل: «من».

(٢) الأخشبان: جبلان يضافان إلى مكة تارة، وإلى منى تارة، أحدهما أبو قبيس، والآخر قيقعان.

يا فلان، فليكن عندك فلان. فوافق ابن عمّ عمر وختنه سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيْل، قد دفع إليه رسول الله ﷺ خَبَابَ الْأَرْثِ مولى أم أنمار حليف بني زُهْرَة، وقد أُنْزِلَتْ سورة «طه». فأقبل عمر حتى انتهى إلى باب دار أخته ليتعرّف ما بلغه، فإذا خَبَابٌ عند أخته يَدْرُسُ عليها سورة «طه»، و«إذا الشمس كُوِّرَتْ»، فلما دخل عمرُ أَحْذَرْتُهُ أخته، وعرفت الشرّ في وجهه، وَخَبَأَتِ الصحيفة، وراغ خَبَابٌ فدخل البيت، فقال عمر لأخته: ما هذه الْهَيْئَةُ^(١)؟ قالت: حديثٌ نتحدّثُ به بيننا، فحلف ألا يبرحَ حتّى يتبيّن شأنها. فقال له زوجها: إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَجْمَعَ النَّاسَ عَلَى هَوَاكَ يَا عَمِّي، وَإِنْ كَانَ الْحَقُّ سِوَاهُ. فَبَطَشَ بِهِ عَمْرُ، ووطئه وطيناً شديداً، فقامت أختُ عمر تحجّز بينهما، فَتَفَحَّهَا بِيَدِهِ فَشَجَّهَا، فلما رأت الدّمَ قالت: هل تسمع يا عمر! أَرَأَيْتَ كُلَّ شَيْءٍ بَلَغَكَ عَنِّي مِمَّا يُذَكِّرُ مِنْ تَرْكِي آلِهَتِكَ وَكُفْرِي بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى فَهُوَ حَقٌّ! وَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَتَيْتُكَ أَمْرَكَ، وَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ. فلما رأى عمرُ ذَلِكَ سَقَطَ فِي يَدِهِ^(٢)، فقال لأخته: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَدْرُسِينَ أَنْفَا؟ أَعْطَيْتُكَ مَوْثِقًا لَا أَمْحُوهُ حَتَّى أَرِدَهُ إِلَيْكَ، وَلَا أَخُونُكَ فِيهِ. فلما رأت أخته حِرْصَهُ عَلَى الْكِتَابِ رَجَتْ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لِدَعْوَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فقالت له: إِنَّكَ نَجِسٌ، وَلَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ. فقام واغتسل من الجنابة وأعطاهَا مَوْثِقًا، فَاطْمَأْنَنْتَ بِهِ وَدَفَعْتَ إِلَيْهِ الصَّحِيفَةَ، فَقَرَأَ «طه» حتّى بلغ: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [سورة طه: ١٥، ١٦]. وقَرَأَ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ كُوِّرَتْ﴾ حتّى انتهى إلى قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [سورة التكويد: ١-١٤]. فَأَسْلَمَ عِنْدَ ذَلِكَ، وَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ. وَخَلَعَ الْأَنْدَادَ وَكَفَرَ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى. فخرج خَبَابٌ - وكان داخلاً في البيت - مكبراً، وقال: أَبَشِّرْ بِكَرَامَةِ اللَّهِ يَا عَمْرُ! فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَا أَنْ يُعَزَّيَ اللَّهُ بِكَ الْإِسْلَامَ، فقال عمر: دُلُّونِي عَلَى الْمَنْزِلِ الَّذِي فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فقال له خَبَابٌ: هو في الدار التي في أَصْلِ الصَّفَا، فأقبل عمرُ وقد بلغ رسول الله ﷺ أن عمر يطلبه ليقْتله، ولم يبلغه إسلامه. فلما انتهى عمرُ إلى الباب ليستفتح، رآه رسول الله ﷺ متقلداً سيفه، فأشفقوا منه، فلما رآه حمزة وحده، قال: افتحوا، فَإِنْ كَانَ اللَّهُ يَرِيدُ بِعَمْرٍ خَيْرًا اتَّبِعْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَصَدِّقَهُ؛ وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ قَتَلْنَاهُ بِسَيْفِهِ، وَيَكُونُ قَتْلُهُ عَلَيْنَا هَيْئًا. فابتدره رجال من

(١) الهينة: الصوت الخفي.

(٢) أسقط في يده: ندم.

أصحاب رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ يوحى إليه، فسمع صوت عمر، فخرج ليس عليه رداء حتى أخذ بمجمع رداء عمر وقميصه، وقال له: أما والله ما أراك تنتهي يا عمر حتى ينزل الله عز وجل بك من الزجر ما أنزله بالوليد بن المغيرة! ثم قال: «اللهم اهد عمر». فضحك عمر وقال: يا رسول الله، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنت محمداً عبده ورسوله. فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها من وراء الدار، والمسلمون يومئذ بضعة وأربعون رجلاً وإحدى عشرة امرأة، ثم قال عمر: يا رسول الله، نحن بالإسلام أحق أن نبادى متاً بالكفر، فليظهرن دين الله عز وجل بمكة، فخرج عمر وجلس في المسجد وصلى علانية وأظهر الإسلام، فلم يزل الدين عزيزاً منذ أسلم عمر رضي الله عنه.



وأما إسلام عثمان، فإنه روي أن عثمان بن عفان رحمه الله قال: دخلت على جدتي^(١) بنت عبد المطلب أعودها، فإني لعندها إذ جاء رسول الله ﷺ يعودها، فجعلت أنظر إليه وقد نشر من شأنه حينئذ شيئاً، فأقبل عليّ فقال: ما شأنك يا عثمان، فجعل لي إلى الكلام سبيلاً، فقلت: أعجب منك ومن مكانك فينا وفي قومك، وما يقال عليك! فقال: لا إله إلا الله. فالله يعلم أنني اقشعرت. ثم قال: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلِ مَا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ﴾ [سورة الذاريات: ٢٢، ٢٣]، فقام، فقامت في أثره، فأسلمت.

(١) هي البيضاء بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ.

مساويء من ارتد عن الإسلام

منهم جبلة بن الأيهم الغساني. لما افتتحت الشام، ونظر جبلة إلى هذي المسلمين ووقارهم، أحبّ الدخول في الإسلام، فسار نحو المدينة إلى عمر بن الخطّاب رحمه الله، فلما بلغ عمر قدومه قال للمهاجرين: استقبلوه، وأظهروا تعظيمه وتبجيله، فإنه قريب العهد بالملك، فاستقبله الناس، وأظهروا برّه، وأقبل جبلة حتى دخل على عمر رضي الله عنه.

فقرّب مجلسه وأذناه، ووعدّه من نفسه خيراً فأسلم. وأقام بالمدينة. حتى إذا حضر أوان الموسم حجّ عمر رحمه الله، وخرج معه جبلة، فبينما هو يطوف بالبيت مُحَرِّماً، وعليه إزاران، قد تردّى بواحد^(١)، واتّزر بالآخر، إذ وطىء رجل طرف إزاره، فانحلّ عنه حتى بدت عورته، فغضب ووثب على الرجل فلطمه، فتعلّق به الرجل وجماعة معه وانطلقوا به إلى عمر رضي الله عنه، وشهدوا عليه، فقال عمر: أقد الرجل أو استوهب [نفسك]^(٢) منه، فقال جبلة: وكذلك هذا الدين لا يُفَضَّل فيه شريف على وضيع، ولا ملك على سُوقَة! قال عمر: قال الله تعالى، وقوله الحقّ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَقَكُمْ﴾ [سورة الحجرات: ١٣]. إنّ الناس شريفهم ووضيعهم في الحقّ سواء. فانصرف جبلة، فلما جنّ عليه الليل، خرج في حشمه وعياله؛ حتى لحقوا بأرض الشام مرتدّاً عن الإسلام.

فكتب عمر إلى أبي عبيدة بن الجراح، فأمره أن يستتب جبلة، فإن تاب وإلا ضرب عنقه. وبلغ ذلك جبلة، فخرج من أرض الشام حتّى دخل أرض الرّوم؛ وأتى الملك، فأخبره بأمره، ورجوعه إلى النّصرانية، فسرّ الملك بقدومه، واستخلفه على مُلكه، وجعله جائر الأمر في سلطانه، [وأقطعهُ حيث شاء، وأجرى عليه من النزل ما شاء، وجعله من محدّثيه وسَمّاره]^(٣)؛ فأقام عنده، فلما ولي معاوية بن أبي سفيان بعث رجلاً من الأنصار - يقال له تميم بن بشر^(٤) - إلى قيصر ملك الرّوم في بعض أموره.

(١) ك: «بأحدهما».

(٢) تكملة يقتضيها السياق، وفي الأغاني: «فلما أن ترضي الرجل أو أقيده منك».

(٣) من ل.

(٤) في خزائن الألب: «جثامة بن مساحق الكناني».

قال تميم: فلما دخلتُ على قيصرٍ أبلغتهُ الرِّسالةَ، وجلسْتُ عنده، فحدَّثني^(١) مَلِيًّا ثم قال: هل لك في لقاء رجلٍ من العرب من أهل بيت الملك؟ فقلت: ومَنْ هو؟ قال: جَبَلَةُ بن الأيهم؛ قلت: إن لي في ذلك أَمَلًا^(٢)، وإني لرجُلٌ من قومه. فبعث معي رجلاً حتى أدخلني عليه وهو في مجلس له يغشى العيونُ حُسْنُهُ وكَثْرَةُ تَصَاوِيرِهِ^(٣)، مطليَّةٌ حيطائه بماء الذهب والفضَّة، يتلألُ تَلألُؤًا، وحوله نفرٌ من بطارقة الرُّوم، فسألني: مَنْ أنا؟ فانتسبتُ له، فقال: حيَّاكَ اللهُ، فإننا بنو عم! ثم أمر جُلَسَاءَهُ فخرجوا من عنده، وخَلَا بي يسألني عن العرب وأماكنها، فخبَّرتهُ بجميع ما سألني عنه، فبكى حتى خَضَلَتْ لحيتهُ الدموعُ، ثم أنشأ يقول:

تَنَصَّرْتُ بَعْدَ الدِّينِ مِنْ عَارِ لَطْمَةٍ ^(٤)	وَمَا كَانَ مِنْهَا لَوْ صَبَرْتُ لَهَا ضَرَرٌ
تَكْتَفِنِي مِنْهَا لَجَاجٌ وَنَخْوَةٌ	وَبَعَثَ بِهَا الْعَيْنَ الصَّحِيحَةَ بِالْعَوْرِ ^(٥)
فِيَا لَيْتَ أُمِّي لَمْ تَلِدْنِي وَلَيْتَنِي	ثَوَيْتُ أَسِيرًا فِي رَبِيعَةٍ أَوْ مُضَرٍّ!
وَيَا لَيْتَنِي أَرَعَى الْمَخَاضَ بِقَفْرَةٍ	وَلَمْ أُنْكَرِ الْقَوْلَ الَّذِي قَالَهُ عُمَرُ
وَيَا لَيْتَ لِي بِالشَّامِ أَدْنَى مَعِيشَةٍ	أَجَالِسُ قَوْمِي فِي الْعَشِيَّاتِ وَالْبُكْرِ ^(٦)
أَدِينُ بِمَا دَانُوا بِهِ مِنْ شَرِيعَةٍ	وَقَدْ يَجْلِسُ الْعَيْرُ الضَّجُورُ عَلَى الدَّبَرِ

قال: ثم دعا بغداده، فتغدَّينا، فلما فرغنا خرجت علينا جاريتان في يد إحداهما بَرَبَطٌ^(٧) وفي يد الأخرى مزمارٌ، فجلسنا، ثم خرجت علينا جاريتان في يد إحداهما جامٌ^(٨) فيه مِسْكٌ مسحوق، وفي يد الأخرى جامٌ مملوءٌ ماء ورد، ثم أقبل طائران كانا شبيهين بطاووسين أو تُدْرَجِينَ^(٩)، فسقطا في الجام، واحتملا المِسْكُ بجناحيهما، فرشاه علينا.

وقال جَبَلَةُ للمغنيتين: غَنِّيَانَا، فغَنَّتَاهُ:

لَمَنْ الدَّارُ أَقْفَرْتُ بِمَعَانٍ بَيْنَ أَعْلَى الْيَزْمُوكِ فَالْصَّمَانِ^(١٠)

(١) ك، ل: «فجذبني».

(٢) ك: «وكثرة التصاویر فيه».

(٣) الأغاني والخزانة: «تنصرت الأشراف من عار لطمه».

(٤) الخزانة: «وكننت كمن باع الصحيحة بالعور».

(٥) الأغاني: «أجالس قومي ذاهب السمع والبصر».

(٦) البربط: العود (مغرب).

(٧) الجام: «إناء من الفضة».

(٨) التدرج: طائر.

(٩) لحسان، ديوانه ٤١٤: ومعان، بالفتح، والمحدثون يقولون بالضم: مدينة في طرف بادية الشام

ذاك مغنى لآل جفنة في الدهر ر، وحقّ تصرّف الأزمان
قد أراني هناك حقاً مكيّناً عند ذي التاج مفعدي ومكاني
قال: ثم بكى حتى خضلت دموعه لحيته، ثم قال: غيّاني، فغنتنا:

لله درّ عصابة نادمتهم يوماً بجلّق في الزمان الأوّل^(١)
أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل
يسقون من هبط البريص عليهم^(٢) بردى يصفق بالرحيق السلسل^(٣)
يغشون حتى ما تهرّ كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل
بيض الوجه كريمه أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأوّل

ثم قال لي: ما فعل ابن الفريعة^(٤)! يعني حسان بن ثابت. قلت: حيّ إلا أنه كُفّ بصره، فوجد من ذلك وجداً شديداً وبكى، وقال لخدام له: انطلق فأتني بأربعمائة دينار، فأناه بها فناولنيها، وقال: أوصلها إلى حسان. ثم ودّعته وخرجت حتى أتيت معاوية فأخبرته بجواب رسالة قيصر، ثم سرت من الشام حتى أتيت المدينة ولقيت حساناً، ودفعته إليه الدنانير، فقال:

إن ابن جفنة من بقيّة معشر لم يغذهم أبائهم باللوم
لم ينسني بالشام إذ هو ربّها يوماً ولا متنصّراً بالروم
يُعطي الجزيل فما يراه عنده إلا كبعض عطية المذموم
ما جئته إلا وقرب مجلسي ودعا بأفضل زاده المطعموم

تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء. والصمان - وهي رواية ياقوت والأغاني والخزانة - من نواحي الشام بظاهر البلقاء، وفي ديوانه «الخممان»؛ وهي من نواحي البشنية من أرض الشام. وفي الأصلين: «المسربات»، تحريف.

(١) ديوانه ٣٠٨.

(٢) البريص: نهر بدمشق.

(٣) أي ماء بردى، وهو نهر بدمشق أيضاً.

(٤) هي الفريعة، بالتصغير، بنت خالد بن حبيش، خزرجية، أدركت الإسلام وأسلمت وبايعت. الإصابة ١: ٣٢٥.

رواية الأغاني:

وأنيته يوماً فقرب مجلسي وسقّى فرواني من الخرطوم
والخبر هناك مفصلاً في ١٤: ٢ - ٧ (ساسي)، وفي الخزانة ٢: ٢٤٢ - ٢٤٥.

محاسن المفاخرة

قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر».

وقال يوسف عليه السلام: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ [سورة يوسف: ٥٥].

قيل: وسمع رسول الله ﷺ رجلاً يشد:

إني امرؤ حميري حين تنسبني لا من ربيعة آبائي ولا مضر
فقال: ذلك الأم لك وأبعد من الله ورسوله!
وقال ﷺ: «إذا اختلف الناس فالحق مع مضر».
وقال:

إذا مضر الحمراء كانت أرومتي وقام بنصري خازم وابن خازم^(١)
عطست بأنفي شامخاً وتناولت^(٢) يداي الثريا قاعداً غير قائم

شعيب بن إبراهيم، قال: حدثني سيف بن عمر، عن علي بن يزيد، عن عبد الله بن الحارث، عن المطلب بن ربيعة، قال: مرَّ العباس بنفر من قريش وهم يقولون: إنما مثل محمد ﷺ في أهله، كمثل نخلة نبتت في كبا^(٣). فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فوجد منه، وخرج حتى قام فيهم خطيباً فقال: «أيها الناس، من أنا؟» قالوا: أنت رسول الله، قال: «فأنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله عز وجل خلق خلقه، فجعلني من خير خلقه، ثم جعل الخلق الذين أنا منهم فرقتين، فجعلني من خير الفرقتين، ثم جعلهم شعوباً، فجعلني من خيرهم شعباً، ثم جعلهم بيوتاً فجعلني من خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً وخيركم والداً، وإني مباه! قم يا عباس»، فقام عن يمينه، ثم قال: «قم يا سعد^(٤)»،

(١) لخزيمة بن خازم، الأغاني ٥: ٥٣ (ساسي)؛ ورواية البيت الأول فيه:

إذا كانت الأحرار أصلي ومُنْصَبِي ودافع ضيومي خازم وابن خازم
(٢) الأغاني: «بأنف شامخ».

(٣) الكبا: الكناسة.

(٤) هو سعد بن مالك بن وهب بن عبد مناف بن زهرة.

فقام عن يساره، ثم قال: «ليقرَّب امرؤ من الناس عمَّا مثل هذا، أو خالاً مثل هذا»!



حدثنا سنان بن الحسن التُّسْتَرِيّ قال: حدثنا إسماعيل بن مهران اليشكري، قال: حدثنا أحمد بن محمد، عن أبان بن عثمان، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن علي بن أبي طالب، قال: لما أُمِرَ رسول الله ﷺ أن يعرض نفسه على القبائل خرج وأنا معه ومعه أبو بكر - وكان أبو بكر عالماً بأنساب العرب - فدفَعْنَا^(١) إلى مجلس من مجالس العرب، عليهم الوُفَّار والسكينة، فتقدَّم أبو بكر وسلَّم عليهم، فردُّوا عليه [السلام]^(٢)، فقال: مِمَّن القوم؟ قالوا: من ربيعة، فقال: أَمِنْ هَامَتِهَا، أم من لهازِمِهَا^(٣)؟ قالوا: بل من هَامَتِهَا العُظْمَى، قال: وأي هَامَتِهَا؟ قالوا: ذُهل، قال: أذُهل الأكبر أم ذُهل الأصغر؟ قالوا: بل ذُهل الأكبر، قال: أَمِنْكُمْ عَوْفُ الَّذِي كان يقول^(٤): «لا حُرَّ بَوَادِي عَوْفٍ». قالوا: لا. قال: أَمِنْكُمْ بِسْطَامُ بْنُ قَيْسٍ صاحب اللِّوَاءِ ومنتهى الأحياء؟ قالوا: لا. قال: أَمِنْكُمْ جَسَّاسُ بْنُ مَرَّةٍ حامي الدِّمارِ ومانع الجار؟ قالوا: لا. قال: أَمِنْكُمْ الْمُزْدَلِفُ صاحب العمامة الفردة؟ قالوا: لا. قال: فأنتم أحوال الملوك من كندة؟ قالوا: لا، قال: فأصهارُ الملوك من لَحْمٍ؟ قالوا: لا. قال: فليستُم من ذُهل الأكبر إذاً، أنتم ذُهل الأصغر! فقام إليه غلام أعرابي حين بَلَ وَجْهَهُ^(٥)، فأخذ بزمام ناقته ورسولُ الله ﷺ على ناقته يسمع مخاطبته، فقال:

لَنَا عَلَى مَنْ سَأَلْنَا أَنْ نَسْأَلَهُ^(٦) وَالْعَبَاءُ لَنْ تَعْرِفَهُ أَوْ تَحْمِلَهُ
يا هذا، إنك سألتنا أيَّ مسألة شئت فلم نكتُمك شيئاً، فأخبرنا ممَّن أنت؟ فقال أبو بكر: من قريش؟ قال: بخ بخ! أهل الشرف والرياسة! فأخبرني من أيِّ قريش أنت؟ قال: من تميم بن مَرَّةٍ، قال: أَمِنْكُمْ قُصَيُّ بْنُ كِلَابِ الَّذِي جَمَعَ الْقَبَائِلَ مِنْ فِهْرٍ، فكان يقال له: مَجْمَعًا؟ قال أبو بكر: لا. قال: أَمِنْكُمْ هَاشِمُ الَّذِي قال فيه الشاعر:

عَمَرُوا الْعُلَا هَاشِمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ وَرَجَالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ عَجَافُ!^(٧)

(١) ك: «فوقفنا على مجلس».

(٢) الهامة: الرأس، واللهزمة: عظم ناتئ في اللحي تحت الأذن؛ والكلام على التمثيل.

(٣) ل: «يقال».

(٤) يقال وجه الغلام: «إذا ظهر شعره» وفي مجمع الأمثال: «يقال له دغفل».

(٥) مجمع الأمثال للميداني: «إن على سائلنا».

(٦) أمالي المرتضى ٢: ٢٦٩، ونسبه إلى ابن الزبيري.

قال أبو بكر: لا؛ قال: أفمنكم شبيهة الحمد؛ الذي كان وجهه كالقمر يضيء ليلة الظلمة الداجنة، مطعم طير السماء! قال: لا. قال: أفمن المفيضين^(١) بالناس أنت؟ قال: لا. قال: أفمن أهل الرفادة^(٢) أنت؟ قال: لا. قال: أفمن أهل السقاية أنت؟ قال: لا. قال: أفمن أهل الحجابة أنت؟ قال: لا. قال: أما والله لو شئت لأخبرتك أنك لست من أشرف قريش! فاجتذب أبو بكر زمام ناقته منه كهيئة المغضب، فقال الأعرابي:

صادف درّ السيد درّ يدفعه في هضبة ترفعه وتضعه
فتبسّم رسول الله ﷺ. قال عليّ: فقلت: يا أبا بكر، إنك لقد وقعت من هذا الأعرابي على باقة! فقال: أجل يا أبا الحسن، ما من طامة إلا فوقها طامة، وإن البلاء موكّل بالمنطق^(٣).

(١) أفاض: اندفع؛ وكانوا يفيضون من عرفات إلى مكة بالتلبية.

(٢) الرفادة: شيء كانت قريش تترافد به في الجاهلية، فيخرج كل إنسان مالا بقدر طاقته؛ فيجمعون من ذلك مالا عظيماً أيام الموسم فيشترون به للحجاج الطعام؛ فلا يزالون يطعمون الناس حتى تنقضي أيام الحج، وكانت الرفادة والسقاية لبني هاشم، وأول من قام بها هاشم بن عبد مناف، وكانت السدانة واللواء لبني عبد الدار.

(٣) المثل والخبر في مجمع الأمثال ٤: ١٦، ١٧.

محاسن كلام الحسن بن علي رضي الله عنه

قيل: وأتى الحسن بن علي رضي الله عنهما معاوية بن أبي سفيان، وقد سبقه ابن عباس، فأمر معاوية فأنزل، فبينما معاوية مع عمرو بن العاص ومروان بن الحَكَم، وزياد بن أبي سفيان يتحاورون في قديمهم وحديثهم ومجدهم، فقال معاوية: أكثرتم الفخر، فلو حضركم الحسن بن علي وعبد الله بن عباس لقصّرا من أعنتكما ما طال. فقال زياد: وكيف ذلك يا أمير المؤمنين؟ ما يقومان لمروان بن الحكم في غرب^(١) منطقته، ولا لنا في بواذخنا، فابعث إليهما في غد حتى تسمع كلامهما. فقال معاوية لعمرو: ما تقول؟ قال: هكذا، فابعث إليهما في غد.

فبعث إليهما معاوية ابنه يزيد، فأتياه ودخلا عليه، وبدأ معاوية فقال: إني أجلكما وأرفع قدركما عن المسامرة بالليل، ولا سيما أنت يا أبا محمد، فإنك ابن رسول الله، وسيّد شباب أهل الجنة. فشكرا له^(٢).

فلما استويا في مجلسهما، وعلم عمرو أن الحدة ستقع به، قال: والله لا بدّ أن أقول، فإن قهرت فسيل ذلك، وإن قهرت أكون قد ابتدأت. فقال: يا حسن، إنا تفاوضنا. فقلنا: إن رجال بني أمية أصبر عند اللقاء وأمضى في الوغى، وأوفى عهداً، وأكرم خيماً، وأمنع لما وراء ظهورهم من بني عبد المطلب!

ثم تكلم مروان فقال: وكيف لا نكون كذلك، وقد قارعناكم فغلبناكم، وحاربناكم فملكناكم، فإن شئنا عفونا، وإن شئنا بطشنا!

ثم تكلم زياد فقال: ما ينبغي لهم أن ينكروا الفضل لأهله، ويحجدوا الخير في مظانه، نحن أهل الحملة في الحروب، ولنا الفضل على سائر الناس قديماً وحديثاً.

(١) الغرب هنا: حدة اللسان، وقوة العارضة.

(٢) التشكر والشكر بمعنى؛ وفي المحاسن والأضداد: «فشكراً له».

فتكلّم الحسن رضي الله عنه فقال: ليس من العجز أن يصمّت الرجل عند إيراد الحجّة، ولكنّ من الإفك أن ينطق الرجل بالخنأ^(١)، ويصوّر الباطل بصورة الحقّ، يا عمرو، افتخاراً بالكذب وجراءة على الإفك! ما زلت أعرف مثالبك الخبيثة، أبديها مرة وأمسك عنها أخرى، فتأبى إلّا انهماكاً في الضلالة. أتذكر مصابيح الدجى، وأعلام الهدى، وفُرسان الطراد، وحُتوف الأقران، وأبناء الطعان وربيع الضيفان، ومعدن النبوة ومهبط العلم! وزعمتم أنكم أحمى لما وراء ظهوركم، وقد تبين ذلك يوم بدر حين نكصت الأبطال وتساورت الأقران، واقتحمت الليوث، واعتزكت المنية، وقامت راحاها على قُطبها، وافتترت عن نابها، وطار شرار الحرب، فقتلنا رجالكم، ومنّ النبي ﷺ على ذراريكم؛ فكنتم لعمري في هذا اليوم غير مانعين لما وراء ظهوركم من بني عبد المطلب!

ثم قال: وأمّا أنت يا مروان، فما أنت والإكثار في قريش! وأنت طليق، وأبوك طريد، يتقلّب من خزية إلى سوء، ولقد جيء بك إلى أمير المؤمنين [يوم الجمل]^(٢) فلما رأيت الضرغام قد دميّت برائته، واشتبت أنيابه كنت كما قال:

ليث إذا سمع الليوث زئيره بصبصن ثم قدفن بالأبعار^(٣)
- ويروى: «رَمَيْنَ بالأبعار»^(٤).

فلما منّ عليك بالعفو، وأرخى خناقك بعدما ضاق عليك، وغصبت بريقك؛ لم تقعد منّا مقعد أهل الشكر، ولكن تساوينا وتجارينا، ونحن ممن لا يدركنا عارٌ، ولا يلحقنا خزية. ثم التفت إلى زياد فقال: وما أنت يا زياد وقريشاً! لا أعرف لك فيها أديماً صحيحاً، ولا فرعاً نابتاً^(٥)، ولا قديماً ثابتاً، ولا منبتاً كريماً؛ بل كانت أمك بغياً، تداولها رجال قريش، وفجار العرب، فلما وُلدت لم تعرف لك العرب والداً، فادّعاك هذا - يعني معاوية - بعد ممات أبيه، ما لك افتخار^(٦)! تكفيك سُميّة، ويكفينا رسول الله ﷺ. وأبي عليّ بن أبي طالب سيّد المؤمنين الذي لم يرتدّ على عقبه، وعمّي حمزة سيّد الشهداء وجعفر الطيّار، وأنا

(١) الخنا: القبيح من الكلام.

(٢) تكملة من المحاسن والأضداد.

(٣) أي تحرك ذنبهن خوفاً.

(٤) وهي رواية المحاسن والأضداد.

(٥) ك: «ثابتاً».

(٦) المحاسن والأضداد: «فما لك والافتخار».

وأخي سيّدا شباب أهل الجنة. ثم التفت إلى ابن عباس فقال: يابن العمّ، إنما هي بُغاث الطير انقضّ عليها أجدل^(١). فأراد ابن عباس أن يتكلّم، فأقسم عليه معاوية أن يكفّ فكفّ، ثم خرّجا.

فقال معاوية: أجاد عمرو الكلام لولا أن حجّته^(٢) دحضت، وتكلّم مروان لولا أنّه نكص، ثم التفت إلى زياد، وقال: ما دعاك إلى محاورته! ما كنت إلا كالحجل في كفّ البازي. فقال عمرو: ألا رميت من ورائنا! قال معاوية: إذا كنت شريككم في الجهل! أأفأخّر رجلاً رسول الله جدّه، وهو سيّد من مضى ومن بقي، وأمّه فاطمة الزهراء سيّدة نساء العالمين! ثم قال لعمرو: والله لئن سمع به أهل الشام لهي السوءة السوءاء، فقال عمرو: لقد أبقى عليك، ولكنّه طحن مروان وزياداً طحن الرّحاً بثفالها^(٣)، ووطئها وطء البازل القراد بمنسمه^(٤)، فقال زياد: قد والله فعل، ولكنّ معاوية يأبى إلا الإغراء بيننا وبينهم. لا جرّم والله! لا شهدت مجلساً يكونان فيه إلا كنت معهما على من فآخرهما.

فخلا ابن عباس بالحسن، فقبل بين عينيه، وقال: أفديك يابن عمّ! والله ما زال بحرك يزخر وأنت تصول؛ حتى شفيتني من أولاد البغايا.



ثم إنّ الحسن رضي الله عنه غاب أياماً؛ ثم رجع حتى دخل على معاوية، وعنده عبد الله بن الزبير. فقال معاوية: يا أبا محمد، إنّي أظنك تعباً نصيباً، فأنت المنزل فأرح نفسك، فيه. فقام الحسن، فلما خرج قال معاوية لعبد الله بن الزبير: لو افتخرت على الحسن فإنّك ابن حواري رسول الله ﷺ وابن عمّته، ولأبيك في الإسلام نصيب وافر. فقال ابن الزبير: أنا له، فرجع وهو يطلب ليلته الحجج.

فلما أصبح دخل على معاوية، وجاء الحسن فحيّاه معاوية وسأله عن مبيته، فقال: خير مبيت، وأكرم مُستفّاض، فلما استوى في مجلسه، قال ابن الزبير: لولا أنّك حوَّار في الحرب، غير مُقدّام ما سلّمت لمعاوية الأمر، وكنت لا تحتاج إلى

(١) الأجل: الصقر.

(٢) دحضت الحجة: بطلت.

(٣) في اللسان: «الثفال، بالكسر: الجلد الذي يبسط تحت الرحا اليد ليقى الطحين من التراب. وفي حديث علي: وتدقهم الفتن دق الرحا بثفالها؛ هو من ذلك؛ والمعنى أنها تدقهم دق الرحا للحب؛ إذا كانت مثقلة، ولا تثفل إلا عند الطحن».

(٤) البازل: البعير إذا دخل في التاسعة، والمنسم: الخف؛ وهو للبعير بمنزلة الظفر للإنسان.

اختراق السُّهوب، وقَطْع المفاوز تطلب معروَفَه، وتقوم ببابه، وكنت حَرِيًّا أَلَا تفعل ذلك، وأنت ابنُ عليٍّ في بأسه ونَجْدته، فما أدري ما الذي حملَكَ على ذلك! أضعِفُ رأي، أم وَهَنُ نَحِيْزَة! فما أَظُنُّ لك مَخْرَجاً من هاتين الخَلَّتَيْنِ. أما واللَّهِ لو استَجْمع لي ما استَجْمع لك لعلِمْتَ أَنِّي ابنُ الزبير، وأني لا أنْكَصُ عن الأبطال، وكيف لا أكون كذلك وجدَّتي صَفِيَّةُ بنتُ عبد المطلب، وأبي الزبير حَوَارِيَّ رسول الله ﷺ، وأشدُّ الناس بأساً، وأكرمُهم حَسَباً في الجاهلية، وأطوعُهم لرسول الله ﷺ!

فالتفت إليه الحسن وقال: أما واللَّهِ لولا أنَّ بني أُمَيَّةَ تنسُبُني إلى العجز عن المقال لكففتُ عنكَ تهاوُّناً، ولكن سأبيِّن ذلك لِتَعْلَمَ أَنِّي لستُ بالعيِّ ولا الكليل اللسان. إِيَّاي تُعَيِّر، وعليَّ تفتخر، ولم يكن لجدِّك بيت في الجاهلية ولا مَكْرُمة، فزَوَّجَتْهُ^(١) جدَّتي صَفِيَّةُ بنتُ عبد المطلب، فبذخ على جميع العرب بها، وشَرُفَ بمكانها! فكيف تُفاخِرُ مَنْ هو من القِلادة واسِطتها، ومن الأشراف سادتها! نحن أكرمُ أهل الأرض زُنداً؛ لنا الشرف الثاقب، والكرم الغالب. ثم تَزْعُمُ أَنِّي سلَّمت الأمر، فكيف يكون ذلك - ويحك - كذلك، وأنا ابن أشجع العرب، وقد ولدتني فاطمةُ سيِّدة نساء العالمين وخير الإماء! لم أفعل ذلك - وَيَحْكُ - جُبناً ولا ضعفاً! ولكنَّه بايَعني مثلك وهو يطلبني ببرِّه، ويداجيني المودَّة ولم أثق بنصرتي، لأنَّكم أهل بيتٍ غَدْر، وكيف لا تكونُ كما أقول، وقد بايع أبوك أمير المؤمنين، ثم نكثَ بيعته، ونكصَ على عَقْبِيهِ، واختدَعَ حَشِيَّةً من حَشَايا رسول الله ﷺ لِيُضِلَّ بها الناس، فلمَّا دَلَفَ نحو الأَعْنَةِ؛ ورأى بَرِيقَ الأَسْتَةِ، قُتِلَ مَضِيعَةً^(٢) لا ناصرَ له، وأُتِيَ بك أسيراً قد وطئتكَ الكُماةُ بأظلافها، والخيلُ بسَنَابِكها، واعتلاك الأَشْتَر، فَغَصَصْتَ بريقك، وأقَعَيْتَ على عَقْبِيكَ كالْكَلْبِ إذا احتَوَشَتْهُ اللُّيُوثُ! فنحن - وَيَحْكُ - نورُ البلادِ وأَملاكُها، وبنا تُفخر الأُمّة، وإلينا تُلقَى مَقَالِيدُ الأَزِمَةِ؛ أتُصول وأنت تختدِعُ النساء، ثم تفتخِر على بني الأنبياء! لم تزل الأَقاويلُ مِنَّا مُقبولةً، وعليك وعلى أهلك مردودة. دخل الناس في دين جدِّي طائعين وكارهين، ثم بايعوا أمير المؤمنين رضي الله عنه، فسار إلى أبيك وطلحة حين نكثا البيعة، وخذعا عُرْسَ رسول الله ﷺ، فَقَتِلَ أبوك وطلحة، وأُتِيَ بك أسيراً، فَغَصَصْتَ بَذَنبِكَ.

(١) ك، ل: «فزوجه»، وفي المحاسن والأضداد: «ولم يك لجدك في الجاهلية مكرمة إلا تزوجه جدتي صفية».

(٢) المحاسن والأضداد: «بمضيعة».

وَنَاشَدَتْهُ الرَّحْمَ أَلَّا يَقْتُلَكَ، فَعَفَا عَنْكَ، فَأَنْتَ عَتَاةٌ أَبِي، وَأَنَا سَيِّدُكَ وَسَيِّدُ أَبِيكَ، فَذُقْ وَبَالَ أَمْرِكَ!

فَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: اعْذِرْ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ؛ فَإِنَّمَا حَمَلَنِي عَلَى مُحَاوَرَتِكَ هَذَا، وَأَحَبُّ الْإِغْرَاءِ بَيْنَنَا، فَهَلَّا إِذْ جَهِلْتُ أَمْسَكَتَ عَنِّي، فَإِنَّكُمْ أَهْلُ بَيْتِ سَجِيَّتِكُمُ الْحِلْمَ وَالْعَفْوَ. فَقَالَ الْحَسَنُ: يَا مُعَاوِيَةَ، انْظُرْ، هَلْ أَكْبَعُ^(١) عَنْ مُحَاوَرَةِ أَحَدٍ؟ وَيَحْكُ! أَتَدْرِي مِنْ أَيِّ شَجَرَةٍ أَنَا؟ وَإِلَى مَنْ أَتَمِّي؟ أَتَنْتَه قَبْلَ أَنْ أَسِمَكَ بِمِيسَمٍ تَتَحَدَّثُ بِهِ الرُّكْبَانُ، فِي الْآفَاقِ وَالْبُلْدَانِ.

فَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: هُوَ لَذَلِكَ أَهْلٌ.

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ شَفَا بِلَابِلَ صَدْرِي مِنْكَ، وَرَمَى مَقْتَلَكَ، فَصُرْتَ كَالْحَجَلِ فِي كَفِّ الْبَازِي يَتَلَاعَبُ بِكَ كَيْفَ أَرَادَ! فَلَا أَرَاكَ تَفْتَخِرُ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَهَا^(٢).



وَذَكَرُوا أَنَّ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ دَخَلَ عَلَى مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ مَتَمَثِّلًا:

فِيمَ الْكَلَامِ وَقَدْ سَبَقَتْ مَبْرُزًا سَبَقَ الْجَوَادُ مِنَ الْمَدَى وَالْمِقْوَسِ^(٣)

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: إِيَايَ تَعْنِي؟ أَمَا وَاللَّهِ لِأَنْبِئْتُكَ بِمَا يَعْرِفُهُ قَلْبُكَ وَلَا يَنْكَرُهُ جِلْسَاؤُكَ. أَنَا ابْنُ بَطْحَاءِ مَكَّةَ، أَنَا ابْنُ أَجَوْدِهَا جُودًا، وَأَكْرَمُهَا جُدودًا، وَأَوْفَاهَا عَهودًا أَنَا ابْنُ مَنْ سَادَ قَرِيشًا نَاشِئًا وَكُهْلًا. فَقَالَ الْحَسَنُ: أَجَلْ، إِيَّاكَ أَعْنِي! أَفَعَلَيْ تَفْتَخِرُ يَا مُعَاوِيَةُ؟ أَنَا ابْنُ مَاءِ السَّمَاءِ، وَعُرُوقِ الثَّرَى، وَابْنُ مَنْ سَادَ أَهْلَ الدُّنْيَا، بِالْحَسَبِ الثَّابِتِ^(٤)، وَالشَّرَفِ الْفَائِقِ، وَالْقَدِيمِ السَّابِقِ. أَنَا ابْنُ مَنْ رِضَاهُ رِضَا الرَّحْمَنِ، وَسُخْطُهُ سُخْطُ الرَّحْمَنِ. فَهَلْ لَكَ أَبُّ كَأَبِي، وَقَدِيمٌ كَقَدِيمِي! فَإِنْ قُلْتَ: لَا، تُغْلَبُ، وَإِنْ قُلْتَ: نَعَمْ، تَكْذَبُ. فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: أَقُولُ: لَا، تَصَدِّقًا لِقَوْلِكَ؛ فَقَالَ الْحَسَنُ:

الْحَقُّ أَبْلَجُ مَا تَخُونُ سَبِيلَهُ وَالصَّدَقُ يَعْرِفُهُ ذَوُو الْأَلْبَابِ^(٥)

(١) أَكْبَعُ: أَجْبَنُ وَأَخَافُ.

(٢) الْخَبَرُ فِي الْمَحَاسِنِ وَالْأَضْدَادِ ١٣٨ - ١٤٤.

(٣) كَذَا فِي الْمَحَاسِنِ وَالْأَضْدَادِ، وَفِي ط: «الْمَقِيسُ»، وَالْمِقْوَسُ: الْحَبْلُ الَّذِي تَصِفُ عَلَيْهِ الْخَيْلُ عِنْدَ السَّبَاقِ.

(٤) ك: «الثَّاقِبُ».

(٥) الْمَحَاسِنُ وَالْأَضْدَادُ: «وَالْحَقُّ».

ما تخون؛ أي ما تخون من ملكها.



قال: وقال معاوية ذات يوم وعنده أشراف الناس من قريش وغيرهم: أخبروني بخير الناس أباً وأمّاً، وعمّاً وعمّةً، وخالاً وخالةً، وجدّاً وجدّةً.

فقام مالك بن العجلان، فأومأ إلى الحسن، فقال: ها هو ذا؛ أبوه علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، وأُمّه فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وعمّه جعفر الطيّار في الجنان، وعمّته أم هانئ بنت أبي طالب، وخاله القاسم ابن رسول الله ﷺ، وخالته بنت رسول الله ﷺ زينب، وجدّه رسول الله ﷺ، وجدّته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها. فسكت القوم، ونهض الحسن، فأقبل عمرو بن العاص على مالك، فقال: أحبُّ بني هاشم حمّلك على أن تكلمت بالباطل! فقال ابن العجلان: ما قلت إلا حقّاً، وما أحدٌ من الناس يطلب مرضاة مخلوق بمعصية الخالق، إلا لم يُعط أمنيته في دنياه، وخُتم له بالشقاء في آخرته. بنو هاشم أنصرهم عوداً^(١)، وأوراهم زُنداً، كذلك يا معاوية! قال: اللهم نعم^(٢).



قيل: واستأذن الحسن بن علي رضي الله عنه على معاوية، وعنده عبد الله بن جعفر وعمرو بن العاص، فأذن له، فلما أقبل قال عمرو: قد جاءكم الفه^(٣) العي الذي كان بين لحييه عقلة^(٤). فقال عبد الله بن جعفر: مه! فوالله لقد رُمّت صخرة مُلملمة^(٥) تنحط عنها السيول، وتقصر دونها الوُعول، ولا تبلغها السهام. فإياك والحسن إياك! فإنك لا تزال راتعاً في لحم رجلٍ من قريش؛ ولقد رميت فما برح سهمك، وقدخت فما أورى زندك.

فسمع الحسن الكلام، فلما أخذ الناس مجالسهم، قال: يا معاوية، لا يزال عندك عبدٌ راتعاً في لحوم الناس! أمّا والله لو شئت ليكوننّ بيننا ما تتفاقم فيه الأمور، وتخرج منه الصدور، ثم أنشأ يقول:

أَتَأْمُرُ يَا مَعَاوِيَ عَبْدَ سَهْمٍ بِشَتْمِي وَالْمَلَأَ مِنَّا شُهُودًا!

(١) ساقطة من ك.

(٢) الخبر في المحاسن والأضداد ١: ١٤٥، ١٤٦.

(٣) ك: «الأفعى»، المحاسن والأضداد: «الفه».

(٤) العقلة: ما يعقل به كالقيد، وفي ط: «عبل».

(٥) ململمة، أي مستديرة.

إِذَا أَخَذْتُ مَجَالَسَهَا قَرِيشُ فَقَدْ عَلِمْتُ قَرِيشُ مَا تَرِيدُ
قَصَدْتُ إِلَيَّ تَشْتِمُنِي سَفَاهَا لِضَعْفِ مَا يَزُولُ وَمَا يَبِيدُ
فَمَا لَكَ مِنْ أَبِي كَأَبِي تُسَامِي بِهِ مَنْ قَدْ تُسَامِي أَوْ تَكِيدُ^(١)
وَلَا جَدُّ كَجَدِّي يَابْنَ هِنْدٍ رَسُولُ اللَّهِ إِنْ ذَكَرَ الْجَدُّ
وَلَا أُمُّ كَأُمِّي مِنْ قَرِيشٍ إِذَا مَا يَحْضُلُ الْحَسْبُ التَّلِيدُ^(٢)
فَمَا مِثْلِي تَهَكِّمُ يَابْنَ هِنْدٍ وَلَا مِثْلِي تُجَارِيهِ الْعَبِيدُ^(٣)
فَمَهْلًا لَا تَهْجُ مِنَّا أُمُورًا يَشِيبُ لَهْوِهَا الطُّفْلُ الْوَلِيدُ^(٤)



وذكروا أَنَّ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ قَالَ لِمَعَاوِيَةَ ذَاتَ يَوْمٍ: ابْعَثْ إِلَيَّ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ؛ فَمَرَهُ أَنْ يَخْطُبَ عَلَى الْمَنْبَرِ، فَلَعَلَّهُ يَحْصُرُ^(٥) فَيَكُونُ ذَلِكَ مِمَّا تُعَيِّرُهُ بِهِ. فَبْعَثَ إِلَيْهِ مَعَاوِيَةَ، فَأَصْعَدَهُ الْمَنْبَرِ وَقَدْ جَمَعَ النَّاسُ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ مَنْ عَرَفَنِي فَأَنَا الَّذِي يُعْرَفُ، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفَنِي فَأَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، ابْنِ عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَا ابْنُ الْبَشِيرِ النَّذِيرِ، السَّرَاجِ الْمَنِيرِ، أَنَا ابْنُ مَنْ بُعِثَ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ، وَسُخْطًا عَلَى الْكَافِرِينَ، أَنَا ابْنُ مَنْ بُعِثَ إِلَى الْجَنِّ وَالْإِنْسِ، أَنَا ابْنُ الْمُسْتَجَابِ الدَّعْوَةِ، أَنَا ابْنُ الشَّفِيعِ الْمَطَاعِ، أَنَا ابْنُ أَوَّلِ مَنْ يَنْفُضُ رَأْسَهُ مِنَ التَّرَابِ، أَنَا ابْنُ أَوَّلِ مَنْ يَفْرَعُ بَابَ الْجَنَّةِ، أَنَا ابْنُ مَنْ قَاتَلْتُ مَعَهُ الْمَلَائِكَةَ، وَنُصِرَ بِالرُّعْبِ مِنْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ.

فَافْتَنَّ^(٦) فِي هَذَا الْكَلَامِ، وَلَمْ يَزَلْ حَتَّى أَظْلَمَتِ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاوِيَةَ، فَقَالَ: يَا حَسَنُ، قَدْ كُنْتَ تَرْجُو أَنْ تَكُونَ خَلِيفَةً، وَلَسْتُ هُنَاكَ! فَقَالَ الْحَسَنُ: إِنَّمَا الْخَلِيفَةُ مِنْ سَارِ بَسِيرَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَعَمِلَ بَطَاعَةَ اللَّهِ، وَلَيْسَ الْخَلِيفَةُ مِنْ دَانَ بِالْجَوْرِ وَعَظَلِ السَّنَنِ، وَاتَّخَذَ الدُّنْيَا أَبًا وَأُمًّا، وَلَكِنْ ذَاكَ مَلِكٌ أَصَابَ مُلْكًا يَمْتَعُ بِهِ قَلِيلًا، وَكَانَ قَدْ انْقَطَعَ عَنْهُ وَاسْتَعَجَلَ لِدَّتِهِ وَبَقِيَّتِهِ عَلَيْهِ تَبِعَتُهُ، فَكَانَ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

(١) المحاسن والأضداد: «فهل لك من أب».

(٢) المحاسن والأضداد: «إذا ما حصل».

(٣) كذا في ل، وفي ك: «تحاربه»، وفي المحاسن والأضداد: «ينهنه».

(٤) كذا في المحاسن والأضداد، وفي ك، ل: «يشيب لها معاوية الوليد»، والخبر في المحاسن والأضداد ١٤٦، ١٤٧.

(٥) يحصر: يعيا عن الكلام.

(٦) المحاسن والأضداد: «فأمعن».

﴿وَأِنْ أَدْرَىٰ لَعَلَّهُمْ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [سورة الأنبياء: ١١١]. ثم انصرف، فقال معاوية لعمره: والله ما أردت إلا هتكبي، ما كان أهل الشام يرون أن أحداً مثلي حتى سمعوا من الحسن ما سمعوا^(١).



قيل: وقدم الحسن بن علي رضوان الله عليه على معاوية، فلما دخل عليه، وجد عنده عمرو بن العاص، ومروان بن الحكم، والمغيرة بن شعبة، وصناديد قومه، ووجوه اليمن وأهل الشام، فلما نظر إليه معاوية أقعده على سريه، وأقبل عليه بوجهه يريه السرور بمقدمه، فلما نظر مروان إلى ذلك حسده، وكان معاوية قال لهما: لا تحاورا هذين الرجلين فلقد قلداكم العار، وفضحاكم عند أهل الشام - يعني الحسن بن علي وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما - فقال مروان: يا حسن، لولا حلم أمير المؤمنين؛ وما قد بنى له أبائهم الكرام من المجد والعلاء، ما أقعدهك هذا المقعد، ولقتلك وأنت لهذا مستوجب، بقودك الجماهير، فلما أحسست بنا^(٢)، وعلمت^(٣) أن لا طاقة لك بفرسان أهل الشام وصناديد بني أمية، أذعنت بالطاعة، واحتجرت بالبيعة، وبعثت تطلب الأمان. أما والله لولا ذلك لأريق دمك، وعلمت أنا نعطى السيف حقها عند الوغى. فاحمد الله إذ ابتلاك بمعاوية فعفا عنك بحلمه، ثم صنع بك ما ترى. فنظر إليه الحسن فقال: ويحك يا مروان! لقد تقلدت مقاليد العار في الحروب عند مشاهدتها، والمخاذلة عند مخالطتها. نحن - هبلتكم الهوابل^(٤) - لنا الحجج البوالغ! ولنا - إن شكرتم - عليكم النعم السوابغ، ندعوكم إلى النجاة وتدعوننا إلى النار؛ فشتان ما بين المنزلتين! تفخر ببني أمية، وتزعم أنهم صبر في الحروب، أسد عند اللقاء، ثكلتكم أمك! أولئك البهاليل السادة، والحمة الذادة، والكرام القادة، بنو عبد المطلب! أما والله لقد رأيتهم وجميع من في هذا البيت ما هالتهم الأهوال، ولم يحدوا عن الأبطال، كالليوث الضارية الباسلة الحنقة، فعندها وليت هارباً وأخذت أسيراً، فقلدت قومك العار، لأنك في الحروب حوَّار. أيراق دمي^(٥) زعمت! أفلا أرفقت

(١) الخبر في المحاسن والأضداد ١٤٧، ١٤٩.

(٢) المحاسن والأضداد: «فلما قاومتنا».

(٣) ك، ل: «علمت» بدون واو، وما أثبتته من المحاسن والأضداد.

(٤) ك والمحاسن والأضداد: «أمك».

(٥) المحاسن والأضداد: «أنهريق».

دَمَ مِنْ وَثَبَ عَلَى عَثْمَانَ فِي الدَّارِ، فَذَبَحَهُ كَمَا يُذَبِّحُ الْجَمَلُ، وَأَنْتَ تَشْغُو ثَغَاءَ النَّعْجَةِ وَتَنَادِي بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ كَالْأَمَةِ اللَّكَّاءِ! أَلَا دَفَعْتَ عَنْهُ بِيَدٍ^(١)، أَوْ نَاضَلْتَ عَنْهُ بِسَهْمٍ! لَقَدْ ارْتَعَدْتُ فَرَائِصُكَ وَغُشِّي بَصْرُكَ، فَاسْتَعَثَّتْ بِي كَمَا يَسْتَعِيثُ الْعَبْدُ بِرَبِّهِ، فَأَنْجَيْتُكَ مِنَ الْقَتْلِ، وَمَنْعْتُكَ مِنْهُ. ثُمَّ تَحَتَّ مَعَاوِيَةَ عَلَى قَتْلِي، وَلَوْ رَامَ^(٢) ذَلِكَ مَعَكَ لَذُبِحَ كَمَا ذُبِحَ ابْنُ عَفَّانَ. أَنْتَ مَعَهُ أَقْصَرُ يَدًا، وَأَضْيَقُ بَاعًا، وَأَجْبَنُ قَلْبًا مِنْ أَنْ تَجَسَّرَ عَلَى ذَلِكَ. ثُمَّ تَزَعَمَ أَنِّي ابْتُلَيْتُ بِحِلْمٍ مَعَاوِيَةَ؛ أَمَّا وَاللَّهِ لَهُوَ أَعْرَفُ بِشَأْنِهِ، وَأَشْكُرُ لِمَا وَلَّيْنَاهُ هَذَا الْأَمْرَ، فَمَتَى بَدَأَ لَهُ فَلَا يُغْضِيَنَّ جَفْنَهُ عَلَى الْقَدَى مَعَكَ، فَوَاللَّهِ لَا عَقِبْنَ أَهْلَ الشَّامِ بِجَيْشٍ يَضِيقُ عَنْهُ فُضَاؤُهَا، وَتُسْتَأْصَلُ فَرَسَانُهَا، ثُمَّ لَا يَنْفَعُكَ عِنْدَ ذَلِكَ الْهَرَبُ وَالرَّوْغَانُ، وَلَا يَرُدُّ عَنْكَ الْطَلَبُ تَدَرَّعُكَ بِالْكَلامِ^(٣). فَنَحْنُ مِمَّنْ لَا يُجْهَلُ آبَاؤُنَا الْقَدَمَاءُ الْأَكَابِرُ، وَفَرَوْعُنَا السَّادَةُ الْأَخْيَارُ، انْطِقْ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا. فَقَالَ عَمْرُو: يَنْطِقُ بِالْخَنَا وَتَنْطِقُ بِالصِّدْقِ. ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

قَدْ يَضْرُطُّ الْعَيْرُ وَالْمَكْوَاةُ تَأْخُذُهُ لَا يَضْرُطُّ الْعَيْرُ وَالْمَكْوَاةُ فِي النَّارِ^(٤)
ذُقْ وَبَالَ أَمْرِكَ يَا مَرْوَانَ!

وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ مَعَاوِيَةُ فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكَ عَنْ هَذَا الرَّجُلِ، وَأَنْتَ تَأْبَى إِلَّا أَنْهَمَاكَ فِيمَا لَا يَعْنِيكَ. ارْبَعْ عَلَى نَفْسِكَ^(٥)؛ فَلَيْسَ أَبُوكَ كَأَبِيهِ، وَلَا أَنْتَ مِثْلُهُ، أَنْتَ ابْنُ الطَّرِيدِ الشَّرِيدِ، وَهُوَ ابْنُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، الْكَرِيمِ؛ وَلَكِنْ رُبُّ بَاحِثٍ عَنْ حَقِّقِهِ، وَحَافِرٍ عَنْ مُدْيَتِهِ.

فَقَالَ مَرْوَانُ: أَرَمَ مِنْ دُونَ بَيْضَتِكَ، وَقَمِ بِحُجَّةٍ عَشِيرَتِكَ. ثُمَّ قَالَ لِعَمْرُو: طَعَنَكَ أَبُوهَ، فَوَقَّيْتُ نَفْسَكَ بِخُصْيَيْكَ، فَلِذَلِكَ تَحْذَرُهُ. وَقَامَ مَغْضِبًا.
فَقَالَ مَعَاوِيَةُ: لَا تُجَاوِرِ الْبَحُورَ فَتَعْمُرَكَ، وَلَا الْجِبَالَ فَتَبْهَرَكَ^(٦)، وَاسْتَرْخُ مِنَ الْإِعْتَذَارِ^(٧).



(١) المحاسن والأضداد: «بحرب».

(٢) كذا في المحاسن والأضداد وفي ط: «ألو رام».

(٣) ط: «الكلام»، وفي المحاسن والأضداد: «ولا تنتفع بتدريجك الكلام».

(٤) مثل، وأول من قاله عرفطة بن عرفة الهذلي، وانظر: مجمع الأمثال ٢: ٩٥.

(٥) يقال: اربع عليك أو على نفسك أو على ظلمك، أي توقف.

(٦) المحاسن والأضداد: «فتقهرك».

(٧) الخبر في المحاسن والأضداد ١٥٠، ١٥١.

قيل: ولقي عمرو بن العاص الحسن بن علي رحمه الله في الطواف، فقال: يا حسن، أزعمت أن الدين لا يقوم إلا بك وبأبيك! فقد رأيت الله عز وجل أقامه بمعاوية فجعله راسياً بعد ميّله، وبيناً بعد خفائه. أفرضي الله قتل عثمان! أم من الحق أن تدور بالبيت كما يدور الجمل بالطّحين، عليك ثياب كغرقي البيض^(١)، وأنت قاتل عثمان! والله إنه لألم للشعث، وأسهل للوعث، أن يوردك معاوية حياض أبيك. فقال الحسن عليه السلام: إن لأهل النار علامات يُعرفون بها، وهي الإلحاد لأولياء الله، والمؤالاة لأعداء الله؛ والله إنك لتعلم أن علياً رضي الله عنه لم يترتب في الأمر، ولم يشك في الله طرفه عين، وايم الله لتنتهين يابن أم عمرو أو لأقرعن جبينك بكلام تبقى سمته عليك ما حييت! فإياك والإبراز عليّ، فإني من قد عرفت. لست بضعيف العمرة، ولا بهش المشاشة^(٢)، ولا بمريء المأكلة، وإني من قريش كأوسط القلادة، يُعرف حسبي^(٣) ولا أدعى لغير أبي، وقد تحاكمت فيك رجال قريش، فغلب عليك الأمهم نسباً، وأظهرهم لعنة، فإياك عني؛ فإنك رجس، وإنما نحن بيت الطهارة، أذهب الله عنا الرجس وطهرنا تطهيراً^(٤)!



قيل: واجتمع الحسن بن علي وعمرو بن العاص، فقال الحسن: قد علمت قريش بأسرها أنني منها في عز أرومتها، لم أطبع على ضعف، ولم أعكس على خسف، أعرف بشبهي^(٥)، وأدعى لأبي.

فقال عمرو: قد علمت قريش أنك من أقلها عقلاً، وأكثرها جهلاً وإن فيك خصالاً لو لم يكن فيك إلا واحدة منهن لشملك خزيها كما شمل البياض الحالك. لعمر الله لتنتهين عما أراك تصنع، أو لأكبسن لك حافة كجلد العائط^(٦)، أرميك من خللها بأحر من وقع الأشافي^(٧)، أعرك منها أديمك عرك السلعة^(٨)، فإنك

(١) الغرقي: القشرة الملتزمة بياض البيض.

(٢) المشاشة: رأس العظم اللين الذي يمكن مضغه؛ ويقال: هو هش المشاش؛ أي رخو، وهو كلام على الدم.

(٣) كذا في المحاسن والأضداد، وفي ك، ل: «حسبهم».

(٤) الخبر في المحاسن والأضداد ١٥١.

(٥) المحاسن والأضداد: «بنسبي».

(٦) العائط: الناقة التي لا تحمل، وفي المحاسن والأضداد: «كجلد العائط إذا اعتاطت رحمها».

(٧) الإشفي: المثقب، وجمعه الأشافي، وفي ك: «الأثافي».

(٨) السلعة: غدة تظهر بين الجلد واللحم إذا غمرت باليد تحركت.

طالما ركبَت صعبَ المنحدر، ونزلتَ في أعراس الوعر، التماساً للفُرقة، وإرصداً للفتنة، ولن يزيدك الله فيها إلا فظاعة.

فقال الحسن عليه السلام: أما والله لو كنت تسمو بحسبك وتعملُ برأيك ما سلكت فجع قصدي، ولا حَلَلتَ رابية مَجْدٍ، وايم الله لو أطاعني معاوية لجعلك بمنزلة العدو الكاشح، فإنه طالما طويت على هذا كَشْحَك، وأخفيتَه في صدرك، وطمِح بك الرجاء إلى الغاية القصوى التي لا يُورِق لها عُصْنك، ولا يَخْضِرُ لها مَرْعاك، أما والله ليُوشكنَّ يابن العاص أن تقع بين لَحْيَي ضِرْغام من قريش قوي متمنِّع فَرُوس^(١) ذي لبد، يَضْغُطُكَ ضَغْطُ الرِّحَا للحبِّ، لا يُنْجِيكَ منه الرُّوْغان، إذا التقت حَلَقَتَا البُطان^(٢).

(١) الفروس: الأسد.

(٢) الخبر في المحاسن والأضداد ١٥١ - ١٥٣.

محاسن كلام عبد الله بن العباس رضي الله عنه

أبو المنذر، عن أبيه، عن الشعبي، عن ابن عباس، أنه دخل المسجد وقد سار الحسين بن علي رضي الله عنه إلى العراق، فإذا هو بابن الزبير في جماعة من قريش، قد استعلاهم بالكلام، فجاء ابن عباس حتى ضرب بيده بين عضدي ابن الزبير، وقال: أصبحت والله كما قال الأول^(١):

يَا لِكَ مِنْ حُمْرَةٍ بِمَعْمَرٍ^(٢) خَلَا لِكَ الْجَوُّ فَبِيضِي وَاصْفِرِي^(٣)
وَنَقَّرِي مَا شئتَ أَنْ تُنَقَّرِي قَدْ رُفِعَ الْفَخُّ فَمَاذَا تَحَذَّرِي!

خَلَّتِ الْحَجَّازُ مِنَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، وَأَقْبَلَتْ تَهْدِرُ فِي جَوَانِبِهَا! فغَضِبَ ابْنُ الزَّبِيرِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَرَى أَنَّكَ أَحَقُّ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنْ غَيْرِكَ! فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّمَا يَرَى [ذَلِكَ]^(٤) مَنْ كَانَ فِي حَالِ شَكٍّ، وَأَنَا مِنْ ذَلِكَ عَلَى يَقِينٍ. فَقَالَ: وَبِأَيِّ شَيْءٍ تَحَقَّقَ عِنْدَكَ أَنَّكَ أَحَقُّ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنِّي؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِأَنَّا أَحَقُّ مِمَّنْ يُدَلُّ بِحَقِّهِ، وَبِأَيِّ شَيْءٍ تَحَقَّقَ عِنْدَكَ أَنَّكَ أَحَقُّ بِهَا مِنْ سَائِرِ الْعَرَبِ إِلَّا بَنَانًا! فَقَالَ ابْنُ الزَّبِيرِ: تَحَقَّقَ عِنْدِي أَنِّي أَحَقُّ بِهَا مِنْكُمْ لَشَرَفِي عَلَيْكُمْ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، فَقَالَ: أَنْتَ أَشْرَفُ أَمْ مَنْ قَدْ شَرُفْتُ بِهِ؟ فَقَالَ: إِنَّ مَنْ شَرُفْتُ بِهِ زَادَنِي شَرَفًا إِلَى شَرَفٍ قَدْ كَانَ لِي قَدِيمًا وَحَدِيثًا. قَالَ: أَفَمِنِّي الزِّيَادَةُ أَمْ مِنْكَ؟ قَالَ: بَلْ مِنْكَ. فَتَبَسَّمَ ابْنُ عَبَّاسٍ. فَقَالَ: يَا بَنَ بْنَ عَبَّاسٍ، دَعْنِي مِنْ لِسَانِكَ هَذَا الَّذِي تَقْلِبُهُ كَيْفَ شِئْتَ، وَاللَّهِ لَا تُجِبُونَنَا يَا بَنِي هَاشِمٍ أَبَدًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: صَدَقْتَ، نَحْنُ أَهْلُ بَيْتِ مَعَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَا نَحِبُّ مِنْ أَبْغَضِهِ اللَّهُ تَعَالَى. فَقَالَ: يَا بَنَ بْنَ عَبَّاسٍ، مَا يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَصْفَحَ عَنْ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ! قَالَ: إِنَّمَا أَصْفَحَ عَمَّنْ أَقَرَّ، وَأَمَّا عَمَّنْ هَرَّ^(٥) فَلَا؛ وَالْفَضْلُ لِأَهْلِ الْفَضْلِ!

(١) مجمع الأمثال ١: ٢٣٩، ونسبه إلى طرفة بن العبد.

(٢) الحمرة: ضرب من الطير كالعصافير؛ وفي مجمع الأمثال والمحاسن والأضداد: «من قبرة».

(٣) الشطر الثاني هو موضع المثل من هذه الأبيات.

(٤) من المحاسن والأضداد.

(٥) هر: صوت، وفي إحدى نسخ المحاسن والأضداد: «هد»، وهما بمعنى.

قال ابن الزبير: فأين الفضل؟ قال: عندنا أهل البيت، لا تصرفه عن أهله فتظلم، ولا تضعه في غير أهله فتندم.

قال ابن الزبير: أفلسْتُ من أهله؟ قال: بلى؛ إن نَبَذْتَ الحسد، ولزمت الجَدَد.

وانقضى حديثُهما، وقام القوم ففترقوا^(١).



ورُوي عن ابن عباس أنه قال: قدمتُ على معاوية، وقد قعد على سريه، وجمع أصحابه ووفود العرب عنده، فدخلتُ فسَلَّمْتُ وقعدتُ فقال: مَنْ الناسُ يابنَ عباس؟ فقلت: نحن، قال: فإذا غبتم! قلت: فلا أحد. قال: [فكأنك]^(٢) ترى أنني قعدتُ هذا المقعد بكم! قلت: نعم، فبِمَنْ قعدت؟ قال: من^(٣) كان مثل حَرْب بن أمية؟ قلت: مَنْ أكفأ عليه إناءه، وأجاره بردائه. قال: فغضب، وقال: وارِ^(٤) شخصك مِنِّي شهراً، فقد أمرتُ لك بصِلَتِكَ وأضعفتُها لك.

فلما خرج ابنُ عباس قال لخاصته: ألا تسألونني ما الذي أغضب معاوية؟ [قالوا: بلى، فقل بفضلك، قال:] إن أباه حرباً لم يلتق أحداً^(٥) من رؤساء قريش في عَقَبَةٍ ولا مضيق مع قوم إلا لم يتقدمه أحد حتى يجوزه. فالتقى حرب بنُ أمية مع رجل من بني تميم في عَقَبَةٍ، فتقدمه التميميُّ، فقال حرب: أنا حرب بنُ أمية. فلم يلتفت إليه وجازه، فقال: موعذك مَكَّة. فبقي التميميُّ^(٦) دهرًا، ثم أراد دخول مَكَّة، فقال: مَنْ يجيرني من حرب بن أمية؟ فقالوا: عبد المطلب، قال: عبدُ المطلب أجلُّ قدراً من أن يُجِيرَ على حَرْب، فأتى ليلاً دارَ الزبير بن عبد المطلب فدقَّ عليه، فقال الزبير للغيداق^(٧): قد جاءنا رجل: إمَّا طالب حاجة، وإمَّا طالب قِرَى، وإمَّا مستجير، وقد أعطيناه ما أراد، قال: فخرج إليه الزبير، فقال:

(١) الخبر في المحاسن والأضداد ١٥٢ - ١٥٥.

(٢) من المحاسن والأضداد.

(٣) كذا في ل، وفي ل: «بمن».

(٤) المحاسن والأضداد: «أرحني من شخصك».

(٥) كذا في المحاسن والأضداد: وفي ط: «إنه لم يلتق أحد».

(٦) المحاسن والأضداد: «فخافه التميمي».

(٧) هو الغيداق بن عبد المطلب، أخو الزبير بن عبد المطلب، واسمه المصعب. وفي المحاسن

والأضداد: «لعبده»، وانظر: نسب قريش ١٨.

لاقيتُ حرباً في الثنية مُقبلاً
فدعا بصوتٍ واكتنى ليروعني
وتركتُهُ كالكلب يَنْبَحُ وحده
ليثاً هزبراً يستجار بقربه
ولقد حلفتُ بزمزم وبمكة
أن الزبير لمانعي من خوفه
والصبح أبلج ضوؤه للساري^(١)
ودعا بدعوته يريد فخاري
وأثيت أهل معالم وفخار
رحب المباءة مكرماً للجار
والبيت ذي الأحجار والأستار
ما كبر الحجاج في الأمصار!

فقال: تقدّم، فإننا لا نتقدم من نجيره، فتقدّم التميمي فدخل المسجد، فرآه حرب، فقام إليه فلطمه، فحمل عليه الزبير بالسيف، فعدا حتى دخل دار عبد المطلب، فقال: أجزني من الزبير، فأكفاً عليه جفنة كان هاشم يطعم فيها الناس، فبقي هناك^(٢) ساعة ثم قال له: اخرج. فقال: كيف أخرج وتسعة^(٣) من ولدك قد احتبوا بسيوفهم على الباب! فألقى عليه رداءً كان كساه إياه سيف بن ذي يزن، له طرتان خضراوان، فخرج عليهم، فعلموا أنه قد أجاره. فتفرقوا عنه^(٤).



قال: وحضر مجلس معاوية عبد الله بن عباس وابن العاص، فأقبل عبد الله بن جعفر، فلما نظر إليه ابن العاص قال: قد جاءكم رجل كثير الخلوات بالتمني، والطربات بالتعني، محب للقيان، كثير مزاحه، شديد طمّاحه، صدوف عن السنن^(٥)، ظاهر الطيش، لين العيش، أخذ بالسلف، منفاق بالسرف.

فقال ابن عباس: كذبت والله أنت! وليس كما ذكرت، ولكنه لله ذكور، ولنعمائه شكور، وعن الخنا زجور، جواد كريم، سيدّ حليم، ماجد لهميم^(٦)، إن ابتدأ^(٧) أصاب، وإن سئل أجاب، غير حصر ولا هياب، ولا فحاش عياب، حلّ من قریش في كريم النصاب، كالهزبر الضرغام، الجريء المقدام، في الحسب

(١) بلج الصبح: ظهر وأشرق، ومثله أبلج.

(٢) المحاسن والأضداد: «تحتها».

(٣) ك، ل: «سبعة»، وما أثبتته من المحاسن والأضداد.

(٤) الخبر في المحاسن والأضداد ١٥٤، ١٥٥.

(٥) المحاسن والأضداد: «الشبان».

(٦) اللهميم: السيد الجواد، وفي المحاسن والأضداد: «حليم».

(٧) المحاسن والأضداد: «إن رمي».

القَمِّقَام^(١)، ليس يُدْعَى لِدَعْيٍ، ولا يُدْنَى لَدْنِي [لا]^(٢) كمن اختصم فيه من قريش شرارها، فغلب عليه جزارها، فأصبح أَلَمُهَا حَسْبًا، وأدناها مَنْصِبًا، ينوء منها بالذليل، ويأوي منها إلى القليل، يتذبذب بين الحَيَّين كالساقط بين الفِراشَيْن، لا المضطرَّ إليهم عَرَفُوهُ، ولا الظاعِنُ عنهم فقدوه. وليت شعري بأيِّ قدم تتعرَّضُ للرجال، وبأيِّ حَسَبٍ تبارز عند النُّضال! أبنُفْسِكَ؟ فأنت الوغدُ الزَّئيم، أم بمن تنتمى إليه؟ فأهل السَّفه والطَّيش، والدناءة في قريش، لا بشرف في الجاهلية شُهِرُوا، ولا بتقديم في الإسلام ذُكِرُوا، غير أنَّك تتكلَّم بغير لسانك، وتنطق بالزور في غير أقرانك^(٣)، واللَّه لكان أبينَ للفضل، وأظهرَ للعدل أن يُنزلَكَ معاويةَ منزلةَ البعيد السَّحيق، فإنه طالما ما سَلَسَ داؤُكَ، وطَمَحَ بك رَجَاؤُكَ؛ إلى الغاية القصوى، التي لم يخضِرَ بها رِغْيُكَ ولم يُورِقَ بها عُصْنُكَ.

فقال عبد الله بنُ جعفر: أقسمتُ عليك لَمَّا أَمْسَكَت، فإنك عَنِّي ناضلت، ولي فاوَضت.

قال ابنُ عباس: دعني والعبد، فإنه قد كان يهدر خاليًا، إذ لا يجد مراميًا، وقد أتيحَ له ضَيْعَمٌ شَرِس، للأقران مفترس، وللأرواح مختلس.

فقال عمرو بنُ العاص: دَعْنِي يا أمير المؤمنين أنتَصِفُ منه، فواللَّه ما ترك شيئًا.

قال ابن عباس: دعه فلا يُبقي المَبْقِي إلَّا على نفسه، فواللَّه إنَّ قلبي لشديد، وإن جوابي لَعَتِيد، وبالله الثَّقة، فإني كما قال نابغة بني دُبيان^(٤):

وقبلَكَ ما قُذِعْتُ وقادَعُونِي فما نَزَرَ الكلام ولا شجاني^(٥)
يصدُّ الشاعر العرَّاف عَنِّي صدودَ البُكرِ عن قَرَمِ هجاني^(٦)

(١) القمقام: السيد الكبير العطاء.

(٢) من المحاسن والأضداد.

(٣) كذا في المحاسن والأضداد: وفي و ط: «بغير إزكانك».

(٤) ديوانه ٧٧.

(٥) المقاذعة: المهاجة والمشاتمة. ونزر: قل. وشجاني: أجزني.

(٦) القرم: الفحل الكريم من الإبل، والهجان الأبيض؛ والكلام على الاستعارة، وفي ديوانه:

«الشاعر الثيان». والخبر في المحاسن والأضداد ١٥٥-١٥٧.

محاسن كلام غانمة بنت غانم في شرف بني هاشم وفخرهم

قيل: ولما بلغ غانمة بنت غانم سبَّ معاوية وعمر بن العاص بني هاشم، قالت لأهل مكة: أيها الناس، إن قريشاً لم تلِدْ مَنْ رَقَمَ ولا رُقِمَ؛ سادت وجادت، ومُلِكت فملِكت، وفُضِّلَت ففُضِّلَت، واصطُفِيَت فاصطُفِيَت، ليس فيها كَدَرٌ عَيْبٌ، ولا أَفْنٌ^(١) رَيْبٌ، ولا حُشِرُوا طاعين، ولا جادوا نادِمين، ولا المغضوب عليهم ولا الضالين.

إن بني هاشم أطولُ الناس باعاً، وأمجَدُ الناس أضلاً، وأحلَمُ الناس حِلماً، وأكثرُ الناس عطاءً؛ ممَّا عبد مناف الذي يقول فيه الشاعر^(٢):

كَانَتْ قَرِيشٌ بِيضَةً فَتَفَلَّقَتْ فَاَلْمَحُ خَالِصُهَا لِعَبْدِ مَنَافٍ^(٣)
وولده هاشم الذي هَشَمَ الثريد لقومه، وفيه يقول الشاعر^(٤):

هَشَمَ الثَرِيدَ لِقَوْمِهِ، وَأَجَارَهُمْ وَرَجَالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ عَجَافٌ^(٥)
ثم ممَّا عبد المطلب الذي سَقَيْنَا به الغيث، وفيه يقول الشاعر:

وَنَحْنُ سِنِيَّ الْمَحَلِّ قَامَ شَفِيعَنَا بِمَكَّةَ يَدْعُو وَالْمِيَاهُ تَغُورُ
وابنه أبو طالب عظيم قريش، وفيه يقول الشاعر:

آتَيْتُهُ مَلِكاً فَقَامَ بِحَاجَتِي وَتَرَى الْعُلَيْجَ خَائِباً مَذْمُوماً
وممَّا العباس بن عبد المطلب، أَرَدَفَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَاهُ مَالَهُ، وفيه يقول الشاعر:

رَدِيفُ رَسُولِ اللَّهِ لَمْ أَرْ مِثْلَهُ وَلَا مِثْلُهُ حَتَّى الْقِيَامَةِ يُوجَدُ

(١) المحاسن والأضداد: «ولا إفك ريب».

(٢) هو مطرود بن كعب الخزاعي. أمالي المرتضى ٢: ٢٦٨.

(٣) المَحْ: صفة البيض.

(٤) هو عبد الله بن الزبير. أمالي المرتضى ٢: ٢٦٩.

(٥) المستنون: الذين أصابتهُم السنة المجدة.

ومنا حمزة سيّد الشهداء، وفيه يقول الشاعر:

أبايَعَلَى لَكَ الْأَرْكَانُ هُدَّتْ وَأَنْتَ الْمَاجِدُ الْبَرُّ الْوَصُولُ
ومنا جعفر ذو الجناحين، أَحْسَنُ النَّاسِ حُسْنًا، وَأَكْمَلُهُمْ كَمَالًا، ليس بغدارٍ
ولا ختار، بَدَّلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِكُلِّ يَدٍ لَهُ، جَنَاحًا يَطِيرُ بِهِ فِي الْجَنَّةِ، وفيه يقول
الشاعر:

هَاتُوا كَجَعْفَرْنَا وَمِثْلَ عَلَيْنَا^(١) كَانَا أَعَزَّ النَّاسِ عِنْدَ الْخَالِقِ^(٢)
ومنا أبو الحسن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، أفرسُ بني هاشم، وأكرم
من احْتَقَى وَتَنَعَّلَ^(٣) بعد رسول الله ﷺ. ومن فضائله ما قَصُرَ عنكم أنباؤها، وفيه
يقول الشاعر:

وهذا عليّ سيّد الناس فاتقوا عَلِيًّا بِإِسْلَامِ تَقَدَّمَ مِنْ قَبْلُ
ومنا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سِبْطُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وسيّد شباب
أهل الجنة، وفيه يقول الشاعر:

وَمَنْ يَكُ جَدُّهُ حَقًّا نَبِيًّا فَإِنَّ لَهُ الْفَضِيلَةَ فِي الْأَنَامِ
ومنا الحسين بن عليّ رضوان الله عليه، حمّله جبريلُ عليه السلام على
عاتقه، وكفى بذلك فخراً، وفيه يقول الشاعر:

نَفَى عَنْهُ عَيْبَ الْأَدْمِيِّينَ رَبُّهُ وَمَنْ مَجْدُهُ مَجْدُ الْحُسَيْنِ الْمُطَهَّرِ
ثم قالت: يا معشر قريش، واللّٰهُ ما معاويةٌ بأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، ولا هو كما
يزعمُ، هو واللّٰهُ شَانِيءُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ! إني آتيةٌ معاويةَ وقائلةٌ له ما^(٤) يَغْرُقُ مِنْهُ
جَبِينُهُ وَيَكْثُرُ مِنْهُ عَوِيلُهُ.

فكتب عاملُ معاوية إليه بذلك، فلما بلغه أَنَّ غانمةَ قد قُرِبَتْ مِنْهُ، أَمَرَ بِدَارِ
ضِيافَتِهِ فَنُظِفَتْ، وَأُلْقِيَ فِيهَا فُرْشٌ، فلما قُرِبَتْ^(٥) من المدينة استقبلها يزيد في
حَشَمِهِ وَمَمَالِيكِهِ، فلما دخلت المدينة أتت دارَ أخيها عمرو بنِ غانم، فقال لها
يزيد: إن عبد الرحمن يأمرُك أن تصيري إلى دار ضيافته - وكانت لا تعرفه -

(١) كذا في المحاسن والأضداد، وفي ط: «كجعفرنا الطيار».

(٢) كذا في المحاسن والأضداد، وفي ط؛ «ألُسنا أعز الناس عند الحقائق».

(٣) ك: «انتعل».

(٤) كذا في المحاسن والأضداد، وفي ط «بما».

(٥) المحاسن والأضداد: «فلما بلغها أنها قربت منه».

فقلت: من أنت كلاك الله؟ قال: يزيد بن معاوية، قالت: فلا رعاك الله يا ناقص، لست بزائد! فتمعر^(١) لون يزيد. وأتى أباه فأخبره، فقال: هي أسن قريش وأعظمهم. فقال يزيد: كم تعد لها يا أمير المؤمنين؟ قال: كانت تعد على عهد رسول الله ﷺ أربعمئة عام، وهي من بقية الكرام.

فلما كان من الغد أتاها معاوية، فسلم عليها، فقلت: على المؤمنين السلام، وعلى الكافرين الهوان. ثم قالت: من منكم ابن العاص؟ قال عمرو: هأنذا. فقلت: وأنت تسب قريشاً وبني هاشم، وأنت أهل السب، وفيك السب وإليك يعود السب يا عمرو! إني والله لعارفة بعيوبك وعيوب أمك، وإني أذكر لك ذلك عيباً عيباً؛ ولدت من أمة سوداء، مجنونة حمقاء، تبول من قيام، ويعلوها اللثام، إذا لامسها الفحل كانت نطفتها أنفذ من نطفته. ركبها في يوم واحد أربعون رجلاً، وأما أنت فقد رأيتك غاوية غير راشد، ومفسداً غير صالح، ولقد رأيت فحل زوجتك على فراشك فما غرت ولا أنكرت!

وأما أنت يا معاوية، فما كنت في خير، ولا ربيت في خير؛ فما لك ولبني هاشم! أنساء بني أمية كنسائهم! أم أعطي أمية ما أعطي هاشم في الجاهلية والإسلام! وكفى فخراً برسول الله ﷺ.

فقال معاوية: أيتها الكبيرة، أنا كاف عن بني هاشم، قالت: فإنني أكتب عليك عهداً؛ كان رسول الله ﷺ دعا ربه أن يستجيب لي خمس دعوات، أفأجعل^(٢) تلك الدعوات كلها فيك! فخاف معاوية، وحلف لها ألا يسب بني هاشم أبداً.

فهذا آخر ما كان بين معاوية وبني هاشم من المفاخرة، والله أعلم^(٣).

(١) تمعر وجهه: تغير غيظاً، وفي المحاسن والأضداد: «تغير».

(٢) كذا في المحاسن والأضداد، وفي ط: «فأجعل».

(٣) الخبر في المحاسن والأضداد ١٥١ - ١٥٧.

محاسن مجالس أبي العباس السفاح في المفاخرة

قيل: كان أبو العباس يُطيل السَّهَر، وتُعجبه الفصاحة، ومُنَازَعَة الرجال، فسهر ذات ليلة وعنده أناس من مُضَرّ وفِهْر، وفيهم خالد بن صَفْوان بن الأَهمّ التميمي، وناسٌ من اليمن، فيهم إبراهيم بن مَحْرَمَة الكِنْدِيّ، فقال أبو العباس: هاتوا واقطعوا ليلتنا بمحادثتكم.

فبدأ إبراهيم بن مخرمة، وقال: يا أمير المؤمنين، إن أحوالكم هم الناس، وهم العرب الأول الذين دانت لهم الدنيا، وكانت^(١) لهم اليدُ العُلْيَا، ما زالوا ملوكاً وأرباباً، توارثوا الرياسة كابراً عن كابر، وآخرًا عن أول، يلبس آخرهم سراويل أولهم، يعرفون بيت المجد ومآثر الحمد، منهم النعمانات والمنذرات والقابوسات^(٢). ومنهم عَسِيلُ الملائكة، ومنهم من اهتز لموته العرش، ومنهم مكلم الذئب، ومنهم مَنْ كان يأخذ كل سفينة غصباً، ويحوي في كل نائبة نهباً، ومنهم أصحاب التيجان، وكُماة الفرسان، ليس من شيء^(٣) وإن عَظُمَ خَطَرُهُ، وعُرف أثره؛ مِنْ فَرَسٍ رائع، وسيفٍ قاطع، أو مِجَنٍّ واقٍ، أو دِرْعٍ حصين، أو دُرّة مكنونة، إلّا وهم أربابُها وأصحابُها؛ إن حلّ ضيفُ قَرَوُه، وإن سألهم سائل أعطوه، لا يبلغهم مكاثر، ولا يُطاولُهم مُطاول ولا مفاخر، فمن مثلهم يا أمير المؤمنين! البيت يمان، والججر يمان، والركن يمان، والسيف يمان.

فقال أبو العباس: ما أرى مُضَرّ تقول بقولك هذا، وما أظنّ خالدًا يرضى بذلك.

فقال خالد: إن أذن أمير المؤمنين وأمنتُ الموجدة، تكلمت.

فقال أبو العباس: تكلم ولا ترهب أحداً.

فقال خالد: يا أمير المؤمنين، خاب المتكلم، وأخطأ المتقحم^(٤)، إذ قال

(١) كذا في المستطرف، وفي ك: «كانت».

(٢) المستطرف: «منهم النعمان بن المنذر».

(٣) كذا في المستطرف، وفي ك: «نسل».

(٤) المستطرف: «المقحم».

بغير علم، ونطق بغير صواب. أَوْ يَفْخَرُ عَلَى مُضَرٍّ، ومنها النَّبِيُّ ﷺ، والخلفاء من أهل بيته! وهل أهل اليمين يا أمير المؤمنين إِلَّا دَابِغٌ جِلْدًا، أَوْ قَائِدٌ قِرْدًا، أَوْ حَائِكٌ بُرْدًا! دَلَّ عَلَيْهِمُ الْهُدُودُ، وَغَرَّقَهُمُ الْجُرْدُ، وَمَلَكَتْهُمُ أُمٌّ وَلَدَ.

وكيف يكون ذلك لقوم^(١) يا أمير المؤمنين، ما لهم ألسنة فصيحة، ولا لغة صحيحة، ولا حجة تدل على كتاب، ولا يعرف بها صواب! وإنهم منا لإحدى الخلتين^(٢)؛ إن حازوا ما قصدوا أكلوا، وإن حادوا عن حُكْمنا قُتِلوا.

ثم التفت إلى الكندي فقال: أَتَفْخَرُ بِأَكْرَمِ الْأَنَامِ وَخَيْرِهَا، مُحَمَّدٌ ﷺ، وبه افتخر مَنْ ذَكَرَتْ! فَالْمَنْ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكُمْ؛ أَنْ كُنْتُمْ أَتْبَاعَهُ وَأَشْيَاعَهُ. مَنْ نَبِيَّ اللَّهِ الْمُصْطَفَى، وَخَلِيفَةَ اللَّهِ الْمُرْتَضَى، وَلَنَا السُّودُودُ وَالْعَلَا، وَفِينَا الْحِلْمُ وَالْحَجَى، وَلَنَا الشَّرَفُ الْمَقْدَمُ، وَالرَّكْنَ الْمَكْرَمُ، وَالْبَيْتَ الْمَعْظَمُ، وَالْجَنَابَ الْأَخْضَرُ، وَالْعَدَدَ الْأَكْثَرُ، وَالْعِزَّ الْأَكْبَرُ، وَلَنَا الْبَيْتَ الْمَعْمُورُ، وَالْمَشْعَرُ الْمَشْهُورُ، وَالسَّقْفُ الْمَرْفُوعُ، وَزَمْزَمٌ وَبِطْحَاوْهَا، وَجِبَالُهَا وَصَحْرَاوْهَا؛ وَحِيَاضُهَا وَغِيَاضُهَا، وَأُحْجَارُهَا وَأَعْلَامُهَا وَمَنَابِرُهَا، وَسَقَايْتُهَا وَحَجَابُتُهَا؛ وَسِدَانَةُ بَيْتِهَا. فَهَلْ يَعْدِلُنَا عَادِلٌ، وَيَبْلُغُ فَخْرُنَا قَائِلٌ! وَمَنْ أَعْلَمُ النَّاسِ ابْنَ عَبَّاسٍ، أَعْلَمُ الْبَشَرِ، الطَّيِّبَةُ أَخْبَارُهُ، الْحَسَنَةُ آثَارُهُ. وَمَنْ أَلَوْصِيَّ وَذُو النُّورَيْنِ^(٣)، وَمَنْ الصَّدِيقُ وَالْفَارُوقُ^(٤). وَمَنْ أَسَدُ اللَّهِ، وَسَيْفُ اللَّهِ^(٥)، وَمَنْ سَيِّدُ الشَّهَدَاءِ وَذُو الْجَنَاحَيْنِ^(٦)؛ وَمَنْ الْكُمَاةُ وَالْفُرْسَانُ، وَمَنْ الْفُقَهَاءُ وَالْعُلَمَاءُ، بَنَّا عُرِفَ الدِّينَ وَمَنْ عِنْدُنَا أَتَاكُمُ الْيَقِينُ، فَمَنْ زَا حَمْنًا زَا حَمْنَاهُ، وَمَنْ عَادَانَا اصْطَلَمْنَاهُ، وَمَنْ فَاخَرْنَا فَاخَرْنَاهُ، وَمَنْ بَدَّلَ سُنَّتَنَا قَتَلْنَاهُ.

ثم التفت إلى الكندي، وقال: كَيْفَ عِلْمُكَ بِلُغَاتِ قَوْمِكَ؟ قَالَ: أَنَا بِهَا عَالِمٌ، قَالَ: مَا الْجَحْمَةُ^(٧) فِي لُغَتِكُمْ؟ قَالَ: الْعَيْنُ، قَالَ: فَمَا الْمِيزَمُ^(٨)؟ قَالَ: السِّنُّ، قَالَ: فَالشَّنَاتَرُ^(٩)؟ قَالَ: الْإِصْبَعُ، فَالصَّنَائِرُ^(١٠)؟ قَالَ: الْأَذَانُ. قَالَ: فَمَا الْقُلُوبُ^(١١)؟ قَالَ:

(١) كذا في المستطرف، وفي ط: «من قوم والله يا أمير المؤمنين».

(٢) الخلة، بالفتح: الخصلة. (٣) الوصي: علي، وذو النورين: عثمان.

(٤) الصديق: أبو بكر، والفاروق: عمر. (٥) أسد الله: حمزة، وسيف الله: خالد.

(٦) سيد الشهداء: الحسين، وذو الجناحين: جعفر.

(٧) اللسان ١٤: ٣٥٢.

(٨) اللسان ١٤: ٣١٥، وفي ط: «الميزم»؛ تصحيف.

(٩) اللسان ٦: ٩٩. (١٠) اللسان ٦: ١٣٨.

(١١) اللسان ٢: ١٨٢، وفي المستطرف: «الكتع»، وهي يمانية بمعناها أيضاً.

الذئب، قال: فما الزُّبُّ^(١)؟ قال: اللّحيّة، قال: أفترأ كتاب الله عزّ وجلّ؟ قال: نعم، قال: فإن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [سورة يوسف: ٢]، وقال: ﴿يَلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [سورة الشعراء: ١٩٥]، وقال جلّ ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا يَلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ [سورة إبراهيم: ٤]، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ﴾ [سورة المائدة: ٤٥]، ولم يقل: «الجحمة بالجحمة»، وقال: ﴿جَعَلُوا أَصْنَعُهُمْ فِيْءَاذَانِهِمْ﴾ [سورة نوح: ٧] ولم يقل «شَنَاتِرَهُمْ فِي صَنَائِرِهِمْ»، وقال: ﴿وَالْيَسَنَ بِالْيَسَنِ﴾ [سورة المائدة: ٤٥] ولم يقل: «المُبَزَمَ بِالْمُبَزَمِ»، وقال: ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ [سورة يوسف: ١٧]، ولم يقل «القلوب». وقال: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحَاقِي﴾ [سورة طه: ٩٤]، ولم يقل: «بزبي».

وأنا سائلك يابن مخرمة عن ثلاث^(٢) خصال، فإن أنت أقررت بها فُهرت، وإن جحدتها كُفرت، وإن أنكرت قُتِلت، قال: وما هي؟ قال: أتعلم أن فينا نبيّ الله المصطفى ﷺ؟ قال: اللّهم نعم، قال: أتعلم أن فينا كتاب الله تعالى؟ قال: اللّهم نعم! قال: أفتعلم أن فينا خليفة الله المرتضى؟ قال: اللّهم نعم^(٣)! قال: فأَيُّ شيء يعدل هذه الخصال!

قال أبو العباس: اكف عنه، فوالله ما رأيت غلبة أنكر منها! والله ما فرغت من كلامك يا أبا مضر حتى ظننت أنه سيخرج بسريري إلى السماء. ثم أمر لخالد بمائة ألف درهم^(٤).



وعن أبي بكر الهذلي: اجتمعنا عند أبي العباس: أهل البصرة وأهل الكوفة، ولم يكن من أهل البصرة غيري، وكان من أهل الكوفة الحجاج بن أوطاة، والحسن بن زيد، وابن أبي ليلى، فتذاكروا أهل الكوفة وأهل البصرة، فقال ابن أبي ليلى: نحن والله يا أمير المؤمنين [خير منهم]^(٥)، فقلت: وكيف يكون ذلك! لنا السند والهند، وكُرْمان ومُكران، والفُرْض والعَرَض^(٦)، والديار وسعة الأنهار!

(١) اللسان ١: ٤٢٩.

(٢) المستطرف: «أربع».

(٣) المستطرف: «الرسول منا أو منكم؟ قال: منكم، قال: فالقرآن أنزل علينا، أو عليكم؟ قال: عليكم، قال: فالمنبر فينا أو فيكم؟ قال: فيكم. قال: فالبيت لنا أو لكم؟ قال: لكم، فقال: فاذهب فما كان بعد هؤلاء فهو لكم».

(٤) الخبر في المستطرف ١: ١٣١، ١٣٢.

(٥) تكملة يقتضيها السياق.

(٦) الفرض: جمع فرضة، وهي من البحر محط السفن.

فقال: ابن أبي ليلى: نحن أعلم منهم علماً، وأكثر منهم فهماً، يُقرّ بذلك أهل البصرة لأهل الكوفة.

قلت: هم أكثر أنبياء، وأقلّ أتقياء، وأعظمُ كبرياء. منهم المغيرة، الخبيث السريرة، وبيان وأبو بيان؛ تنسب فيهم من الأنبياء، والله ما أتاها إلا نبي واحد. قال الحسن بن زيد: أنتم أصحاب عليّ يوم سرنا إليه لنقتله، فكفّ الله أيدينا عنه، وسار إلى الكوفة فقتلوه، فأينا أعظمُ ذنباً!

فقال الحجاج: والله يا أمير المؤمنين، لقد بلغني أنّ أهل البصرة كانوا يومئذ عشرين ألفاً، وكان أهل الكوفة خمسة آلاف، فلما التقت حلقتا البطان، وأخذت الرجال أقرانها، شدّت خيلهم في صعيد واحد.

فقلت: وكيف يكون ذلك؛ وخرجت ربيعة سامعة مطيعة، تعين عليّاً، وخرج الأحنف بن قيس في سعد والرباب وهم السنام الأعظم، والجمهور الأكبر يعين عليّاً! ولكن سلّ هؤلاء يا أمير المؤمنين، كم كانت عدّتهم^(١) يوم استغاثوا بنا، فلما التقينا كانوا كرمادٍ اشتدّت به الريح في يوم عاصف!

فقال ابن أبي ليلى: والله يا أمير المؤمنين، إنّنا لأشرف منهم أشرافاً، وأكثر منهم أسلافاً.

قلت: معاذ الله يا أمير المؤمنين! هل كان في تميم الكوفة مثل الأحنف بن قيس في تميم البصرة، الذي فيه يقول الشاعر:

إذا الأبصار أبصرت ابن قيس ظلّ من مهابة منه خشوعاً
وهل كان في قيس الكوفة مثل قتيبة بن مسلم في قيس البصرة، الذي يقول فيه الشاعر:

كلّ عام يحوي قتيبة نهباً ويزيد الأموال مالاً جديداً
دوخ الصغد بالقبائل حتى ترك الصغد بالعراء قعوداً
باهليّ تعصب التاج حتى شبن منه مفارق كُن سوداً
وهل كان في أزد الكوفة مثل المهلب بن أبي صفرة في أزد البصرة؛ الذي يقول فيه الشاعر:

إذا كان المهلب من ورائي هذا ليلى وقر له فؤادي

(١) ل: «كم عدتهم يا أمير المؤمنين؟».

ولم أخش الدّنية من أناسٍ ولو صألوا بقوة قوم عادٍ
 وهل كان في بكر الكوفة مثل مالك بن مسمّع في بكر البصرة الذي يقول فيه
 الشاعر:

إذا ما خشنا من أميرٍ ظلامه أمزنا أبا غسان يوماً فعسكرا
 وهل كان في عبد قيس الكوفة مثل الحكم بن المنذر بن الجارود في عبد
 قيس البصرة، الذي يقول فيه الشاعر:

يا حكم بن المنذر بن الجارود أنت الجواد ابن الجواد المحمود
 فضحك أبو العباس حتى ضرب برجله، وقال: واللّه ما رأيت مثل هذه الغلبة
 قطّ!

محاسن الافتخار بالنبي ﷺ

قيل: كان عليّ بن عبد الله بن العباس رضي الله عنه عند عبد الملك بن مروان، إذ فاخره عبد الملك، فجعل يذكر أيام بني أمية، فبينما هو كذلك إذ نادى المنادي للأذان، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ، فقال عليّ لعبد الملك:

تلك المكارم لا قعبان من لبنٍ شيباً بماءٍ فعاداً بعد أبوالا^(١)
فقال عبد الملك: الحق في هذا أبين من أن يكابر^(٢).



عليّ بن محمد النديم، قال: دخلت على المتوكل وعنده الرضيّ، فقال: يا عليّ، من أشعر الناس في زماننا؟ قلت: البُحترى، قال: وبعده؟ قلت^(٣): مروان بن أبي حفصة عبدك^(٣)، فالتفت إليّ الرضيّ، وقال: يابن عمّ، من أشعر زماننا؟ قال: عليّ بن محمد العلويّ، قال: وما تحفظ من شعره؟ قال: قوله:

لقد فاخرتُنا من قريش عصابةً بمطّ خدودٍ وامتداد الأصابع
فلما تنازعنا القضاء قضى لنا عليهم بما نهوى نداء الصوامع
يعني المساجد.

قال المتوكل: وما معنى نداء الصوامع؟ قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. قال: وأبيك إنه لأشعر الناس^(٤).



(١) لأبي الصلت بن أبي ربيعة الثقفي، طبقات الشعراء لابن سلام ٤٨.

(٢) الخبر في المحاسن والأضداد ١٦١.

(٣) كذا في المحاسن والأضداد، وفي ط: «ولد مروان بن أبي حفصة خدمك وعبيدك».

(٤) الخبر في المحاسن والأضداد ١٦١.

محاسن ما قيل في ذلك من الشعر

قال علي بن محمد العلوي:

عَصَيْتُ الْهَوَى وَهَجَرْتُ النِّسَاءَ
وَمَا أُنْسَ لَا أُنْسَ حَتَّى الْمَمَاتِ
دَعَيْتَنِي وَصَبَرِي عَلَى نَائِبَاتِ
وَأِنْ يَكْ دَهْرِي لَوَى رَأْسَهُ
لِيَالِي أُرْوِي صُدُورَ الْقَنَا
وَنَحْنُ إِذَا كَانَ شَرْبُ الْمُدَامِ
بَلَّغْنَا السَّمَاءَ بِأَنْسَابِنَا
فَحَسْبُكَ مِنْ سَوْدِدِ أَتْنَا
يَطِيبُ الثَّنَاءَ لَا بَاءَ لَنَا
إِذَا ذَكَرَ النَّاسُ كُنَّا مَلُوكًا
هَجَانِي قَوْمٌ وَلَمْ أَهْجُهُمْ
وقال غيره:

وَأِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ عَرَفْتُهُمْ
نَجُومُ سَمَاءٍ كُلَّمَا انْقَضَ كَوْكَبُ
أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ
فَلَا تُوعِدْنِي يَا شُرَيْحُ فَإِنِّي
يُمَشِّي بِأَوْصَالِ الرِّجَالِ إِذَا شَتَا
وقال آخر:

حُلُمَاءٌ حِينَ يَقُولُ قَائِلُهُمْ

وَكُنْتُ دَوَاءً فَأَصْبَحْتُ دَاءً
نَزِيبَ الظُّبَاءِ تَجِيبُ الظُّبَاءِ^(١)
فَبِالصَّبْرِ نَلْتُ الثَّرَى وَالثَّوَاءَ
فَقَدْ لَقِيَ الدَّهْرُ مَنِّي التَّوَاءَ
وَأُرْوِي بِهِنَ الصُّدُورِ الظُّمَاءَ
شَرِبْنَا عَلَى الصَّافِنَاتِ الدَّمَاءَ
وَلَوْ لَا السَّمَاءُ لَجَزْنَا السَّمَاءَ
بِحُسْنِ الْبَلَاءِ كَشَفْنَا الْبَلَاءَ
وَذَكَرُ عَلِيٍّ يَزِينُ الثَّنَاءَ^(٢)
وَكَانُوا عَبِيدًا وَكَانُوا إِمَاءَ
أَبَى اللَّهِ لِي أَنْ أَقُولَ الْهَجَاءَ!

إِذْ مَاتَ مِنْهُمْ سَيِّدٌ قَامَ صَاحِبُهُ^(٣)
بَدَا كَوْكَبٌ تَأْوِي إِلَيْهِ كَوَاكِبُهُ
دُجِيَ اللَّيْلُ حَتَّى نَظَّمَ الْجَزْعَ ثَاقِبُهُ
كَلَيْتَ عَرِينٍ فَرَّ عَنْهُ ثَعَالِبُهُ
قَدْ احْمَرَّ مِنْ نَضْحِ الدَّمَاءِ مَخَالِبُهُ

بِيضُ الْوُجُوهِ مَقَاوِلُ لِسْنِ^(٤)

(١) النزيب: صوت الظبي.

(٢) المحاسن والأضداد: «يطيب الثناء».

(٣) لأبي الطمحان القيني، والأبيات في الأغاني ١٣ : ٩ (طبعة الدار)، مع اختلاف في الرواية.

(٤) المحاسن والأضداد ١٦٢.

لَا يَفْطُنُونَ لَعِيبَ جَارِهِمْ وَهُمْ لِحَفْظِ جَوَارِهِ فُطُنُ



وأحسن من ذلك كله قولُ رسولِ الله ﷺ وقد أتاه أعرابيٌّ، فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! مَنْ أكرم الناسَ حَسَباً؟ فقال: «أحسنُهُم خُلُقاً، وأفضلُهُم تقوى»، فانصرف الأعرابيُّ فقال: «ردّوه»، ثم قال: يا أعرابيٌّ، لعلك أردتَ نسباً! قال: نعم، قال: يوسف صديقُ الله، بنُ يعقوبَ إسرائيلَ الله، بنُ إسحاقَ ذبيحَ الله، بنُ إبراهيمَ خليلِ الله، فأين مثل هؤلاء الآباء في جميع الدنيا! ما كان فيها مثلهم أبداً.

وقال الشاعر:

وَلَمْ أَرَ كَالْأَسْبَاطِ أَبْنَاءَ وَالِدٍ وَلَا كَأَبْيَهُم وَالِدًا حِينَ يَنْسَبُ



ودخل عُيَيْنَةُ بنُ حِصْنِ الفَزَارِيِّ على النبي ﷺ، فانتسبَ إليه، ثم قال: أنا ابنُ الأشياخ الأكارم، فقال ﷺ: «أنت إذاً يوسف صديقُ الله، بنُ يعقوبَ إسرائيلَ الله، بنُ إسحاقَ ذبيحَ الله بنُ إبراهيمَ خليلِ الله!». .

وقال ﷺ: «خيرُ البَشَرِ آدم، وخيرُ العربِ محمد، وخيرُ الفُرْسِ سلمان، وخيرُ الرُّومِ صُهَيْب، وخيرُ الحبشةِ بلال». رحمهم الله أجمعين.

مساوىء الافتخار

رُوي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تفخروا»^(١) بأبائكم في الجاهليّة، فوالذي نفسي بيده لما يُدحرجُ الجعلُ بأنفه خيرٌ من آبائكم الذين ماتوا في الجاهلية».

قيل: وكان الحسن البصري يقول: ابن آدم! لمَ تفتخر، وإنما خرجت من مسيل^(٢) بولئين، نطفةٌ مُشجّت بأفذار.

وقال بعضهم لرجل يتبختر^(٣): يا هذا، إن أولك نطفةٌ قذرة، وآخرك جيفةٌ مُتّنة، وأنت فيما بينهما وعاءٌ عذرة؛ فما هذه المشية!

قال: وقيل لعامر بن قيس: ما تقول في الإنسان؟ قال: ما أقول فيمن إن جاع صرع^(٤)، وإن شبع طعى.

وروي عن ابن عباس أنه قال: يتفاضلون في الدنيا بالشرف والبيوتات، والإمارات والعِناق^(٥) والجمال والهيئة والمنطق، ويتفاضلون في الآخرة بالتقوى واليقين، فأتقاهم أحسنهم يقيناً، وأزكاهم عملاً، وأرفعهم درجة.

وقيل في ذلك:

يزينُ الفتى في الناس صحّةً عقله وإن كان محظوراً عليه مكاسبه
يشين الفتى في الناس قلة عقله وإن كرمّت أبائوه ومناسبه



وقال بعض الحكماء: لا يكون الشرف بالحسب والنسب؛ ألا ترى أنّ أخوين لأبٍ وأمٍّ؛ يكون أحدهما أشرف من الآخر؛ ولو كان ذلك من قبل النسب؛ لما كان لأحدٍ منهما على الآخر فضل؛ لأنّ نسبهما واحد، ولكن ذلك من قبل الأفعال، لأنّ الشرف إنما هو فيه لا في النسب. وقال الشاعر في ذلك:

(١) المحاسن والأضداد: «لا تفخروا».

(٢) المحاسن والأضداد: «سبيل».

(٣) ضرع، أي ذل.

(٤) العناق من الخيل: كرائمها.

(٥) العناق من الخيل: كرائمها.

أَبُوكَ أَبِي وَالْجَدُّ لَا شَكَّ وَاحِدٌ وَلَكِنَّا عُودَانُ: آسٌ وَخِرْوَعٌ



وَبَلَّغْنَا عَنِ الْمَدَائِنِيِّ أَنَّهُ قَالَ: لَيْسَ السَّوْدُودُ بِالشَّرَفِ، وَإِنَّمَا سَادَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ بِحِلْمِهِ، وَخُضَيْنُ بْنُ الْمَنْذَرِ بِرَأْيِهِ، وَمَالِكُ بْنُ مِسْمَعٍ بِمَحَبَّتِهِ فِي الْعَامَةِ، وَسُوَيْدُ بْنُ مَنْجُوفٍ بِعُطْفِهِ عَلَى أَرَامِلِ قَوْمِهِ، وَسَادَ الْمَهْلَبُ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ بِجَمِيعِ هَذِهِ الْخِصَالِ.



قِيلَ: وَسَمِعَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ خَلِيفَةُ صَوْتًا وَلَغَطًا^(١) بِالْبَابِ، فَقَالَ لِبَعْضِ مَنْ عِنْدَهُ: اخْرُجْ فَانْظُرْ مَنْ كَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ فَأَدْخِلْهُ، فَخَرَجَ الرَّسُولُ فَأَدْخَلَ بِلَالًا وَصُهَيْبًا، وَسَلْمَانَ - وَكَانَ أَبُو سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَسَهِيلُ بْنُ عَمْرٍو فِي عَصَابَةٍ مِنْ قَرِيشٍ جُلُوسًا بِالْبَابِ - فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ: يَا مَعْشَرَ قَرِيشَ، أَنْتُمْ صَنَادِيدُ الْعَرَبِ وَأَشْرَافُهَا وَفَرَسَانُهَا بِالْبَابِ، وَيَدْخُلُ حَبَشِيٌّ وَفَارِسِيٌّ وَرُومِيٌّ! فَقَالَ سَهِيلُ: يَا أَبَا سَفْيَانَ، أَنْفَسَكُمْ فَلُومُوا^(٢) وَلَا تَلُومُوا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. دَعَا الْقَوْمَ فَأَجَابُوا، وَدُعِيتُمْ فَأَبِيتُمْ، وَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْظَمُ دَرَجَاتٍ، وَأَكْثَرُ تَفْضِيلًا. فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ: لَا خَيْرَ فِي مَكَانٍ يَكُونُ فِيهِ بِلَالٌ شَرِيفًا^(٣)!

(١) ط: «ولقطاً».

(٢) ك: «فالزموا أنفسكم».

(٣) المحاسن والأضداد ١٦٤، ١٦٥.

مساوي أصحاب الصناعات

قال المأمون، وذكر أصحاب الصناعات: السُّوقَةُ سُفْلٌ، والصُّنَاعُ أَنْدَالٌ، والتَّجَارُ بُخْلَاءٌ، والكَتَّابُ مَلُوكٌ عَلَى النَّاسِ.

وقال المأمون: الناس أربعة: ذو سيادة، أو صناعة، أو تجارة، أو زراعة؛ فمن لم يكن منهم كان عِيَالاً عليهم.

وذكروا أن أبا طالب كان يعالج العطر والْبَزَّ، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه بَزَّازاً، وكان عمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه بَزَّازاً، وكان عبد الرحمن بنُ عوف بَزَّازاً، وكان سعد بن أبي وقَّاص رحمه الله يَأْبِرُ^(١) النَّخْلَ، وكان أخوه عتبَةُ رحمه الله نَجَّاراً، وكان العاص بنُ هشام، أخو أبي جهل بن هشام جَزَّاراً. وكان الوليد بنُ المغيرة حَدَّاداً، وكان عُقْبَةُ بن أبي مُعَيْط خَمَّاراً، وكان عثمان بنُ طلحة، صاحبُ مفتاح البيت خِيَّاطاً، وكان أبو سفيان بن حرب يبيع الزَّيْتِ والأُدَمَ، وكان أُمَيَّة بن خَلْفٍ يبيع البُرْمَ^(٢)، وكان عبد الله بن جُدْعَان نَخَّاساً، وكان العاص بنُ وائل، أبو عمرو بن العاص يعالج الخَيْلَ والإِبِلَ، وكان جريرُ بن عمرو، وقيس، أبو الضَّحَّاك بن قيس، ومعمر بن عثمان، وسيرين أبو محمد بن سيرين؛ كلُّهم حَدَّادِينَ. وكان المسيَّب، أبو سعيد زِيَّاتاً، وكان ميمون بنُ مِهْرَانَ بَزَّازاً، وكان مالك بنُ دينار وِرَّاقاً، وكان أبو حنيفة صاحب الرأي خَزَّازاً، وكان مجمَع الزاهد حائِكاً.



قيل: واتَّخَذَ يزيد بن المهلب بستاناً في داره بخراسان، فلمَّا وليَ الأمرَ قتيبة بن مسلم جعله لإبله، فقال له مرزبان^(٣) مَرَوْ: هذا كان بستاناً، وقد اتخذته لإبلِك! فقال قتيبة: كان أبي «أشتربان»^(٤)، وكان أبو يزيد «بستانبان»^(٥)، فمنهما صار ذلك كذلك^(٦).

(١) يَأْبِرُ النخل: يصلحه.

(٢) البرم، كغرف: القدور، واحدة برمة كغرفة.

(٣) المرزبان: الرئيس من الفرس.

(٤) الأشتربان: سائق الجمل؛ فارسي.

(٥) بستانبان، هو البستاني، فارسي.

(٦) المحاسن والأضداد ١٦٥، ١٦٦.

محاسن التاج

ذكروا أَنَّ جُرْهُمَ من نِتاج ما بين الملائكة وبناتِ آدم، وأن الملائك من الملائكة كان إذا عَصَى رَبَّهُ في السماء أَهْبَطَهُ إلى الأرض في صورة رجل في طبيعته ما في طبيعة بني آدم، كما صنع بهاروت وماروت في خبرهما مع الزهرة، حتى كان من شأنهما ما كان، فعصى بعض الملائكة ربنا جلَّ ذكره، فأهبطه إلى الأرض في صورة رجل، فتزوج أمَّ جُرْهم، فولدت منه جُرْهُمًا، فقال شاعرهم:

لَا هُمْ إِنْ جُرْهُمًا عَبَادُكَا النَّاسِ طَرْفٌ وَهُمْ تِلَادُكَا^(١)
وكان ذو القرنين أمه قيرى آدمية، وكان عيرى من الملائكة^(٢).



وسَمِعَ عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه رجلاً ينادي: يا ذا القرنين . فقال:
فرغتم من أسماء الأنبياء، فارتقيتم إلى أسماء الملائكة!



وزعموا أن التناكح والتلاقح قد يقع بين الجن والإنس، لقوله عزَّ وجلَّ:
﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [سورة الإسراء: ٦٤]، ولأن الجنَّيات إنما يعرضن
لصرعى رجال الإنس على جهة العشق وطلب السَّفاد، وكذلك رجال الجنِّ لنساء
بني آدم. ومن زعم أن الصَّرع من المِرة، فقد ردَّ قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِينَ
يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٥]،
وقال جلَّ ذكره؛ ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [سورة الإسراء: ٦٤]، وقال عزَّ
وتعالى: ﴿لَمْ يَطْمِئْهُمْ نَارُ قَيْلِهِمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [سورة الرحمن: ٥٦]، وكان عبد الله بنُ
هلال سبَّط إبليس من قبل أمهاته.

وروى أبو زيد النَّحوي أن سِعلاة أقامت في بني تميم حتى ولدت فيهم،
ورأت ذات يوم بَرَقاً من شِقِّ بلاد السَّعالي، فحنت إلى وطنها وطارَت إليهم.

(١) الحيوان ١: ١٨٧، وفيه: «الناس طارف».

(٢) انظر: الحيوان ١: ١٨٧، ١٨٨.

وقد قيل: إن الواق واق، من نتاج ما بين بعض النبات وبعض الحيوان.
وقد قيل: إن الثعلب يسفد الهرة الوحشية، فيخرج من بينهما ولد فيه مشابهة
منهما.

قال حسان:

أَبوك أَبوك وَأَنْتَ ابْنُهُ وَبِئْسَ الْبُئْيُ وَبِئْسَ الْأَبُ! ^(١)
وَأَمَّكَ سَوْدَاءُ نُوبِيَّةٌ كَأَنَّ أَمَلَهَا الْخُنْطُبُ ^(٢)
يَبِيتُ أَبوكَ بِهَا مُغْدَفًا كَمَا سَاوَرَ الْهَرَّةُ الثَّعْلَبُ
وقد يولد من بين الكلاب والثعالب هذه الكلاب السلوقيّة الماهرة بالصيد.

وقيل: إنّه يخرج من بين الذئب والكلبة ولد يسمى الدّيسم.
وقال بشّار:

أَدِيسْمُ يَابَنُ الذَّئْبِ مِنْ نَجَلِ زَارِعٍ أَتْرَوِي هِجَائِي سَادِرًا غَيْرَ مُقْصِرٍ!
وزارع: اسم كلب يُعرَف بزارع.

وزعموا أنّه يخرج من بين الذئب والضبع ولد يسمى السّمع ^(٣) كالحيّة لا
يعرف العِلَل، ولا يموت إلا بعرض يعرض له، وإنّه أشدُّ عدوّاً، وأسرع من الرّيح؛
قال الشاعر:

مُشْبِلٌ فِي الْحَيِّ أَحْوَى رِفْلٌ فَإِذَا يَعْدُو فَسَمْعٌ أَزْلُ
ومن عجائب التركيب فوالج ^(٤) البُخْت؛ إِذَا ضَرَبْتَ فِي إِنْاثِ الْبُخْتِ لَمْ
يَخْرُجِ الْخُور ^(٥) إِلَّا قَصِيرُ الْعُنُقِ، لَا يِنَالُ كَلَاءً وَلَا مَاءً، وَإِذَا ضَرَبْتَ الْفُوَالِجَ فِي
الْعِرَابِ، جَاءَتْ هَذِهِ الْجَوَامِزُ ^(٦) وَالْبُخْتُ الْكَرِيمَةُ، وَمَتَى ضَرَبْتُ فَحُولُ الْعِرَابِ فِي
إِنْاثِ الْبُخْتِ جَاءَتْ هَذِهِ الْإِبِلُ الْقَبِيحَةُ الْمَنْظَرُ.



(١) ديوانه ٦١، وفيه: «ومر حسان رضي الله عنه بمجلس مزينة بعدما كف بصره، فضحك به بعضهم فقال».. وذكر الأبيات، مع اختلاف في الرواية.

(٢) الخنطب: دابة مثل الخنفساء.

(٣) السمع: «سبع مركب» وهو ولد الذئب من الضبع؛ وهو حديد السمع جداً. وفي المثل يقال: هو أسمع من سمع.

(٤) الفوالج: جمع فالج، وهو الجمل الضخم ذو السنّامين يحمل من الهند للفيلة.

(٥) الخور: ولد الناقة.

(٦) الجوامز: السراع العدو.

وقد قيل في الإبل: إن فيها عرقاً من سَفَادِ الجنِّ، وإن فيها إبلاً وَخْشِيَّةً هي من بَقَايَا إِبِلٍ وَبَارٍ، لَمَّا أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَقِيَتْ إِبِلُهُمْ، وإنَّ الجمل منها ربما صار إلى أعطان الإبل فَضْرَبَ فِي نَاقَةٍ، فتجيء منه هذه المَهْرِيَّة والعَسْجَدِيَّة التي تسمى الذَّهْبِيَّة^(١).



وزعموا أَنَّ بِلَادَ الحَبْشَةِ ذَكَرَ الضَّبَاعِ يَعْرِضُ لِلنَّاقَةِ مِنَ الْوَحْشِ، فيسفدها فتلقح بولد على خلقة الناقة والضَّبُع، فإن كان أنثى يَعْرِضُ لَهَا الثَّور الْوَحْشِيُّ فيَضْرِبُهَا فيصير الولد زرافة، ويسمَّى بِالْفَارَسِيَّةِ «أَشْتَرُ كَاوْبِلْنَك»، أي خرج من بين الجمل والثور والضبع، وقد جَحَدَ النَّاسُ أَنَّ تَكُونَ الزَّرَافَةُ الْأُنْثَى تَلْقَحُ مِنَ الزَّرَافَةِ الذَّكَرِ.

وأما النعامة فإنها لا تَقَعُ إِلَّا مِنْ ذَكَرِ النِّعَامِ وَإِنَاثِهَا.



ومن نِتَاجِ الطَّيْرِ مَا رَوَاهُ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ رَأَى طَائِراً لَهُ صَوْتٌ حَسَنٌ، زَعَمُوا أَنَّهُ مِنْ نِتَاجِ مَا بَيْنَ الْقُمْرِيِّ وَالْفَاخْتَةِ. وَقُتِّاصُ الطَّيْرِ يَزْعُمُونَ أَنَّ أَجْنَاساً مِنَ الطَّيْرِ تَلْتَقِي عَلَى الْمِيَاهِ فَتَسَافِدُ، وَإِنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ يَرَوْنَ أَشْكَالاً لَمْ يَرَوْهَا قَطُّ، فيَقْدِرُونَ أَنَّهَا مِنْ تَلَاقِيهِ تِلْكَ الْمُخْتَلِفَةِ.

(١) العسجدية: ركاب المملوك، وهي إبل كانت تزين للنعمان، منسوبة إلى سوق يكون فيها العسجد والذهب (اللسان).

مَسَاوِءُ التَّاجِ

فأما من يخرج من بين بني آدم، فإنه إذا تزوّج خُراسانيّ بهندية، خرج من بينهما الذَّهَبُ الإبريز؛ غير أنه يحتاج أن يحرس ولدهما إذا كان أنثى من زناء الهند، وإذا كان ذَكَراً من لُواط رجال خراسان.

ومن خَبَثَ التَّاجُ ابنَ المذكَرَةِ من النساء، والمؤنَّث من الرجال، يكون أخْبَثَ نِتَاجاً من البَغْلِ، وأفسدُ أعراقاً من السَّمْع، وأكثر عيوباً من كلِّ خَلْق، وأن يأخذ بأسوأ خصالِ أبيه، وأزْدِ خصالِ أمِّه، فتجتمع فيه خصالُ الدواهي، وأعيانِ المساوئ، وأنه إذا خرج كذلك لم يَنْجَعْ فيه أدب، ولم يطمع في علاجه طبيب، وقد رأينا في دُورِ ثَقِيفٍ فتى اجتمعت فيه هذه الخصال، فما كان في الأرض يوم إلا وهم يتحدّثون عنه بشيء يصغُر في جنبه أكبر ذنب كان ينسب إليه.

والخِلاسيّ من الناس الذي يخرج من بين الحبشيّ والبيضاء، والبیسريّ من الناس الذي من بين البيض والهند، ويكون من أحسن الناس وأجملهم.

محاسن الوفاء

قيل في المثل: هو أوفى من فُكِيهَة^(١)، وهي امرأة من قيس بن ثعلبة، كان من وفائها أن السُّلَيْك بن السُّلَكة غزا بَكْر بن وائل، فخرج جماعة من بكر، فوجدوا أثر قَدَم على الماء، فقالوا: واللَّهِ إنَّ هذا لأثر قدم ترد الماء، فقعدوا له، فلمَّا وافى حَمَلُوا عليه، فعدا حتَّى وَلَج قُبَّة فُكِيهَة، فاستجار بها، فأدخلته تحت درُعها، فانتزعُوا خِمَارَهَا، ونادت إخوتها، فجاؤوا عَشْرَة، فمنعوه منهم، قال: فكان سُلَيْك يقول: كأني أجدُ خشونة إِسْتِهَا على ظهري حين أدخلتني درُعها، وقال:

لِعَمْرُ أَيْبِكَ وَالْأَنْبَاءِ تَنْمِي لِنِعَمِ الْجَارِ أَخْتُ بَنِي عَوَارَا
مَنْ الْخَفِرَاتِ لَمْ تَفْضَحْ أَخَاهَا وَلَمْ تَرْفَعْ لَوَالِدِهَا شَنَارَا
عَنِتُّ بِهَا فُكِيهَةً حِينَ قَامَتْ كَنَصْلِ السِّيفِ وَانْتَزَعُوا الْخِمَارَا^(٢)



وقيل أيضاً: هو أوفى من أمِّ جَمِيل، وهي من رَهْط أبي هريرة، من دَوْس، وكان من وفائها أن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي قتل أبا أَرْيَهْر^(٣)؛ رجلاً من الأزد، فبلغ ذلك قومَه بالسَّراة، فوثبوا على ضرار بن الخطَّاب ليقتلوه، فعدا حتى دخل بيت أمِّ جميل، وعادَ بها، فقامت في وجوههم، ونادت قومها، فمنعوه لها، فلما قام عمرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه بالأمر، ظنَّت أنَّه أخوه، فأتته بالمدينة، فلمَّا انتسبتُ عرفَ القِصَّة، وقال: إني لستُ بأخيه إلا في الإسلام، وهو غازٍ، وقد عرفنا مِثْلَكَ عليه، فأعطاهَا على أنها بنت سبيل^(٤).



ويقال: هو أوفى من السَّمْوَال بن عاديء، وكان من وفائه أن امرأ القيس بن حُجر

(١) في مجمع الأمثال عن حمزة: «هي فكيهة بنت قتادة بن شنوءة، خالة طرفة؛ لأن أم طرفة وردة بنت قتادة».

(٢) الخبر في مجمع الأمثال للميداني ٢: ٣٧٨، والمحاسن والأضداد ٧٠، ٧١.

(٣) في مجمع الأمثال: «أبا زهير الزهراني». وانظر: الاشتقاق ٥٠٤.

(٤) الخبر في مجمع الأمثال ٢: ٣٧٧، والمحاسن والأضداد ٧١.

الكِنْدِي لما أراد الخروج إلى قيصر ملك الروم استودع السموأل دروعاً له، فلما مات امرؤ القيس غزاه ملك من ملوك الشام، فتحرز منه السموأل، فأخذ الملك ابناً له، ذكروا أنه كان متصيّداً، فصاح به: يا سموأل! هذا ابنك في يدي؛ وقد علمت أن امرأ القيس، ابن عمي، وأنا أحق بميراثه، فإن دفعت إليّ الدروع وإلا ذبحت ابنك، فقال: أجلني، فأجله. فجمع أهل بيته وشاورهم فكلّ أشار عليه أن يدفع الدروع، وأن يستنقذ ابنه، فلما أصبح أشرف فقال: ليس إلى دفع الدروع سبيل، فاصنع ما أنت صانع! فذبح الملك ابنه، وهو ينظر إليه - وكان يهودياً - فانصرف الملك، ووافى السموأل بالدروع الموسم، فدفعها إلى ورثة امرئ القيس، وقال في ذلك:

وَفَيْتُ بِأَدْرُعِ الْكِنْدِيِّ إِنِّي إِذَا مَا خَانَ أَقْوَامٌ وَفَيْتُ
وَقَالُوا عِنْدَهُ كَنْزٌ رَغِيبٌ فَلَا وَأَبِيكَ أَغْدِرُ مَا مَشَيْتُ
بَنَى لِي عَادِيًا حِصْنًا حَصِينًا وَبِئْرًا كُلَّمَا شِئْتُ اسْتَقَيْتُ^(١)
وقال الأعشى في ذلك:

كُنْ كَالسَّمُوْأَلِ إِذْ سَارَ الْهُمَامُ لَهُ فِي جَحْفَلٍ كَسَوَادِ اللَّيْلِ جَرَّارٍ^(٢)
خَيْرَهُ خُطَّتِي خَسَفٍ، فَقَالَ لَهُ اذْبَحْ أَسِيرَكَ، إِنِّي مَانِعٌ جَارِي^(٣)



وقيل: هو أوفى من الحارث بن عباد، وكان من وفائه أنه أسر عدي بن ربيعة، ولم يعرفه، فقال: دُلّني على عدي، فقال: إن أنا دللتك على عدي أتؤمّني؟ قال: نعم. قال: فأنا عدي، فخلّاه.
وقال في ذلك:

لَهْفَ نَفْسِي عَلَى عَدِيٍّ وَقَدْ أَسَدَ قَبَّ لِلْمَوْتِ وَاحْتَوَتْهُ الْيَدَانِ^(٤)

(١) بعده في مجمع الأمثال:

طِمْرًا تَزْلُقُ الْعُقْبَانُ عَنْهُ إِذَا مَا نَابَنِي ظُلُمٌ أَبَيْتُ

(٢) من قصيدة طويلة في ديوانه ١٢٦، ١٢٧، مطلعها:

شُرَيْخٌ لَا تَتْرَكْنِي بَعْدَمَا عَلِقْتُ حَبَالَكَ الْيَوْمَ بَعْدَ الْقِدِّ أَظْفَارِي

(٣) الديوان: «إذ سامه خطتي خسف». والخبر في مجمع الأمثال ٢: ٣٧٤، والمحاسن والأضداد ٧١، ٧٢.

(٤) الخبر في المحاسن والأضداد ٧٣، ورواية البيت فيه:

لَهْفَ نَفْسِي عَلَى عَدِيٍّ وَقَدْ شَا رَفَهُ الْمَوْتُ وَاحْتَوَتْهُ الْمَنُونُ

وانظر: مجمع الأمثال ٢: ٣٧٨.

ويقال: هو أوفى من عوف بن محلم، وكان من وفائه أن مروان القرظ^(١) غزا بكر بن وائل، ففَضُّوا جيشه، وأسره رجل منهم وهو لا يعرفه، فأتى به أمه فقالت: إنك لتختال بأسيرك كأنك جئت بمروان القرظ! فقال لها مروان: وما تُرجِّين من مروان؟ قالت: عِظَمُ فدائه، قال: وكم ترتجبن من فدائه؟ قالت: مائة بغير، فقال مروان: ذلك لك على أن تردِّيني إلى خُماعة بنت عوف بن محلم^(٢) قالت: ومن لي بمائة من الإبل! فأخذ عوداً من الأرض، فقال: هذا لك بها، فمضت به إلى عوف، فاستجار بخماعة ابنته، فبعث عمرو بن هند أن يأتيه به^(٣)، فقال: قد أجارته ابنتي، وليس إليه سبيل، فقال عمرو: قد آليت ألا أعفو عنه أو يضع يده في يدي. فقال: عوف يضع يده في يدك على أن تكون يدي بينهما، فأجابه عمرو إلى ذلك، فجاء

(١) في مجمع الأمثال: «مروان القرظ بن زنباع»؛ وفيه أيضاً: «وإنما سمي مروان القرظ، لأنه كان يغزو اليمن، وهي منابت القرظ».

(٢) في مجمع الأمثال: «وكان السبب في ذلك أن ليث بن مالك المسمى بالمنزوف ضرطاً لما مات، أخذت بنو عبس فرسه وسلبه، ثم مالوا إلى خبائه فأخذوا أهله، وسلبوا امرأته خماعة بنت عوف بن محلم؛ وكان الذي أصابها عمرو بن قارب وذؤاب بن أسماء، فسألها مروان القرظ: من أنت؟ فقالت: أنا خماعة بنت عوف بن محلم، فانتزعها من عمرو بن ذؤاب لأنه كان رئيس القوم، وقال لها: غطي وجهك؛ واللّه لا ينظر إليه هزلي حتى أردك إلى أبيك، ووقع بينه وبين بني عبس شر بسببها. ويقال: إن مروان قال لعمرو وذؤاب: حكمانني في خماعة، قالوا: قد حكمناك يا أبا صهبان، قال: فإني اشتريتها منكما بمائة من الإبل، وضمنها إلى أهله حتى إذا دخل الشهر الحرام أحسن كسوتها وأخدمها وأكرمها، وحملها إلى عكاظ؛ فلما انتهى بها إلى منازل بني شيبان، قال لها: هل تعرفين منازل قومك، ومنازل أبيك؟ قالت: هذه منازل قومي، وهذه قبة أبي؛ قال: فانطلقني إلى أبيك، فانطلقت فخبرت بصنيع مروان، فقال مروان فيما كان بينه وبين قومه، في أمر خماعة وردّها إلى أبيها:

رَدَدْتُ عَلَى عَوْفٍ خُمَاعَةَ بَعْدَمَا	خَلاهَا ذُؤَابٌ غَيْرَ خَلْوَةِ خَاطِبٍ
وَلَوْ غَيْرُهَا كَانَتْ سَبِيَّةَ رُمُجِهِ	لَجَاءَ بِهَا مَقْرُونَةٌ بِالذَّوَابِ
وَلَكِنَّهُ أَلْقَى عَلَيْهَا حِجَابَهُ	رَجَاءَ الثَّوَابِ أَوْ حِذَازَ الْعَوَاقِبِ
فَدَافَعْتُ عَنْهَا نَاشِئاً وَقَبِيلُهُ	وَفَارِسَ يَعْبُوبٍ وَعَمْرُوَ بَنِ قَارِبِ
فَفَادَيْتُهَا لَمَّا تَبَيَّنَ نَصْفُهَا	بِكُومِ الْمَتَالِي وَالْعَشُورِ الضَّوَارِبِ
صُهَابِيَّةَ حُمُرِ الْعِشَانِينَ وَالذَّرَا	مَهَارِيَسَ أُمَثَالِ الصَّخُورِ مِصَاعِبِ

قال: فكانت هذه يداً لمروان عند خماعة، فلها قال: «ذلك لك على أن تؤدِّيني إلى خماعة بنت عوف».

(٣) في مجمع الأمثال: «وكان عمرو وجد على مروان في أمر، فألى ألا يعفو عنه حتى يضع يده في يده».

عوف بمروان فأدخله عليه، فوضع يده في يده، ووضع عوف يده بين أيديهما، فعفا عنه^(١).



ويقال: إن قُبَاذَ أمرٍ بقتل رجل من الطاعنين على المملكة، فقتل، فوقف على رأسه رجل من جيرانه وصنائه، فقال: رحمك الله! إن كنت لتكرم^(٢) الجار، وتصبر على أذاه، وتواسي أهل الخلّة^(٣)، وتقوم بالنائبة! والعجب كيف وجد الشيطان فيك مساعاً حتى حملك على عصيان ملكك! فخرجت من طاعته المفروضة إلى معصيته، وقديماً ما تمكن ممن هو أشد منك قوة، وأثبت عزمًا. فأخذ صاحب الشرطة الرجل فحبسه وأنهى كلامه إلى قُبَاذَ، فوقع: «يُحسن إلى هذا الذي شكر إحساناً يُفْضَلُ به، وتُرفع مرتبته، ويزاد في عطائه».



قيل: ولما قتل كسرى النعمان بن المنذر، كتب إلى إياس بن قبيصة يأمره أن يبعث إليه بولد النعمان بن المنذر وتركته؛ من المال والإبل والخيول والسلاح، وكان النعمان أودع ذلك هانيء بن مسعود، فبعث إليه إياس يعلمه بما كتب به كسرى، فأبى أن يسلم شيئاً من تركة النعمان، فكتب إلى إياس يعلمه بما كتب به كسرى، فأبى أن يسلم شيئاً من تركة النعمان، فكتب إياس إلى كسرى يعلمه ذلك، فألى على نفسه ليستأصلن بكر بن وائل. فكتب إلى إياس يأمره بالمسير إليهم لمحاربتهم فيمن معه من طيء وإياد وغيرهم، وكتب إلى قيس بن مسعود الشيباني المعروف بذي الجدين - وكان عاملاً على سقوان - يمنع العرب من دخول أطراف السواد؛ ويأمره أن يسير بمن معه من قومه، فيعين إياساً على محاربة بكر بن وائل. ثم عقد كسرى لقائد من قواده يسمى الهامرز^(٤) في اثني عشر ألف رجل من أبطال أساورته^(٥)، ووجهه إلى إياس لمعاونته، ثم عقد أيضاً لهرمز جرابزين، وكان أعظم مرازبته في مثل ذلك، وأمره أن يقفوا أثر الهامرز؛ حتى يوافي إياس بن قبيصة.

(١) في مجمع الأمثال: «وقال عمرو: لا حر بوادي عوف»، فأرسلها مثلاً. مجمع الأمثال ٢: ٣٧٥، ٣٧٦، المحاسن والأضداد ٧٣، ٧٤.

(٢) ك: «إنك لكنت».

(٣) الخلّة هنا: الحاجة.

(٤) كذا في ك وتاريخ الطبري، وفي ل: «هامون».

(٥) الأسوار، بالضم والكسر: القائد من الفرس، وجمعه أساور.

فسارت الجيوش إلى بكر بن وائل - وكانوا بمكان يسمّى ذاقار، منه إلى مدينة الرسول خمس مراحل، ممّا يلي طريق البصرة - فأقبلت الجيوش حتى أناخت على بكر فأحدثت بهم.

ثم إن عظماء بكر بن وائل اجتمعوا إلى هانيء بن مسعود المزدلف، وقالوا: إن هذه الجيوش قد أحدثت بنا من كلّ ناحية، فما ترى؟ قال: أرى أن تجعلوا حصونكم سيوفكم ورماحكم، وتوطئوا أنفسكم على الموت، فقالوا: نعم. واللّه لنفعلن. ثم إن قيس بن مسعود أقبل في سواد الليل من عسكر إياس حتى أتى هانيء بن مسعود، فقال: يابن عمّ، إنه قد حلّ بكم من الأمر ما قد ترون، ففرّق خيل النعمان وسلاحه في أشدّاء قومك ليقوّوا بذلك على القتال، فهي مأخوذة لا محالة إن قتلوا، وإن سلّموا أمرتهم فردّوها عليك. وعليك بالجدّ والصبر، وإياك ثم إياك أن تخفّر ذمتك في تركة النعمان حتى تقتل وعليك ويقتل معك جميع قومك.

قال له هانيء: أوصيت يابن عمّ محافظاً، فوصلتك رحم؛ وأرجو ألا ترى منّا تقصيراً ولا فتوراً.

فانصرف قيس ذو الجدين من عند هانيء كئيباً حزيناً باكياً خائفاً من هلاك قومه، حتى أتى عسكر إياس، وكان يُريّه أنه مجامع له على حرب قومه، خوفاً أن يجدّ عليه كسرى فيقتله.

فلما أصبح هانيء بن مسعود دعا بخيل النعمان وسلاحه ففرّقه في أبطال قومه وأشدّائهم، فركبوا تلك الخيول، وكانت ستمائة فرس وستمائة درع، واستلّموا^(١)، تلك الدروع، وكان ذلك في العام الذي هاجر فيه رسول الله ﷺ إلى المدينة، واتفقت بكر بن وائل أن تجعل شعارها باسم رسول الله ﷺ: «محمد يا منصور»، وذلك قبل أن يسلموا، وبذلك الاسم نُصروا وقهروا عدوهم.

وعمد رجل من أشراف بني عجل يقال له حنظلة بن سيّار، إلى حُزْم رحالات النساء فقطعها كلّها؛ أراد بذلك أن يمنع قومه من الهرب إن وقعت الهزيمة: فسمي بذلك مقطّع الوضين^(٢).

وإن إياس بن قبيصة أرسل إلى بكر بن وائل يخيرهم خصلة من ثلاث: إمّا

(١) ك، ل: «واستلموا».

(٢) الوضين: بطان عريض منسوج من سيور أو شعر.

أَنْ يُسَلِّمُوا تَرْكَةَ النِّعْمَانِ، وَإِنَّمَا أَنْ يَسِيرُوا لَيْلًا فِي الْبَرَارِيِّ، فَيَعْتَلُّ عَلَى كَسْرَى أَنْهَمْ هَرَبُوا، فَإِنْ أَبَوْا هَاتَيْنِ الْخَلَّتَيْنِ خَرَجُوا إِلَى الْحَرْبِ.

فَتَأَمَّرُوا بَيْنَهُمْ، فَقَالُوا: أَمَّا أَنْ نَسَلِّمَ خِفَارَتَنَا فَلَا يَكُونُ ذَلِكَ، وَإِنْ نَحْنُ لِحَقْنَا بِالْفَلَاةِ أَفْضَيْنَا إِلَى بِلَادِ تَمِيمٍ فَيَقْطَعُونَ عَلَيْنَا، وَيَأْخُذُونَ مَا مَعَنَا وَيَأْسُرُونَنَا، وَلَيْسَتْ لَنَا حِيلَةٌ إِلَّا الْقِتَالُ، فَاخْتَارُوا الْقِتَالَ، وَوَجَّهُوا خَمْسَمِائَةَ فَارِسٍ مِنْ أَبْطَالِهِمْ، عَلَيْهِمْ يَزِيدُ بْنُ حَارِثَةَ الْيَشْكُرِيِّ، وَأَمْرَهُمْ أَنْ يَكْمُنُوا لِلْعَجَمِ.

ثُمَّ زَحَفَ الْفَرِيقَانِ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَتَقَدَّمَ الْهَامِرُزُ وَوَقَفَ بَيْنَ الصَّفَيْنِ، وَنَادَى بِالْفَارَسِيَّةِ: «مَرْدِي آمَرْدِي»، فَقَالَ يَزِيدُ بْنُ حَارِثَةَ: مَا يَقُولُ؟ قَالَ: يَدْعُو إِلَى الْبَرَّازِ رَجُلًا لِرَجُلٍ، فَقَالَ: وَأَبْيَكُمُ لَقَدْ أَنْصَفَ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْهِ؛ فَاخْتَلَفَ بَيْنَهُمَا ضَرْبَتَانِ، فَضْرَبَهُ يَزِيدُ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ عَلَى مَنْكَبِهِ فَقَدْ دَرَعَهُ حَتَّى أَفْضَى السَّيْفُ إِلَى مَنْكَبِهِ فَأَبَانَهُ فَخَرَّ مَيِّتًا، الْهَامِرُزُ، أَوَّلُ قَتِيلٍ بَيْنَ الصَّفَيْنِ.

وَأَلْقَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الرَّعْبَ فِي قُلُوبِ الْعَجَمِ، فَوَلَّوْا مِنْهَزِمِينَ، وَلَحَقَ حَنْظَلَةُ بْنُ سَيَّارِ الْعَجَلِيِّ بِهَرْمَزِ جَرَابِزِينَ، قَائِدَ الْعَجَمِ فَطَعَنَهُ طَعْنَةً خَرَّ مِنْهَا مَيِّتًا. وَدَفَعَ هَانِيءُ بْنُ مَسْعُودٍ فَرَسَهُ فِي طَلَبِ إِيَّاسَ بْنِ قَبِيصَةَ حَتَّى لَحِقَهُ، وَمَعَهُ قَيْسُ بْنُ مَسْعُودٍ ذُو الْجَدَيْنِ، فَأَرَادَ هَانِيءُ قَتْلَ إِيَّاسَ، فَمَنَعَهُ قَيْسُ، وَحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَتْلِهِ، وَأَتْبَعَ الْعَجَمُ خَمْسَمِائَةَ فَارِسٍ مِنْ بَنِي شَيْبَانَ لَا يَلُوءُونَ عَلَى شَيْءٍ، يَقْتُلُونَ يَوْمَهُمْ ذَلِكَ مَنْ أَدْرَكَوْا مِنْهُمْ، حَتَّى جَنَّهُمُ اللَّيْلُ، وَبَلَغَتْ هَزِيمَةُ الْأَعَاجِمِ كَسْرَى بِالْمَدَائِنِ.

قَالَ دَعْقَلُ: فَذَكَرَ هَذَا الْحَدِيثَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «هَذَا أَوَّلُ يَوْمٍ انْتَصَفَ فِيهِ الْعَرَبُ مِنَ الْعَجَمِ وَبِي نَصَرُوا»، يَعْنِي بِاسْمِهِ ﷺ. قَالَ: وَسُقِطَ فِي يَدِ كَسْرَى وَاغْتَاظَ مِنْ ذَلِكَ غِيظًا شَدِيدًا، وَوَقَعَتِ الْوَلُولَةُ وَالْعَوِيلُ بِالْمَدَائِنِ، فَتَدَبَّ كَسْرَى الْجُنُودَ، وَفَرَّقَ فِيهِمُ السَّلَاحَ وَالْمَالَ لِمَعَاوَذَةِ حَرْبِ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ.

ثُمَّ إِنْ بَطَارِقَةَ الرُّومِ خَرَجُوا عَلَى مَلِكِهِمْ قَيْصَرَ فَقَتَلُوهُ، فَاشْتَغَلَ بِهِ عَنْ مَعَاوَذَةِ حَرْبِ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ، فَكَانَ هَانِيءُ بْنُ مَسْعُودٍ الْمَزْدَلِفِيُّ أَحَدَ الْأَوْفِيَاءِ^(١).



وَمِنْهُمْ الطَّائِيُّ صَاحِبُ التُّعْمَانِ بْنِ الْمَنْذَرِ، وَكَانَ مِنْ حَدِيثِهِ أَنَّ التُّعْمَانَ بْنَ الْمَنْذَرِ رَكِبَ فِي يَوْمِ بُوْسِهِ، وَكَانَ لَهُ يَوْمَانِ: يَوْمُ بُوْسٍ، وَيَوْمُ سَعْدٍ، لَمْ يَلْقَهُ فِي

(١) أيام العرب في الجاهلية ٦، ابن الأثير ١: ٢٨٩، الأغاني ٢: ١٣٢ (ساسي)، معجم البلدان ٣: ٣٥٢.

يوم يؤسه أحدٌ إلّا قتله، وفي يوم سَعَدَه أحدٌ إلّا حَبَاهُ وأعطاه. فاستقبله في يوم يؤسه أعرابيٌّ من طَيِّءٍ فقال: حَيَّا اللهَ المَلِكُ! إِنَّ لِي صَبِيَّةً صِغَاراً لم أَوْصِ بِهِمْ أحداً، فإن يَأْذَنَ لِي المَلِكُ فِي إِيْتَانِهِمْ، أَعْطِيهِ عَهْدَ اللهِ أَنِّي أَرْجِعُ إِلَيْهِ إِذَا أَوْصَيْتَ بِهِمْ حَتَّى أَضَعَ يَدِي فِي يَدِهِ. فَرَقَّ لَهُ النِّعْمَانُ، فَقَالَ: لَا، إِلَّا أَنْ يَضُمَّنَكَ رَجُلٌ مِمَّنْ مَعَنَا، فَإِنْ لَمْ تَأْتِ قَتْلَنَاهُ، وَشَرِيكَ بَنَ عَمْرُو بْنُ شَرَّاحِيلَ نَدِيمَ النِّعْمَانِ مَعَهُ، فَقَالَ الطَّائِي:

يا شريك يا بَنَ عَمْرُو^(١) هل من الموت محالة!
يا أَخَا كُلِّ مُضَافٍ يا أَخَا مَنْ لَا أَخَالَه
يا أَخَا النِّعْمَانِ فُكَّ الـ يوم عن شَيْخِ غِلَالِه
إِنْ شَيْبَانَ قَبِيلٍ أَحْسَنُ النَّاسِ فَعَالِه^(٢)

فَقَالَ شَرِيكَ: هُوَ عَلَيَّ أَصْلَحَ اللهُ المَلِكُ! فَمَرَّ الطَّائِيُّ والنِّعْمَانُ يَقُولُ لَشَرِيكَ: إِنَّ صَدْرَ هَذَا الْيَوْمِ قَدْ وَلَّى، وَلَا يَرْجَحُ، وَشَرِيكَ يَقُولُ: لَيْسَ لَكَ عَلَيَّ سَبِيلٌ حَتَّى تُمْسِيَ، فَلَمَّا أَمْسَوْا أَقْبَلَ شَخْصٌ والنِّعْمَانُ يَنْظُرُ إِلَى شَرِيكَ، فَقَالَ: لَيْسَ عَلَيَّ سَبِيلٌ حَتَّى يَدْنُوَ الشَّخْصُ. فَبَيْنَا هُم كَذَلِكَ إِذْ أَقْبَلَ الطَّائِيُّ، فَقَالَ النِّعْمَانُ: وَاللهُ مَا رَأَيْتُ أَكْرَمَ مِنْكُمْ، وَمَا أَدْرِي أَيُّكُمَا أَكْرَمٌ، لَا أَكُونُ وَاللهُ الْأَمُّ الثَّلَاثَةُ؛ أَلَا أَنِّي قَدْ رَفَعْتَ يَوْمَ بؤْسِي. وَخَلَّى سَبِيلَ الطَّائِيَّ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

ولقد دَعَتْنِي لِلْخِلَافِ عَشِيرَتِي فَأَبَيْتُ عِنْدَ تَجَهُّرِ الْأَقْوَالِ
إِنِّي امْرُؤٌ مَنِّي الْوَفَاءُ خَلِيقَةٌ وَفَعَالٌ كُلُّ مُهَذَّبٍ بَذَالٍ

فَقَالَ النِّعْمَانُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى الْوَفَاءِ؟ قَالَ: دِينِي؛ قَالَ: وَمَا دِينُكَ؟ قَالَ: النَّصْرَانِيَّةُ، قَالَ: اعْرِضْهَا عَلَيَّ، فَعَرَضَهَا عَلَيْهِ، فَتَنَصَّرَ النِّعْمَانُ^(٣).



وَمِنْهُمْ وَزِيرُ مَلِكِ الصِّينِ، وَكَانَ حَدِيثُهُ أَنَّ شَمِرَ بْنَ أَفْرِيْقِسَ بْنَ أَبْرَهَةَ، خَرَجَ فِي خَمْسِمِائَةِ أَلْفٍ مَقَاتِلَ إِلَى أَرْضِ الصِّينِ، فَلَمَّا قَارَبَ بِلَادَهُمْ بَلَغَ ذَلِكَ مَلِكَ الصِّينِ، فَجَمَعَ وَزَرَءَهُ، فَاسْتَشَارَهُمْ، فَقَالَ رَئِيسُهُمْ: أَيُّهَا المَلِكُ، أَثَرُ فِي أَثَرًا، وَخَلْنِي وَرَأْيِي! فَأَمَرَ بِهِ فَجُدَعَ أَنْفُهُ، فَقَامَ هَارِباً مُسْتَقْبِلاً لَشَمْرِ، فَوَافَاهُ عَلَى أَرْبَعَةِ

(١) مجمع الأمثال: «يا شريكا يا بن عمر»، وكذلك في المحاسن والأضداد.

(٢) مجمع الأمثال: «ضيفاً قد أتى له».

(٣) كذا في ط، عن الأغاني، وفي ك، ل والمحاسن والأضداد: «ابن شيبان».

منازل بعد خروجه من مَفَاوِز الصَّيْنِ، فدخل عليه وقال: إني أتيتك مستجيراً. قال شمر: ممن! قال: مِنْ مَلِكِ الصَّيْنِ؛ لأنِّي كنت رجلاً من خاصّة وزرائه. وإنّه جَمَعَنَا لَمَّا بلغه مسيرُك إليه، فاستشارنا، فأشار القوم جميعاً عليه بمحاربتك، وخالفتهم في رأيهم، وأشرتُ عليه أن يعطيك الطاعة، ويحمل إليك الخراج. فاتهمني وقال: قد مالأت مَلِكَ العرب؛ وكان منه إليّ ما ترى، ولم آمنه مع ذلك أن يقتلني، فخرجت هارباً إليك.

ففرح به شمر، وأنزله معه في رَحْله، ووعدّه من نفسه خيراً، فلما أصبح وأراد أن يرحل، قال لذلك الرجل: كيف علمك بالطريق؟ قال: أنا من أعلم الناس به، قال: فكم بيننا وبين الماء؟ قال: مسيرة ثلاثة أيام، وأنا مُورِدُك اليوم الرابع على الماء، فأمر جنوده بالرحيل، ونادى فيهم: ألا تحملوا من الماء إلا لثلاثة أيام. ثم سار في جنوده والرجل بين يديه، فلما كان في اليوم الرابع انقطع بهم الماء واشتدّ الحرُّ، فقال: لا ماء، وإنما كان ذلك مكرّاً مني لأدفعك بنفسي عن ملكي.

فأمر به فضربت عنقه، فعطش القوم، وقد كان المنجّمون قالوا لشمر عند مولده: إنه يموت بين جبليّ حديد، فوضَعَ دِرْعَهُ تحت قدميه من شدّة الرّمضاء، ووضع ثُرساً من حديد على رأسه من حرّ الرّمضاء، فذكر ما كان قيل له في ولادته، وقال للقوم: تفرّقوا حيث أحببتهم، فقد أورطتكم. فهلك وجميع من كان معه^(١).



وحُكي أنه لما حمل رأس مروان بن محمد الجعديّ إلى أبي العباس وهو بالكوفة قعد له مجلساً عاماً، وجاءوا بالرأس، فوضع بين يديه، فقال لمن حضره: أمينكم أحد يعرف هذا الرأس؟ فقام سعيد بن عمرو بن جعدة بن هبيرة، فأكبّ عليه، وتأمله طويلاً، ثم قال: هذا رأس أبي عبد الملك، خليفتنا بالأمس رحمه الله! وعاد إلى مجلسه.

فوثب أبو العباس حتى خرج من المجلس وانصرف ابن جعدة، وتحدّث الناس بكلامه، فلامه بنوه وأهله، وقالوا: عرّضتَنا ونفسك للبور! فقال: اسكتوا قبحكم الله، أستم أشرتُم عليّ بالأمس بحرّان بالتخلف عن مروان! ففعلت ذلك

(١) الخبر في المحاسن والأضداد ٧٤، ٧٥ وهو برواية أوسع في مجمع الأمثال ١: ٧٠، ٧٢ والأغاني ١٩: ٨٦-٨٨ (ساسي).

غير فعل ذي الوفاء والشكر، وما كان ليَغِيْلَ عار تلك الفعلة إلا هذه، وإنما أنا شيخ هامة^(١)، فإن نجوت يومي هذا من القتل مت غداً، قال: وجعل بنوه يتوقعون رُسُلَ أبي العباس أن تطرّقه في جوف الليل، فأصبحوا ولم يأتِه أحد، وغدا الشيخ، فإذا هو سليمان بن مجالد، فلما أبصره قال: يابن جعدة، ألا أبشرك بحسن رأي أمير المؤمنين فيك! إنه ذَكَرَ في هذه الليلة، ما كان منك، فقال: أما ما أخرج هذا الكلام من الشيخ إلا الوفاء، ولهُوَ أَقْرَبُ بِنَا قَرَابَةٍ، وأمس بنا رَحِمًا منه بمروان إن أحسنّا إليه، قال: أجل.



وذكر أن المنصور أرسل إلى شيخ من أهل الشام، وكان من بطانة هشام بن عبد الملك بن مروان، فسأله عن تدبير هشام في حروبه مع الخوارج، فوصف الشيخ له ما دبّر، فقال: فعل رحمه الله كذا، وصنع رحمه الله كذا! فقال المنصور: قم عليك لعنة الله! تطأ بساطي، وتترحم على عدوي! فقام الرجل، فقال وهو مول: إن نعمة عدوك لقلادة في عنقي لا ينزعها إلا غاسلي.

فقال له المنصور: ارجع يا شيخ، فرجع فقال: أشهد أنك نهيض حُرّة، وغراس شريف، ارجع إلى حديثك. فعاد الشيخ في حديثه حتى إذا فرغ دعا له بمال، فأخذه وقال: والله يا أمير المؤمنين ما لي إليه حاجة، ولقد مات عني من كنت في ذكره، فما أحوجني إلى وقوف على باب أحد بعده، ولولا جلالة أمير المؤمنين وإيثاري طاعته ما لبست نعمة أحد بعده.

فقال المنصور: إذا شئت، لله أنت! فلو لم يكن لقومك غيرك لكنت قد أبقيت لهم مجداً مخلداً، وعزاً باقياً.



وعن أبي دُفافة العبسي، قال: حدثت المنصور بحديث العجلان بن سهل، وكان دخل على عبد العزيز بن القعقاع؛ فبينما هو جالس إذ دخل رجل متلطح الثوب بالطين، فقال عبد العزيز: ما لك؟ قال: ركب هذا الأحوال - يعني هشام بن عبد الملك - فنفرت ناقتي فسقطت. فانتزع العجلان سيفه، فنفحه به، ووُثِبَ الرجل، فأخطاه السيف، ووقع في وسادة فقطعها، وقال: يا لكع! أعياك أن

(١) يقال: هامة اليوم أو غد؛ أي يموت اليوم أو غداً.

تَسَمِّيهِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَبِاسْمِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ أَبُوهُ أَوْ بِكُنْيَتِهِ، وَنَظَرْتُ إِلَى الَّذِي يَعَابُ بِهِ فَسَمَّيْتُهُ بِهِ! أَمَّا وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ السَّيْفَ أَخَذَ مِنْكَ مَا أَخَذَهُ!

قَالَ فَكَانَ الْمَنْصُورُ يَسْتَعِيدُنِي هَذَا الْخَبَرَ كَثِيرًا وَيَقُولُ: كَيْفَ صَنَعَ الْعَجْلَانُ بْنُ سَهْلٍ! مَعَ مِثْلِهِ يَطِيبُ الْمَلِكُ.



قَالَ: وَأَخْبَرَنَا عَطَافٌ، قَالَ: بَيْنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاهِرٍ مُقْبِلٌ مِنْ مَنْزِلِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ السَّرِيِّ بِمِصْرَ، حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْ بَابِهِ، إِذَا بِشَيْخٍ قَدْ قَامَ إِلَيْهِ، فَنَآوَلَهُ رَقْعَةً كَانَتْ مَعَهُ، وَقَالَ: أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرُ! نَصِيحَةٌ وَاجِبَةٌ، فَأَخَذَ الرَّقْعَةَ وَدَخَلَ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ دَخَلَ وَخَرَجَ الْحَاجِبُ، فَقَالَ: أَيْنَ صَاحِبُ الرَّقْعَةِ! فَقَامَ إِلَيْهِ الشَّيْخُ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ، فَأَدْخَلَهُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ: قَدْ فَهِمْتُ رَقْعَتَكَ هَذِهِ، وَمَا تَنْصَحْتُ بِهِ إِلَيْنَا، فَأَنْصِفْنِي فِي مَنَازِلَتِكَ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لِيَقُلَّ الْأَمِيرُ مَا أَحَبَّ، قَالَ: أَخْبِرْنِي، هَلْ يَجِبُ شُكْرُ النَّاسِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: وَبِمَ يَجِبُ؟ قَالَ: بِإِحْسَانِ الْمُحْسِنِ، وَبِفَضْلِ الْمُنْعِمِ. قَالَ: صَدَقْتَ، جِئْتُ إِلَيْيَ وَأَنَا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي تَرَى، خَاتَمِي بِفَرْغَانَةَ^(١)، وَآخِرَ بَبْرُقَةٍ، وَحُكْمِي وَنَهْيِي وَأَمْرِي جَائِزٌ فِيمَا بَيْنَ هَذَيْنِ الطَّرَفَيْنِ، وَقَدْ جُمِعَ لِي مِنَ الْعَمَلِ مَا لَمْ يَجْمَعْ لِأَحَدٍ قَطُّ مِنْ وِلَاةِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَالشُّرْطَةِ، وَمَا خَرَجَ مِنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ، وَلَسْتُ أَلْتَفِتَ إِلَّا إِلَى نِعْمَةٍ^(٢) هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ وَمِثْلِهِمْ، لَا أَسْتَفِيءُ إِلَّا بِظُلْمِهَا، وَلَا أَعْرِفُ غَيْرَهُمْ سَادَةً وَلَا كِبَرَاءً، وَلَا أُنْمَةُ وَلَا خُلَفَاءً، فَأَرَدْتُ أَنْ أَكْفُرَ هَذِهِ النِّعْمَةَ، وَأَجْحَدَ هَذَا الْمَعْرُوفَ، وَأُبَايِعَ رَجُلًا مَا امْتَحَنَ لِلتَّقْوَى^(٣)، وَلَا أَفَادَ عِلْمًا لِلْهَدْيِ، وَلَا جَرَتْ لَهُ عَلَى مِلِّيٍّ وَلَا ذِمِّيٍّ يَدٌ سَالِفَةٌ، وَلَا نِعْمَةٌ سَائِرَةٌ، افْتَرَى عَلَى اللَّهِ جُلَّ ذِكْرِهِ. وَلَوْ فَعَلْتُ هَذَا الَّذِي دَعَوْتَنِي إِلَيْهِ كُنْتُ تَرْضَى بِهِ فِي مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَشُكْرِ الْمُنْعِمِينَ!

قَالَ: فَسَكَتَ الرَّجُلُ وَلَمْ يُجِزْ جَوَابًا. وَكَانَ دَعَاهُ إِلَى بَيْعَةِ ابْنِ طَبَاطَبَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ كَانَ دَسِيسَ الْمَأْمُونِ.

بُرُونُ الْكَبِيرِ، قَالَ: وَجَّهَ إِلَيَّ الْمَأْمُونُ، وَقَدْ مَضَى مِنَ اللَّيْلِ الثَّلَاثُ، فَقَالَ لِي: يَا بُرُونُ، قَدْ أَكْثَرَ عَلَيْنَا أَصْحَابُ الْأَخْبَارِ فِي أَنْ شَيْخًا يَرِدُ خَرَابَاتِ الْبِرَامِكَةِ فَيَبْكِيهِمْ وَيَنْدُبُهُمْ، وَيُنْشِدُ أَبْيَاتًا مِنَ الشُّعْرِ، فَارْكَبْ أَنْتَ وَعَلِيٌّ بْنُ مُحَمَّدٍ، وَدِينَارُ بْنُ

(١) فَرْغَانَةُ: كَوْرَةٌ وَاسِعَةٌ بِمَا وَرَاءَ النَّهْرِ.

(٢) كُ: «النِّعْمَةُ».

(٣) كُ: «بِالتَّقْوَى».

عبد الله، حتّى تَرُدُّوا هذه الخرابات، فتصيروا مِنْ وراء جُدرانها، فإذا رأيتم الشيخ قد ورد وبكى وأنشد، فأُتُونِي به. قال برون: فركبت مع القوم حتى وردنا الخرابات، وإذا الخادم قد أتى ومعه زِلْيَةٌ^(١) روميّة وكُرسيّ جديد، وإذا شيخٌ وسيّمٌ جميلٌ له صَلَعةٌ وهامة، فجلس يبكي، ويقول:

ولما رأيت السيف قد قدّ جعفرأ
بكيتُ على الدنيا وأيقنت أنه
أجعفرُ إن تهلك فُربّ عزيمة
فقلّ للذي أبدى ليحيى وجعفر
لئن زال غُصنُ الملك عن آل برمك
وما الدهرُ إلّا دولةٌ بعد دولة
على أنها ليست تدوم لأهلها
بني برمك كنتم نجوماً مضيئةً
لأيكم أبكي؟ ألفتضّل ذي التدي
أم الملك المصلوب من بعد عزّة
لكلّكم أبكي بعين غزيرة
ونادى مُنادٍ للخليفة في يحيى
فُصارى الفتى يوماً مفارقة الدنيا
كشفت، ونُعمى قد وصلت بها نُعمى
شَمَاتَتُهُ: أبشر لتأتيهم العُقبى
فما زال حتى أثمر الغُصن واستعلّى
تُبدّل ذا مُلكاً، وتُعقب ذا بلوى
ولو أنها دامت لكنتم بها أولى
بها يهتدي في ظلمة الليل مَنْ أَسرى
أم الشيخ يحيى، أم لمحبوسه موسى!
أم أبكي بكاء المعولات أم الثكلى!
وقلب جريح لا يموت ولا يحيا

قال: فترأينا له، ثم قَبَضْنَا عليه فجزع وفزع وقال: مَنْ القوم؟ فقال برون: أنا حاجب أمير المؤمنين، وهذا فلان وفلان، قال: وما الذي تريدون؟ قال برون: فأعلمته ما أمر به أمير المؤمنين؛ من أخذه إلى مجلسه، قال: دَرْنِي أَوْصِ فَإِنِّي لَا أَمْنُهُ، ثم تقدّم إلى بعض العَلاَفين في فُرْضة الفيل، فأخذ بياضاً، وأوصى فيه وصيةً خفيفة، ودفعها إلى الغلام، وسرنا به.

فلما مثّل بين يدي المأمون زَبَرَهُ وقال: مَنْ أنت؟ وبماذا استوجِبَ البرامكةُ ما تفعله في دورهم؟ قال: يا أمير المؤمنين، للبرامكة عندي أيادٍ خَصِرَة، أفُتأذَن لي أن أحدثك؟ فقال: سديداً^(٢).

قال: أنا يا أمير المؤمنين المنذر بنُ المغيرة، من أهل دِمَشق، كنت بها من أولاد الملوك، فزالت عُنِّي نعمتي كما تزول عن الرجال، فلمّا ركبَتني الديون واحتجت إلى بَيْعٍ مسقط رأسي ورؤوس آبائي، أشاروا عليّ بالخروج إلى البرامكة،

(١) الزلية: تعريب؛ «زبلو»، وهو البساط.

(٢) ك: «شديداً».

فخرجت من دمشق ومعني نيف وثلاثون امرأة وصبياً وصبيّة، وليس معنا ما يباع ولا ما يُرهن، حتى دخلتُ بغداد، ونزلنا بباب الشام في بعض المساجد، ودعوت بثُوبَاتٍ لي قد كنت أعددتها لأستميح بها الناس، وتركتهُم جِيعاً، وركبتُ شوارعَ بغداد، فإذا أنا بمسجد مُزخرفٍ؛ وفيه مائة شيخ قد طبّقوا طيالسّتهم بأحسن زِيّ وزينة وبِزّة، وإذا خادمان على باب المسجد، فطمعتُ في القوم، وولجتُ المسجد، وجلست بين أيديهم؛ وأنا أقدم وأُخّر، والعرق يسيل منّي، لأنّها لم تكن صناعتني، فإنّي لكذلك، وإذا أنا بخادم قد أقبل وقال للخادمين: أزعجوا القوم، فأزعج القوم وأنا منهم، فأدخلونا دارَ يحيى بن خالد، ودخلتُ معهم، فإذا بيحيى جالسٌ على دَكّةٍ له وَسَطُ بُسْتان، فسلمنا وهو يعدّنا، مائة رجل وواحدًا، وبين يدي يحيى عشرة من ولده؛ وإذا غلام أمرّد حين عَذَر^(١) خداه، قد أقبل من بعض المقاصير، بين يديه مائة خادم من ذهب، ورجل من ذهب في كل مجمرة متنطّقون، في وَسَط كل خادم من منطقة ألف مثقال، مع كلّ خادم مجمرة قطعة من العُود كهَيْئَةِ الْفَهْرِ^(٢)، قد ضُمّ إليه مثله من العنبر السلطانيّ، فوضعه بين يدي الغلام، وجلس الغلام إلى جنب يحيى، ثم قال يحيى للزبرقيّ القاضي: تكلم، فقد زوجتُ ابنتي عائشة من ابن عمّي هذا من بيت نار التّوبهَار^(٣)، فخطب القاضي، وشهد القاضي والنّفَر، وأقبلوا علينا بالنّثار ببنادق المسك والعنبر، فالتقطتُ واللّه يا أمير المؤمنين ملء كُمّي، ونظرتُ وإذا يحيى في الدّكة ما بين المشايخ، ويحيى وولده والغلام، ونحن مائة رجل واثنان عشر رجلاً، فخرج إلينا مائة خادم واثنان عشر خادماً، مع كلّ خادم صينيّة فضّة عليها ألف دينار شاميّة. فوضع بين يديّ كلّ رجل منّا صينيّة، فرأيتُ القاضي والمشايخ يصبّون الدنانير في أكمامهم، ويجعلون الصّواني تحت آباطهم، ويقوم الأوّل فالأوّل، حتّى بقيتُ وحدي بين يدي يحيى، لا أجسر على الصّينيّة، فغمز لي الخادم، فجسرتُ عليها، وجعلتها في كُمّي، وأخذت الصّينيّة وقمتُ وأنا أمرّ طول الصّحن والتفت ورائي، هل يتبعني أحد؟ فإنّي لكذلك أطاول الإلتفات ويحيى يلحظني، فقال للخادم: ائتني بالرجل، فرُدّت إليه، فأمر فسلبتُ الدنانير والصّينيّة، ثم أمرني بالجلوس، فجلستُ، فقال: ممّن الرجل؟ فقصصتُ عليه قصّتي، فقال: عليّ بموسى، فأتي

(١) عذر خداه؛ أي نبت الشعر في عذاريه والعدار: الشعر الذي يحاذي الأذن.

(٢) الفهر: الحجر يملأ الكف.

(٣) النوبهار: معبد النار.

به، فقال: يا بُنيّ، هذا رجل غريب، فخذهُ إليك، اخْلُطْهُ بِنَفْسِكَ ونِعْمَتِكَ .
 فقبض عليّ موسى، وأخذني إلى بعض دُوره، فقصف عليّ يومي وليلتي .
 فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال له: إنّ الوزير أمرني بالقَصْفِ على هذا الفتى،
 وقد علمتَ تشاغلِي في دارِ أمير المؤمنين، فاقبض عليه وقاصِفْهُ . فلما كان من غدٍ
 تسلّمني أحمدُ، ثم لم أزل وأيدي القوم تتداولُني عشرة أيام، لا أعرف خبر عيالي
 وصبياني، في الأموات هم أم في الأحياء!

فلما كان في اليوم العاشر دفعتُ في يدي الفضل، فقصفَ عليّ، فلما كان
 في الحادي عشرَ جاءني خادم مع عشرة من الخدم، فقالوا: قم عافاك الله فاخرج
 إلى عيالك بسلام فقلت: واويلاه! سُلِبْتُ الدنانير والصَّيْنِيَّة، وقد تمزّقت ثيابي
 واتسختُ، وأُخرج على هذه الحالة! إنّ الله وإنّا إليه راجعون!

فرفع لي الستر الأول والثاني والثالث والرابع والخامس والسادس، فقبل أن
 رُفِعَ السابع قال لي الخادم: تمنّ ما شئتَ . ورفع لي ستر عن حُجرة كالشمس،
 استقبلني منها رائحة العود والتّدّ ونفحات المسك، وإذا أنا بصبياني يتقبلون في
 الحرير والديباج وأنا قد حُمل إليّ ألف ألف درهم مبدّرة^(١)، وعشرة آلاف دينار،
 وقبالتين^(٢) بضيعتين، وتلك الصَّيْنِيَّة مع الدنانير والبنادق .

فبقيتُ يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة، لا يعلمُ
 الناس: أمِن البرامكة أنا، أم من بيت نار التّوبهار، أم رجل غريب اصطنعوني!

فلما جاء القوم البليّة، ونزلت بهم من الرشيد النازلة، قصّصني عمرو بن
 مَسْعُدة، والزمني من الخراج في هاتين الضَّيْعَتَيْنِ ما لا يفي دخلهما به، فلما تحامل
 عليّ الدهر، كنت أنظر إلى خرابات القوم فأندُبهم .

فقال المأمون: عليّ بعمرو بن مَسْعُدة، فلما أُتي به قال له: يا عمرو،
 أتعرف الرجل؟ قال نعم؛ هو من بعض صنائع البرامكة، قال: كم ألزمتَه في
 ضيعته؟ قال: كذا وكذا، قال: رُدّ عليه كلّ ما استأديته إياه في سِنِيهِ، وأوغِرْ^(٣)
 ضيعتيه، تكونان له ولعقبه من بعده .

فعلا نحيبُ الرجل بالبكاء يرثي البرامكة، فلما طال بكأؤه، قال له المأمون:

(١) مبدرة، أي مجعولة بدران، والبدره عشرة آلاف درهم .

(٢) في الأساس: كل من تقبل بشيء مقاطعة، وكتب عليه بذلك الكتاب، فعمله القبالة (بالكسر)،
 وكتابه المكتوب عليه هو القبالة (بالفتح) .

(٣) يقال: أوغر الملك فلاناً أرضاً، أي جعلها له من غير خراج .

فممَّ بكاؤك وقد أحسنَّا إليك؟ قال: يا أمير المؤمنين، هذا أيضاً من صنائع البرامكة! رأيْتُك يا أمير المؤمنين، لو لم آتِ خراباتِ القوم، فأبكيهم وأنديهم حتى أتَّصل خبري بأمر المؤمنين ففعل بي ما فعل؛ من أين كنتُ أصل إلى ما وصلت إليه!

قال إبراهيم بنُ ميمون: فلقد رأيْتُ المأمونَ وقد دمعَتْ عينُه، واشتدَّ حزنه على القوم وقال: صدقتَ لعمري! هذه أيضاً من صنائعهم، فعليهم فابك، وإياهم فاشكر.

مساوىء قلة الوفاء والسعاية

يقال: إن رجلاً رَفَعَ رَقْعَةً إلى عمر بن الخطاب رحمه الله يسعى فيها ببعض أصحابه، فَوَقَعَ فيها: «تَقَرَّبْتُ إلينا بما باعَدَكَ من الرحمن، ولا ثواب لمن آثر عليه».



قيل: وَرَفَعَ مَنْتَصِحَ رَقْعَةً إلى عبد الملك بن مروان، فَوَقَعَ فيها: «إن كنت كاذباً عاقبك، وإن كنت صادقاً مَقْتَنَّاكَ، وإن استقلتنا أفلناك». فاستقاله الرجل.



قيل: وكتب صاحبُ بريد هَمَذَانَ إلى المأمون بخراسان يُعَلِّمُهُ أن كاتبَ البريد المعزول، أَخْبَرَهُ أَنَّ صاحبه وصاحب الخراج كانا تَوَاطَا على إخراج مائتي ألف درهم من بيت المال، واقتسماها بينهما، فَوَقَعَ المأمون: «إنا نرى قبول السَّعَاية شَرًّا من السَّعَاية، فإن السَّعَاية دَلَالَةٌ، والقَبُولُ إِجَازَةٌ، وليس من دَلَّ على شيء كمن قَبَّلَهُ وَأَجَازَهُ فأنْفِ السَّاعِي عَنْكَ، فلو كان في سعائته صادقاً، لقد كان في صدقه لئيماً، إذ لم يحفظ الحُرمة، ولم يستر على أخيه»^(١).



قال: وقال المأمون لولده: يا بني، نَزَّهُوا أَقْدَارَكُمْ، وَطَهَّرُوا أَحْسَابَكُمْ عن دَنَسِ الوُشَاةِ وتمويه سَعَايَتِهِمْ، فكلُّ جَانٍ يَدُهُ في فيه، وليس يَشِيءُ إِلَيْكُمْ إِلَّا أَحَدُ رجلين: ثَقَّةٌ وَظَنِينٌ^(٢)؛ أما الثَّقَّةُ فقد قيل: إنه لا يبلغ ولا يشين بالوشاة قدره؛ وأما الظننين: فأهلٌ أَنْ يُتَّهَمَ صِدْقُهُ، وَيَكْذَبُ ظَنُّهُ، ويردُّ باطله. وما سَعَى رجل برجل إلَيَّ قَطُّ إِلَّا انْحَطَّ من قدره عندي ما لا يتلافاه أبداً، فلا تُعْطُوا الوُشَاةَ أَمَانِيَهُمْ فيمن يَشُونُ بِهِمْ؛ فقد قال بعضُ الملوك لرجل سَعَى بآخِر: لو كنت أنت أنا؛ ما كنت صانعاً به؟ قال: كنت أقتله، فقال: أما إذ لم تكن أنت أنا؛ فإنني غيرُ قَاتِلِهِ، ومع

(١) المحاسن والأضداد ٧٥.

(٢) الظنين: المتهم.

ذلك فلا تَدْعُوا الفَحْصَ عَمَّا يُلْقَى إِلَيْكُمْ مما تحذرون رجوعَ ضرره عليكم .



عَوَانة قال : قام رجل إلى سليمان بن عبد الملك ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، عندي نصيحة . قال : وما نصيحتك هذه ؟ قال : كان فلان عاملاً ليزيد والوليد وعبد الملك ، فخانهم فيما تولاه ، واقتطع أموالاً جليلة ، فمُرُ باستخراجها منه ، فقال : أنت شرٌّ منه وأخونُ ؛ حيث اطلَّعتُ على أمره وأظهرته ، ولولا أنني [أخاف أن] أنفر أصحاب النَّصائح لعاقبتُكم ، ولكن اخترتُ منِّي خَصْلَةً من ثلاث ، قال ؛ أعرضهُنَّ يا أمير المؤمنين ، قال : إن شئت فتشئتُ عَمَّا ذكرت ، فإن كنت صادقاً مَقْتَنَّاكَ ، وإن كنت كاذباً عاقَبْنَاكَ ، وإن شئت ^(١) أفلنَّاكَ ، قال : تقيلُني يا أمير المؤمنين . قال : قد فعلت ، فلا تعودنَّ بعدها إلى أن تَظْهَرَ من ذي مروءة ما كتبه الله وستره ^(٢) .

(١) المحاسن والأضداد «وإن استقلت» .

(٢) المحاسن والأضداد ٧٦ .

محاسن الشكر

قال بعض الحكماء: صُنْ شَكَرَكَ عَمَّنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ، واسترْ ماء وجهك بالقناعة.
وقال الفضلُ بنُ سهل: مَنْ أَحَبَّ الزَّيَادَ مِنَ النَّعَمِ فَلْيَشْكُرْ، وَمَنْ أَحَبَّ
الْمَنْزِلَةَ عِنْدَ سُلْطَانِهِ فَلْيَكْفُ^(١)، وَمَنْ أَحَبَّ بَقَاءَ عِزِّهِ فَلْيُسْقِطْ دَالَّتَهُ وَمَكْرَهُ.
ومن ذلك قولُ رجلٍ لرجلٍ شكَّره في معروف:

لَقَدْ ثَبَّتَتْ فِي الْقَلْبِ مِنْكَ مَحَبَّةٌ كَمَا ثَبَّتَتْ فِي الرَّاحَتَيْنِ الْأَصَابِعُ^(٢)
قال: واصطنع رجل رجلًا، فسأله يومًا، أُتَجِبْنِي يَا فُلَانُ؟ قال: نعم؛ أَحْبُكَ
حُبًّا لَوْ كَانَ فَوْقَكَ لِأَظْلَكَ، وَلَوْ كَانَ تَحْتَكَ لِأَفْظَلَ.

وقال كِسْرَى أَنْوَشِرْوَان: المَنَعَمُ أَفْضَلُ مِنَ الشَّاكِرِ، لِأَنَّهُ جَعَلَ لَهُ السَّبِيلَ إِلَى
الشُّكْرِ.

واختصرَ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ مِنْ هَذَا شَيْئًا فِي مِصْرَاعٍ وَاحِدٍ، فَقَالَ^(٣):
لِهَانَ عَلَيْنَا أَنْ نَقُولَ وَتَفْعَلَا

وقال بشار:

أَثْنِي عَلَيْكَ وَلِي حَالٌ تُكَذِّبُنِي فِيمَا أَقُولُ وَأُسْتَحْيِي مِنَ النَّاسِ
قَدْ قُلْتُ إِنَّ أَبَا حَفْصٍ لِأَكْرَمُ مَنْ يَمْشِي، فَخَاصِمْنِي فِي ذَاكَ إِفْلَاسِي^(٤)
ولأبي الهول في مثله:

فإِنِّي إِذْ مَدَحْتُكَ يَا بَنَ مَعْنٍ رَأَيْتُ النَّاسَ فِي رَمَضَانَ أَزْنِي^(٥)

(١) كذا في المحاسن والأضداد ٣٧، ك، وفي ل: «فليكه».

(٢) في المحاسن والأضداد: «منك مودة»، والبيت لقيس بن ذريح، ديوانه ١٠٧.

(٣) مطلع قصيدة يمدح فيها محمد بن عبد الملك الزيات. وبقية:

* وَتَذْكُرُ بَعْضَ الْفَضْلِ عَنْكَ وَتَفْضُلَا *

(٤) المحاسن والأضداد ٤١، وبعده هناك:

حَتَّى إِذَا قِيلَ: مَا أَعْطَاكَ مِنْ صَفْدٍ؟ طَاطَأْتُ مِنْ سُوءِ حَالِي عِنْدَهَا رَاسِي

(٥) المحاسن والأضداد ٤٢.

فإن أك أثبت عنك بغير شيء فلا تفرح كذلك كأن ظنني
ولآخر في مثله :

لحي الله قوماً أعجبته مدائحي فقالوا خفاتاً في ملام وفي عشب
أبا حازم تمدح! فقلت مُعذراً: هبوني امرأةً جربت سيفي على كلب!
ولبعض المحدثين :

عثمان يعلم أن الحمد ذو ثمن والناس أكيس من أن يحمداً أحداً
لكنه يشتهي حمداً بمجان^(١) حتى يروا قبله آثار إحسان
وقال آخر :

فلو كان يستغني عن الشكر سيد لما أمر الله العباد بشكره
لعزة ملوك أو علو مكان^(٢) فقال اشكروني أيها الثقلان

الباهلي، عن أبي فروة، قال: أخبرني الحلبي، قال: مكتوب في التوراة:
اشكر لمن أنعم عليك، وأنعم على من شكرك، فإنه لا زوال للنعم إذا شكرت،
ولا إقامة لها إذا كفرت. والشكر زيادة في النعم وأمان من الغير.

قيل: قال رسول الله ﷺ: «خمس يعاجل صاحبهن بالعقوبة: البغي،
والعذر، وعقوق الوالدين، وقطيعة الرحم، ومعروف لا يشكر».

وفي حديث مرفوع: «دعاء المنعم على المنعم عليه مستجاب».

وقيل: أنشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه الحطيئة هذا البيت؛ وعنده
كعب الأخبار:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس^(٣)

فقال كعب: يا أمير المؤمنين، هذا البيت الذي قال^(٤)، مكتوب في التوراة.
قال عمر: وكيف ذاك؟ قال: في التوراة مكتوب: «من يصنع المعروف لا يضيع
عندي، لا يذهب العرف بيني وبين عبدي».

قيل: ودخل أبو مسلم صاحب الدولة على أبي العباس - وأبو جعفر المنصور

(١) المحاسن والأضداد ٤٢.

(٢) المحاسن والأضداد ٤٢.

(٣) ديوانه ٥٤.

(٤) ل: «يقال».

عنده - فقال أبو العباس لأبي مُسلم: يا عبد الرحمن، هذا أبو جعفر عبد الله بن محمد مولاك، قال: قد رأيتُ مجلسه يا أمير المؤمنين، ولكن هذا المجلس لا يقضى فيه حق غيرك.

فصل لکاتب^(١) في مثله: ولستُ أقابل أياديك، ولا أستديم إحسانك إلا بالشكر، الذي جعله الله عز وجل للنعم حارساً، وللحق مؤدياً، وللמיד سبباً. وقيل لرسول الله ﷺ: أليس^(٢) قد عُفِر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً!».

وفي الحديث، أن رجلاً قال في الصلاة خَلَفَ رسول الله ﷺ: «اللهم ربنا لك الحمدُ حمداً زاكياً طيباً مباركاً فيه. فلما انصرف، قال رسول الله ﷺ: «أيكم صاحب الكلمة؟» قال أحدهم: أنا يا رسول الله فقال: «لقد رأيتُ بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرون أيهم يكتبها أولاً».

وقيل: نسيان النعمة أول درجات الكفر.

ولابن المقفع:

مننتُ على قومي فأبدوا عداوةً فقلتُ لهم كُفءُ العداوة والشكرِ
وقال آخر:

ألا في سبيل الله وُدٌ بذلتُهُ لمن لم يكن عندي لمعشاره أهلاً
ولكن إذا فكّرتُ فيه وجدّنتني بحُسْنِي إليه قد أفدتُ به عقلاً^(٣)
وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: لا تدع المعروف لكفر من كفره، فإنه يشكرك عليه أشكر الشاكرين.

وقد قيل في ذلك:

يدُ المعروف غنمٌ حيث كانت تحمّلها شكورٌ أم كفور^(٤)
فعند الشاكرين لها جزاءٌ وعند الله ما كفر الكفور
قال بعضهم: ما أنعم الله على عبد نعمةً فشكر ذلك إلا لم يحاسبه على تلك

النعمة.

(١) كذا في أ، وفي ك: «لکاتبه».

(٢) ك: «أوليس».

(٣) المحاسن والأضداد ٣٨.

(٤) المحاسن والأضداد ٣٩.

وقال بعض الحكماء: عند التراخي^(١) عن شكر المنعم تحلُّ عظام النَّعم .
 قيل: وكان رسول الله ﷺ كثيراً ما يقول لعائشة رضي الله عنها: ما فعل بيتك أو بيت اليهودي؟ فتقول:

يَجْزِيكَ أَوْ يُثْنِي عَلَيْكَ وَإِنْ مِنْ أَثْنَى عَلَيْكَ بِمَا فَعَلْتَ كَمَنْ جَزَى
 فيقول عليه وعلى آله السلام: «قد صدق يا عائشة، إن الله عزَّ وجلَّ إذا أجرى
 لرجل على يدي رجل خيراً فلم يشكره، فليس لله بشاكر».

قيل: وقيل لذي الرُّمة: لِمَ خصصتَ بلالَ بنَ أبي بردة بمَدْحِكَ؟ فقال: لأنه
 وطأً مضجعي، وأكرم مجلسي، فحق لكثير معروفه عندي أن يستولي على شكري .
 ومنهم من يقدّم ترك مطالبة الشكر، وينسبه إلى مكارم الأخلاق؛ من ذلك ما
 قاله بُزْرجُمُهر: من انتظر بمعروفه شُكراً فقد استدعى^(٢) عاجل المكافأة.

وقال بعض الحكماء: كما أنَّ الكفر يقطع مادة الإنعام، فكذلك الاستطالة
 بالصَّنِيعَة تمحق الأجر.

وقال علي بن عُبَيْدة: من المكارم الظاهرة، وسنن النفس الشريفة^(٣) تَرْكُ
 طلب الشكر على الإحسان، ورَفْعُ الهمة عن^(٤) طلب المكافأة، واستقلال الكثير
 من الشكر، واستقلال الكثير ممّا يبذل من نفسه.

(١) ك: «التراضي».

(٢) كذا في ك، وفي ل: «استدعاه».

(٣) ك: «الكريمة».

(٤) ك: «ممن».

مساوىء الشكر

قال بعض الحكماء: المعروف إلى الكرام يُعقَّب خيراً، والمعروف إلى اللئام يُعقَّب شراً؛ ومثْل ذلك مثل المطر، يشربُ منه الصَّدْف فيُعقَّب لؤلؤاً، وتشرب منه الأفاعي فتُعقَّب سُمًّا.

وقال سفيان: وجدنا أصلَ كلِّ عداوة اصطناع المعروف إلى اللئام.

قيل: وأثار جماعة^(١) من الأعراب ضُبْعاً، فدخلتْ خِباءَ شيخٍ منهم، فقالوا: أخرجها، فقال: ما كنت لأفعل، وقد استجارت بي، فانصرفوا وكانت هزيراً، فأحضر لها لقوحاً^(٢) فجعل يسقيها حتى عاشت، فنام الشيخ ذات يوم، فوثبت عليه فقتلته، فقال شاعرهم في ذلك:

ومن يصنع المعروف في غير أهله	يلاقي الذي لا قى مُجيرٌ أم عامر
أعدَّ لها لما استجارت بقربه	غذاءً من ألبان اللقاح الغزائر
وأسمَّنها حتى إذا ماتمَّلات	فرته بأنياب لها وأظافر
فقل لذوي المعروف: هذا جزاء من	يجودُ بمعروف إلى غير شاكر ^(٣)

قيل: وأصاب أعرابيُّ جرَّو ذئب، فاحتمله إلى خبائه، وقرب له شاةً، فلم يزل يمتصُّ من لبنها حتى سمن وكبر، ثم شدَّ على الشاة فقتلها، فقال الأعرابي:

غدثك شويهيته ونشأت عندي	فما أدراك أن أباك ذيبٌ
فجعت نسيّةً وصغار قوم	بشاتهم وأنت لهم ربيبٌ ^(٤)
إذا غلبت طباع الشر فيه	فليس لغيرها فيه نصيبٌ ^(٥)

(١) ك: «رجل».

(٢) اللقوح: الناقة الحلوب.

(٣) المحاسن والأضداد ٤٠.

(٤) ك: «بنية».

(٥) رواية البيت في المحاسن والأضداد:

إذا كان الضباع طباع سوء فليس بنافع أدب الأديب

ويُروى :

نشأت مع السُّخال وأنتِ جِرُوءُ

ويضرب المثل بسنِّمار، وكان بنى للتَّعمان بن المنذر الخَوَزَنق، فأعجبه .
فكره أن يبني لغيره مثله، فأمر به فرُمِي من أعلاه حتى مات، فقليل فيه :

جَزَتْنا بنو سعدٍ بحُسنِ بلائِنا جزاءَ سِنِّمارٍ ولم يكُ ذا ذنبٍ^(١)

ويُروى : «وما كان ذا ذنب» .

وفي المثل : سَمَّنَ كَلْبَكَ يَأْكُلُكَ .

وقال بعضهم :

وإنِّي وقَيْساً كالْمَسْمَنِ كَلْبَهُ فخدَّشه أنيابُهُ وأظافِرُهُ

(١) المحاسن والأضداد ٤١.

محاسن الدَّهَاءِ وَالْحِيلِ

ذكروا أنَّه لم يكن في ملوك العَجَم أدهى من كسرى أنوشروان، وأنَّ الخزر كانت تُغِير في سلطان فارس حتى تبلغ هَمَذان والمَوْصِل، فلَمَّا مَلَكَ أنوشروان، كتب إلى مَلِكهم، فخطب ابنته على أن يزوجه أيضاً ابنته، ويتوادعا ويتفرَّغا إلى سائر أعدائهما، فأجابته إلى ذلك، وعَمِد أنوشروان إلى جارية من جواربه نفيسة، فرَفَّها إلى صاحب الخَزَر، وأهدى معها ما يشبه أن يهدى مع بنات الملوك.

وزَفَّ صاحبُ^(١) الخزر إلى أنوشروان ابنته، فلما وصلت إليه قال لوزرائه: اكتبوا إلى صاحب الخزر: لو التقينا^(٢) وأكَّدنا المودَّةَ بيننا! فأجابته إلى ذلك ووَعده موضع الدَّرَب^(٣)، فالتقيا فكانا يَخْلُوان في لذَّتهما. ثم إن أنوشروان أمر قائداً من قُوَّاده أن يختار ثلاثمائة رجل من أشدَّ أصحابه، فإذا هدأت العيونُ أغار في ناحية من عسكر الخَزَر.

ففعل ذلك، فلَمَّا أصبح بعث إليه صاحب الخَزَر: ما هذا! ينهب عسكري البارحة! فأنكر ذلك، وقال: لم تؤت من قبلي. فأمهله أياماً، ثم عاد إلى مثلها، ففعل ذلك ثلاث مرَّات، في كلِّ ذلك يعتذر إليه أنوشروان، ويسأله البحث، فيبحث فلا يقف على شيء، فلَمَّا طال ذلك، دعا صاحبُ الخزر بقائد من قُوَّاده، وأمره بمثل ذلك، فلما أصبح بعث إليه أنوشروان: ما هذا! أتستبيح عسكري البارحة! فأرسل إليه: ما أسرع ما ضجرت! قد فعل هذا بعسكري ثلاث مرَّات، وإنما فُعل بك مرَّة واحدة!

فبعث إليه أنوشروان: إنَّ هذا عملُ قوم يريدون أن يفسدوا بيننا، وعندي رأيٌ إن قبلته! فقال: وما هو؟ قال: تدعني أبني حائطاً بيني وبينك، وأجعل عليه باباً فلا يدخل عليك إلا من تحب، ولا يدخل عليّ إلا مَنْ أَحَبَّ. فأجابته إلى ذلك، وتحمل ومضى.

(١) ك: «ملك».

(٢) ك: «ألو».

(٣) الدرب: طريق يسلك؛ ويطلق على موضع بنهائهم.

وأقام أنوشروان، فأمر فُبْنِي بالصخر والرصاص حائطَ عَرَضُهُ ثلاثمائة ذراع؛ حتى ألحقه برؤوس^(١) الجبال! وجعل عليه أبواب حديد^(٢)، فكان يحرسه مائة رجل، بعد أن كان يحتاج إلى خمسة آلاف رجل، فلما فرغ من السد وقيد الفئد^(٣) في البحر، وأحكم الأمر، سُرَّ سروراً شديداً، فأمر أن يُنصب على الفئد سريزه ويفرش له عليه. ثم قام فرقي إليه، وأغفى عليه، فطلع طالع من البحر، سد الأفق بطوله، وأهوى نحو الفئد، فثار الأساورة إلى قسيهم. فانتبه الملك فقال: ما شأنكم؟ أمسكوا، لم يكن الله عز وجل ليُلهمني الشخوص عن وطني اثنتي عشرة سنة، فأسد ثغراً يكون عزاً لرعيّتنا ورداءاً ومُرْتقى لعباده، ثم يسلط عليّ^(٤) دابة من دواب البحر.

فتنحى الأساورة، وأقبل الطالع نحو الفئد، فذكر الموبد أن الله عز وجل أنطق ذلك الحيوان، فقال: أيها الملك، أنا ساكن من سكان هذا البحر، وقد رأيت هذا الفئد مشدوداً سبع مرّات، وخراباً سبع مرّات، وأوحى الله عز وجل إلينا معشر سكان هذا البحر، أن ملكاً عصره عصرُك، وصورته صورتك، يبعثه الله عز وجل يسد هذا الثغر إلى الأبد^(٥)، وأنت ذلك الملك، فأحسن الله على البرّ معونتك.

ثم غاب عن بصره كأنما غاب في البحر، أو طار في الجو، وسأل أنوشروان عند فراغه من ذلك السد عن ذلك البحر ف قيل: هو ثلاثمائة فرسخ في مثلها، وبينه وبين بيضاء الخزر مسيرة أربعة أشهر على هذا الساحل، ومن بيضاء الخزر إلى الفئد الذي بناه إسفنديار مسيرة شهرين.

فقال أنوشروان: لا بدّ من الوقوف عليه والنظر إليه، قالوا: أيها الملك، إنّه طريق لا يطمع في سلوكه لموضع فيه يقال له دهان شير، يريد فم الأسد، وفيه دُرْدُور^(٦) لا يكاد تسلم فيه سفينة، قال أنوشروان: لا بدّ من ركوب هذا البحر، والنظر إلى هذا السد، فقالوا: أيها الملك، اتق الله في نفسك وفيمن معك. فقال:

(١) ك: «برأس الجبل».

(٢) ك: «أبواباً من حديد».

(٣) كذا وردت الكلمة في الأصول؛ وفي المسعودي ٢: ١٩٧ (طبع أوروبا): ويسمى هذا الموضع من السور في البحر القيد مانعاً للمراكب في البحر إن وردت من بعض الأعداء. وانظر: أيضاً ابن الفقيه ٢٨٩.

(٤) كذا في ك، وفي ل: «عليه».

(٥) ك: «للأبد».

(٦) في القاموس: «الدرودور موضع وسط البحر يجيش ماؤه».

أَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ الَّذِي خَلَقَ هَذَا الْبَحْرَ، وَهُوَ عَزَّ وَجَلَّ يُنَجِّنَا مِنْ دُرْدُورِهِ، وَلَا أَحْسَبُ أَنِّي أَمْسَحُ إِيرَانَ شَهْرَ شَرْقِهِ وَغَرْبِهِ، وَأَعْرِفُ عَدَدَ جِبَالِهِ وَأَوْدِيَّتِهِ إِلَّا بَعْدَ رُكُوبِ هَذَا الْبَحْرِ وَسُلُوكِهِ إِلَى الْبَرِّ.

فَهَيَّئْتُ لَهُ السُّفُنَ، وَرَكِبَ مَعَهُ عِدَّةٌ مِنَ النِّسَاكِ حَتَّى لَجَّجُوا^(١) فِي الْبَحْرِ، وَوَافُوا ذَلِكَ الَّذِي يَعْرِفُ بَدَهَانَ شِيرَ، فَدَفَعُوا إِلَى دَرْدُورِ هَائِلَ، فَبَقُوا فِيهِ مَتَحِيرِينَ لَا يَرَوْنَ مَنَاراً يَجْعَلُونَهُ عِلْماً لَهُمْ، وَلَا جَبَلاً يَقِيمُونَهُ أَمَارَةً لِمَنْصَرَفِهِمْ. فَرَجَعُوا عَلَى الْمَلِكِ بِاللُّومِ وَالْعَيْبِ، فَقَالَ: أَخْلَصُوا نِيَّاتِكُمْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَضَرَّعُوا إِلَيْهِ. فَفَعَلُوا، وَنَذَرُوا أَنْوَشِرَوَانَ: إِنْ نَجَّاهُ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ، لِيَصْدَقَنَّ بِخَرَاكِ سَبْعَ سَنِينَ.

قَالَ: فَرُفِعَتْ لَهُ جَزِيرَةٌ تَعْلُوهَا الْأَمْوَاجُ، وَفَوْقَ الْجَزِيرَةِ أَسَدٌ فِي عَظَمِ جَبَلٍ يَتَشَرَّبُ الْمَاءَ مُؤَخَّرَهُ، وَيَنْحَطُّ مِنْ فِيهِ إِلَى ذَلِكَ الدَّرْدُورِ. فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ سَمَكَةً عَظِيمَةً فَطَفَرَتْ^(٢) حَتَّى صَارَتْ فِي فَمِ الْأَسَدِ، فَسَكَنَ الدَّرْدُورَ، وَنَفَذَتْ السَّفِينَةُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَا أَرَادَ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى دَارِ مَمْلَكَتِهِ.



حَمَّادٌ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: قَالَ الْأَعَشَى فِي مَدْحِهِ إِيَّاسَ بْنَ قَبِيصَةَ، وَذَكَرَهُ مَسِيرَهُ^(٣) إِلَى الرُّومِ حَيْثُ لَقِيَهُ كَسْرَى أَبْرُويز بِسَاتِيدَمَا - وَهُوَ جَبَلٌ يَزْعُمُ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنَّهُ دُونَ الْجِبَالِ، وَأَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَرِاقَ عَلَيْهِ دَمٌ كُلَّ يَوْمٍ. قَالَ الْوَاقِدِيُّ: بَلْ هُوَ مُحِيطٌ بِالْدُنْيَا، وَزَعَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ يَوْمٌ إِلَّا وَيُسْفَكَ عَلَيْكَ دَمٌ، وَإِنَّمَا سَمِّيَ «سَاتِيدَمَا» مَعْنَاهُ «سَيَّاتِي دَمَا» فَكَانَ مِنْ خَبَرِ إِيَّاسَ بْنِ قَبِيصَةَ، أَنَّ كَسْرَى أَبْرُويزَ كَانَ رَجُلًا سَيِّئَ الظَّنِّ، وَأَنَّهُ بَعَثَ شَهْرَبَرَاذَ إِلَى الرُّومِ فِي جَيْشٍ عَظِيمٍ، فَأَعْطِيَهُ مِنَ الظَّفَرِ مَا لَمْ يَعْطُ أَحَدٌ كَانَ قَبْلَهُ، وَهُوَ الَّذِي أَصَابَ خَزَائِنَ الْمَلِكِ الَّتِي كَانَتْ تَسْمَى «كَنْجَ بَادِ أَوْرَدَ»، أَيِ الْكَنْزِ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرِّيحُ، وَكَانُوا حَمَلُوهَا لِيَحْرَزُوهَا، فَضَرَبَتْهَا الرِّيحُ فِي الْجَزْرِ؛ مِنْ خَلِيجِ الْبَحْرِ.

فَأَخَذَهَا وَبَعَثَ بِهَا إِلَى كَسْرَى، فَحَسَدَهُ كَسْرَى وَحَذَرَهُ، وَبَعَثَ إِلَيْهِ بِرَجُلٍ تَقَدَّمَ إِلَيْهِ فِي قَتْلِهِ، وَكَانَ الَّذِي أَتَاهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ أَذْرَبَيْجَانَ، فَلَمَّا رَأَى جَمَالَهُ وَهَيْئَتَهُ، قَالَ: لَا يَصْلُحُ قَتْلُ هَذَا فِي غَيْرِ جُرْمٍ وَلَا حَقٍّ. فَأَخْبَرَهُ بِمَا أَمَرَهُ بِهِ، فَأَرْسَلَ

(١) ك: «ولجوا».

(٢) ك: «فطفرت».

(٣) ك: «سيره».

شهربراز إلى قيصر: إني أريد أن ألقاك، فالتقيّا، فقال له: إن هذا الخبيث قد أراد قتلي، وإني والله لأريدنّ منه مثل الذي أراد منّي، فاجعل لي ما أطمئنّ إليه، وأعطيك مثل ذلك، ولئن قتلته لتجعلنّ لي ما أغلب عليه من الكور، وأجعل لك ألا أغزوك أبداً، ولا أتناول شيئاً من أرضك، وأن أعطيك من بيوت أموال كسرى مثل ما تنفق في مسيرك هذا.

فأعطاه قيصر ما سأل، وسار قيصر في أربعين ألف مقاتل، وخلف شهربراز في أرض الروم، وقد أخذ منه العهود والمواثيق. ولم يعلم كسرى [بذلك]^(١) حتى دنا منه قيصر، فلما بلغه ذلك علم أن شهربراز علم بما كان دبره من قتله، وكانت جنوده قد تفرقت في السّواد وغيرها، وكان كسرى قد أبغضه أهل مملكته وملّوه وعُرف حاله عند الناس فاحتال بحيل الرجال، واستعمل المكر والدهاء، فبعث إلى قسّ عظيم من النصاري يثق ملك الروم بقوله، فقال: إني أكتب معك كتاباً لطيفاً في حرير، وأجعله في قنّاة إلى شهربراز، وجائزتك عليّ ألف دينار.

وقد عرف كسرى أن القسّ يذهب بالكتاب إلى ملك الروم. فكتب إلى شهربراز: إني كتبت إليك، وقد دنا قيصر منّي، وقد أحسن الله عزّ وجلّ إليّ بصنيعك^(٢) ونفوذ تدبيرك، وقد فرقت لهم الجيوش وأنا تاركه حتى يدنو مني، وأثب عليه وثبة أستأصل شأفته بها، وإذا كان ذلك اليوم، وهو يوم كذا وكذا، فأغز أنت عليّ من قبلك منهم، فإنك تُبيدُهم وتُهْلِكُهم، وأرجو أن تكون لملك قيصر مصطظماً.

فخرج القسّ بالكتاب حتى لقي قيصر، وقد كانت صوّرت^(٣) لقيصر أرض العرب والعراق، وصوّرت له النّهروان بغير حين المدّ.

فلما انتهى إليه في المدّ وليس عليه جسّر، وقرأ الكتاب من يد القسّ^(٤)، قال: هذا هو الحقّ، ورجع منهزماً مفلولاً^(٥)، وأتبعه كسرى بإياس بن قبيصة الطائيّ، فأدركهم بسايدما مرعوبين مفلولين^(٦) من غير لقاء ولا قتال، فقتلوا قتل الكلاب، ونجا قيصر في خواصّ من أصحابه، فمدح الأعشى إياس بن قبيصة، وكان قد أصابه مرضٌ فقال^(٧):

(١) من ك.

(٢) ك: «بصنمتك».

(٣) ك: «وصور».

(٤) ك: «فأخذ الكتاب من يد القسّ وقرأه».

(٥) ك: «مغلوباً».

(٦) ك: «مغلوبين».

(٧) ديوانه ١٥٩، من قصيدة طويلة عدتها أحد وستون بيتاً.

ما تعيفُ اليومَ في الطّير الرّوحُ من غرابِ البين أو تيسِ برَحٍ^(١)
جالِساً في نَفَرٍ قد أيسوا^(٢) في محيلِ القِدِّ من صَحْبٍ قُزَحٍ^(٣)
قال ابن الأعرابي: وسأله حمّاد عن قوله:

ما تعيف اليوم في الطير الروح

فقال: تطير الأعشى من مرض إياس إلى الزجر والفأل، فقال لنفسه: «ما تعيف منه»، أي ما تكره منه وهو آخر أمره إلى السلامة.
فرجع قيصر وقد اتهم شهريراز، فلم يزل به حتى أمكنته الفرصة منه، فقتله وعامة رجاله وأفناهم^(٤).



قيل: ولمّا تشاغَلَ عبد الملك بن مروان بمقاتلة مُصْعَب بن الزبير، اجتمع وجوهُ الروم إلى ملكهم وقالوا له: قد أمكنتك الفرصة من العرب، فقد تشاغَلَ بعضهم ببعض، ووقع بأسهم بينهم، فالرأي أن تغزوهم في بلادهم، فإنك تذللهم وتنال حاجتك منهم. فنهاهم عن ذلك، فأبوا عليه إلا أن يفعل، فلما رأى ذلك دعا بكلّيين فأرّشَ بينهما، فاقتتلا قتالاً شديداً، ثم دعا بشعلب فخلّاه بينهما، فلما رأى الكلبان الشعلبَ تركا ما كانا فيه، وأقبلّا على الشعلب حتى قتلاه، فقال ملك الروم: هكذا العرب تقتتل بينهما، فإذا رأونا وهم مجتمعون تركوا ذلك، وأقبلوا علينا، فعرفوا صدق^(٥) قوله، ورجعوا عمّا كانوا عليه.



وعن بكّار بن ماهويه، قال: قال كسرى إبرويز لمنجمه: كيف يكون أجلي؟ فقال له: تُقتل؛ فقال: واللّه لأقتلنّ قاتلي، فأمر بسمّ فخلط في أدوية؛ وكتب عليه: هذا دواء الجماع، من أخذ منه وزنّ كذا جامع كذا مرّة، وصيّره في خزانة الطّب، فلما قتله ابنه شيرويه فتشّ خزانة أبيه، فمرّ بذلك السّم، فقال في نفسه:

(١) الطير البارح: ما أتاك عن يمينك يريد شمالك، والسانح خلاف ذلك.

(٢) ل: «أنسوا»، وما أثبتته من ك والديوان.

(٣) ط: «في مقيل»، وما أثبتته من الديوان، والمحيل: ما أتى عليه حول. وقزح: اسم ملك.

(٤) الخبر في شرح ديوان الأعشى ١٦٨.

(٥) ل: «صدقه»، وما أثبتته من ك.

بهذا كان يقوى أبي على الجماع وعلى شيرين وغيرها، فأخذ منه، فمات من ساعته .



وعن الهيثم، عن ابن عيَّاش^(١) قال: كان الحجاج حَسوداً لا تَتَمَّ له صنيعةٌ حتى يُفْسِدَها، فوجَّه عُمارةَ بنَ تميم اللخميَّ إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فظفر به، وصنَّع به ما صنَّع، ورجع إلى الحجاج بالفتح، فلم يرَ منه ما أَحَبَّ، وكَرِهَ - مِنَّا فَرتَه وكان عاقلاً رفيقاً - فجعل يترقَّق به ويُداريه ويقول: أنت أيها الأمير أشرفُ العرب، فمن شَرَّفَتَه شَرُف، ومن وضعَّتَه اتَّضع؛ وما ينكر لك ذلك، مع رِفَقك ويُمْنِك ومَشُورَتِك ورأيك، وما كان هذا كَلَّه إلا بصنع الله عزَّ وجلَّ وتدبيرك، وليس أحدٌ أشكَّرَ لصنيعك مِنِّي؛ ومَن ابنُ الأشعث! وما خَطَرُه!

حتى عزم الحجاج على المُضَيِّ إلى عبد الملك. فأخرج عُمارة معه، فوفد عليه وعُمارة يومئذٍ على أهلِ فِلَسْطِين أمير، فلم يزل يُلطف^(٢) بالحجاج في مسيره ويُعظِّمُه حتى قَدِموا على عبد الملك، فلما قامت الخطباء بين يديه وأثنت على الحجاج، قام عُمارة فقال: يا أمير المؤمنين، سَل الحجاج عن طاعتي ومناصحتي وبلائي؛ فقال الحجاج: يا أمير المؤمنين، صنَّع وصنَّع، ومِنَّ بأسه ونجدته وعفاهه ومكيدته [كذا وكذا]^(٣). هو أيمنُ الناس نقيبةً، وأعلمُهم بتدبير وسياسة؛ ولم يُبق غايةً في الثناء عليه. فقال عُمارة: أرضيت يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، فرضيَ الله عنك. حتى قالها ثلاثاً؛ في كلِّها يقول: قد رضيت.

فقال عُمارة: فلا رضيَ الله عن الحجاج يا أمير المؤمنين، ولا حَفِظَه ولا عافاه، فهو والله السيِّء التدبير، الذي قد أفسد عليك أهل العراق، وألب عليك الناس، وما أُتيت إلا من قَلَّة عَقْلُه، وضعف رأيه، وقَلَّة بصره بالسياسة، ولك والله أمثالها إن لم تعزله.

فقال الحجاج: مَه يا عُمارة! فقال: لا «مه» ولا كرامة يا أمير المؤمنين! كل امرأة له طالق، وكل مملوك له حُرٌّ؛ إن سار تحت راية الحجاج أبداً. فقال عبد الملك: ما عندنا أوسع لك!

(١) في ك، ل: «ابن عباس»، والصواب ما أثبتته، وانظر: لسان الميزان ٣: ٣٢٢.

(٢) كذا في ل والمحاسن والأضداد، وفي ل: «يتلطف».

(٣) من المحاسن والأضداد.

فلما انصرف عُمارة إلى منزله بعث إليه الحجاج وقال: أنا أعلمُ أنَّه ما خرج هذا عنك^(١) إلَّا معتبة، ولك عندي العتبي^(٢)، ولك ولك... فأرسل إليه: ما كنت أظنَّ أن عقلك على هذا، أرجع إليك بعد الذي كان من طعني وقولي عند أمير المؤمنين! لا ولا كرامة لك^(٣)!



وعن الهيثم بن الحسن بن عمارة قال: قَدِمَ شيخٌ من خُزاعة أيام المختار، فنزل على عبد الرحمن بن أبزى الخُزاعيِّ، فلما رأى ما تصنع شيعة^(٤) المختار به من الإعظام له جعل يقول: يا عباد الله، أبا المختار يصنع^(٥) هذا! والله لقد رأيته تبيع^(٦) الإمام بالحجاز. فبلغ ذلك المختار فدعا به، فقال: ما هذا الذي يبلغني عنك؟ قال: الباطل، فأمر بضرب عنقه، فقال: لا والله، لا تقدر على ذلك. قال: ولم؟ قال: أما دون أن أنظر إليك وقد فتحت مدينةَ دمشق ونقضتها حجراً حجراً، وقتلت المُقاتلة، وسبيت الذريَّة، ثم تصلُّبني على شجرة على نهر! والله إنِّي لأعرف الشجرة الساعة، وأعرف شاطئ ذلك النهر. قال فالتفت المختار إلى أصحابه فقال لهم: أما إنَّ الرجل قد عرف الشجرة^(٧)، فحسَّ حتى إذا كان الليل بعث إليه فقال: يا أخا خُزاعة، أو مُزاح عند القتال! فقال: أنشدك الله أن أقتل ضياعاً! قال: وما تطلب هاهنا؟ قال: أربعة آلاف درهم أقضي بها ديني. قال: ادفعوها إليه، وإياك أن تصبح بالكوفة، فقبضها وخرج^(٨).



وعنه قال: كان سُراقَة البارقيِّ من ظُرفاء أهل المدينة، فأسره رجل من أصحاب المختار، فأتى به المختار، وقال: أسرْتُ هذا؛ فقال: كذبت، والله ما أسرني هذا، إنما أسرني رجل عليه ثيابٌ بيض على فرس أبلق. فقال المختار: أما

(١) ك والمحاسن والأضداد: «منك».

(٢) ك، ل: «الغني»، وما أثبتته من المحاسن والأضداد - والعتبي: الرضا.

(٣) الخبر في المحاسن والأضداد ١٣٢ - ١٣٤.

(٤) المحاسن والأضداد: «سوقة المختار».

(٥) كذا في المحاسن والأضداد، وفي ك، ل: «نصنع».

(٦) المحاسن والأضداد: «يتبع».

(٧) ك: «السجن».

(٨) الخبر في المحاسن والأضداد ١٢٧، ١٢٨.

إِنَّ الرجلَ قد عَايَنَ - يعني الملائكة - خَلُّوا سَبِيلَهُ، فلما أَفْلَتَ أنشأ يقول:

أَلَا أَبْلُغُ أَبَا إِسْحَاقَ أَنِّي رَأَيْتُ الدُّهْمَ بُلُقًا مُصَمَّتَاتٍ ^(١)
أَرَى عَيْنِي مَا لَمْ تَبْصُرَاهُ كَلَانًا مُوَلَّعًا بِالشُّرْهَاتِ ^(٢)
كَفَرْتُ بِدِينِكُمْ وَجَعَلْتُ نَذْرًا عَلَيَّ قِتَالَكُمْ حَتَّى الْمَمَاتِ ^(٣)



وعنه قال: خرج الأخص بن جعفر المخزومي يتغذى في دير اللج، وذلك في يوم شديد البرد، ومعه حمزة بن بيض وسراقة البارقي، فلما كانا على ظهر الكوفة وعليه الوبر والخز وعليهما أطمار، قال حمزة لسراقة: أين يذهب بنا في هذا البرد، ونحن في أطمارنا! قال سراقة: أنا أكفيكه، فبينما هو يسير إذ لقيهم راكب مقبل؛ فحرّك سراقة دابّته نحوه، وواقفه ساعة، ولحق بالأخص، فقال: ما خبرك به الراكب؟ قال: زعم أن خوارج خرجت بالقططانة. قال: بعيد! قال: إن الخوارج تسير في ليلة ثلاثين فرسخاً وأكثر - وكان الأخص أحد الجبناء - فثنى رأس دابته، وقال: ردّوا طعامنا؛ نتغذى في المنزل، فلما حاذى منزله قال لأصحابه: ادخلوا، ومضى إلى خالد بن عبد الله القسري، فقال: قد خرجت خارجة بالقططانة، فنادى خالد في العسكر فجمعهم، ووجه خيلاً تركض نحو دير اللج لتعرف الخبر، فانصرفوا وأعلموه أنه لا أصل للخبر، فقال للأخص: من أعلمك هذا؟ قال: سراقة، قال: وأين هو؟ قال: في منزلي، فأرسل إليه من أتاه به، فقال: أنت أخبرته عن الخارجة؟ قال: ما فعلت أصلح الله الأمير؟ فقال الأخص: أو تكذّبن بين يدي الأمير! قال خالد: ويحك! أصدقني، قال: نعم أخرجنا في هذا البرد، وقد ظاهر الخز والوبر، ونحن في أطمارنا هذه، فأحببت أن أردّه، فقال له خالد: ويحك! وهذا ممّا يتلاعب به! وكان سُراقة ظريفاً شاعراً، وهو الذي يقول:

قالوا سُراقة عَيْنٌ فَقُلْتُ لَهُم اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي غَيْرُ عَيْنٍ
فإن ظننتم بي الشيء الذي زعموا فقربوني من بيت ابن يامين ^(٤)



(١) ديوانه ٧٨. والمصمت: الذي لا يخالط لونه لون آخر.

(٢) بعده في الديوان:

إذا قالوا أقول لهُم كَذَبْتُمْ وإن خرجوا البست لهُم أداتي
(٣) الخبر في ديوان سراقة ٧٥ - ٧٩؛ مع تصرف؛ وهو أيضاً في المحاسن والأضداد ١٢٧، ١٢٨.

(٤) الخبر في المحاسن والأضداد ١٢٩، ١٣٠.

وذكروا أن شبيب بن يزيد الخارجي؛ مرَّ بـغلامٍ مستنقع في ماء الفرات، فقال له: يا غلام، اخرج إليَّ أسألك، فعرفه الغلام، فقال: إني أخاف، أفأمن أنا إن خرجتُ حتى ألبس ثيابي؟ قال: نعم؛ فخرج وقال: واللَّهِ لا ألبسُها اليوم! فضحك شبيب وقال: خَدَّعني وربُّ الكعبة! ووَكَّل به رجلاً من أصحابه يحفظه ألا يصيبه أحد من أصحابه بمكروه^(١).



قال: وكان رجل من الخوارج قال في قصيدة له:
ومِنَّا يزيدُ والبطينُ وقَعْنَبُ ومِنَّا أميرُ المؤمنينَ شبيبُ
فسار البيتُ حتى سمعه عبد الملك بن مروان، فأمر بطلب قائله، فَأُتِيَ به، فلما وقف بين يديه قال: أنت القائل:

ومِنَّا أميرُ المؤمنينَ شبيبُ
قال: لم أقل هكذا يا أمير المؤمنين، قال: فكيف قلت؟ قال: قلت:
ومِنَّا أميرُ المؤمنينَ شبيبُ
فضحك عبد الملك وأمر بتخليه سبيله، فتخلَّص بحيلته، وفطنته لإزالة الإعراب عن الرفع إلى النصب^(٢).



وزعموا أنَّ عمرو بن معدِي كَرَبَ الزُّبيدي، هَجَمَ في بعض غاراته على شابةٍ جميلة منفردة، فأخَذَها، فلَمَّا أَمَعَنَ بها بكَّت، فقال: ما يُبكيك؟ قالت: أبكي لفراق بنات عمِّي؛ كلُّهنَّ مثلي في الجَمال؛ وأفضلُ مِنِّي. خرجتُ معهنَّ فانقطعنَّ عن الحيِّ، قال: وأين هُنَّ؟ قالت: خَلَفَ ذلك الجبلُ، وَدَدْتُ إِذْ أَخَذْتَنِي أَخَذْتُهُنَّ [معِي]^(٣). فأخَذَ^(٤) إلى الموضع الذي وصفته فما شعر بشيء حتى هَجَمَ على فارس شاكٍ^(٥) في السلاح، فعرض عليه المصارعة، فصرعه الفارس، ثم عرض عليه ضروباً من المناوشة^(٦)، فغلبه الفارس في كلِّها، فسأله

(١) الخبر في المحاسن والأضداد ١٣٠. (٢) الخبر في المحاسن والأضداد ١٣٠.

(٣) من المحاسن والأضداد.

(٤) المحاسن والأضداد: «فامض إلى الموضع الذي وصفته لك؛ فمضى إلى هنالك».

(٥) يقال: رجل شاكٍ السلاح؛ إذا كان ذا شوكة، وفي ط بتشديد الكاف؛ وهو خطأ.

(٦) المناوشة: المناولة في القتال.

عمرو عن اسمه، فإذا هو ربيعة بن مُكَدَّم^(١)، فاستنقذ الجارية [منه]^(٢).



وعن عطاء: أنَّ^(٣) مخارق بن عَفَّان، وَمَعْن بن زائدة، لَقِيَا رجلاً ببِلاد الشُّرْك، ومعه جارية لم يَرِيا مِثْلَها شَبَاباً وَجَمالاً، فصاحا به؛ لِيُخْلِىَ عنها. ومعه قوسٌ فرَمَى بها، وهابا الإقدام عليه، ثم عاد ليرمِي؛ فانقطع وتره، وسلَّم الجارية، وأَسَد^(٤) في جبل كان قريباً منه، فابتدرا الجارية وفي أذنها قُرْط فيه دُرَّة، فانترعه^(٥) بعضهما من أذنها. فقالت: وما قَدَرُ هذا! لو رأيتُما دُرَّتَيْنِ معه في قَلَنسُوتِه، وفي القَلَنسُوتِ وترٌ قد أعدّه؛ فنسيه من الدَّهَش.

فلما سمع قول المرأة ذَكَرَ الوتر، فأخرجَه وعَقَدَه في قوسه، فوليا؛ ليست لهما هِمَّةٌ إِلَّا النِّجاة، وخلياً عن الجارية^(٦).



قيل واستودع رجلٌ رجلاً مالا ثم طالَبَه به؛ فجحده، فخاصمه إلى إياس بن معاوية القاضي، وقال: دفعت إليه مالا في مكان كذا وكذا، قال: فأَيُّ شيء كان في ذلك الموضع؟ قال: شجرة، قال: فانطلق إلى ذلك الموضع وانظر إلى تلك الشجرة، فلعلَّ الله أن يوضِّح لك هناك ما تُبَيِّن به حَقَّك، أو لعلَّكَ دَفَنْتَ مَالَك عند الشجرة فنسيْتَ فتذكَّر إذا رأيت الشجرة.

فمضى، وقال إياس للمطلوب منه: اجلس حتى يرجع صاحبك، فجلس وإياسٌ يَقْضِي وَيَنْظُرُ إليه بين كلِّ ساعة، ثم قال: ترى صاحبك بلغ موضع الشجرة؟ قال: لا، فقال: يا عدوَّ الله، أنت الخائن!

قال: أَقْلَنِي أَقَالَكَ الله، فأمر بحِفْظِه حتى جاء خصمه^(٧)، فقال له: خذ [منه]^(٨) بحقك فقد أقرَّ.



(١) زاد في المحاسن والأضداد: «الكناني».

(٢) تكملة من ك؛ والخبر في المحاسن والأضداد ١٣٠، ١٣١.

(٣) ك، ل: «بن» تصحيف.

(٤) كذ في المحاسن والأضداد، وفي ل: «واستد» تصحيف. وأسند في الجبل: رقي.

(٥) المحاسن والأضداد: «فانترعاه من أذنها».

(٦) الخبر في المحاسن والأضداد ١٣١.

(٧) ساقط من ك. (٨) تكملة من ك.

قال: واستودع رجلٌ رجلاً كيساً فيه دنانير، فغاب، وطالت غَيْبَتُهُ، فشَقَّ المستودعُ الكيسَ من أسفلهِ، وأخذ الدنانيرَ، وجعلَ مكانَها دراهمَ وخيَطَه والخاتَمَ على حالِهِ، فجاء الرجلُ بعد ستِّ عشرة سنة فقال: مالي! وطالَبَ به، فأعطاه الكيسَ بخاتمه، فنظر إليه وإذا ماله دراهم، فأحضَرَه مجلسَ إياس، فقال إياس للطالب: ماذا تقول؟ قال: أعطيتُه كيساً فيه دنانير، فقال: منذ كم؟ قال: منذ ستِّ عشرة سنة، قال: فُضَّ الخاتَمُ، ففَصَّاه، فقال: انثُرَا ما فيه، فإذا هي دراهمُ بعضُها من ضَرْبِ عشر سنين وأكثر وأقلَّ، فأقرَّ بالدنانير، وألزمه إياها حتى خرج منها.



قال: وأودع^(١) رجل رجلاً من أمناء إياس مالا، وحجَّ. فلمَّا رجع طالبه فجحدَه، فأتى إياساً فأخبره، فقال: أتَعلَم أنَّكَ أخبرتَ غيري بذلك؟ قال: لا. قال: فهل عَلِمَ أَنَّكَ أَعْلَمْتَنِي^(٢)؟ قال: لا؛ قال: أفنازعتَه^(٣) بحضرة أحد؟ قال: لا، قال: فانصرف واکتُم أمرَكَ ثم عُدْ إليَّ. ودعا إياس أَمِينَه ذلك فقال: قد حضر مالٌ كثير، وقد رأيت أن أودِعَكَ إياه عندك، فارتَدَّ له موضعاً وأَتَيْني بمن يحملهُ معك. فمضى الأَمِينُ، وعاد الرجل إلى إياس؛ فقال له: انطلق إلى صاحبك، فطالبه بمالك، فإن أعطاك وإلا فقل إنك تُعلمني، فأتاه فقال له: اعطني مالي وإلا أتيْتُ القَاضِي فأعلمتُه، فدفَع إليه ماله، وصار إلى إياس، فقال: قد رَدَّ مالي عليَّ، وجاء الأَمِين إلى إياس لموعده، فانتَهَره وقال: اخرج عني يا خائن.



وأراد معاوية أن يوجَّه ابنه يزيدَ إلى غَزْوِ الصَّائِفَةِ^(٤)، وكره يزيدُ ذلك، وأنشأ يقول:

تَجَنَّى لَا تَزَالُ تَعُدُّ ذَنْباً لَتَقْطَعَ وَصَلَ حَبْلِكَ عَنْ حِبَالِي
فَيُوشِكُ أَنْ يَرِيحَكَ مِنْ أَذَاتِي^(٥) نُزُولِي فِي الْمِهَالِكِ وَارْتِحَالِي
وخرج، وخرج الناس معه، وفيمن خرج أبو أيوب الأنصاري. فلما قُرب من

(١) ك: «واستودع».

(٢) ك: «عرفتني».

(٣) ل: «فنازعتَه».

(٤) الصَّائِفَةُ: الغزوة في الصيف؛ وبها سميت غزوة الروم؛ لأنهم كانوا يغزون صيفاً لمكان البرد والثلج.

(٥) ط: «أذاتي» تصحيف.

قسطنطينية اشتكى أبو أيوب، فأتاه يزيد عائداً، فقال له: ما حاجتك؟ قال: أما دنياكم فلا حاجة لي فيها، ولكن سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يُدفن بجنب قسطنطينية رجلٌ صالح»، وقد رجوتُ أن أكونه، فقدمني ما قدرت عليه، فمات. فلما فرغ من جهازه وُضع على سريرهِ قدّم الكتائب بين يديه، فنظر قيصر، ورأى أمراً عجيباً، وشيئاً يُحمَل، والناس بالسلاح تحته، فأرسل إليه: ما هذا الذي أرى^(١)؟ قال يزيد: هذا صاحبُ نبينا ﷺ، أوصى أن ندفنه إلى جنب مدينتكم، ونحن نُنفذ وصيته أو نموت دونه. فأرسل إليه: العجبُ من الناس وما يذكرونه من ذَهَاء أبيك، وهو يبعثك في هذا البعث! تدفن صاحبَ نبيِّك بجنب مدينتي، فإذا وليت عنه نبشته فطرحته للكلاب! فأرسل إليه يزيد: إني ما أردت أن أجنّه حتى أودع مسامعك كلامي؛ وكفرت بالذي أكرمتُ له هذا الميت، لئن تعرّضتَ له لا تركتُ في أرض العرب نصراً إلا سفكتُ دمه واستصفيت ماله، وسبيتُ حرّمه.

فأرسل إليه قيصر: كان أبوك أعرف بك مني، وإني أحلف بحق المسيح عليه السلام: ألا يحرسه سنةً أحدٌ غيري.



وعن بعض مشايخ المدينة؛ قال: كانت عند عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليهما جاريةٌ مغتية؛ يقال لها عُمارة، فلما وفد عبدُ الله على معاوية خرج بها معه، فزاره يزيد ذات يوم وأقام عنده، فأخرجها إليه، فلما نظر إليها وسمع غناءها وقعت في نفسه، فأخذَ عليها ما لم يملك نفسه، وجعل يَمْنَعُه من أن يبوخَ به مكان أبيه؛ مع يأسه من الظَّفَر بهما. فلم يزل يُكاتمه إلى أن مات معاوية، وأفضى إليه الأمر، وتقلدَ الخلافةَ يزيد، فاستشار بعضَ من يثقُ به في أمرها، فقال: إنَّ أمرَ عبدِ الله لا يُرام، وأنت لا تستجيزُ إكراهه، ولا يبيعها بشيء أبداً، وليس يُغني في هذا الأمر إلا الحيلة، قال: اطلب لي رجلاً عاقلاً من أهل العراق، ظريفاً أديباً له معرفة ودراية، فطلبوه فأتوه، فلما دخل عليه استنطقه، فرأى بياناً وحلاوةً وفقهاً، فقال له: إني دعوتك لأمرٍ، إن ظفرتَ به فهو حُطوتك آخرَ الدهر، ويدُ أكافئك عليها، ثم أخبره بأمره.

فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ عبدَ الله بن جعفر ليس يرام^(٢) ما قبَله إلا

(١) ل: «نرى».

(٢) كذا في ك، وفي ل: «لا يرام».

بالخدعة، وإن يُقْدِرُ على ما سألتَ رجلٌ فأرجو أن أكونه، والقوّة بالله، فأعِني يا أمير المؤمنين بالمال. قال: خُذْ ما أَحْبَبْتَ.

فأخذ واشترى من طُرفِ الشّام ثياب مصر ومتاعها للتجارة، ومن الرّقيق والدّواب وغير ذلك حاجته، وشخص إلى المدينة، فأناخ بعُرْصة عبد الله بن جعفر، واكترى منزلاً إلى جانبه، ثم توسّل إليه، وقال: أنا رجلٌ من أهل العراق، وقدمتُ بتجارة، فأحببتُ أن أكونَ في جوارك وكنتك إلى أن أبيع ما جئت به.

فبعث عبد الله إلى قهّارمته وقال: أكرموا جارنا، وأوسعوا عليه المنزل، فلمّا اطمأنّ العراقيّ وسلّم عليه أياماً، وعرفه نفسه، هيأ له بغلةً فارّهة، وثياباً من ثياب العراق والطافاً، وبعث بها إليه، وكتب رقعة يقول فيها: يا سيّدي، أنا رجل تاجر، ونعمة الله عليّ سابعة، وعندني أحمال^(١)، وقد بعثتُ إليك بشيء من اللّطف وهو كذا، ومن الثّياب والعطر، وبعثتُ [إليك]^(٢) ببغلة خفيفة العنان، وطيفة الطّهر، فاتخذها لرحلك، وأنا أسألك بقرابتك من رسول الله ﷺ إلّا قبلتَ هديّتي، ولم توحشني بردها، فإني أدّين الله عزّ وجلّ بحبك وحبّ أهل بيتك، وإنّ أفضل ما في سفري هذا أن أستفيد الأنس بك، والشرف^(٣) بمواصلتك.

فأمر عبد الله بقبض هديّته، وخرج إلى الصلاة، فلما رجع مرّ بالعراقيّ في منزله، فقام إليه، وقبل يده، وسلّم عليه، واستكثر منه، فرأى أدباً وظرفاً وحلاوة وفصاحة، فأعجب به وسرّ بنزوله عليه.

فجعل العراقيّ يبعث كلّ يوم^(٤) بلطف إلى عبد الله وبطُرف. فقال عبد الله: جزى الله ضيفنا هذا خيراً، فقد ملأنا شكراً، وأعيانا عن مجازاته^(٥).

فإنهما لكذلك، إذ دعاه عبد الله ودعا بعمارة وجوّاريه، فلما تعشّيا وطاب لهما^(٦)، وسمع غناء عُمارة تعجّب وجعل يزيد في عَجْبه، إذ رأى ذلك يسرّ عبد الله إلى أن قال له: رأيتَ مثل عُمارة؟ قال: لا والله يا سيّدي، ما رأيتُ مثلاً، وما تصلّح^(٧) إلّا لك، وما ظننتُ أنه يكون في الدنيا مثل هذه: حسن وجه

(١) ل: «احتمال»، ك: «اجتمال» تصحيف.

(٢) من ك. (٣) كذا في ل، وفي ك: «وأشرف».

(٤) ك: «في كل يوم».

(٥) ل: «وأعاننا على مجازاته».

(٦) كذا في ك، وفي ل: «طاب لهما».

(٧) ك: «ولا تصلح».

وَحِذِّقْ عَمَلْ! قال: كم تساوي عندك؟ قال: ما لها ثمنٌ إلا الخلافة. قال: تقول هذا لما ترى من رأيي فيها، ولتَجَلِبْ سروري! قال: واللَّه يا سيدي إني لأحب سرورك. وما قلت لك إلا الجَدَّ. وبعد، فإني رجلٌ تاجر، أَجْمَعُ الدَّرْهَمَ إلى الدرهم طلباً للربح، ولو أُعْطِيتُها بعشرة آلاف دينار لأخذتها. قال عبد الله: بعشرة آلاف دينار! قال: نعم - ولم يكن في ذلك الزَّمان جارية بعشرة آلاف دينار - فقال عبد الله كالمزاح: أنا أبيعُكها بعشرة آلاف دينار، قال: قد أخذتها، قال: هي لك، قال: قد وَجَبَ البيع، وانصرف العراقي. فلما أصبح لم يشعر عبد الله إلا وبالمال قد وافاه، فقال عبد الله: بعث العراقيُّ بالمال؟ قالوا: نعم، بعشرة آلاف دينار وقال: هذه ثمنُ عمارة. فردَّها إليه وقال: إنما كنت أَمْزُحُ معك، وما أعلمك أن مثلي يبيع مثلاً! قال: جُعِلْتُ فِدَاكَ! إن الجَدَّ والهزل في البيع سواء، قال له عبد الله: وَيُحْك! لا أعلم موضع جارية تساوي ما بذلت، ولو كنت بائعها من أحد لآثرتك، ولكنني كنت أَمَازِحُك، وما أبيعها بمُلْك الدنيا، لحُرْمَتها بي وموقعها من قلبي. قال له العراقي: فإن كنت مازحاً فإني كنتُ جاداً، وما اطلعتُ على ما في نفسك، وقد ملكْتُ الجارية، وبعثتُ بالثمن، وليست تحِلُّ لك وما مِنْ أَخْذِها بُدَّ.

فمنعه إِيَّاهَا، فخرج العراقيُّ وهو يقول: أَسْتَحْلِفُكَ في مجلس أمير المؤمنين. فلما رأى عبد الله الجَدَّ منه، قال: بئس الضيف! ما طرَقنا طارق، ولا نزل بنا ضيفٌ أعظم بليةً علينا منك! تُحْلِفُنِي فيقول الناس: اضْطَهْدُهُ وقَهْرَهُ وَأَلْجَأْهُ إلى أن استحلَّفه! أما والله لَتُعْلَمَنَّ أَنِّي سَأُبَلِّى في هذا الأمر بالصَّبْر وحُسن العِزَامِ وجميل العِزَاءِ.

ثم أمر قَهْرَمَانَهُ بقبض المال، وتجهيز الجارية بما يشبهها من الثياب والخدم والطيب والمركب، فجهَّزت بنحو من ثلاثة آلاف دينار. ثم سلَّمها إلى قَهْرَمَانِهِ وقال: أوصل الجارية إليه مع ما معها، وقل: هذا لك، ولك عندنا عَوْضٌ مما أَلْطَفْتَنَا به.

فقبض العراقيُّ الجارية وخرج، فلما برز من المدينة قال لها: يا عُمارة إني والله ما ملكْتُكِ قَطُّ ولا أنتِ لي، ولا مثلي يشتري جارية بعشرة آلاف دينار، وما كنتُ لِأَقْدِمَ على عبد الله بن جعفر فأَسْلُبُهُ أَحَبَّ النَّاسِ إليه لنفسِي، ولكنني دَسِيسٌ من قِبَل أمير المؤمنين يزيد، وأنتِ له، وفي طلبك بعشني، فاستتري مِنِّي، فإن دخلني الشيطانُ في أمرك، أو تآقت نفسي إليك فامتنعي. ثم مضى بها حتى ورد دمشق، فتلقاه الناس يحملون جنازةً يزيد، وقد استخلف ابنه معاوية.

فأقام الرجل أياماً ثم تلطّف للدخول عليه، فشرح له القصّة، فقال: هي لك. فارتحل العراقيّ، وقال للجارية: إني قلت لك ما قلت حين أخرجتك من المدينة، لأنني لم أملكك، وقد صرت الآن لي، وأنا أشهدك أنّي قد وهبتك لعبد الله بن جعفر.

فخرج بها حتى قدم المدينة، فنزل قريباً من عبد الله، فدخل عليه بعضُ خدمه فقال: هذا العراقيّ ضيفك الصانع بنا ما صنع - لا حيّاه الله - قد نزل، فقال: مه! أنزلوا الرجل وأكرموا مَثْواه، فأرسل إلى عبد الله: إن أذنّتْ جُعلتُ فداك لي في الدخول عليك دخلة خفيفة أشافهك فيها بحاجتي وأخرج! فأذن له، فلما دخل عليه خبره بالقصّة، وحلف له بالمحرّجات^(١) من الأيمان أنّه ما رأى لها وجهاً إلا عنده، وها هي ذه. فأدخلها الدار، فلما رآها أهل الدار والحشم تصايحوا، ونادوا: عُمارة! عُمارة! فلما رأت عبد الله خرت مغشياً عليها، وجعل عبدُ الله يمسح وجهها بكمّه ويقول: يا حبيبتي، أحلم هذا؟ فقال له العراقيّ: بل ردّها الله إليك بوفائك وكَرَمِك، فقال عبد الله: قد علم الله كيف كان الأمر! فالحمد لله على كلّ حال، ثم أمر ببيع عير له بثلاثة عشر ألف دينار، وأمر بها للعراقيّ، فانصرف إلى العراق وافرّ العِرض^(٢) والمال.



أبو محارب، قال: قال معاوية بن أبي سفيان: إنّ عمرو بن العاص قد احتجّن عتاً خراج مصر. فعزّله واستعمل أبا الأعور السُلَميّ، فبلغ عمراً الخبر، فدعا ورّذان مولاة وقال له: ويحك! عزّلني أمير المؤمنين، قال: فمن استعمل؟ قال: أبا الأعور، قال: دعني وإياه أصنع له طعاماً، ولا تنظر في كتابه حتى يأكل؛ قال: نعم؛ فلما قدّم عليه أخرج الكتاب بتسليم العمل إليه، فقال عمرو: ما نصنع بالكتاب! لو جئتنا برسالة لقبلنا ذلك منك^(٣). فقال ورّذان: ضع الكتاب وكل، فقال أبو الأعور لعمرو: انظر في الكتاب. قال: ما أنا بناظر فيه حتى تأكل، فوضعه إلى جانبه، وجعل يأكل، فاستدار ورّذان فأخذه^(٤)، فلما فرغ أبو الأعور

(١) ك، ل: «بالمخرجات».

(٢) ل: «العوض».

(٣) ساقطة من ك.

(٤) ل: فاتخذه.

من غذائه، طلب الكتاب فلم يجده، فقال: أين كتابي؟ فقال له عمرو: أو ليس جئتَ زائراً لنُحَسِّنَ إليك؟ قال: بل استعملني أمير المؤمنين وعزلك، قال: مهلاً، لا يَظْهَرَنَّ هذا منك، فإنه قبيح ونحن نصلُّك ونحسن إليك. فرضي بالصلة، وبلغ معاوية الخبر، فاستضحك وتعجب من فعله، وأقرَّ عمراً على عمله.



وعن الشعبي قال: كتب المغيرة بن شعبة إلى معاوية، وكان خاف العزل: قد كبرت سنِّي، ورقَّ عظمي، واقترب أجلي، وسفَهني^(١) سفهاء قريش، وأمير المؤمنين أولى بعمله. فكتب إليه معاوية: أمّا ما ذكرت من كبر سنِّك فأنت أكلت عُمرَكَ. وأمّا اقترابُ أجلك، فلو أستطيع دفع الموت عن أحد دفعته عن نفسي وعن آل أبي سفيان، وما ذكرت من سفهاء قريش، فحلماؤها أنزلتُك هذه المنزلة. وأمّا العمل، فاصبر رويداً يُدرك الهيجا حَمَل. فاستأذنه في القدوم عليه، فأذن له، فوافاه، فقال له معاوية: يا مغيرة، كبرت سنِّك، واقترب أجلك، ولم يبق منك شيء، وسأستبدل بك.

فانصرف فرأى أصحابه الكآبة في وجهه، فقالوا: ما لك؟ قال: قال لي: كَيْتَ وكَيْتَ، قالوا له: فما تريد أن تَصْنَعَ؟ قال: ستعلمون، قال: فأتى معاوية فقال له: يا أمير المؤمنين، إن الإنسان يَغْدُو وَيَرُوح، ولست في زمن^(٢) أبي بكر ولا عمر، فلو أنك نصّبت لنا إنساناً نصير إليه بعدك كان الرأي؛ على أنني قد كنتُ دعوتُ أهل العراق إلى يزيد. قال: يا أبا محمّد، انصرف إلى عملك، وأحكم هذا الأمر لابن أخيك، قال: فأقبل على البريد يركض، وقال: قد والله وضعت رجله في ركابٍ طويل الركض، قال: فذاك هو الذي بعث معاوية على أخذ البيعة ليزيد.

(١) ك: «سفَهني».

(٢) ك: «زمان».

مساوىء العي وضعف العقل

قال ثُمَامَةُ صاحب الكلام: كان المأمون قد هَمَّ بَلْعَن معاوية، وأن يكتب بذلك كتاباً في الطَّعْن عليه، قال: فَفَتَاهُ^(١) عن ذلك يحيى بن أَكْثَم وقال: يا أمير المؤمنين، العامة لا تحتمل هذا، ولا سيّما أهل خُرَاسان، ولا تأمن أن يكون لهم نَفَرَةٌ وَنَبُوَةٌ لا تُسْتَقَال، ولا يُدْرَى ما يكون عاقبتها، والرأي أن تدع الناس على ما هم عليه، ولا تُظهِرْ لهم أَنَّكَ تميل إلى فِرْقَةٍ من الفرق، فإن ذلك أصلح في السياسة، وآمن في العاقبة، وأجرى في التدبير. فركن إلى قوله.

فلما دخلتُ عليه قال: يا ثُمَامَةُ، قد علمت ما كنّا دبرناه في أمر معاوية؛ وقد عارضنا رأيي هو أصلح في تدبير الممكة، وأبقى ذكراً في العامة. ثم أخبرني أن يحيى بن أَكْثَم حذّره، وأخبره بنفور العامة عن مثل هذا الرأي، فقلت: يا أمير المؤمنين، والعامة عندك في هذا الموضع الذي وضعها فيه يحيى! والله لو بعثت إليها إنساناً على عاتقه سوادٌ ومعه عَصَا، لساق إليك منها عشرة آلاف؛ والله يا أمير المؤمنين، ما رضي الله عزَّ وجلَّ أن سَوَّاهَا بالأنعام حتى جعلها أضلَّ سبيلاً. فقال تبارك وتعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [سورة الفرقان: ٤٤]. والله لقد مررتُ يا أمير المؤمنين منذ أيام في شارع الخُلْدِ وأنا أريد الدار، فإذا إنسانٌ قد بَسَطَ كِسَاءَهُ، وألقى عليه أدوية، وهو قائم ينادي: هذا الدواء للبياض في العين والغشاوة والظُّلْمَةُ وضعف البصر، وإن إحدى عينيه لمطموسة، والأخرى مؤلمة وقد تألَّبوا عليه، واحتفلوا إليه، فنزلتُ عن دابتي ودخلتُ بين تلك الجماعة، فقلت: يا هذا، أرى عينيك أحوَجَ الأعين إلى العلاج، وأنت تصف هذا الدواء وتخبر أنه شفاء، فما بالك يا هذا لا تستعمله! قال: أنا في هذا الموضع منذ عشرين سنةً ما رأيتُ شيخاً قطُّ أجهلَ منك ولا أحمق! قلت: وكيف ذاك؟ قال: يا جاهل، أتدري أين اشتكت عيني؟ قلت لا، قال: بمصر؛ فأقبل عليَّ الجماعة فقالت: صدق، والله! أنت جاهل. وهَمُّوا بي، فقلت: والله ما علمتُ أن عينه اشتكت بمصر. فتخلَّصت منهم بهذه الحجة. قال: فضحك

(١) فتاه: منعه وكفه، وفي ك: «فنهاه».

المأمون وقال: ما لقيت من الله جلّ ذكره من سوء الثناء^(١)، وقُبِحَ الذكر أكثر. قلت: أجل.



وقيل: إنّه كان رجلاً من المعتزلة، وكان له جارٌّ يرى رأي الخوارج، وكان كثير الصلاة والصيام، حَسَنَ العبادة، فقال المعتزليّ لرجلين من أصحابه: مُرّا بنا إلى هذا الرجل، فنكلمه^(٢)، لعلّ الله عزّ وجلّ يُنقِذه من الهلكة بنا، ويهديه من الضلالة. فأتوه وكلموه، فأصغى إلى كلامهم، فلمّا سكتوا انتعل^(٣)، وقام ومعه القوم حتى وقف على باب المسجد، فرفع صوته بالقراءة، واجتمع إليه الناس^(٤)، وقعد الرجل وصاحبه، فقرأ ساعة حتى بكى الناس، ثم وعظ فأحسن، ثم ذكر الحجاج، فقال: أحرّق المصاحف، وهدّم الكعبة، وفعل وفعل، فلعنوه لعنّ الله! فلعنّه الناس، ورفعوا أصواتهم. ثم قال: يا قوم، وما علينا من ذنوب الحجاج ومن أن يغفر الله عزّ وجلّ له ولنا معه، فإنّا كلّنا مذنبون! لقد كان الحجاج غيوراً على حرم المسلمين، تاركاً للغدر، ضابطاً للسبيل^(٥)، عفيفاً عن المال، لم يتخذ ضيعةً، ولم يكن له مال، فما علينا أن نترحم عليه، فإنّ الله عزّ وجلّ رحيمٌ يحبّ الراحمين! ثم رفع يده، ودعا بالمغفرة للحجاج، ورفع القوم أيديهم، وارتفعت الأصوات بالاستغفار ملياً.

قال الرجل المعتزليّ وهو يلاحظني: فلما فرغ وانصرف، ضرب بيده إلى منكبي، وقال: هل رأيت مثلاً هؤلاء القوم! لعنوه واستغفروا له في ساعة واحدة! أتنتهى عن دماء أمثال هؤلاء! والله لأجاهدّهم مع كلّ من أعانني عليهم.

(١) يقال: أثنى عليه؛ إذا قال خيراً أو شراً.

(٢) ك: «لنكلمه».

(٣) ك: «انتقل».

(٤) ك: «خلق كثير».

(٥) ك: «السبيل».

محاسن التَّقِظ

قيل : كان أردشير من أشدَّ خَلْق^(١) الله فحصاً وبحثاً عن سرائر خاصّته وعامّته ، وإذكاءً للعيون عليهم وعلى الرعيّة . وكان يقول : إنّما سُمِّي المَلِكَ راعياً لِيَفْحَصَ عن دَفَائِنِ رعيّته ، ومتى غَفَلَ المَلِكُ عن تعرّفه ذلك ؛ فليس له من رسم الراعي إلا اسمُه ، ومن المَلِكِ إلا ذِكْرُه .

ويقال : إنه كان يُصبحُ فيعلم كلَّ شيء جري^(٢) في دار مملكته من خير وشرّ ، ويمسي فيعلم كلَّ شيء أصبحوا عليه ، فكان متى شاء قال لأرفعهم وأوضّعهم : كان عندك في هذه الليلة كيت وكيت . ثم يحدثُه بكلِّ ما كان فيه إلى أن أصبح ، وكان بعضهم يقول : يأتيه مَلَكٌ من السماء فيخبره ، وما كان ذلك إلا لتيقّظه وكثرة تعهّده لأُمور رعيّته .

ويقال : إنّ الأُمم كلّها : أوّلها وآخرها ، قديمها وحديثها ؛ لم تَخَفْ ملوكها خوْفُها أردشير من ملوك العجم وعمر بن الخطّاب رضي الله عنه من ملوك العرب والإسلام ؛ فإنَّ عمر رضي الله عنه كان علّمه بمنْ نَأَى من عُمّاله ورعيّته كعلّمه بمنْ باتَ معه على مهّاد ، فلم يكن له في قُطْرٍ من الأقطار ؛ ولا ناحية من النواحي أميرٌ ولا عاملٌ إلا ولّه عليه عَيْنٌ لا تفارقه^(٣) ، فكانت أخبارُ النواحي كلّها عنده كلّ صباح ومساء ، حتى إن العامل كان يتوهّم على أقرب الخلق إليه وأخصّهم به ، فساس الرعيّة سياسة أردشير في الفحص عنها وعن أسرارها . ثم اقتفى معاوية فعله ، وطلب أثره . فانتظم له أمره ، وطالت في الملك مدّته .

وكذا كان زيادُ بن أبي سفيان ، يحتذي فعل معاوية كاحتذاء معاوية فعل عمر رحمه الله في تعرّف أمور رعيّته ومملكته ، وفيما يحكى عنه أنّ رجلاً كلّمه في حاجة له ، فتعرّف إليه وهو يظنُّ أنه لا يعرفه ، فقال : أصلح الله الأمير ! أنا فلان ابن فلان ، فتبسّم زياد ، وقال : أتتعرّف إليّ وأنا أعرفُ منك بنفسك ! والله إنّني

(١) ك : « الناس » .

(٢) ك : « يجري » .

(٣) ك : « يفارقه » .

لأعرفك وأعرف أباك وأمك وجدك وجدتك، وأعرف هذا البرد الذي عليك، وهو لفلان. فبهت الرجل وأرعد؛ حتى كاد يُعشى عليه.

وعلى هذا كان عبد الملك بن مروان، والحجاج. ولم يكن بعد هؤلاء الثلاثة أحد في مثل هذه السياسة، حتى ملك المنصور، فكان أكبر الأمور عنده معرفة الرجال حتى عرف العدو من الولي، والموادع والمسالمة من المشاغب، فساس الرعية على ذلك، ثم درست هذه السياسة حتى ملك الرشيد، فكان أشد الملوك بحثاً عن أسرار رعيته، وأكثرهم بها عناية، وأحزمهم فيها أمراً.

وعلى هذا كان المأمون في أيامه^(١)، والدليل على أمر المأمون رسالته إلى إسحاق بن إبراهيم في الفقهاء وأصحاب الحديث وهو بالشام؛ خبر فيها عن عيب واحد، وعن نحلته وعن أموره التي خفيت أو أكثرها على القريب والبعيد، ولم يكن أحد من ذوي السلطان الأعظم أشد حرصاً وبحثاً عن أمور الناس؛ حتى بلغ هذا المبلغ في الاستقصاء، وجعله أكبر شغله، وأكثره في ليله ونهاره، من إسحاق بن إبراهيم. حدثني موسى بن صالح بن شيخ؛ قال: كلمته في امرأة من بعض أهلنا، وسألته النظر لها، فقال: يا أبا محمد، من قصة هذه المرأة ومن فعلها... قال: فوالله: ما زال يحدثني ويخبرني^(٢) عن قصتها، ويصف أحوالها حتى بهت.

وحدث أبو البرق الشاعر، قال: كان يجري عليّ أرزاقاً^(٣) فدخلت عليه؛ فقال بعد أن أنشدته: كم عيالك تحتاج في كل شهر^(٤)؟ قلت: من الدقيق إلى كذا، ومن الحطب إلى كذا، فأخبرني بشيء من^(٥) أمر منزلي جهلت بعضه وعلمه كله.

وحدث بعض من كان في ناحيته، قال: رفعت إليه قصة أسأله فيها أجراً وأرزاقاً، فقال: كم عيالك؟ فزدت في العدد. فقال: كذبت؛ فبهت وقلت: يا نفس؛ من أين علم أنني كذبت! فأقمت سنة أخرى لا أجسر على كلامه^(٦)، ثم رفعت إليه القصة، فقال: كم عيالك؟ فقلت: كذا، قال: صدقت، ووقع^(٧) في القصة، يُجرى على عياله كذا وكذا.



(١) ل: «كان المأمون أيامه».

(٢) ك: «رزقاً».

(٣) ك: «كم عيالك يحتاجون نفقة في كل شهر»؟

(٤) ك: «في أمر منزلي».

(٥) ك: «ووقع لي».

(٦) ك: «خطابه».

(٧) ك: «ووقع لي».

ويقال: إن كِسْرَى أبرويز كان [قد^(١)] نصب رجلاً يمتحن به مَنْ فسدت عليه نيّته من رعيته، وطعن في المملكة، فكان الرجل يُظهر التّأله^(٢) والدعاء إلى التّخلي من الدنيا، والرغبة في الآخرة، وترك أبواب الملوك. وكان يقصّ على الناس ويبكيهم ويشوب كلامه في خلال ذلك بدم الملك^(٣)، وتركه^(٤) شرائع ملّته، وسنن سيرته ودينه الذي كان عليه، وكان هذا الرجل يمثّل ما حدّه له أبرويز ليمتحن بذلك خاصّته، وكان من يسعى يُخبر أبرويز بذلك، فيضحك ويقول: فلان في عقله ضعف، وأنا أعلم أنه وإن كان يتكلّم بما يتكلّم لا يقصدني بسوء، ولا المملكة بما يُوهنها. ويُظهر الاستهانة بأمره والثقة به والطمأنينة إليه، ثم يوجّه إليه في خلال ذلك مَنْ يدعوه، فيأبى أن يجيبه، ويقول: لا ينبغي لمن خاف الله أن يخاف أحداً سواه، فكان الطاعن على الملك والمملكة يكثر الخلوة بهذا الرجل، والزيارة له والأنس به، فإذا خُلّيّا^(٥) تذكّر أمر الملك فابتدأ الناسكُ قطع فيه وأعانه الخائن وطابقه^(٦) على ذلك وشايعه، فيقول الناسك: إياك وأن يظهر^(٧) هذا الجبار على كلامك، فإنه لا يحتمل لك ما يحتمله لي، فحصّن^(٨) منه دمك. فيزداد الآخر إليه استنامة وبه ثقة، فإذا علم الناسك أنه قد بلغ من الطعن على الملك ما يستوجب به العقوبة^(٩) في الشريعة، قال لمن بحضرته: إني قاعد غداً مجلساً للناس أقصّ عليهم فأحضروه، ويقول لمن هو أشدّ به ثقة: احضر أنت، فإنك رجل رقيق عند الذكر، حسن النية، ساكنُ الريح، بعيدُ الصّوت، وإن الناس إذا رأوك قد حضرت زادت نيّاتهم خيراً؛ وسارعوا إلى استجابتي. فيقول الرجل: إني أخاف من هذا الجبار، فلا تذكره إن حضرت، وكانت العلامة بينه وبين أبرويز، أنّ أبرويز قد كان وضع عيوناً يحضرون متى جلس، فكان الناسك يقصّ على العامّة، ويُرهد في الدنيا، ويرغب في الآخرة، والخائن حاضر، فيأخذ الناس في ذكر الملك، فينهض الخائن، وتجيء عيون أبرويز فتخبره بما كان، فإذا أزال الشك عنه في أمره، وجّهه إلى بعض البلدان، وكتب إلى عامله: قد وجهت إليك برجل، وهو قادم عليك بعد كتابي هذا، فأظهر برّه، والأنس به والثقة إليه، والسكون إلى ناحيته، فإذا اطمأنّت به الدار^(١٠) فاقتله قتلة تحيي بها بيت النار، وتصل بها حرمة

(١) من ك.

(٢) التّأله: التّعبد والتّمسك.

(٣) ك: «الملوك».

(٤) ك: «وترك».

(٥) ط: «أخليا»، وأثبت ما في ك، ل.

(٦) ط: «طايحه».

(٧) ك: «تظهر».

(٨) ط: «فحص».

(٩) ك: «القتل».

(١٠) ك: «الديار».

النَّوْبَهَار^(١)، فَإِنَّ مَنْ فَسَدَتْ نَيْتُهُ بَغِيرَ عِلَّةٍ فِي الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ لَمْ يَصْلَحْ بَعْلَةً، وَمَنْ فَسَدَتْ نَيْتُهُ بَعْلَةً صَلَحَتْ بِخِلَافِهَا.



قال: وَحَدَّثَنَا الْوَضَّاحُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا بُدَيْلٍ بْنِ حَبِيبٍ يَقُولُ: كُنَّا إِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ، صِرْنَا إِلَى الْمَهْدِيِّ؛ وَهُوَ يَوْمُئِذٍ وَلِيُّ عَهْدٍ. فَفَعَلْنَا ذَلِكَ يَوْمًا، فَأَبْرَزَ لِي الْمَنْصُورُ يَدَهُ، فَاَنْكَبْتُ عَلَيْهَا وَقَبَّلْتُهَا، فَضَرَبَ يَدِي بِيَدِهِ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ إِلَّا لَشَيْءٍ فِي يَدِهِ، فَوَضَعَ فِي يَدِي كِتَابًا صَغِيرًا تَسْتُرُهُ الْكَفُّ، فَلَمَّا خَرَجْتُ قَرَأْتُ الْكِتَابَ فَإِذَا فِيهِ: إِذَا قَرَأْتَ كِتَابِي هَذَا فَاسْتَأْذِنْ إِلَى ضِيَاعِكَ^(٢) بِالرَّيِّ. فَرَجَعْتُ فَاسْتَأْذَنْتُ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، ضِيَاعِي بِالرَّيِّ قَدْ اخْتَلَّتْ، وَلِي حَاجَةٌ إِلَى مَطَالَعَتِهَا، فَقَالَ: لَا، وَلَا كِرَامَةٌ! فَخَرَجْتُ، ثُمَّ عَدْتُ إِلَيْهِ الْيَوْمَ الثَّانِي فَكَلَّمْتُهُ، فَرَدَّ عَلَيَّ مِثْلَ الْجَوَابِ الْأَوَّلِ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَهَلْ أَنَا وَمَالِي إِلَّا مِنْ نِعْمَتِكَ! حَقَنْتَ دَمِي، وَرَدَدْتَ عَلَيَّ مَالِي، وَآثَرْتَنِي بِصَحْبَتِكَ، فَقَالَ: إِنَّهُ يَهْجَسُ فِي نَفْسِي أَنَّ الْمَرَّارَ بْنَ جَهْوَرٍ يَهْمُ بِخَلْعِي، وَلَيْسَ لِي غَيْرُكَ؛ لِمَا أَعْرِفُ بَيْنَكُمَا، فَأَظْهَرُ إِذَا صَرْتُ إِلَيْهِ الْوَقِيعَةَ فِيَّ، وَالتَّنْقُصَ لِي حَتَّى تَعْرِفَ مَا عِنْدَهُ، فَإِذَا رَأَيْتَهُ يَهْمُ بِخَلْعِي، فَارْتَبِطْ إِلَيَّ؛ وَلَا تَكْتَبَنْ عَلَى بَرِيدٍ وَلَا مَعَ رَسُولٍ، وَلَا يَفُوتُنِي خَبْرُكَ فِي كُلِّ يَوْمٍ. فَقَدْ نَصَبْتُ لَكَ فَلَانًا الْقَطَانَ فِي دَارِ الْقَطْنِ، فَهُوَ يُوَصِّلُ كُتُبَكَ.

قال: فَمَضَيْتُ حَتَّى أَتَيْتُ الرَّيَّ، فَدَخَلْتُ عَلَى مَرَّارٍ، فَقَالَ: أَفَلَتْ! قُلْتُ: نَعَمْ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ. ثُمَّ أَقْبَلْتُ أَوَّانِسَهُ بِالْوَقِيعَةِ فِي الْمَنْصُورِ؛ حَتَّى أَظْهَرَ مَا كَانَ الْمَنْصُورُ ظَنًّا بِهِ.

فَكَتَبْتُ إِلَيْهِ بِذَلِكَ، فَلَمَّا وَصَلْتُ مِنْهُ إِلَى مَا أَرَدْتُ أَتَيْتُ ضِيَاعِي، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَيْهِ بَعْدَ أَيَّامٍ، فَقَالَ: نَجَّاكَ اللَّهُ مِنَ الْفَاجِرِ! قُلْتُ: نَعَمْ، وَأَرْجُو إِلَّا تَقَعَ عَيْنُهُ عَلَيَّ أَبَدًا، فَكُنْتُ أَعْرِضُ بِهِ فَيُزِيدُنِي مِمَّا عِنْدَهُ، ثُمَّ قَالَ لِي: هَلْ لَكَ أَنْ نَخْرُجَ إِلَى مَتْنَزَةٍ طَيِّبَةٍ؟ قُلْتُ: نَعَمْ؛ فَخَرَجْتُ أَنَا وَهُوَ نَتْسَايِرُ حَتَّى صَرْنَا إِلَى مَوْضِعٍ مُشْرِفٍ قَدْ بَنِيَتْ لَهُ عَلَيْهِ قَبَّةٌ، فَأَحَدُ النَّظَرِ إِلَى مَا هُنَاكَ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا بُدَيْلٍ، أَتَرَى الْفَاجِرَ يَظُنُّ أَنِّي أَعْطِيهِ طَاعَةً أَبَدًا مَا عَشْتُ! أَشْهَدُ أَنِّي خَلَعْتُهُ كَمَا خَلَعْتُ خُفِّي هَذَا مِنْ رِجْلِي.

قال: فَرَجَعْتُ إِلَى مَنْزِلِي، وَأَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ أَكْتُبُ بِخَبْرِهِ، قَالَ: وَقَدْ كُنْتُ

(١) النوبهار: بيت النار.

(٢) ك: «ضياعي»، والصواب ما أثبت.

أعددت تسعة فرسان من بني يَرْبُوع، ورجلاً من بني أسد، فواطأنهم أن نبطش^(١) به، وكتبت إلى المصمغان^(٢) أن يأتيه في جنده إلى الموضع الذي اتفقنا عليه.

قال: وأخذ المزار الدواء في ذلك اليوم، وسبق إليه الأسدي بالخبر، وقال: احذر؛ فقد اتُّخذ لك كيت وكيت. قال: فدخلت عليه، فإذا هو على كرسي، فعرفت الشر في وجهه والمنكر في نظره، فقال: هيه يا أبا بُدِيل! مع إكرامي لك أردت أن تقتلني؟ قال: فتضاحكتُ وقلت: بلغ من مكره أن دس إليك^(٣) هذا الأسدي! لقد عملتُ فيك حيلته. ثم حرَّكه بطنه فقام إلى الخلاء، وقال: لا ترم، فلما ولَّى وثبتُ وخرجتُ مسرعاً، فقال الحاجب: أسرع! قلت: نعم في حاجة للأمير، وركبت فرسي، فرأيتُ القوم قد وافوا كلُّهم إلا الأسدي، فعلمتُ أنه صاحبي، فلما خرج سأل عتي فأخبر بمضيي، فوجه خيلاً في طلبي، فمال اليربوعيون فدفعوهم، ومضيتُ حتى صرْتُ إلى المصمغان، وكتبت إلى أبي جعفر المنصور كتاباً مكشوفاً، فكتب: إني قد عرفتُ ما وصفته، وقد صحَّ الأمر. ثم كتب إلى خازم بن خزيمة، فصار إليه حتى أخذه.



علي بن بُريهة الهاشمي، قال: قال صاحب عذاب أبي جعفر: دعاني أبو جعفر المنصور ذات يوم، وإذا بين يديه جارية صفراء، وقد دعا لها بأنواع العذاب، وهو يقول لها: ويلك! اصدقيني، فوالله ما أريد إلا الألفة، ولئن صدقتني لأصلنَّ الرِّجَم، ولأتابعنَّ البرَّ إليه، وإذا هو يُسائلها عن محمد بن عبد الله، وهي تقول: ما أعرف مكانه، ودعا بالدهق^(٤) وأمر به فوضِعَ عليها، فلما كادت نفسها أن تتلف قال: أمسكوا عنها، وكره ما رأى، وقال لأصحاب العذاب: ما دواء مثلها إذا صار إلى مثل حالها؟ قالوا: الطيب تشمه، والماء البارد يُصب على وجهها، وتُسقى السَّويق. فأمر لها بذلك، وعالج بعضه بيده، وقال لأصحاب العذاب: ألا أعلمتموني بما ينالها فأكف عنها! قالوا: قد علمنا أنها لا تقوى على هذا، ولكنَّا هيناك؛ فما زالوا يرددون عليها نفسها حتى أفاقَتْ، وأعاد عليها المسألة، فأبت إلا الجُحود، فقال لها: أتعرفين فلانة الحِجامة؟ فاسودَّ وجهها

(١) ك: «يبطش».

(٢) ل: «المصمغان»، ك: «المصمغان» وما أثبتته من الطبري.

(٣) ك: «عليك».

(٤) الدهق: خشبتان يغمز بهما ساقا المجرمين.

وتغيّرت، وقالت: نعم يا أمير المؤمنين، تلك في بني سليم، قال: صدقت! هي والله أمتي ابتعتها بمالي، ورزقي يُجرى عليها في كل شهر، وكسوه شتائها وصيفها علي، أمرتها أن تدخل منازلكم وتحجمكم وتتعرّف أخباركم. ثم قال: أو تعرفين فلاناً البقال؟ قالت: نعم، هو في بني فلان، قال: هو والله مُضاربٍ بخمسة دنانير، أمرته أن يتّاع بها كل ما يحتاج إليه من البُيوع، فأخبرني أنّ أمةً لكم يوم كذا وكذا، من شهر كذا، صلاة المغرب، جاءت تسأله حناء^(١) وورقاً، فقال لها: ما تصنعين بهذا؟ فقالت: كان محمد بن عبد الله في بعض ضياعه بناحية البقيع وهو يدخل الليلة، فأردنا هذا لتتخذ منه النساء ما يحتجن إليه عن دخول أزواجهن من المغيّب. فأسقط في يدها، وأذعنّت لكل ما أراد.



قيل: وإنّ أبا جعفر كتب في حمل عبد الله بن الحسن وأهل بيته من المدينة إلى حضرته، فلما أخرجوا كثر عليهم البكاء، فقال عبد الله: أفيقوا من البكاء، وأوغلوا في الدعاء، فإني أشهد الله على ما أردت من إحياء الحق وإماتة الباطل؛ فجرى القدر بما جرى، فجداي^(٢) الحسن والحسين قُتلا بسمّ وسيف، فالحمد لله الذي جعل مَنايانا جهاداً، ولم يجعلها^(٣) مهاداً.



وأخبرنا إبراهيم بن السّندي بن شاهك^(٤) - وكان من العلماء بأمر الدولة - قال: قال لي المأمون: نُبئت أنّك عالم بأمر الدولة ورجال الدعوة. قلت: ذلك الذي يلزمني يا أمير المؤمنين بعد الفرض، أن أعرف أيام موالي ومحاسن ساداتي. قال: فهات ما عندك، ثم أنشأ يحادثني^(٥) ويسألني عن أمور خفية لم تخطر ببالي قطّ، فكان منها أن قال: ما اسم أمّ قحطبة بن شبيب؟ قلت: لا أعلم، قال: لبابة بنت سنان، ثم قال: ما اسم أبي عون؟ قلت: لا أدري، قال: فلان، فوالله ما زال يسألني عن خفيّ أمر الدولة، ولا يجد عندي جواباً، ولا يزيّدني على أن تبسم^(٦)، فكلّما فعل ذلك زاد في عيني وضعفت عند نفسي. قال: فكان آخر ما قال: أخبرك أنّ بعض أهلنا ذات يوم رأَتْ وهي حاملٌ مُتِمّ، كأنه أتاها آت في منامها، فقال لها: يولّد في هذه الليلة خليفة،

(٢) ط: «فجدي».

(٤) ك: «الشاهك».

(٦) ل: «ابتسم».

(١) ك: «عن حناء».

(٣) ك، ل: «يجعلها».

(٥) ل: «يحدثني».

ويموت خليفة، ويُستَخْلَف خليفة. فمات الهادي في تلك الليلة، واستخلف الرشيد، وولدت أنا.



وعن إبراهيم بن السُّنْدِيِّ بن شاهك؛ قال: لَمَّا اختار يحيى بن أَكْثَمَ العَشْرَةِ من الفقهاء، وأحضرهم مجلس المأمون لمذاكرة الفقه، جعل له يوماً في الجمعة يحضرون مجلسه، فقال لي المأمون: يا إبراهيم؛ احضر، فليست بدون أكبرهم، فكنت أحضر، وكان قد اختار من أيام^(١) الجمعة يوم الثلاثاء، قال: فحضرت يوماً، فلَمَّا أَمَسَ المأمون عن المسائل نهض القوم - وكان ذلك إذنه بانصرافهم - فوثبت معهم، فقال بيده: مكانك يا إبراهيم، فقعدت، وقام يحيى، وساءه تخلُّفي، فقال لي - ودخل إبراهيم بن المهدي: هات ذِكرٌ من في عسكرنا ممن يطلب ما عندنا بالرياء. فقلت ما عندي؛ وقال إبراهيم ما عنده، فقال: ما أرى عند أحد ما يبلغ إرادتي، ثم أنشأ يحدث عن أهل عسكره؛ حتَّى والله لو كان قد أقام في رَحْل كل رجل حولاً لما زاد على معرفته. وقال: إنه كان ممَّا حفظت عنه في ثَلْب أصحابه أنه قال: تسييح حُميد الطوسي، وصلاة قحطبة، وصيام النُّوشجاني، ووضوء بشر المريسي، وبناء مالك بن شاهك المساجد، وبكاء إبراهيم بن بريهة على المنبر، وجمع الحسين بن قريش التيامي^(٢)، وقصص مرجي، وصدقة علي بن هشام وحملات إسحاق بن إبراهيم في سبيل الله، وصلاة أبي رجاء الضحى. فقال لي رجل من عظماء العسكر حين خرجنا من الدار: هل رأيت أو سمعت قط ملكاً أعلم برعيته وأشد تنقيراً من هذا؟ قلت: اللهم لا، فحدثت بهذا الحديث بعض أهل الخطر. فقال: وما تصنع بهذا، وقد كتب إلى إسحاق بن إبراهيم في الفقهاء بمعايهم رجلاً رجلاً، حتى إنه أعلم بما في منازلهم منهم!



قال: وحدَّثنا سليمان بن علي النوفلي. قال: سمعت عمرو بن مسعدة يقول: قال لنا المأمون يوماً من الأيام: من أنبل من تعلمون نبلاً، وأعفهم عفة؟ قال: فقلنا وأكثرنا، فبعضنا مدحه وقرظه وقدمه على كل خليفة وإمام، وعددنا ما نعرف من مكارم الأخلاق. فقال: ما كمال المناقب إلا لبني هاشم، غير أننا لم

(١) ك: «جعل من أيام».

(٢) كذا في ك، وفي ل من غير نقط.

نُرْذَهَا، وَلَا أَرَدْنَا خُلَفَاءَنَا؛ قَالَ عَلِيٌّ بْنُ صَالِحٍ: أَعْرِفَ الْقِصَّةَ فِي عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَحِمَهُ اللَّهُ فَأَشَاحَ بَوَجْهِهِ وَأَعْرَضَ، وَذَكَرَ كَلَاماً لَيْسَ مِنْ جِنْسِ هَذَا الْكِتَابِ فَنَذَرُهُ؛ ثُمَّ قَالَ: ذَاكَ وَاللَّهِ أَبُو الْعَبَّاسِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاهِرٍ؛ دَخَلَ مِصْرَ وَهِيَ كَالْعُرُوسِ الْكَامِلَةِ؛ فِيهَا خَرَّاجُهَا، وَبِهَا أَمْوَالُهَا جَمَّةٌ، ثُمَّ خَرَجَ عَنْهَا، فَلَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَخْرُجَ عَنْهَا بِعَشْرَةِ آلَافِ دِينَارٍ لَفَعَلَ؛ وَلَقَدْ كَانَ لِي عَلَيْهِ عَيْنٌ تَرَعَاهُ، فَكَتَبَ إِلَيَّ أَنَّهُ عُرِضَتْ عَلَيْهِ أَمْوَالٌ لَوْ عُرِضَتْ عَلَيَّ أَوْ بَعْضُهَا لَشَرِهْتُ إِلَيْهَا نَفْسِي، فَمَا عَلِمْتُهُ خَرَجَ عَنْ ذَلِكَ الْبَلَدِ إِلَّا وَهُوَ بِالْصِّفَةِ الَّتِي قَدِمَ عَلَيْهَا^(١)، إِلَّا مَائَةَ ثَوْبٍ وَحِمَارَيْنِ وَأَرْبَعَةَ أَفْرَاسٍ^(٢)، فَمَنْ رَأَى أَوْ سَمِعَ بِمِثْلِ هَذَا الْفَتَى فِي الْإِسْلَامِ! فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَهُ غَرَسَ يَدِي، وَخَرِيجَ نِعْمَتِي!



وَقَالَ بَشَرُ بْنُ الْوَلِيدِ: كَانَ وَاللَّهِ الْمَأْمُونُ الْمَلِكُ حَقًّا، مَا رَأَيْتُ خَلِيفَةً قَطُّ كَانَ الْكَذِبُ عَلَيْهِ أَشَدَّ مِنْهُ عَلَى الْمَأْمُونِ؛ وَكَانَ يَحْتَمِلُ كُلَّ آفَةٍ تَكُونُ بِالْإِنْسَانِ إِلَّا الْكَذِبَ. قَالَ: فَقَالَ لِي يَوْمًا: صِفْ لِي أَبَا يُوسُفَ الْقَاضِي فَإِنِّي لَمْ أَرَهُ. فَوَصَفْتُهُ لَهُ، فَاسْتَحْسَنَ صِفَتَهُ، وَقَالَ: وَدِدْتُ أَنْ مِثْلَ هَذَا بِحَضْرَتِنَا فَتَنْزِلَ بِهِ. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ وَقَالَ: مَا فِي الْخِلَافَةِ شَيْءٌ إِلَّا وَأَنَا أَحْسِنُ أَنْ أَدْبِرَهُ وَأَبْلَغُ مِنْهُ حَيْثُ أُرِيدُ وَأَقْوَى عَلَيْهِ، إِلَّا أَمْرَ أَصْحَابِكَ - يَعْنِي الْقَضَاةَ - وَمَا ظَنُكَ بِشَيْءٍ يَتَحَرَّجُ مِنْهُ عَلِيُّ بْنُ هِشَامٍ، وَيَتَوَقَّى سُوءَ عَاقِبَتِهِ وَيَكَالِبُ عَلَيْهِ الْفُقَهَاءَ وَأَهْلَ التَّصَنُّعِ! قَالَ: قُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا أَدْرِي مَا تَقْصِدُهُ فَأَجِيبْ عَنْهُ؟ قَالَ: لَكِنِّي أَذْرِيهِ وَأُذْرِيكَ، وَلَا وَاللَّهِ مَا تَجِيبُنِي عَنْهُ وَلَا فِيهِ بِجَوَابٍ مَقْنِعٍ. ثُمَّ قَالَ: وَلَيْنَا رَجُلَانِ أَشْرَتَ بِهِ قِضَاءَ الْأُبُلَّةِ، وَأَجْرَيْنَا عَلَيْهِ فِي الشَّهْرِ أَلْفَ دِرْهَمٍ، وَمَا لَهُ صِنَاعَةٌ وَلَا تِجَارَةٌ، وَلَا كَانَ لَهُ مَالٌ قَبْلَ وَلَايَتِنَا إِيَّاهُ... وَوَلَيْنَا رَجُلًا آخَرَ، قِضَاءً دِمَشْقَ. وَأَجْرَيْنَا عَلَيْهِ أَلْفَ دِرْهَمٍ فِي الشَّهْرِ، أَشَارَ بِهِ إِلَيَّ مُحَمَّدُ بْنُ سَمَاعَةَ. فَأَقَامَ بِهَا أَرْبَعَةَ عَشَرَ شَهْرًا. فَوَجَّهْنَا مِنْ يَتْبَعِ أَمْوَالَهُ فِي السِّرِّ وَالْعِلَانِيَةِ، وَيَتَعَرَّفُ حَالَهُ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ وَجَدَ مَا ظَهَرَ مِنْ مَالِهِ فِي هَذَا الْمِقْدَارِ مِنْ دَابَّةٍ وَغِلَامٍ وَجَارِيَةٍ وَفُرْشٍ وَأَثَاثٍ، قِيمَتُهُ ثَلَاثَةُ آلَافِ دِينَارٍ، وَوَلَيْنَا رَجُلًا أَشَارَ بِهِ إِلَيَّ فَلَانَ نِهَازَنْدَ، فَأَقَامَ بِهَا أَرْبَعَةَ وَعِشْرِينَ شَهْرًا، فَوَجَّهْنَا مِنْ يَتْبَعِ أَمْوَالَهُ، فَأَخْبَرَنَا أَنَّ فِي مَنْزِلِهِ خَدَمًا وَخِصْيَانًا بِقِيَمَةِ أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةِ دِينَارٍ؛ سِوَى نَتَاجٍ قَدْ اتَّخَذَهُ. فَهَاتِ مَا عِنْدَكَ مِنَ الْجَوَابِ. فَقُلْتُ: مَا عِنْدِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ جَوَابٌ.

(١) ل: «التي قدمه فيها».

(٢) ك: «أقواس».

قال: ألم أعلمك! ثم قال: وأكبر من هذا وأطمّ أني فزعتُ إلى عليّ بن هشام في رجل أولّيه القضاء، فقال: قد أصبتُ واحداً، واللّه يشهد أنه سرّني، ورجوتُ أن يكون بحيث أحبّ. قلتُ: فاعُدْ به عليّ. قال: أفعلُ، ثم عداً، فقلت: أين الرجل؟ فقال: لم أجده في الفقه بالموضع الذي يجب أن يتصل صاحبه بأمر المؤمنين، قال: فأنكرت عليه. وأظهرتُ الغضب، فقال: يا أمير المؤمنين. إن الرجل الذي ذكرته لك بالأمس، هو عليّ بن مقاتل. وكان عندي من أهل العفاف والستر. فانصرفتُ بالأمس على أن أحضره. فوجهتُ إليه وأنا لا أشك أنه سيظهر الكراهية فيما أراد له أمير المؤمنين. وإن كان يستبطن غيرها ويستعفي؛ كفعل من يتصنع أو يكره ذلك بالحقيقة. فلما جاءني ألقى إليّ الذي أردته له. فما تمالك أن وثب فقبل رأسي. فعلمتُ أنه لا خير عنده، وأنه لو كان من أهل الفضل والخير لعدّ الذي دُعِيَ إليه إحدى المصائب. فلم أرَ لنفسي أن أحضره، ولا أن يستعان بمثله. فقلت: جزاك الله خيراً عن إمامك أحسن ما جرى أمراً عن إمامه. وعن دينك ونفسك.

قال بشر: فبهتُ وانقطعتُ ولم أجز كلمة^(١) فقال: لا، ولكن إن أردت العفيفَ النظيفَ الزاكيَ التقيَّ الطاهر؛ فقاضي الرّي، هو بالحالة التي فارقه عليها، واللّه ما غير ولا بدل. فأما قولهم في يحيى بن أكثم، فما ندري ما عيبه، إلا أن ظاهره أنه أعف خلق الله عن الصفراء والبيضاء، حمل إلينا من أموال الحشرية^(٢) أربع مائة ألف دينار، فأَي نفس تسخو بهذه!

قال بشر: فقلت: يا أمير المؤمنين، ما لك في الخلفاء شبيه إلا عمر بن الخطّاب، فإنه كان يفحص عن عمّاله، وعن دفين أسرار حكامه فحصاً شافياً، فكان لا يخفي عليه ما يُفيد كلّ امرئ وما يُنفق، وكان من نأى عنه كمن دنا منه في بحثه وتنقيره. فقال المأمون: إن أهمّ الأمور كلّها أمور القضاة والحكام؛ إذ كنّا قد ألزمناهم النظر في الدماء والأموال والفروج والأحكام، فوددتُ أني أجد مائة حاكم، وأنّي أجوع يوماً وأشبع يوماً.



حمدون بن إسماعيل النديم، قال: حضر العيدُ، فعباً المعتصم باللّه خيله

(١) لم أحر: لم أرد.

(٢) الحشرية: الأموال التي تضاف إلى بيت المال من التركات التي لا وارث لها؛ أخذت من كلمة حشر، بمعنى «جمع» دوزي ١: ٢٩٠.

تعبئة لم يُسمع بمثلهما، ولم يُر لأحد من ولد العباس شبيه^(١) بها، وأمر بالطريق فمسح من باب قصره إلى المصلّى، ثم قسم ذلك على القوّاد، وأعطى كلّ واحد منهم مَصَافَه، فلما كان قبل الفطر بيوم، حضر القوّاد وأصحابهم في أجمل زِيٍّ^(٢) وأحسن هيئة، فلزموا مصافهم منذ وقت الظهر إلى أن ركب المعتصم بالله إلى المصلّى، فكان الموضع الذي وقع لإبراهيم بن المهدي من بعد الحرسيّ بحذاء مسجد الخوّارزَميّ، وإبراهيم واقف وأصحابه في المصاف، فلما أصبح المعتصم أمر القوّاد الذين لم يرتّبوا في المصاف بالمصير إلى المصلّى على التعبئة التي حدّها، ولبس ثيابه، وجلس على كرسيّ ينتظر مُضَيّ القوّاد، فلما انقضى أمرهم، تقدّم إلى الرّجالة في السير بين يديه، فتقدّم منهم سبعة آلاف ناشب من الموالي، كلّ ثلاثمائة منهم في زِيٍّ مخالفٍ لزيّ الباقين، وأربعة آلاف من المغاربة، وأمر الشيعة فكانوا وراءه بالأعمدة، وعدّتهم أربعة آلاف، وركب لا أدري منزلتي أين هي، ولا أعرف مرتبتي، ولم أعلم أين أسيّر من الموكب! فلما وُضع رجله في الركاب، واستوى على سرّجه، التفت إليّ وقال: يا حمدون، كن أنت خلفي. فلزمت مؤخّر دابّته، فلما خرج من باب القصر تلقاه القوّاد وأصحاب المصاف^(٣)، يخرج الرجل من مَصَافَه، فإذا قرب نزل وسلّم عليه بالخلافة، فيأمره بالركوب، ويمضي^(٤)، حتى وصل إلى إبراهيم بن المهدي، فنزل وسلّم عليه بالخلافة، فردّ عليه السلام، فقال: كيف أنت يا إبراهيم؟ وكيف حالك؟ وكيف كنت في أيّامك؟ اركب. فركب، فلما جاوزه التفت إليّ وقال: يا حمدون، قلت: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: تذكر! قلت: إي والله يا سيّدي، وأمسك، فنظرت^(٥) فيما قال، فلم أجدني أذكر شيئاً في ذلك الموضع ممّا يشبه ما كنّا فيه، فنغص عليّ يومي، وما رأيت من حسنه وسروري بالمرتبة التي أهّلني بها. وقلت: الخلفاء لا يعاملون بالكذب، ولا يجوز أن يسألني عند انصرافه عن هذا الأمر. فلا يكون له عندي جواب ولا حقيقة، وتخوّفت أن ينالني منه مكروه. فلم أزل واجماً في طريقي إلى وقت انصرافه، ثم أجمعت على مغالطته إن أمكنني، وأعمل الحيلة في التخلص أن يسألني.

فلما استقرّ في مجلسه وبُسط السّماط، وجلس القوّاد على مراتبهم للطعام؛ أقبلتُ أخدم وأختلف، ليست لي همّة غير ما كان قاله لي، لا أغفل عن ذلك.

(١) ك: «مثلهما».

(٢) ك: «زينة».

(٣) ك، ل: «المصاحف».

(٤) ك: «ومضى».

(٥) ك: «ففكرت».

حتى انقضى أمر السَّماط ورُفِع السَّتر، ونهض أمير المؤمنين ودخل الحُجرة ومضى إلى المَرقد، فلم ألبث أن جاء الخادم وقال لي: أجب أمير المؤمنين.

فمضيتُ، فلما دخلتُ ضحك إليّ وقال: يا حمدون، رأيتَ! قلت: نعم يا سيدي، قد رأيتُ، فالحمد لله الذي بلغ بي هذا اليوم وأرانيه؛ فما رأيت ولا سمعتُ لأحدٍ من الخلفاء والملوك بأجلّ منه ولا أبهى ولا أحسن. قال: ويحك! رأيتَ إبراهيم بن المهديّ! قلت: نعم يا سيدي؛ قال: رأيتَ سلامه عليّ وردّي عليه ونزوله إليّ؟ قلت: نعم. فقال: إنّه لما كان من أمره ما كان - يعني الخلافة - قسم الطريق في يوم عيد من منزله إلى المصلّى، كقسمتي إياه في هذا اليوم بين قُوداه، فوقع موضعي منه الموضع الذي كان به هذا اليوم، فلما حاذاني نزلتُ فسَلَّمَت عليه، فردّ عليّ مثلاً ما رددته حرفاً حرفاً على ما قال لي.

قال: فدعوتُ له، وانفرج عنيّ ما كنتُ فيه، وتخلّى عنيّ الغمّ والكرب، ثم قال: يا حمدون، إنني لم أكل شيئاً، وأنا أنتظر أن تأكلَ معي، فامضِ إلى حُجرة النُدماء، فإنك تجد إبراهيم هنالك، فاجلس إليه وعابثه وضاحكه وأجر له هذا الحديث. وقل له: إنك رأيتَه في ذلك اليوم فَعَل بي فِعْلي به في هذا اليوم، وانظر إلى وجهه وكلامه، وما يكون منه فعرفنيهِ على حقيقته، واصدُقني عنه وعَجَل ولا تحتبس.

قلت: نعم يا سيدي، فمضيتُ وقد دُفِعت إلى أغلظ ممّا كنتُ فيه؛ لِعلمي بأنّ إبراهيم لو كان من حجرٍ لأثّر فيه هذا القول، وتغيّر وظَهَر منه ما يكره. وخِفْتُ أن يأتي^(١) بما يُسَفِّك به دمه، فمضيتُ حتى دخلتُ الحجرة، فجلستُ إلى إبراهيم، وفعلتُ ما أمرني به، وأنا مبادر خَوْفاً من خَادم يلحقني^(٢) أو رسولٍ؛ فلا يُمكنني معه تحسين الأمر وما يظهر لي منه.

فقلت لإبراهيم: كيف رأيتَ يا سيدي هذا اليوم؟ أما أعجَبَك حسنه، وما كان في تعبِة أمير المؤمنين! قال: بلى والله، إنه أعجبني، فالحمد لله الذي بلّغنيهِ وأرانيه؛ وأطنب في الدعاء للمعتصم، فلما أمسك قلتُ: يا سيدي، أذكرك في أيامك، وقد ركبَت فَعِيَّت شبيهاً بهذه التَّعبية، وقسمت الطريق مثلاً هذه القسمة، فوقع لأمر المؤمنين الموضع الذي وقع لك، واجتزت به فنزل إليك وسلّم، فرددت عليه كردّه عليك في هذا اليوم؟ قال: فوالله إن كان إلا أن قلتُ؛ حتى اربدّ

(١) ل: «أن يكون يأتي».

(٢) ك: «أن يلحقني».

لونه، وجف ريقه، واعتقل لسانه، وبقي لا يتكلم بحرف ملياً، ثم قال بلسان ثقيل: لكأنني في ذلك الموضع في ذلك اليوم! فالحمد لله الذي رأيته لأمر المؤمنين، فعل الله به وفعل!

قال: فتغنمت ذلك، وقمت وأنا ألتفت، ونهضت حتى أتيت المعتصم، فقال لي: هيه يا حمدون! فقلت: يا أمير المؤمنين، أتيت إبراهيم وقلت له ما أمرتني به، فأظهر سروراً ودعاءً، وقال كيت وكيت، فقال: والله قال بحياتي! قلت: وحياتك يا أمير المؤمنين! قال: فكيف رأيته وجهه؟ فلم أدر ما أقول؛ فقلت: يا أمير المؤمنين، بالله لما تركتني من وجه عمك الذي لا يتبين فيه فرح ولا حزن! فاستضحك، ثم أمسك.

وتخلص إبراهيم، ودعا بالطعام فأكلنا، ثم رقد فلما انتبه وجلس، دعا بإبراهيم وسائر الندماء، فشرب وبر إبراهيم وأطفه.

مساویء التّیقّظ وترکه

قیل^(۱) لبعض بني أمية: ما كان سبب زوال مُلکِهم؟ فقال: قلّة التّیقّظ، وشُغلنا بلذاتنا عن التفرغ لمهمّاتنا، وَوَثِقْنَا بِكُفَاتِنَا فَأَثَرُوا مِرَافِقَهُمْ عَلَيْنَا. وَظَلَمَ عُمَالُنَا رَعِيَّتَنَا فَفَسَدَتْ نِيَّاتُهُمْ لَنَا. وَحُمِلَ عَلَى أَهْلِ خِرَاجِنَا؛ فَقَلَّ دُخْلُنَا، وَبَطَلَ عَطَاءُ جُنْدِنَا فَزَالَتْ طَاعَتُهُمْ لَنَا، وَاسْتَدْعَاهُمْ أَعْدَاؤُنَا فَأَعَانُوهُمْ^(۲) عَلَيْنَا، وَقَصَدْنَا بَغَائُنَا، فَعَجَزْنَا عَنْ دَفْعِهِمْ لِقَلَّةِ أَنْصَارِنَا^(۳). وَكَانَ أَوَّلَ زَوَالِ مُلْكِنَا اسْتِتَارُ الْأَخْبَارِ عَنَّا فَزَالَ مُلْكُنَا عَنَّا بِنَا.

(۱) ك: «وقيل».

(۲) ك، ل: «فَعَانُوهُمْ»، تصحيف.

(۳) ل: «نصارنا»، وما أثبتته من ك.

محاسن الرُّسل

يقال: إِنَّ ملوك العجم كانت إذا احتاجت إلى أن تختار من رعيّتها مَنْ تجعله رسولاً تمتحنه أولاً؛ بأن تُوجَّهه إلى بعض خاصّتها، ثم تقدّم عيّناً على الرسول يحضر ما يؤدّيه من الرسالة، ويكتبُ كلامه، فإذا رجع الرسول بالرسالة، جاء العين بما كتب من ألفاظه وأجوبته، فقابلَ بها الملك ألفاظ ذلك الرسول، فإن اتفقت معانيها عَرَفَ بها الملكُ صحّة عقله، وصدّق لهجته، ثم جعله رسولاً إلى عدوّه، وجعل عليه عيّناً يحفظ ألفاظه ويكتبها، ثم يرفعها إلى الملك، فإن اتَّفَقَ كلامُ الرسول وكلام عَيْنِ الملك وعَلِمَ أَنَّ رسوله قد صدّقه عن عدوّه ولم يزد عليه، جعله رسولاً إلى ملوك الأمم، ووثق به، ثم بعد ذلك يقيم خبره مقام الحجّة، ويصدّق قوله.

وكان أردشير يقول: كم من دم سفكهُ الرسولُ من غيرِ حلٍّ ولا حقٍّ! وكم من جيوش قد قُتِلَتْ وعساكرٌ قد انتهكتُ، ومالٌ قد انتهب، وعهدٌ قد نُقضَ بجناية الرسول وأكاذيبه!

وكان يقول: على الملك إذا وجّه رسولاً إلى ملكٍ آخر أن يُردِّفه بآخر، وإن وجّه رسولَيْن أتبعهما^(١) بآخرين، وإن أمكّنه ألاّ يجمع بينهما في طريق ولا ملاقة، وألاّ يتعارفا فيتفقا ويتواطأ في شيء، فعل.

ثم عليه إن أتاه رسولٌ بكتاب أو رسالة من ملكٍ في خير أو شرٍّ ألاّ يحدث حَدَثاً في ذلك حتى يكتب إليه مع رسولٍ آخر، ويحكي به^(٢) كتابه الأول حرفاً حرفاً، فإن الرسول ربّما خرم ما أملَّ عليه، وافتعل الكتب، وحرّض المرسل على المرسل إليه، وأغراه به، وكذّب عليه، ومنها قال أبو الأسود، وقد سمع رجلاً يُنشد:

إذا كنتَ في حاجةٍ مُرسِلاً فأرسل حكيماً ولا توصِه

(١) ك: «أن يتبعهما».

(٢) ك: «له».

فقال: قد أساء القول، أيعلم الغيب إذا لم يوصه! كيف يعلم ما في نفسه!
ألا قال:

إذا أرسلتَ في أمرٍ رسولاً فأفهمه وأرسله أديبا
ولا تتركُ وصيتهَ لشيء وإن هو كان ذا عقل أريبا
وإن ضيَّعت ذاك فلا تلمه على أن لم يكن علم الغيوباً^(١)
وقال يحيى بن خالد البرمكي: ثلاثة أشياء تدلُّ على عقول الرجال: الهدية،
والرسول، والكتاب.

(١) الخبر في الأغاني ١٦: ٨٢، ٨٣ عن حماد الراوية على هذا النحو: أنشدت أبا عطاء السندي
في أثناء حديث هذا البيت فقال:

إذا كنتَ في حاجة مرسلاً فأرسل حكيماً ولا توصه
فقال أبو عطاء: بئسما قال! فقلت: كيف تقول أنت؟ قال أقول:
إذا أرسلتَ في أمرٍ رسولاً فأفهمه وأرسله أديباً
وإن ضيَّعت ذاك فلا تلمه على أن لم يكن علم الغيوباً

مَسَاوِيءُ الرَّسُولِ

وَحُكِّيَ عَنِ الْإِسْكَندَرِ أَنَّهُ وَجَّهَ رَسُولاً إِلَى بَعْضِ مَلُوكِ الْمَشْرِقِ، فَجَاءَهُ رَسُولُهُ بِرِسَالَةٍ فَشَكَّ فِي حَرْفِ مِنْهَا، فَقَالَ لَهُ الْإِسْكَندَرُ: وَيْحَكَ! إِنَّ الْمُلُوكَ لَا تَخْلُو مِنْ مَقُومٍ وَمَسَدَّدٍ إِذَا مَالَتْ بَطَانَتُهَا؛ وَقَدْ جِئْتَنِي بِرِسَالَةٍ صَحِيحَةِ الْأَلْفَاظِ بَيْنَ الْعِبَارَةِ، غَيْرَ أَنَّ فِيهَا حَرْفاً يَنْقُضُهَا^(١)، أَفَعَلَى يَقِينٍ أَنْتَ مِنْ هَذَا الْحَرْفِ أَوْ أَنْتَ شَاكٌّ فِيهِ؟ فَقَالَ الرَّسُولُ: بَلْ عَلَى يَقِينٍ. قَالَ: فَأَمَرَ الْإِسْكَندَرُ أَنْ تُكْتُبَ الْأَفَظُ حَرْفاً حَرْفاً، وَتَعَادَ إِلَى الْمَلِكِ مَعَ رَسُولٍ آخَرَ، فَيَقْرَأَ عَلَيْهِ وَيَتَرْجِمَ لَهُ، فَلَمَّا قَرَأَ الْكِتَابَ عَلَى الْمَلِكِ؛ فَمَرَّ بِذَلِكَ الْحَرْفِ أَنْكَرَهُ، فَقَالَ لِلْمُتَرْجِمِ: ضَعْ يَدِي عَلَى هَذَا الْحَرْفِ، فَوَضَعَهَا، فَأَمَرَ أَنْ يَقْطَعَ ذَلِكَ الْحَرْفَ بِسَكِينٍ، فَقَطَعَ مِنَ الْكِتَابِ، وَكُتِبَ إِلَى الْإِسْكَندَرِ: رَأْسُ الْمَمْلَكَةِ صَحَّةُ فِطْنَةِ الْمَلِكِ، وَأَسُّ الْمُلْكِ^(٢) صَدَقَ لَهْجَةُ رَسُولِهِ؛ إِذْ كَانَ عَنِ لِسَانِهِ يَنْطِقُ، وَإِلَى أُذُنِهِ يُؤَدِّي، وَقَدْ قَطَعْتُ بِسَكِينِي مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ كَلَامِي؛ إِذْ لَمْ أَجِدْ إِلَى قَطْعِ لِسَانِ رَسُولِكَ سَبِيلاً.

فَلَمَّا جَاءَ الرَّسُولُ بِهَذَا إِلَى الْإِسْكَندَرِ، دَعَا الرَّسُولَ^(٣) الْأَوَّلَ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى كَلِمَةٍ أَرَدْتَ بِهَا فُسَادَ مَلِكَيْنِ؟ فَأَقْرَأَ الرَّسُولُ أَنَّ ذَاكَ كَانَ لَتَقْصِيرِ رَأْيِهِ مِنَ الْمَوْجَّهِ إِلَيْهِ. قَالَ الْإِسْكَندَرُ: فَأَرَاكَ سَعَيْتَ لِنَفْسِكَ لَا لَنَا، فَلَمَّا فَاتَكَ بَعْضُ مَا أَمَلْتَ جَعَلْتَ ذَلِكَ نَاراً فِي الْأَنْفُسِ الْخَطِيرَةِ الرَّفِيعَةِ.

ثُمَّ أَمَرَ بِلِسَانِهِ فَنَزَعَ. مِنْ قَفَاهُ.

(١) ك: «ينقضها».

(٢) ك: «المملكة».

(٣) ك: «بالرسول».

محاسن الحجاب

يقال: إن ملوك العجم كانت تأخذ أبناءها بأن يعاملوها بما تُعامل به عبيدها، وألا يدخل أحد من الولد عليها إلا عن إذنهما؛ وأن يكون الحجاب عليهم أغلظَ منهم على مَنْ دُونَهُمْ من بطانتها وخدمتها، لئلا تحملهم الدالة على تعدي ميزان الحق؛ فإنه يقال: إن يزدجرد، رأى بهرامَ بموضع لم يكن له، فقال له: مررت بالحاجب؟ قال: نعم، قال: وعلمَ بدخولك؟ قال: نعم، قال: فاخرج إليه فاضربه ثلاثين سوطاً، ونَحّه عن الستر، ووكل بالحجاب أزامرد. ففعل بهرام ذلك، وهو إذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة، ولم يعلم الحاجبُ فيم غضب عليه الملك! فلما جاء بهرام بعد ذلك ليدخل^(١)، دفع أزامردُ في صدره دفعةً أوقدته^(٢) منها، وقال له: إن رأيتك بهذا الموضع ضربتُك ستين سوطاً لجنايتك على الحاجب الأول، وثلاثين لئلا تطمع في الجناية عليّ. فبلغ ذلك يزدجرد، فدعا بأزامرد، فخلع عليه ووصله.



ويقال: إن يزيد بن معاوية كان بينه وبين أبيه باب، فكان إذا أراد الدخول عليه قال لبعض جواريه: انظري هل تحرّك أمير المؤمنين؟ فجاءت الجارية حتى فتحت الباب، ومعاوية قاعدٌ في حجره مُصَحَف، وبين يديه جاريةٌ تصفح^(٣) عليه، فأخبرت يزيدَ بذلك، فجاء يزيد حتى دخل على معاوية، فقال: يا بُني، إنما جعلتُ بيني وبينك باباً كما بيني وبين العامة؛ لتدخل عليّ وقت إذنك، فهل ترى أحداً يدخل عليّ من ذلك الباب؟ قال: لا؛ قال: فكذلك إذنك.



وذكروا أن موسى الهادي دخل على المهدي وهو خليفة، فزبره^(٤)

(١) ل: «أن يدخل».

(٢) أوقدته: تركه عليلاً.

(٣) ك: «تصفح بذلك».

(٤) ك: «فزجره».

الحاجب، وقال: إِيَّاكَ أَنْ تَعُودَ إِلَى مِثْلِهَا إِلَّا بِإِذْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لَخَاصَّتِهِ!



وذكروا أَنَّ الْمَأْمُونِ لَمَّا اشْتَدَّ بِهِ الْوَجَعُ، سَأَلَ بَعْضُ بَنِيهِ الْحَاجِبَ أَنْ يُدْخِلَهُ عَلَيْهِ لِيَرَاهُ، فَقَالَ: لَا، وَاللَّهِ مَا إِلَيَّ ذَلِكَ سَبِيلٌ، وَلَكِنْ إِنْ شِئْتَ أَنْ تَرَاهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَاكَ، فَاطْلُعْ عَلَيْهِ مِنْ ثَقْبٍ فِي ذَلِكَ الْبَابِ. فَجَاءَ حَتَّى اطَّلَعَ عَلَيْهِ، وَتَأَمَّلَهُ وَانصَرَفَ.



وَحَكِي عَنْ إِيْتَاخِ أَنَّهُ بَصُرَ بِالْوَاتِقِ فِي حَيَاةِ الْمَعْتَصِمِ وَاقِفًا فِي مَوْضِعٍ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَقْرُبَ مِنْهُ، وَلَا أَنْ يَقِفَ بِهِ، فَزَبَرَهُ وَقَالَ: تَنْحَ، فَوَاللَّهِ لَوْلَا أَنِّي لَمْ أَتَقَدَّمْ إِلَيْكَ لَضَرَبْتُكَ مِائَةَ سَوْطٍ.



وكَانَتْ الْأَعَاجِمُ تَقُولُ: مَا شَيْءٌ بِأَضْيَعٍ لِلْمَمْلُوكَةِ، وَلَا أَضْيَعٍ لِلرَّعِيَّةِ مِنْ صَعُوبَةِ الْحِجَابِ، وَلَا شَيْءٌ أَهْيَبَ لِلرَّعِيَّةِ مِنْ سَهُولَةِ الْحِجَابِ، لِأَنَّ الرَّعِيَّةَ إِذَا وَثِقَتْ مِنَ الْوَالِيِّ بِسَهُولَةِ الْحِجَابِ، أَحْجَمَتْ عَنِ الظُّلْمِ، وَإِذَا وَثِقَتْ مِنْهُ بِصَعُوبَةِ الْحِجَابِ، هَجَمَتْ عَلَى الظُّلْمِ، وَرَكِبَ الْقَوِيُّ مِنْهُمْ الضَّعِيفَ، فَخَيْرٌ خِلَالِ السُّلْطَانِ سَهُولَةُ الْحِجَابِ.



قَالَ: وَقَالَ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ: لَا يُحَجَّبُ الْوَالِي إِلَّا لثَلَاثِ خِصَالٍ: إِمَّا رَجُلٌ عَيٌّ فَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ يَعْرِفَ النَّاسُ مِنْهُ ذَلِكَ، وَإِمَّا رَجُلٌ مُشْتَمِلٌ عَلَى سَوْءٍ^(١) فَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ يَطَّلَعَ النَّاسُ عَلَى ذَلِكَ فِيهِ، وَإِمَّا رَجُلٌ يَكْرَهُ مَسْأَلَةَ^(٢) النَّاسِ إِيَّاهُ. قِيلَ: وَاسْتَأْذَنَ أَبُو سَفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ عَلَى عَثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَحِمَهُ اللَّهُ فَحَجَبَهُ، فَقِيلَ لَهُ: حَجَبَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ! فَقَالَ: لَا عَدَمْتُ مِنْ قَوْمِي مَنْ إِذَا شَاءَ حَجَبَنِي^(٣).



قَالَ: وَقَالَ الرَّشِيدُ لِبَشْرِ بْنِ مَيْمُونٍ لَمَّا وَلَّاهُ الْحِجْبَةَ: يَا بَشْرُ، صُنْ طَلَاقَةَ

(١) ك: «سوء».

(٢) ك: «مسألة».

(٣) الخبر في العقد ١: ٧٣.

اسمك بحسن فعلك، واحجب عني من إذا قعد أطل، وإذا طلب أجال فكره، ولا تستخفن بذوي المروءة والحُرمة، فإنهم إن مدحوا تلبؤا، وإن دُموا أزالوا.

وذكروا عن الربيع الحاجب، أنَّ المنصور دعا محمد بن عيسى بن علي إلى الغداء، فقال: يا أمير المؤمنين، قد أكلت. فلما خرج أخذه الربيع، وحمله على ظهر رجل، وضربه كما يضرب الصبيان. فظن أهل بيته أنَّ المنصور أمره بذلك، فخرج يبكي إلى أبيه، فجاء أبوه عيسى بن علي، فخلع سيفه بين يدي المنصور، وصاح، فقال: ما أمرت بذلك، ولم يفعل الربيع ذلك^(١) إلا لأمر، فلما سئل الربيع عن ذلك قال: أمرته أن يتغذى معك، فقال قد أكلت، وإنما دعوته لتشرّفه وترفع منه، ولم تدعه لتشيعه^(٢)، فأدبته إذ لم يؤدبه أبوه، فقال المنصور: أحسنت! قد علمت أنك لا تخطيء.



قال: وقال المهدي للفضل بن الربيع حين ولّاه الحجة: إنني موليك ستر وجهي وكشفه، فلا تجعل السّتر بيني وبين الناس سبب إراقة دماهم بعبوس وجهك في وجوههم، فإنّ لهم دالة الحُرمة وحُرمة الاتصال، وقدّم أبناء الدّعوة، وثنّ بالأولياء، واجعل للعامة وقتاً إذا وصلوا أعجلهم ضيقه عن التلبّث والتمكّث.

وكان أول من حجب الحسن بن عثمان، ثم الفضل بن الربيع، وكان الهادي ولّى حجبته الفضل بن الربيع بعد الربيع، وقال له: لا تحجب عني الناس، فإنّ ذلك يُزيل عني التزكية، ولا تُلقِ إليّ أمراً إذا كشفته وجدته باطلاً، فإنّ ذلك يوهن الملّك، ويضرّ بالرّعية.



قيل: وقال الواثق لابن أبي دؤاد: مَنْ أولى الناس بالحجة؟ فقال: مولّي شفيق يصون بطلاقة وجهه مَنْ ولّاه، ويستعبد الناس لمولاه، فنظر إلى إيتاخ - وكان واقفاً على رأسه - فقال: قد ولّاك أبو عبد الله الحجة، فكان إيتاخ يعرف ذلك له، ويتقدّم بين يديه إلى أن يبلغ مرتبته.



قال: وقال رجل لزياد: إنّ حاجبك؛ إنّما يبدأ بالإذن لمعارفه، فقال: قد

(١) ك: «ما ذكرت».

(٢) ل: «تشيع منه».

أحسن، المعرفة تنفع عند الكلب العقور، والأسد الهصور، وبين لحيي البعير الصؤول؛ كُنْ من معارفه، فقد قيل: التعارف^(١) نسب، وقَبَحَ الله معرفة لا تنفع!



وكان ليحيى بن خالد حاجبٌ قبل الوزارة، فلما صار إلى الوزارة رأى^(٢) كأنه تشاغل عن حجابته، ف قيل له: لو اتَّخَذْتَ حاجباً غيره! قال: كَلَّا هذا يعرف إخواني القُدَّماء.



وقال الشاعر في مثله:

هَشَّ إِذَا نَزَلَ الْوُفُودُ بَبَابِهِ سَهْلُ الْحِجَابِ مُؤَدِّبُ الْخُدَّامِ
وَإِذَا رَأَيْتَ شَقِيقَهُ وَصَدِيقَهُ لَمْ تَدْرِ أَيُّهُمَا أَخُو الْأَرْحَامِ!

وقال خيط القنديل في محمد بن عبد الله بن طاهر:

يَأْيُهَا الْمَلِكُ الْمَحْجُوبُ أَمِلْهُ وَرَاءَ بَابِكَ هَمٌّ غَيْرُ مُشْتَرِكِ
وَكَمْ أَقُولُ فَلَا يَجِدِي فَيَنْجِدُنِي وَلَا أَرَى مُدْنِيًّا مِنْ قُبَّةِ الْمَلِكِ
وَقَدْ تَحَصَّنَ مِنِّي فِي مُحَصَّنَةٍ خَلَقَاءُ خَلَفَ وَشَيْخُ السُّمْرِ وَالْحَسَكِ
أَصْبَحْتَ كَالشَّمْسِ لَا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ لَكِنَّ مَطْلَعَهَا فِي سُرَّةِ الْفَلَكَ
يَا لَيْتَ رِيحَ سَلِيمَانَ مَسْخَرَةً إِلَيْهِ تَحْمِلُنِي أَوْ تُكْبِي مَلَكِ
فَلَسْتُ دُونَ أَنْاسٍ كَانَ سَهْمُهُمْ سَهْمُ النَّجِيحِ فَنَالُوا غَايَةَ الدَّرَكِ
فَإِنْ ظَلَمْتُ وَلَمْ أَنْصَفْ فَقَدْ ظَلِمْتُ بَنْتُ النَّبِيِّ - كَمَا قَدْ قِيلَ - فِي فَدَكِ^(٣)

(١) ك: «المعارف».

(٢) ك: «رأه».

(٣) فدك: قرية بالحجاز؛ بينها وبين المدينة يومان؛ أفاءها الله على رسوله ﷺ في سنة سبع صلحاً وفيها عين فوارة ونخيل كثيرة؛ وهي التي قالت فاطمة: إن رسول الله ﷺ نحلنيها. وانظر: معجم البلدان ٧: ٣٤٣.

مَسَاوِيءُ الْحِجْبَةِ

قال ثمامة^(١): جَلَسَ المَأْمُونُ يوماً وَقَدْ حَضَرَ النَّاسُ، فَأَمَرَ عَلِيَّ بْنَ صَالِحٍ بِإِدْخَالِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ مُوسَى، فَغَلِطَ وَأَدْخَلَ إِسْمَاعِيلَ بْنَ جَعْفَرٍ، وَكَانَ المَأْمُونُ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ لَهُ^(٢) بَغْضًا، فَرَفَعَ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ أَبْدِلْنِي بَعْلِيَّ بْنَ صَالِحٍ مَطِيعًا نَاصِحًا، فَإِنَّهُ بِصِدَاقَتِهِ لِهَذَا آثَرُ هَوَاهُ عَلَى هَوَايَ.

فَلَمَّا دَنَا قَبْلَ يَدِهِ فَقَالَ: هَاتِ حَوَائِجَكَ، فَقَالَ: ضَيِّعْتِي بِالْفِتْنَةِ فَهَرَّتْهَا وَغُصِبْتُ عَلَيْهَا. فَأَمَرَ بِرَدِّهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: اذْكُرْ حَاجَتَكَ، فَقَالَ: دَيْنٌ كَثِيرٌ قَدْ لِحَقَّنِي فِي جَفْوَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِيَّايَ، فَأَمَرَ بِقَضَاءِ دَيْنِهِ. وَقَالَ: مَا حَاجَتُكَ؟ قَالَ: يَأْذَنُ لِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْحَجِّ، قَالَ: قَدْ أَذْنَا لَكَ، وَحَاجَتُكَ^(٣) أَيْضًا؟ قَالَ: وَفَّقُ أَبِي كَانَ فِي يَدَيَّ، فَأَخْرَجَ عَنِّي، قَالَ: يَرُدُّ عَلَيْكَ إِنْ رَضِيَ وَرِثَةُ أَبِيكَ^(٤).

ثُمَّ قَالَ: الَّذِي أَمَكَّنَنَا فِي أَمْرِكَ قَدْ جُدْنَا بِهِ، وَوَقَّفُ أَبِيكَ إِلَى وَرَثَتِهِ. ثُمَّ قَالَ لِعَلِيِّ بْنِ صَالِحٍ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، مَا لِي وَلَكَ، مَتَى رَأَيْتَنِي أَنْشَطُ لِإِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرٍ، وَهُوَ صَاحِبِي بِالْأَمْسِ بِالْبَصْرَةِ! قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، ذَهَبَ عَنِّي إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُوسَى، قَالَ: ذَهَبَ عَنْكَ مَا كَانَ يَجِبُ عَلَيْكَ حَفْظُهُ، وَحَفِظْتَ مَا كَانَ يَجِبُ إِلَّا تَحَفُّظَهُ، فَأَمَّا إِذَا أَخْطَأْتَ فَلَا تُعْلِمَ إِسْمَاعِيلَ بْنَ جَعْفَرٍ الْقِصَّةَ.

فَظَنَّ أَنَّهُ عَنَى إِسْمَاعِيلَ بْنَ مُوسَى، فَأَخْبَرَ إِسْمَاعِيلَ بْنَ جَعْفَرٍ حَرْفًا حَرْفًا، فَأَذَاعَهَا إِسْمَاعِيلُ، وَبَلَغَ المَأْمُونُ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي هَذِهِ الْأَخْلَاقَ الَّتِي أَحْتَمِلُ عَلَيْهَا عَلِيَّ بْنَ صَالِحٍ، وَأَبَا عِمْرَانَ الطُّوسِيَّ، وَحُمَيْدَ بْنَ عَبْدِ الْحَمِيدِ، وَمَنْصُورَ بْنَ النُّعْمَانِ.



(١) هو ثمامة بن أشرس؛ أحد كبار المعتزلة؛ وكان له اتصال بالرشيد؛ ثم بالمأمون من بعده؛ وأراد أن يستوزره فاستغفاه، وله نوادر وأخبار. تاريخ بغداد ٧: ١٤٥.

(٢) ل: «عليه».

(٣) ل: «حاجتك»، بدون «ما».

(٤) ل: «يرد عليه إن رضي ورثة أبيه».

وحدَّثنا مسعودُ بْنُ بِشْرٍ عن ابنِ داحية^(١) قال: خرج إلينا يعقوب بن داود من عند عبد المهديّ، ونحن على بابهِ، فقال: ما صَدُرَ هذا البيت:

وَمُحْتَرَسٍ مِنْ مِثْلِهِ وَهُوَ حَارِسٌ

فإنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ سَأَلَ عَنْهُ . فلم يكن عند أحدٍ منهم جواب . فقلت: أنا أخبرك، قال البردخت الشاعر - والبردخت الفارغ، بالفارسية -:

أَقْلِي عَلَيْكَ اللَّوْمَ يَا أُمَّ مَالِكٍ وَدُمِّي زَمَاناً سَادَ فِيهِ الْفَلَافِسُ
كَسَاعٍ إِلَى السُّلْطَانِ لَيْسَ بِنَاصِحٍ وَمُحْتَرَسٍ مِنْ مِثْلِهِ وَهُوَ حَارِسٌ

الفلافِسُ من بني نهشل بن دارم، كوفيّ، وكان على شُرطة الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزوميّ.

وقال الأشهب^(٢) بن رُمَيْلة التَّهْشَلِيّ:

يَا حَارِ يَا بَنَ أَبِي رَبِيعَةَ إِنَّهُ يَزْنِي^(٣) إِذَا اخْتَلَطَ الظَّلَامُ وَيَشْرَبُ
جَعَلَ الْفَلَافِسُ حَاجِبِينَ لِبَابِهِ سَبْحَانَ مَنْ جَعَلَ الْفَلَافِسَ يُحْجَبُ!
فدعا به الحارث وقال: قد علمتُ أَنَّهُ كَذَبَ عَلَيْكَ، ولكن لا حاجة لي فيكَ،
فاخرج عني.

وقال الشاعر^(٤) في مثله:

سَأَتْرُكُ هَذَا الْبَابَ مَا دَامَ إِذْنُهُ عَلَى مَا أَرَى حَتَّى تَلِينَ قَلِيلًا^(٥)
إِذَا لَمْ نَجِدْ لِلإِذْنِ عِنْدَكَ مَوْضِعًا وَجَدْنَا إِلَى تَرْكِ الْمَجِيءِ سَبِيلًا
وقال آخر:

سَأَتْرُكُ بَاباً أَنْتَ تَمْلِكُ إِذْنُهُ وَإِنْ كُنْتُ أَعْمَى عَنْ جَمِيعِ الْمَسَالِكِ^(٦)
فَلَوْ كُنْتُ بَوَابَ الْجَنَانِ تَرْكُتُهَا وَحَوَّلْتُ رِجْلِي مُسْرِعًا نَحْوَ مَالِكٍ
وكتب أبو العتاهية إلى أحمد بن يوسف:

(١) ط «داجة» تصحيف.

(٢) واسمه علي بن خالد، وانظر: معجم الشعراء ١٣١، ١٤٣.

(٣) ك: «يرنو».

(٤) ورد الاسم في الأصول مصحفاً، وانظر: اللآلئ ٣٤.

(٥) العقد، ونسبهما إلى أبي تمام ونسبهما صاحب محاضرات الأدباء ١: ١٠٢ إلى محمد بن عمران.

(٦) المستطرف ١: ٩٣ من غير نسبة.

لئن عُدْتُ بعدَ اليومِ إني لظالمٌ سأصرف وجهي حيثُ تُبغى المكارمُ^(١)
 متى يَنجَحُ الغادي لَدَيْكَ بِحاجةٍ ونصفُكَ محجوبٌ ونصفُكَ نائمٌ!
 وكتب رجلٌ إلى عبدِ اللَّهِ بنِ طاهرٍ^(٢) :

إذا كانَ الجوادُ له حجابٌ فما فضلُ الجوادِ على البخيلِ!
 فأجابه^(٣) :

إذا كانَ الجوادُ قليلَ مالٍ ولم يَفِدِرْ، تَعَلَّلْ بالحجابِ
 وكتب عبدُ اللَّهِ بنُ محمد بنِ أَبِي عُيَيْنَةَ إلى صديق له :

أتيتُكَ زائراً للقضاءِ حقٌّ فحالُ السَّترِ دُونَكَ والحِجابِ
 ولستُ بِساقِطٍ في قِدرِ قَوْمٍ وإن كَرِهوا كما يقعُ الذُّبابُ
 وقال آخر :

وأحْضُرُ بابَ إبراهيمَ جَهْلًا بما فيه، وأرْشُو الحاجِبَيْنِ
 فأخرج إن خرجتُ بغيرِ شيءٍ وأدخلُ إن دخلتُ بِدِرْهَمَيْنِ
 وقال آخر :

يَدُلُّ على أَنَّهُ كاتبٌ سَوادٌ بأَظْفارِهِ رَاتِبٌ
 فإن كانَ هذا دليلاً لَهُ فإِسْكَافُنا كاتبٌ حاسِبٌ
 حِجابٌ شديدٌ لأَبوابِهِ وليسَ لِبَابِ اسْتِئْذَنِ حاجِبٌ
 وقال آخر :

لَقَلْعُ ضِرْسٍ وَضُنْكَ حَبْسٍ ونَزْعُ نَفْسٍ وَرُدُّ أَمْسٍ
 وأَكْلُ كَفٍّ وَضِيقُ خَفٍّ وَفَقْدُ إلفٍ وإلفٍ فَلْسٍ
 وَقَوْدُ قِرْدٍ وَنَسِجُ بُرْدٍ وَدَبْعُ جِلْدٍ بِغَيْرِ شَمْسٍ
 وشَرْبُ سُمٍّ وَقَتْلُ عَمٍّ وَكُلُّ غَمٍّ وَيَوْمٌ نَحْسٍ
 وَنَفْخُ نارٍ وَحَمْلُ عارٍ وَبَيْعُ جارٍ بِرُبْعِ فَلْسٍ
 أيسَرُ من وقْفَةٍ بِبابٍ يَلْقَاكَ بِوَأْبِهِ بِعَبْسٍ

(١) العقد ١ : ٨٥ ، ٨٦ ، وذكر أنه قالهما في بعض الهاشمين .

(٢) العقد ١ : ٨٦ ، وفيه : «وقف رجل باب أبي دلف» .

(٣) في العقد «فأجابه أبو دلف» .

وقال أيضاً:

لَمَّا رَأَيْتُكَ ذَاهِباً
عَدَيْتُ رَأْسَ مَطِيَّتِي^(١)
ورأيتني أجفَى ببابك
وحجبت نفسي عن حجابك

وقال آخر:

لئن كان التشرف في الحجاب
لقد عاتبت نفسي في وقوفي
بباب تسلب الموتى عليه
منصور بن باذان:
لقد أصبحت في الشرف اللباب
فقلت لها: وقفت بأي باب!
ويستلب العراق من الكلاب^(٢)

أَمَّا وَزَمْرُ ابْنِ شَيْبَةَ
كَأَنَّمَا شَعْرُ قَرْدٍ
وَوَجْهُهُ حِينَ يَبْدُو
لئن أطلت حجابي
وكيف تبني المعالي
وهل يكون كريماً
وله أيضاً:
وَقُبْحَ لِحْيَةِ عُقْبَةَ
مُلْصَقٍ حَوْلَ ذَنْبِهِ^(٣)
كَقُبْحِ أَوَّلِ شَرْبَةٍ
مَا أَنْتَ إِلَّا ابْنُ قَحْبَةٍ
يَا نَجْلَ كُلِّ لَكْلَبَةٍ!
يَا قَوْمَ حِمَالٍ قِرْبَةٍ

يَا ذَا الَّذِي قَصَّرَ فِي مَجْدِهِ
أَفْسَمْتُ لَا أَقْرَبُ بَابَ امْرِئٍ
فَأَدْخَلَ اللَّهَ رُؤْيَا امْرِئٍ
وزاد في عذة حجابيه
يحجبني البواب عن بابه
يحجب مثلي في است بوابه



ولأبي عبد الله مريعة في علي بن أحمد المعروف بابن الحواري، شاعر،
وكان حجه فتعرض له وقد ركب، فقال:

أَسْأَلُ الَّذِي صَرَفَ الْأَعْيْنَ
وَأَرَاكَ نَفْسَكَ دَائِماً
وَأَذَلَّ مَوْقِفِي الْعَزِيزِ
أَلَّا يُطِيلَ تَجَرَّعِي
بالمواكب نحو بابك
مالم يكن لك في حسابك
ز علي في أقصى رجائك
غصص المنية من حجابك

(٢) العراق: العظم أكل لحمه.

(١) ك: «عذبت».

(٣) الذنب، بالتحريك: الذنب، وسكن للضرورة.

محاسن الولايات

قال إبراهيم بن السدي: بعث إليّ المأمون فأتيته، فقال: يا إبراهيم، إني أريدك لأمر جليل، والله ما شاورت فيه أحداً، ولا أشار بك أحد؛ فاتق الله ولا تفضحني. فقلت: يا سيدي، لو كنت شرّ خلق الله ما تركت موضع قاذح^(١)، فكيف ونيتي في طاعة أمير المؤمنين نيّة العبد الذليل لمولاه! قال: قد رأيت أن أوليك خبر ما وراء باب داري، فانظر أن تعمل بما يجب^(٢) عليك لله عز وجلّ ولي، ولا تراقب أحداً، فقلت: يا سيدي، فإني أستعين بالله عز وجلّ على مرّضاته ومرّضاتك.

فبعثت أصحاب الأخبار في الأرباع ببغداد، فرفع إليّ^(٣) بعضهم أنّ صاحب رُبّع الحوض أخذ امرأة مسلمة مع رجل نصرانيّ من تجار الكرخ، فافتدى نفسه بألف دينار، فرفعت إليه ذلك، فدعا عبد الله بن طاهر؛ فقال له: انظر في هذا الذي رفعه^(٤) صاحب الخبر، فقرأه، وقال: رفع يا أمير المؤمنين الباطل والزور؛ وأغراه بي، فعمل^(٥) قوله فيّ، وملاً قلبه.

فبعث إليّ وقال: يا إبراهيم، ترفع إليّ الكذب، وتحملني على عمالي! فكتبت رقعة دفعتها إليّ فتح الخادم ليوصلها إليه، قلت فيها: إنما يحضر الأخبار في الأرباع المرأة والطفل، وابن السبيل، وغير ذلك. ولو كانت الأخبار لا تُرفع إلاّ بشهود عدول ما صحّ خبر ولا كتب به، ولكنّ مجرى الأخبار أن يحضرها قوم على غير تواطؤ، فإن أمرني أمير المؤمنين ألاّ أكتب إليه بخبر إلاّ بعدول وبرهان فعلت ذلك، وعلى هذا فلا يرتفع في السّنة خبر واحد.

فلما قرأ الرقعة فكّر فيها ليلته، وجاءني رسوله مع طلوع الشمس، فأتيته من باب الحمام، فلما رأيته قال: اطمئنّ، وقام فصلّي ركعتين أطال فيهما، ثم سلّم والتفت إليّ وليس في المجلس غيري، فقال: يا إبراهيم، إنما قمت للصلاة ليسكن

(١) ل: «فادح».

(٢) ك: «يحق».

(٣) ك: «رفع لي».

(٤) ك: «رفعه إلى».

(٥) ك: «ففعّل».

بَهْرَك، وَيَقْوَى^(١) مَتْنَك، وَيُفْرَخ^(٢) رَوْعُكَ، فَمَتَّكُنْ فِي قَعُودِكَ - وَكُنْتَ قَاعِدًا عَلَى رُكْبَتِي - فَقُلْتُ: لَا أَضَعُ قَدْرَ الْخَلَافَةِ يَا سَيِّدِي، وَلَا أَجْلِسُ إِلَّا جُلُوسَ الْعَبْدِ بَيْنَ يَدَيِ مَوْلَاهُ! ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ دُونَ الْأَوَّلَيْنِ ثُمَّ قَالَ: هَذِهِ رَقْعَتُكَ تَحْتَ رَأْسِي قَدْ قَرَأْتُهَا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، وَقَدْ صَدَقْتَ فِيمَا كَتَبْتَ بِهِ، وَلَكِنِّي أَمْرُؤُ أَدَارِي عُمَالِي مَدَارَةَ الْخَائِفِ، وَبِاللَّهِ مَا أَجِدُ إِلَى أَنْ أَحْمِلَهُمْ عَلَى الْمَحَبَّةِ الْبَيضَاءِ سَبِيلًا، فَاعْمَلْ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ وَلَنْ لَهُمْ تَسَلُّمٌ مِنْهُمْ، وَفِي حِفْظِ اللَّهِ إِذَا شِئْتَ!

فَانصَرَفْتُ، فَدَعَوْتُ أَصْحَابَ الْأَخْبَارِ، فَتَقَدَّمْتُ إِلَيْهِمْ فِي مَدَارَةِ الْقَوْمِ وَالرَّفَقِ بِهِمْ وَاللِّينَ لَهُمْ.



وَعَنْ إِسْحَاقَ بْنِ أَيُّوبَ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ سَلِيمَانَ، قَالَ: دَخَلَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاضِحٍ دَارَ الْمَأْمُونِ، وَخَلَفَهُ أَكْثَرُ مِنْ خَمْسِمِائَةِ رَاكِبٍ كُلُّهُمْ رَاغِبٌ إِلَيْهِ، وَرَاهِبٌ مِنْهُ، وَهُوَ إِذْ ذَاكَ يَلِي أَعْمَالًا مِنْ أَعْمَالِ السَّوَادِ. فَدَعَا بِهِ الْمَأْمُونُ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَغْفِنِي مِنْ عَمَلٍ كَذَا وَكَذَا؛ فَإِنَّهُ لَا قُوَّةَ لِي عَلَيْهِ. فَقَالَ: قَدْ أَغْفَيْتُكَ. وَاسْتَعْفَى مِنْ عَمَلٍ آخَرَ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ لَا يُعْفِيهِ، فَأَعْفَاهُ حَتَّى خَرَجَ مِنْ كُلِّ عَمَلٍ فِي يَدِهِ فِي أَقَلِّ مِنْ سَاعَةٍ؛ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رِجْلِهِ^(٣)، فَخَرَجَ وَمَا فِي يَدِهِ شَيْءٌ مِنْ عَمَلِهِ، فَقَالَ الْمَأْمُونُ لِسَالِمِ الْحَوَائِجِي: إِذَا خَرَجَ فَانْظُرْ إِلَى مَوَكِبِهِ، وَأَحْصِ مِنْ مَعَهُ - وَكَانَ الْمَأْمُونُ قَدْ رَأَاهُ مِنْ مُسْتَشْرِفٍ لَهُ حِينَ أَقْبَلَ - فَخَرَجَ سَالِمٌ وَقَدْ اسْتَفَاضَ الْخَبَرَ بَعَزْلَهُ عَنْ عَمَلِهِ، فَانْظُرْ فَإِذَا هُوَ لَا يَتَّبَعُهُ [أَحَدٌ]^(٤) إِلَّا غَلَامٌ لَهُ بَغَاشِيَةٌ، فَرَجَعَ إِلَى الْمَأْمُونِ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: وَيْلَهُمْ! لَوْ تَجَمَّلُوا لَهُ رَيْثَمَا يَرْجِعُ إِلَى بَيْتِهِ كَمَا خَرَجَ مِنْهُ! ثُمَّ تَمَثَّلَ فِيهِمْ:

وَمَنْ يَجْعَلَ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ يُلَاقِي الَّذِي لَا قَى مُجِيرٌ أَمْ عَامِرٍ
ثُمَّ قَالَ: صَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَانَ لِلصَّدَقِ أَهْلًا حِينَ قَالَ: «لَا تَنْفَعُ الصَّنِيعَةُ إِلَّا عِنْدَ ذِي حَسَبٍ أَوْ دِينٍ».



وَذَكَرُوا أَنَّهُ كَانَ سَبَبَ عَزْلِ الْحَجَّاجِ عَنِ الْحِجَازِ^(٥)، أَنَّهُ وَقَدَ وَفَدَ مِنْهُمْ -

(٢) ط: «ويفرج».

(٤) من ك.

(١) ل: «وتقوى متنك».

(٣) ك: «قدميه».

(٥) المحاسن والأضداد: «المدينة».

فيهم عيسى بن طلحة بن عبيد الله - على عبد الملك بن مروان، فأتنوا على الحجاج وعيسى ساكتاً، فلما قاموا ثبت عيسى حتى خلا له وجه عبد الملك، فقام وجلس بين يديه، فقال: يا أمير المؤمنين، من أنا؟ قال: عيسى بن طلحة بن عبيد الله. قال: فمن أنت؟ قال: عبد الملك بن مروان. قال: أفجهلتنا أو تغيرت بعدنا؟ قال: وما ذاك؟ قال: ولّيت علينا الحجاج يسير فينا بالباطل، ويحملنا على أن نثني عليه بغير الحق^(١)، والله لئن أعدته علينا لنعصيتك، فإن قاتلتنا وغلبتنا وأسأت إلينا قطعت أرحامنا، ولئن قوينا عليك لنعصيتك مذكك.

قال: فانصرف والزّم بيتك، ولا تذكر من هذا شيئاً.

قال: فقدم إلى منزله، وأصبح الحجاج غادياً على الوفد في منازلهم يجزيهم الخير، ثم أتى^(٢) عيسى بن طلحة فقال: جزاك الله عن خلوتك بأمر المؤمنين خيراً! فقد أبدلني^(٣) بكم خيراً لي منكم، وأبدلكم بي غيري، وولاني العراق^(٤).



وعن الوضاحي، عن معمر بن وهيب، قال: كان عبد الملك عندما استعفى أهل العراق من الحجاج بن يوسف قال لهم: اختاروا أيّ هذين شئتم؟ يعني أخاه محمد بن مروان، أو ابنه عبد الله، مكان الحجاج.

فكتب إليه الحجاج: يا أمير المؤمنين، إن أهل العراق استعفوا من سعيد بن العاص إلى عثمان بن عفان، فأعفاهم منه، فساروا إليه من قابل فقتلوه. فقال عبد الملك: صدق وربّ الكعبة! وكتب إلى محمد وعبد الله بالسمع والطاعة له^(٥).

(١) كذا في المحاسن والأضداد، وفي ك، ل: «بالحق».

(٢) ك: «وأتى».

(٣) ك: «بدلني».

(٤) الخبر في المحاسن والأضداد ٦٣، ٦٤.

(٥) الخبر في المحاسن والأضداد ٦٤.

مساويء الولايات

قال: كتب عبد الصمد بن المعدل إلى صديق له ولي النقات فأظهر تيهاً:
لعمري لقد أظهرت تيهاً كأنما توليت للفضل بن مروان منبراً^(١)
وما كنت أخشى لو ولت مكانه علي أبا العباس أن تتغيرا
بحفظ عيون النفط أحدثت نخوة فكيف به لو كان مسكاً وعنبراً!
دع الكبر واستبق التواضع إنّه قبيح بوالي النفط أن يتكبراً^(٢)
قال: وسئل عمار بن ياسر عن الولايات؟ فقال: هي حلوة الرضاع، مرة
الفطم.

ولابن المعتز في مثله:

كَمْ تَائِهٍ بولايَةٍ وبعزله يعدو البريد^(٣)
سُكْرُ الولايَةِ طيِّبٌ وخمارها صَفْعٌ شديد^(٤)
ولغيره:

لا تجزَعَنَّ فكلُّ والٍ يُعزَلُ وكما عُزِلَتْ فعن قريبٍ يُعزَلُ^(٥)
إنَّ الولايَةَ لا تدومُ لواحدٍ إن كنت تنكره فأين الأول!
وكذا الزمانُ بما يسرك وبما يسوءك مرةً يتنقلُ

(١) المحاسن والأضداد ٦٤: «عكبراً».

(٢) المحاسن والأضداد «يتغيراً».

(٣) المحاسن والأضداد ٦٥.

(٤) المحاسن والأضداد «سعب».

(٥) المحاسن والأضداد ٦٥. والرواية هناك «يقتل».

محاسن بُعد الهمة

قال: حدّثنا أحمد بن إسحاق التُّسْتَرِيُّ قال: دخل أحمد بن أبي دُوَادٍ على الواثق، فقال له الواثق بالله: يا أبا عبد الله، إِنِّي حَنِثْتُ في يمين؛ فما كَفَّارَتُهَا؟ فقال: مائة ألف دينار. فقال ابن الزِّيَّات: والله ما سمعنا بهذا في الكفَّارات، إنما قال الله عزَّ وجلَّ - وتلا الآية في كفَّارة الأيمان^(١) - فقال: تلك كفَّارة مثله في بُعد همّته وجلالة قدره، أو مثل آبائه، إنما تكون كفَّارة اليمين على قدر جلالة الله من قلب الحالف بها، ولا نعلم أحداً، الله عزَّ وجلَّ في قلبه أجلّ من أمير المؤمنين. فقال الواثق: تُحْمَلُ إلى أبي عبد الله يتصدَّق بها^(٢).



قال: ودعا يحيى بن خالد البرمكيّ ابنه إبراهيم يوماً - وكان يسمّى دينار بني بَرْمَكٍ لجماله وحسنه - ودعا بمؤدِّبه وبمَن كان ضَمَّ إليه من كتّابه وأحبابه^(٣)، فقال: ما حال ابني هذا؟ قالوا: قد بلغ من الأدب كذا وكذا، ونظر في كذا وكذا. قال: ليس عن هذا سألتُ، قالوا: قد اتخذنا له من الضياع كذا، وغلّته كذا، قال: ولا عن هذا سألتُ؛ إنما سألتُ عن بُعد همّته وهل اتخذتُم له في أعناق الرجال مِنَنًا، وحبَّبْتُموه إلى الناس؟ قالوا: لا، قال: فبئس العُشراء أنتم والأصحاب! هو والله إلى هذا أحوَجُّ منه إلى ما قلْتُم، ثم أمر بحمل خمسمائة ألف درهم إليه، ففَرَّقَتْ على قوم لا يُدرى من هُم.



قال: وقال المأمون لولده؛ وعنده عمرو بن مَسْعُدة ويحيى بن أكثم: اعتبروا في علوِّ الهمة بمن تروُن من وزرائي وخاصّتي، إنهم والله ما بلغوا مَرَاتِبَهُمْ عندي إلّا بأنفسهم، إنّه من تبع منكم صغار الأمور تبعه التصغير والتحقير، وكان

(١) هو قوله تعالى في سورة المائدة من الآية ٨٩: ﴿فَكَفَّرْنَاهُ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾.

(٢) كذا في ك، وفي ل: «ليصدق».

(٣) ط: «أجابه».

قليل ما يُفتقد من كبارها أكثر من كثير ما يُستدرك من الصغار، فترفعوا عن دناءة الهمة، وتفرغوا لجلال الأمور والتدبير، واستكفوا الثقات، وكونوا مثل كرام السباع التي لا تشتغل بصغار الطير والوحش، بل بجليلها وكبارها. واعلموا أنَّ أقدامكم إن لم تتقدم بكم فإن قائدكم لا يقدمكم، ولا يُعني الولي عنكم شيئاً ما لم تعطوه حقه، وأنشده^(١):

نحنُ الذين إذا تخمطَ عُصبةٌ ونرى القُرومَ مخافةً لقُرومنا
نردُ المنيّةَ لا نخافُ ورودها نُعطي الجزيلَ فلا نمُنُ عطاءنا^(٢)
وإذا البلادُ على الأنام تزلزلتْ ولبعضهم في أبي دُلف:

لهُ هممٌ لا منتهى لكبارها له راحةٌ لو أنَّ معشارَ جودها
ولو أنَّ خلقَ الله في مسكٍ فارسٍ أبا دُلفٍ بُوركتَ في كلِّ جهةٍ
ولغيره:

لا تهدمنُ بُنيان قومٍ وجدتهم وإن زهدَ الأقوامُ في طلب العُلا
عبد الله بن طاهر:

فتى خصّه الله بالمكرُماتِ إذا همّةٌ قصّرت عن يدٍ
ولا ينكتُ الأرض عند السؤال بدا حين أئرى بإخوانه
فمازج منه الحيا والكرم تناول بالمجد أعلى الهِمَمِ
ليثني زواره عن نَعَمِ ففلل عنهم شبة العدم

(١) ك: «وأنشد في ذلك».

(٢) تخمط: تكبر.

(٣) ك: «فلا يمن عطاؤنا».

(٤) الكامل ٣: ١٢٨، ونسبه لبكر بن النطاح.

(٥) المسك: الجلد.

وذكره الحزم غب الأمور فبادر قبل انتقال النعم



قال: وحدثنا بعض أهل ذي الرياستين^(١)، قال: كان ذو الرياستين يبعث بي وبأحداث من أهل بيته إلى شيخ بخراسان، ويقول: تعلّموا منه الحكمة، فكنا نأتيه ونستفيد منه الآداب^(٢)، فلما كان بعد ذلك قال لنا: أنتم أدباء، وقد تعلّمتم الحكمة، ولكم نعمة، فهل فيكم عاشق^(٣)؟ فاستحيينا من قوله وسكتنا، فقال: اعشّقوا فإن العشق يُطليق لسان البليد، ويُسخّي البخيل، ويُشجّع الجبان، ويبعث على التلطف وإظهار المروءة^(٤) في المطعم والمشرب والملبس وغير ذلك، وانظروا أن تعشّقوا أهل البيوتات والشرف.

قال: فخرجنا من عنده، وصرنا إلى ذي الرياستين، فسألنا عما أفادنا، فهبناه أن نخبره، فقال: تكلّموا، فقلنا: إنه أمرنا بكذا وكذا؛ فقال: صدق وبرّ، أتعلمون من أين قال لكم ذلك؟ قلنا: يخبرنا به الوزير، فقال^(٥): كان لبهرام جور ابن قد رشحه للملك من بعده، واعتمد عليه في حياته، وكان خامل المروءة، ساقط الهمة، فضم إليه عدّة من المؤدّبين والحكماء والعلماء، ومن يتعلّم الفروسيّة، فبينما بهرام في مجلسه إذ دخل عليه بعض أولئك المؤدّبين المضمومين إلى ابنه، فسأله عن خبر ابنه، وأين بلغ من الحكمة والأدب؟ فقال: أيها الملك، قد كنت أرجو أن يتوجّه أو يعي بعض ما ألقيته وألقيه إليه؛ حتى حدّث من أمره ما آيسني منه. قال: وما هو؟ قال: بصّر بابنة فلان المرزبان فهويها، فهو الآن يهذي بها ليله ونهاره، فقال: الآن رجوت فلاحه، اذهب فشجّعه بمراسلة المرأة وخوفه بي. فذهب المؤدّب، فانتهى إلى ما أمره به وبعث بهرام إلى أبي الجارية ودعاه فقال: إنني مزوّج ابني ابنتك، فأتيها ومُرّها أن تراسل ابني وتطمعه في نفسها، فإذا استحکم طمعه فيها ورجا الالتقاء تجنّث عليه، وقالت: إنني لا أصلح إلا لملك عظيم القدر، بعيد الهمة، حسن المودّة، أديب النفس، شجاع البطش، ولست كذلك ولا هناك^(٦)! ثم عرّفني الكائن منك في ذلك.

فمضى المرزبان إلى ابنته، فأعلمها بذلك وبما قاله له الملك، فراسلت الفتى وأطمعته، ثم قالت له ما أمرها به أبوها، فلما سمع ذلك أنف أنفاً شديداً،

(١) ل: «بيت الرياستين».

(٢) ك: «الأدب».

(٣) ك: «قال».

(٤) ك: «لا هنالك».

(٥) ل: «بيت الرياستين».

(٦) ك: «الأدب».

(٧) ك: «من عشق».

وتقاصرت إليه نفسه، فأقبل على تعلّم الأدب والحكمة والفروسيّة حتى صار رأساً في ذلك، فلمّا بلغ الغاية التي لا بعدها، رفع قصّته إلى أبيه يشكو تخلف حاله وقصور يده عما يشتهيهِ^(١)، فوقع له أبوه بإزاحة علّته [فيما سأل]^(٢) والتّوسعة عليه، ثم بعث إلى المؤدّب فدعاه، فقال: قل لابني يرفع إليّ قصّته يسألني إنكاحه [من]^(٣) ابنة المرزبان. فقال له المؤدّب ذلك، فكتب قصّة رفعها^(٣) إلى الملك يسأله تزويجها منه، وأن يصلّ جناحه بذلك، وأنها ممّن تصلّح لمثله. فأمر الملك بإحضار المرزبان، وسأله أن يزوّج ابنته من ابنه. ففعل، وجهّزها الملك بأجل ما يكون من الجهاز. وقال لابنه^(٤): إذا أنت خلوت فلا تحدثن شيئاً حتى آتيك.

فلمّا كان ذلك الوقت دخل الملك على ابنه، فقال: يا بُنيّ؛ إياك وأن تُصغّر شأن هذه المرأة عندك، فإنّها من أعظم الناس مِنّةً عليك، وإنّ الذي كان من مراسلتها إياك، فإنّما كان عن أمري وبإذني وتدبيرِي، فاعرف حقّها وحقّ أبيها، وأحسن معاشرتها، وبرّها. ثم خرج الملك وخلا الفتى بأهله.

ثم قال ذو الرياستين: سلّوا الآن الشيخ عن السبب الذي حمّله على ما أمركم به. قال: فسألناه، فحدّثنا بحديث ذي الرياستين.

(١) ل: «يشبهه».

(٢) من ك.

(٣) ك: «ورفعها».

(٤) ك: «له يا بني».

مَسَاوِيءُ سَقُوطِ الْهَمَّةِ

قال: وكان القاسم بن الرشيد ساقطَ الهمة، دنيء النفس، وكان المأمون على أن يعهد إليه ويؤكد له ما كان الرشيد جعله له من ولاية العهد، وكان لا يزال يبلغه عنه ما يكره؛ مرةً في نفسه، وأخرى في حشمه، قال: فرفع إليه في الخبر يوماً أنه قال لِقَوَامِ حَمَامِيهِ: نُورُوا^(١) الناس بالمجان، ففعلوا ذلك، فلم يبق محتاج إلا جاء يتنور، فلما علم أنهم كثروا أخرج عليهم الأسد من باب كان يدخل منه إلى الحمام، فخرج الناس عراءً مغمى عليهم، مع ما عليهم من النورة، هارين من الأسد، فصاروا إلى شارع قصره، وقد أشرف عليهم وهو يضحك.

فحدثنا الحسن بن قريش، قال: دعاني المأمون وقال: يا هذا، ما لي ولهذا الفتى! إلى كم أحتمل منه هذا الأذى! قال: فقلت: قومته يا أمير المؤمنين إن رأيت في ذلك صلاحاً. قال: نعم، فقلت: يا سيدي، إنّه عضو منك، وأنت به وأولى الناس بتقويمه، قال: فجعل ينهاه ويأبى أن ينتهي، فلما كثر هذا من فعله؛ عزم على خلعه، فكتب إلى هرثمة بن أعين في ذلك كتاباً نسخته: «أما بعد، فإن أمير المؤمنين يستوفى الله عز وجل في جميع أموره ويستخيره فيها؛ خاصها وعامها، لطيفها وجليلها؛ استخارة من يؤقن أن البركة وخيرة البدء والعاقبة في قضائه، وما يُلهمه من إرشاد وتسديد رأي وإثبات صواب، وقد رأى أمير المؤمنين عندما استخار الله تبارك اسمه فيه من أمر القاسم بن الرشيد، فيما كان إليه من ولاية العهد خلعه عن ذلك وصرفه عنه، فأظهر ذلك فيمن بحضرتك، وأمر بالكتاب إلى العمال في نواحي عَمَلِك وتُغورك وولاية الأمصار، فقد أمل أمير المؤمنين أن يكون ذلك توفيقاً من الله تبارك اسمه، ورشداً ألهمه إياه، إذ كان به توفيقه وعليه معولُه، وإليه رجوعه فيما يُبرم ويُمضي، فامتثل ما حدّه لك أمير المؤمنين، وانتّه إليه، واكتب بما يكون منك فيه إن شاء الله».



(١) النورة: حجر الكلس؛ ثم غلب على أصناف تضاف إلى الكلس من زرنينخ وغيره؛ ويستعمل لإزالة الشعر.

قال: ونظر المأمون يوماً إلى ابنه العباس وأخيه المعتصم، فابته العباس يتخذ المصانع ويبني الضياع، والمعتصم يتخذ الرجال، فقال شعراً:

يبني الرجال وغيره يبني القرى شتان بين قرى وبين رجال!
قلق بكثرة ماله وضياعه حتى يفرقه على الأبطال
وأنشد في مثله:

لما رأيتك لا تجود بنائل وتضن بالمعروف ضن الساقط^(١)
ورأيت هممك التي تعلو بها سوط الثريد وشم ريح الغائط
وإذا تكلف حاجة ضيعتها بتغافل عنها كأنك واسطي
لا للمكارم تشرئب بنهضة ولدى المكاره كالجمار الضارط
أيست نفسي من رجائك دهرها ونقشت شبهك صورة في حائط
وقال آخر سامحه الله عز وجل:

إذا أنت لا ترجى لدفع ملمة ولا أنت في المعروف عندك مطمع
ولا أنت ذو جاه يعاش بجاهه ولا أنت يوم الحشر ممن يشفع
فموتك في الدنيا وعيشك واحد وعود خلال من نوالك أنفع
ولآخر سامحه الله وعفا عنه:

كلما قلت ويك للكلب إخساً لحظتني عينك لحظة تهمه
أتراني أظن أنك كلب أنت عندي من أبعد الناس هممه

(١) ط: «وتظن» تصحيف.

محاسن كرم الصَّحبة

قال ابن أبي طاهر: حدَّثوني عن عبد الله بن مالك؛ قال: كنتُ أتولى السَّرْطَةَ للمهديّ، وكان يبعث إليّ في نُدْماء الهادي ومغنيّه؛ أن أضربهم وأحبسهم صيانةً له عنهم، فبعث الهادي يسألني الرفقَ بهم والترفيه عنهم، فلا ألتفتُ إلى ذلك وأمضي إلى ما يأمر به المهديّ.

فلما وليّ الهادي الخلافة أيقنتُ بالتلف، فبعث إليّ يوماً فدخلتُ عليه متكفناً متحنّطاً؛ فإذا هو على كرسيٍّ والنَّطع والسَّيف بين يديه، فسَلِّمتُ فقال: لا سَلِّمَ الله عليك! تذكُرُ يومَ بعثتُ إليك في أمر الحُرَّانيّ لَمَّا أمر أمير المؤمنين رضي الله عنه بضربه، فلم تجبني، [و] ^(١) في فلان وفي فلان! وجعل يعدُّ نُدْماءه - ولم تلتفت إلى قولِي! قلت: نعم يا أمير المؤمنين، أفتأذن لي في استيفاء الحجة؟ قال: نعم. قلت: نشدتك الله يا أمير المؤمنين، أيسرُّك أن وليّتي ما ولّاني أبوك وأمرتني بأمرٍ فبعث إليّ بعضُ بنيك بأمرٍ يخالف أمرَك، فأتبعْتُ أمره، وعصيتُ أمرَك؟ قال: لا، قلت: فكذلك أنا لك، وكذا كنتُ لأبيك وأخيك. فاستدنانِي فقبَلْتُ يده، وأمر بخُلْعِ فصَبَّت عليّ؛ وقال: قد وليّتك ما كنت تتولّاه، فامضِ راشداً.

فخرجتُ من عنده وصرت إلى منزلي مفكراً في أمره وأمرِي، وقلت: حدثُ والقوم الذين عصيته في أمرهم ندماءؤه ووزراءؤه وكُتَّابُه، فكأنِّي بهم حين يَغْلِب عليه الشرابُ؛ وقد أزالوه عن رأيه في وحملوه في أمرِي على ما كنتُ أتخوِّفه!

قال: فإنّي لجالسٌ وبين يديّ بُنيّةٌ لي والكانون بين يديّ، ورُقاقٌ أشطُرُه بكامخٍ وأسحْنُه وأطعمُه الصبية، حتى توهمتُ أن الدنيا قد اقتلعت بي وزلزلتُ لوقع حوافر الدوابِّ وكثرة الضَّوضاء؛ فقلت: هاه! كان والله ما ظننت، فإذا الباب قد فُتِح، وإذا الخَدَم قد دخلوا، وإذا أمير المؤمنين الهادي على حمارٍ في وَسَطِهِمْ! فلَمَّا رأيتُهم، وثبتُ عن مجلسي مبادراً وقبَلْتُ يده ورجله وحافر حِمَارِه، فقال: يا أبا عبد الله، إني فكَرْتُ في أمرَك، فقلت: يسبق إلى قلبك أني إذا شربتُ وجاءني

(١) من الطبري.

أعداؤك أزالوا ما حسن من رأيي فيك، فأقلقك وأوحشك، فصرْتُ إلى منزلك لأؤنسك، وأعلمك أنَّ السخيمة قد زالت عن قلبي، فهات أطعمني ما كنت تأكل، وافعل فيه ما كنت تفعل؛ لتعلم أنني قد تحرمتُ بطعامك؛ وأنستُ بمنزلك؛ فيزول خوفك ووحشتك.

فأدْنيت إليه ذلك الرقاق والسُّكَّرَجَةَ^(١) التي فيه الكامخ، فأكل منها ثم قال: هاتوا الزُّلَّةَ^(٢) التي زللتُها لأبي عبد الله من مجلسي، فأدخل إليَّ أربعمائة بَغْلٍ موقرةٍ دراهم، فقال: هذه زُلَّتُك فاستعن بها على أمرك، واحفظ هذه البغال عندك، فعليَّ احتاج إليها لبعض أسفاري، [قال: أظلك الله بخير]^(٣)، وانصرف راجعاً. فأخبرني^(٤) موسى بن عبد الله أن أباه أعطاه بستانه الذي كان وسط داره، فبنى حوله معالِفَ لتلك البغال، وكان هو يتولَّى القيامَ عليها مدةَ حياة الهادي^(٥).



وحدَّث مَنْ حضر مجلس المأمون؛ وقد أمر بإحضار العباس صاحب الشرطة ببغداد، وبين يديه رجلٌ مكبَّلٌ بالحديد، فلَمَّا حضر قال: يا عباس، خُذْ هذا إليك واستوثق منه ولا يفوتتْك، وبكره به واحذره كلَّ الحذر.

قال العباس: فدعوتُ جماعةً حملوه، ولم يقدر يتحرَّك. فقلت في نفسي: مع هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب^(٦) أن يكون معي إلَّا في بيتي. ثم سألتُه عن قصته وحاله، من أين هو؟ فقال: من دِمَشق، فقلت^(٧): جزى الله دِمَشق وأهلها خيراً! فَمَنْ أَنْتَ من أهلها؟ قال: لا تَزِيدُ أن تسألني! فقلت له: أتعرف فلاناً؟ فقال: ومن أين عرفت ذلك الرجل؟ فقلت: كانت لي قصّة معه، فقال: ما أنا بمعرِّفك خبره أو تعرِّفني قصّتك! فقلت^(٨): وَيَحْك! كنت مع بعض الولاة بها؛ فخرج علينا أهلها حتى أراد الوالي أن يُدْلَى في زُنْبيل من قَصْرِ الحجاج، وهرب هو وجميع أصحابه، وهربتُ فيمن

(١) السكرجة: الصفحة؛ فارسي معرب.

(٢) الزلة: الصنعة.

(٣) من الطبري.

(٤) الطبري: «فذكر موسى بن عبد الله».

(٥) الخبر في تاريخ الطبري ٣: ٥٧٤، ٥٨٣ (طبع أوروبا).

(٦) ط: «يجب».

(٧) ط: «فقال».

(٨) ط: «فقال».

هَرَبَ، فَإِنِّي لَفِي بَعْضِ الطَّرِيقِ إِذَا جَمَاعَةٌ يَغْدُونَ خَلْفِي، فَمَا زِلْتُ أَحَاضِرُهُمْ^(١) حَتَّى مَرَرْتُ عَلَى هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي ذَكَرْتُهُ لَكَ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى بَابِ دَارِهِ، فَقُلْتُ: أَغْنِي أَغَاثَكَ اللَّهُ! فَقَالَ: لَا بِأَسْ عَلَيْكَ، أَدْخَلَ الدَّارَ، فَدَخَلْتُ، فَقَالَتْ لِي امْرَأَتُهُ: أَدْخُلِ الْحَجَلَةَ^(٢)، فَدَخَلْتُهَا، وَأَتَتْ الرِّجَالَ خَلْفِي فَمَا شَعَرْتُ إِلَّا بِهِ وَهُمْ مَعَهُ يَقُولُونَ: هُوَ وَاللَّهِ عِنْدَكَ! فَقَالَ: دُونَكُمْ الدَّارَ فَفَتَشَوْهَا حَتَّى لَمْ يَبْقَ إِلَّا الْبَيْتُ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، فَقَالُوا: هَاهُنَا! فَصَاحَتِ الْمَرْأَةُ وَانْتَهَرَتْهُمْ فَانصَرَفُوا، وَخَرَجَ الرَّجُلُ فَجَلَسَ عَلَى بَابِ دَارِهِ سَاعَةً وَأَنَا قَائِمٌ فِي الْحَجَلَةِ خَائِفًا، فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: اجْلِسْ لَا بِأَسْ عَلَيْكَ، فَجَلَسْتُ فَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ دَخَلَ الرَّجُلُ وَقَالَ: لَا تَخَفْ فَقَدْ صَرْتُ إِلَى الْأَمْنِ وَالِدَّةُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، فَقُلْتُ لَهُ: جِزَاكَ اللَّهُ عَنِّي خَيْرًا! ثُمَّ مَا زَالَ يِعَاشِرُنِي أَحْسَنَ الْمَعَاشِرَةِ وَأَجْمَلَهَا، وَلَا يَفْتَرُ مِنَ الْقُصْفِ وَالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالْفَرَحِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ؛ إِلَى أَنْ سَكَنْتِ الْفِتْنَةَ وَهَدَأْتُ، فَقُلْتُ لَهُ: أَتَأْذُنُ لِي فِي الْخُرُوجِ لِأَتَعَرَّفَ خَيْرَ غِلْمَانِي وَمَنْزِلِي، فَعَلِي أَنْ أَفْ لِهِمْ عَلَى أَثَرٍ أَوْ خَيْرٍ!

فَأَخَذَ عَلَيَّ الْمَوَاقِيقَ بِالرَّجُوعِ إِلَيْهِ، فَخَرَجْتُ وَطَلَبْتُ غِلْمَانِي فَلَمْ أَرَ لَهُمْ أَثَرًا، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ وَأَعْلَمْتُهُ الْخَبَرَ، وَهُوَ مَعَ هَذَا لَا يَعْرِفُنِي، وَلَا يَعْرِفُ اسْمِي، وَلَا يَخَاطِبُنِي بِغَيْرِ الْكُنْيَةِ، ثُمَّ قَالَ لِي: مَا تَعَزَّمُ؟ فَقُلْتُ: قَدْ عَزَّمْتُ عَلَى الشُّخُوصِ إِلَى بَغْدَادَ، فَإِنَّ قَافِلَةً تَخْرُجُ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَقَدْ تَفَضَّلْتَ عَلَيَّ هَذِهِ الْمَدَّةَ، فَأَسْأَلُكَ أَنْ تَعْطِيَنِي مَا أَتَّقِيهِ فِي طَرِيقِي وَمَا أَلْبَسُهُ. فَقَالَ: يَصْنَعُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

ثُمَّ قَالَ لِغُلَامٍ لَهُ أَسْوَدُ: أَنْعِلْ^(٣) الْفَرَسَ الْفُلَانِيَّ؛ وَتَقَدَّمْ إِلَيَّ مَنْ فِي مَنْزِلِهِ بِإِعْدَادِ السَّفَرِ. فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: مَا أَشْكُ إِلَّا أَنَّهُ يَخْرُجُ إِلَى ضَيْعَةٍ لَهُ أَوْ نَاحِيَةٍ مِنَ النُّوَاحِي، فَوَقَعُوا يَوْمَهُمْ ذَلِكَ فِي تَعَبٍ وَكَدٍّ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ خُرُوجِ الْقَافِلَةِ جَاءَنِي فِي السَّحَرِ وَقَالَ: يَا أَبَا فُلَانٍ، قُمْ فَإِنَّ الْقَافِلَةَ تَخْرُجُ السَّاعَةَ؛ وَأَكْرَهَ أَنْ تَنْفَرَدَ عَنْهَا. فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: مَا أَعْطَانِي شَيْئًا مِمَّا سَأَلْتُهُ، ثُمَّ قَمْتُ، فَإِذَا هُوَ وَامْرَأَتُهُ يَحْمِلَانِ إِلَيَّ خِفَاتَيْنِ^(٤) مَقْطُوعَةً جُدْدًا وَرَانَاتٍ وَآلَةَ السَّفَرِ، ثُمَّ جَاءَنِي بِسَيْفٍ وَمِنْطَقَةٍ فَشَدَّهُمَا فِي وَسْطِي، ثُمَّ قَدَّمَ الْبِغْلَ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ الصَّنَادِيقَ وَفَوْقَهَا مِفْرَشَيْنِ، وَدَفَعَ إِلَيَّ نَسْخَةً بِمَا فِي الصَّنَادِيقِ وَفِيهَا خَمْسَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ، وَقَدَّمَ إِلَيَّ الْفَرَسَ الَّذِي كَانَ أَنْعَلَهُ

(١) أحاضرهم؛ لعلمهم من الحضر، وهو العدو.

(٢) الحجلة: بيت يزين بالثياب والأسرة والستور.

(٣) أنعل الدابة: ألبس حافرها النعل.

(٤) الخفّاتين: جمع خفّتان؛ وهو صديريّة تلبس تحت الدرع (فارسي).

بَسْرَجِه وَلِجَامِه، وقال لي: اركب؛ وهذا الغلام الأسود يَخْدِمُكَ وَيَسُوسُ دَوَابَّكَ، وأقبل هو وامرأته يعتذران من تقصيرهما في أمري. وركب معي فشيَّعني. وانصرفت إلى بغداد وأنا على مكافأته ومجازاته، فعاقنا عن ذلك ما نحن فيه من الشغل بالأسفار واتصالها والتنقل من مكان إلى مكان.

فلما سمع الرجل الحديث قال: قد أتاك الله عز وجل بمن تريد مكافأته بلا مؤونة عليك، فقلت: وكيف ذلك؟ قال: أنا والله ذلك الرجل؛ ثم قال لي: ما أثبتك^(١)، فتعرَّف إليّ! وأقبل يذكرني بأشياء يتعرَّف بها إليّ حتى أثبتته وعرفته، فما تمالكتُ أن قمت إليه فقبلتُ رأسه، وقلتُ له: ما الذي أصارك إلى هذا؟ فقال: هاجت فتنةٌ بدمشق مثل الفتنة التي كانت في أيامك، فَنُسِبَت إليّ، وبعثَ أمير المؤمنين بجيوش فأصلحوا البلد، وحملت إليه، وأمرني عنده غليظٌ جداً، وهو قاتلي لا محالة، وقد خرجت من عند أهلي بلا وصية، وقد تبعني من عبيدي مَنْ ينصرف إلى منزلي بخبري، وهو نازل عند فلان، فإن رأيت أن تُنعم وتبعث إليه حتى يحضر فأتقدم إليه بما أريد، فإذا أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حدَّ المكافأة لي!

قال: فقال العباس: يصنع الله! ثم قال: عليّ بحدَّادين، فأتوا بهم، فحلَّ قِيُوده وما كان عليه من أنواع الأنكال، ودعا بالحجام فأحضر، وأخذ من شعره ثم قال: عليّ بمولاه، فأنفذ في طلبه مَنْ يحضره.

قال الرجل: فلما أن أخذ شعري أدخلني الحمام فطرح عليّ من ثيابه ما اكتفيتُ به، ثم حضر مولاي وقعد يبكي، فقال العباس: عليّ بفرسي الفلاني والفرس الفلاني والبغل الفلاني، حتى عدَّ عشرةً. ثم قال: عليّ من الصناديق والكسوة بكذا، ومن صناديق الطعام بكذا، ثم أمر لي ببذرة فيها عشرة آلاف درهم، وكيس فيه خمسة آلاف دينار، وقال لصاحب شُرطته: خذه واعبر به إلى جسر الأنبار.

فقلت له: إن أمري غليظ، وإن أنت احتججتَ بآني هَرَبْتُ بَعَثَ أمير المؤمنين في طلبي كلَّ مَنْ على بابه، فأردَّ وأقتل، فقال: انجُ بنفسك ودعني أدبرُ أمري. فقلت: والله لا أبرحُ من بغداد أو أعلم ما يكون من خبرك، فإن احتجتَ إلى حضوري حضرْتُ، فقال لصاحب الشرطة: إن كان الأمرُ على هذا فليكن في

(١) ما أثبتك، أي ما عرفتك حق المعرفة.

موضع كذا وكذا، فإن سلمتُ في غداة غدٍ فسييل المحبّة، وإن قتلتُ كنتُ قد وقّيته بنفسي كما وقاني بنفسه، وأنشدك الله أن تُذهب^(١) من ماله شيئاً قيمته درهم، وتخلّصه حتى تخرجه من بغداد.

قال الرجل: فأخذني صاحب الشُرطة؛ فصيّرنِي في مكان يثق به، وتفرّغ العباس لنفسه، واغتسل وتحنّط وتكفّن.

قال العباس: فلم أفرُغ من ذلك حتى وافتنني رسل المأمون في السَّحر وقالوا: أمير المؤمنين يقول: هاتِ الرجل، فسكتُ وأتيت الدارَ، وإذا أمير المؤمنين جالس؛ عليه ثيابه أمام فراشه، فقال: الرجل! فسكتُ.

فقال: ويحك! الرجل! فقلت: يا أمير المؤمنين، اسمع مِنِّي، فقال: أعطني الله عهداً لئن ذكرتُ أنه هرب لأضربنَّ عنقك، فقلت: لا والله ما هرب، فاسمع مِنِّي حديثي وحديثه، ثم أنت أعلم بما تفعله في أمرنا، قال: قل.

فقلت: يا أمير المؤمنين، كان من حديثي معه كذا وكذا... وقصصتُ عليه القصّة، وعرفته أنّي كنتُ أريد مكافأته، فشغلتُ عن ذلك، حتى إذا كان البارحة عرفته، وعبرتُ به جسرَ الأنبار، وقلت: أنا من سيّدي أمير المؤمنين بين أمرين: إما صَفَح عني، وإما قتلني وأكون قد كافيته ووقّيته بنفسي كما وقاني بنفسه.

فلما سمع المأمون الحديث قال: ويحك! لا جزاك الله خيراً عن نفسك وعنّا وعن هذا الفتى الحرّ! إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة، وتكافئه بعد المعرفة بهذا! لِمَ لا عرفتنِي خبره، فكنْتُ أكافئه عنك! فقلت: يا أمير المؤمنين، إنّه والله هاهنا قد حلّف أنّه لا يبرح حتّى يعرف سلامتي، فإن احتيجَ إلى حضوره حَضَرَ، قال: وهذه والله منه أعظمُ من الأولى، فاذهب إليه الآن وطيبْ نفسك، وسكّن روعه، وتعبّر به إلَيّ حتى أتولّى مكافأته عنك.

فصرتُ إليه وقلت: ليسكن روعك، إنّ أمير المؤمنين قال كيئتُ وكيئتُ، فقال: الحمد لله الذي لا يُحمد على السَّراء والضَّراء غيره. ثم تهيّأ للصلاة فصلّى ركعتين، ثم جئنا.

فلما مثل بين يدي المأمون أدناه حتّى أجلسه إلى جانبه، وأنسه وحديثه حتّى حضر الغداء، ثم قال: الطعام، فأكل معه، وخَلَعَ عليه، وعَرَض عليه أعمالَ دِمَشق فاستعفاه. ثم قال المأمون: عَلَيّ بعشرة أفراس بسُروجها ولجمها، وعشرة بغال

(١) ك: «يذهب».

بجميع آلِها، وبعشر بدر، وبعشرة تحوت، وعشرة ممالك بدواتهم وجميع آلِهم. فدفَع ذلك إليه، وكتب إلى عامله بالوصاية عليه، وأوغر خراجَه، وكتب إلى صاحب البريد أن يُنفذ كتبه، وصرفه إلى بلده.

قال العباس: فكان إذا ورد له كتاب في خريطة يقول لي المأمون: يا عباس، هذا كتاب صديقك!



وحدّث رجلٌ عن جعفر العطار قال: بينما يحيى بنُ أَكْثَم يمشي المأمون في بستان موسى، والشمس عن يمينه، والمأمون في الظلّ؛ وقد وَضَعَ يَدُهُ على عاتق يحيى، وهما يتحدّثان^(١)، إذ رأى المأمون أن يرجع في الطريق الذي جاء منه، فلما انتهى إلى الموضع الذي قصده، قال ليحيى: إنك جئتَ وعن يسارك الشمس، وقد أخذت منك، فكن أنت الآن في منصرفك حيث كنت، وأكون أنا حيث كنت أنت، فقال يحيى: واللّه يا أمير المؤمنين لو أمكنتني أن أقيك بنفسي من هَوْلِ المطلع لفعلتُ، فكيف لا أصبر على أذى الشمس ساعة! فقال: لا واللّه، لا بدّ من أن آخذ منها كما أخذت منك، وتأخذ من الظلّ كما أخذت منه، فصار المأمون في موضعه، وصار يحيى في موضع المأمون^(٢)، وتماشيا وأخذ بيده فوضعها على عاتقه؛ حتى صار إلى المجلس.



وحدّث رجل من آل أسوار^(٣) بن ميمون، عن عمّه عبد الله بن أسوار، قال: دخلتُ على يحيى بن خالد البرمكي يوماً فقال: اجلس - وكنتُ أحدُ كتّابه - فقلتُ: ليست معي دواة، فقال: وَيْحَكَ! في الأرض صاحب صناعة تفارقه الله! وأغلظ لي في حرفٍ علمتُ أنّه أراد به خطّي، وأراني بعض الثناقل في كتابٍ ظهر لي به أنه أراد خطّي على الأدب لا غير، ثم دعا بدواة، فكتبتُ بين يديه كتاباً منه إلى الفضل ابنه، ورأى مني بعض الضّجر فيما كتبتُ، فتوهّم أن ذلك من أجل الكلمة التي كلمني بها. فأراد أن يمحو عن قلبي ما توهّمه عليّ، فقال: عليك^(٤) دين؟ قلت: نعم، قال: كم دينك؟ قلت: ثلاثمائة ألف درهم، فوقّع بخطّه إلى الفضل في الكتاب:

(١) ك: «يتحدّثان».

(٢) ك: «فسار المأمون في الشمس ويحيى في الظل».

(٣) ك: «سوار».

(٤) ك: «أعليك».

وَكُلُّكُمْ قَدْ نَالَ شَبْعًا لِبَطْنِهِ وَشَبْعُ الْفَتَى لَوْمْ إِذَا جَاع صَاحِبُهُ
ثم قال: إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ ذَكَرَ أَنَّ عَلَيْهِ دَيْنًا يُخْرِجُهُ مِنْهُ ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ، فَإِذَا
نَظَرْتُ فِي كِتَابِي هَذَا، وَقَبْلَ أَنْ تَضَعَهُ مِنْ يَدِكَ، فَأَقْسَمْتُ عَلَيْكَ لَمَّا حَمَلْتُ ذَلِكَ
إِلَى مَنْزِلِهِ مِنْ أَحْصَى مَالٍ قَبْلَكَ.
قال: فحملها الفضل إليّ وما أعلم لها سبباً إلا تلك الكلمة.



وَحَدَّثَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مَيْمُونٍ قَالَ: حَدَّثَنِي جَبْرِيلُ بْنُ بُخْتِيشُوعَ قَالَ: اشْتَرَيْتُ
ضَيْعَةً فَنَقَدْتُ بَعْضَ الثَّمَنِ وَتَعَذَّرَ عَلَيَّ بَعْضُهُ، فَدَخَلْتُ عَلَى يَحْيَى وَعِنْدَهُ وَلَدُهُ وَأَنَا
أَفْكَرُ، فَقَالَ لِي: مَا لِي أَرَاكَ مَفْكَرًا! فَقُلْتُ: أَنَا فِي خِدْمَتِكَ - وَقَدْ اشْتَرَيْتُ ضَيْعَةً
بِسَبْعِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ، وَنَقَدْتُ بَعْضَ الثَّمَنِ، وَتَعَذَّرَ عَلَيَّ بَعْضُهُ - فَدَعَا بِالذَّوَاةِ
وَكُتِبَ: يُعْطَى جَبْرِيلُ سَبْعِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ، ثُمَّ دَفَعَ الْكِتَابَ إِلَيَّ وَلَدَهُ؛ فَوَقَعَ فِيهِ كُلُّ
وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِثَلَاثُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ، فَقُلْتُ: جُعِلَتْ فِدَاكَ! قَدْ أَدَيْتُ عَامَّةَ الثَّمَنِ، وَإِنَّمَا
بَقِيَ عَلَيَّ أَقْلُهُ، فَقَالَ: أَصْرَفَ ذَلِكَ فِي بَعْضٍ مَا يَنْوُبُكَ. ثُمَّ صَرْتُ إِلَى الرَّشِيدِ
فَقَالَ: مَا أَبْطَأَ بِكَ؟ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، كُنْتُ عِنْدَ أَبِيكَ وَإِخْوَتِكَ فَفَعَلُوا بِي
كَذَا وَكَذَا، قَالَ: فَمَا حَالِي أَنَا! ثُمَّ دَعَا بِدَابَّتِهِ فَركَّبَ إِلَى يَحْيَى فَقَالَ لَهُ: يَا أَبْتَ،
خَبَّرَنِي جَبْرِيلُ بِمَا كَانَ، فَمَا حَالِي مِنْ بَيْنَ وَلَدِكَ؟ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مُرْ لَهُ
بِمَا شِئْتَ يُحْمَلُ إِلَيْهِ، فَأَمَرَ بِحَمْلِ مَالٍ إِلَى جَبْرِيلَ.



وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَبْرِيلَ عَلَى شُرْطَةِ الْفَضْلِ، فَوَجَّهَهُ إِلَى كَابِلٍ فَافْتَتَحَهَا،
وَعَنِمَ غَنَائِمَ كَثِيرَةً، ثُمَّ وَلَّاهُ سِجِسْتَانَ، فَلَمَّا انْصَرَفَ مِنْهَا كَانَ عِنْدَهُ مِنْ مَالِ الْخِرَاجِ
أَرْبَعَةُ أَلْفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ، فَلَمَّا قَدِمَ بَغْدَادَ وَبَنَى دَارَهُ فِي الْبَغْوِيِّينَ، اسْتَزَارَ الْفَضْلَ بْنَ
يَحْيَى لِيُرِيَهُ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ، وَأَعَدَّ الْهَدَايَا وَالطَّرَفَ، وَأَنِيَّةَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَالْوُصَفَاءَ
وَالْوَصَائِفَ وَالذَّوَابَّ، وَالْقَبَابِ وَالْثِّيَابَ، وَمَا تَهَيَّأَ لِمِثْلِهِ، وَوَضَعَ الْأَرْبَعَةَ الْأَلْفَ
أَلْفِ دِرْهَمٍ فِي نَاحِيَةِ مِنَ الدَّارِ، فَلَمَّا تَغَدَّى الْفَضْلُ قَدَّمَ إِلَيْهِ تِلْكَ الْهَدَايَا، فَأَبَى أَنْ
يَقْبَلَ مِنْهَا شَيْئًا، وَقَالَ: لَمْ آتِكَ لِأَسْلُبْكَ، فَقَالَ: أَيُّهَا الْأَمِيرُ، إِنَّهَا نِعْمَتُكَ عَلَيَّ.
قال: وَلَكَ عِنْدَنَا مَزِيدٌ. قال: فَلَمْ يَزَلْ يَطْلُبُ إِلَيْهِ، فَأَخَذَ مِنْ جَمِيعِ ذَلِكَ سَوْطًا
سِجْزِيًّا فَقَالَ: هَذَا مِنْ آلَةِ الْفُرْسَانِ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: أَيُّهَا الْأَمِيرُ، فَهَذَا الْمَالُ مِنْ مَالِ
الْخِرَاجِ، تَأْمُرُ بِقَبْضِهِ. قال: هُوَ لَكَ، فَأَعَادَ عَلَيْهِ الْقَوْلَ مَرَارًا، فَقَالَ: مَا لَكَ بَيْتٌ

يَسْعُهُ! فوهب له المال بعد أن كان قد صار إليه ألف ألف درهم.



قال: ودخل قوم من حاشية المنصور وخدمه عليه، فرأى منهم رجلاً عليه سَوَادٌ خَلَقَ، فقال له: يا فلان ما لي أرى سوادك متقطعاً! أما تقبض رِزْقَكَ! قال: بلى يا أمير المؤمنين، ولكن أبي تُؤَفِّي وترك ديناً، فبعت تركته في قضاء دينه، وصرفت أكثر رِزْقِي إلى حُرْمَتِهِ وولده من بعده، فقال: أعد علي ما قلت، فأعاده، فقال: ما أحسن ما فعلت! اغدُ عَلَيَّ في غد. فغدا عليه فوجد الربيع جالساً على الكرسي، فقال: قد سأل عنك أمير المؤمنين فادخل. فدخل. فوجده قائماً يصلي، فقبض صلاته وقال: ألم آمرك أن تغدو! فقال: يا أمير المؤمنين، ما قصرت في الغدو عند نفسي! قال: خذ ما تحت تلك المضربة، وإذا السراج يزهر وسريز صغير في ناحية المجلس ينام عليه، فرفعت المضربة فإذا دنانير، فجعلت أحثوها في كمي، ثم دعوت له وخرجت، فبُصِرَ بِصُفْرَةِ دينار في ضوء السراج، فدعاني، فقال: انظر ما على السريز، فإذا ديناراً، فأخذته فقال: اذنُ مِنِّي، فدنوت منه، فعرك أذني تعريكاً شديداً، وقال: تترك ديناراً وفيه نفقة يومك! قال: فأخذت الدينارَ وَوَزَنْتُ الدنانير، وإذا هي ألف دينار؛ عددها تسعمائة وتسعة وتسعون ديناراً في عافية، وأخذت واحداً بعرك الأذن.



قيل: وقال علقمة بن لبيد^(١) لابنه: يا بُنَيَّ، إن نازعتك نفسك يوماً إلى صحبة الرجال لحاجتك إليهم، فاصحب من إن صحبته زانك، وإن تخففت^(٢) له صانك، وإذا نزلت بك نازلة مانك، وإن قلت صدق قولك، وإن صلت به شدد صولك. اصحب من إذا مددت يدك لفضل مدها، وإن رأى منك حسنة عدها، وإن بدت منك ثلمة سدّها. اصحب من لا تأتيك منه البوائق، ولا تختلف عليك منه الطرائق، ولا يخذلك عند الحقائق.



وقال بعض الحكماء: إذا رأيت كلباً ترك صاحبه وتبعك فارجمه بالحجارة، فإنه تاركك كما ترك صاحبه.

(١) المحاسن والأضداد: «ليث».

(٢) كذا في المحاسن والأضداد، وفي ك: «تحققت»، وفي ل مهمل.

وقال آخر: اصْحَبْ مَنْ خَوَّلَكَ نَفْسَهُ، وَمَلَكَكَ خِدْمَتَهُ، وَتَخَيَّرَكَ لَزْمَانَهُ، فَقَدْ وَجِبَ عَلَيْكَ حَقُّهُ وَذِمَامُهُ.

وكان يقال: مَنْ قَبِلَ صَلَاتَكَ فَقَدْ بَاعَكَ مَرُوءَتَهُ، وَأَذَلَّ لِقَدْرِكَ عِزَّهُ.

وقال بعضهم: أَنَا أَطَوُّعُ لَكَ مِنَ الْيَدِ، وَأَذَلُّ مِنَ النَّعْلِ.

وقال بعضهم: أَنَا أَطَوُّعُ لَكَ مِنَ الرِّدَاءِ، وَأَذَلُّ مِنَ الْجِذَاءِ.

قيل: وقال ابن أبي دؤاد لرجل انقطع إلى محمد بن عبد الملك الزيَّات: ما خبرُك مع صاحبك؟ قال: لا يَقْصُرُ فِي الْإِحْسَانِ إِلَيَّ. قال: يا هذا؟ إن لسان حالك يُكْذِبُ لسان مقالك^(١).

(١) ل: «قولك».

مساويء الصّحبة

قال: كان يوسف بنُ عمر الثَّقَفِيّ يتولّى العراقيين لهشام بن عبد الملك، وكان مذموماً في عمله، فحدّث المدائنيّ قال: وزن يوسف بن عمر درهماً، فنَقَصَ حَبَّةً. فَكَتَبَ إلى دُور الضَّرْب بالعراق: فضرِب أهلها مائة سوط^(١).

قيل: وَخَطَبَ في مسجد الكوفة، فتكلّم إنساناً مجنوناً؛ فقال: يا أهل الكوفة، أَلَمْ أَنهَكُم أن يدخل مجانينكم المسجد! اضربو عنقه، فضرِبَت عنقه^(١).

قال: وقال لهَمّام بن يحيى - وكان عامله: يا فاسق، أَخْرَبْتَ «مِهْرَجَانَ قُذْقُ»! قال: إني لم أكن عليها، إنما كنت على ماه دينار، وتقول: أَخْرَبْتَ «مِهْرَجَانَ قُذْقُ»! فلم يزل يوسفُ يعذِّبه حتى قتله^(١).

قال: وقال لكَاتبه: ما حبسك عني؟ قال: اشتكيتُ ضِرْسِي. قال: تشتكِي ضِرْسَكَ وتقعُد عن الدِّيوان! ودعا له بالحجّام وأمره بقلع ضرسين من أضراسه^(١).



وعن المدائنيّ، قال: حدّثني رضيعٌ كان ليوسف بن عمر من بني عَبَس، قال: كنت لا أُحِبُّ عنه وعن حُرْمَتِهِ^(٢)، فدعا ذات يوم بجوار له ثلاث، ودعا بِخَصِيٍّ أَسْوَدَ يقال له حُدَيْج^(٣)، فَقَرَّبَ إليه واحدةً، فقال لها: إني أريد الشخوصَ، أَفَأَخْلَفُك أم أَشْخِصُكَ معي؟ فقالت: صُحبة الأمير أَحَبُّ إليّ، ولكِنِّي أَحَسِبُ أن مُقامي وتخلّفي أَعْفَى وَأَخَفُّ عليّ. قال: أَحَبَبْتَ التَّخَلُّفَ لِلْفُجُور! اضرب يا حُدَيْج - فضرَبها حتى أوجَعها؛ ثم أمره أن يأتِيَه بأخرى قد رأت ما لقيتُ صاحبَتها! فقال لها: إني أريد الشخوصَ، أَفَأَخْلَفُك أم أَخْرَجُكَ؟ قالت: ما أَعْدِلُ بِصُحبة الأمير شيئاً، بل يُخرِجني. قال: أَحَبَبْتَ الجماع؛ ما تُريدين أن يفوتَكَ! اضرب يا حُدَيْج، فضرَبها حتى أوجَعها، ثم أمر بالثالثة أن يأتِيَه بها وقد رأت ما لقيتُ

(١) المحاسن والأضداد ٦٦.

(٢) المحاسن والأضداد: «خدمته».

(٣) كذا في المحاسن والأضداد؛ وحديج من أسمائهم، وفي ك، ل: «خديج».

المتقدمتان، فقال لها: أريد الخروج، أفأخلفك أم أشخصك؟ قالت^(١): الأمير أعرف^(٢) أيّ الأمرين أخفّ عليه. قال: اختاري لنفسك، قالت: ما عندي لهذا اختيار، فليختر الأمير، قال: قد فرغت أنا الآن من كلّ شيء ومن كلّ عمل، ولم يبق عليّ إلا أن أختار لك! أوجع يا حُديج. فضربها حتى أوجعها، قال الرجل: وكأنما كان يضربني من شدة غَيْظي عليه - فولّت الجارية وتبعها الخادم، فلما بُعدت قالت: الخيرةُ واللّه في فراقك، ما تَقَرَّ واللّه عينُ أحد يصحبك، فلم يفهم يوسف كلامها، فقال: ما تقول يا حُديج؟ قال: قالت: كذا وكذا، قال: يابن الخبيثة! مَنْ أمرك أن تخبرني! يا غلام، خذ السوط من يده وأوجع به رأسه، فما زال يضربه حتى اشتفيتُ^(٣).

(١) ك: «أتريدين الخروج معي أو أخلفك».

(٢) ك: «أعرف لينظر».

(٣) الخبر في المحاسن والأضداد ٦٦، ٦٧.

محاسن السخاء

رُوي عن نافع، قال: لقي يحيى بن زكرياء عليه السلام إبليس، فقال له: أَخْبِرْنِي بِأَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْكَ، وَأَبْغَضِ النَّاسِ إِلَيْكَ! قال: أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ كُلُّ مُؤْمِنٍ بَخِيلٍ، وَأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ كُلُّ مُنَافِقٍ سَخِيٍّ. قال: ولم ذاك؟ قال: لِأَنَّ السَّخَاءَ خُلِقَ اللَّهُ الْأَعْظَمَ، فَأَخْشَى أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ فِي بَعْضِ سَخَائِهِ فَيَغْفَرَ لَهُ^(١).

وقال ﷺ: «السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ، قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ. وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ، بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ؛ قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ. وَلِجَاهِلٍ سَخِيٍّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ عَابِدٍ بَخِيلٍ، وَأَدْوَى^(٢) الدَّاءِ الْبُخْلُ».

وعن النبي ﷺ قال: «مَا أَشْرَقَتْ شَمْسٌ إِلَّا وَبِجَنَّتَيْهَا^(٣) مَلَكَانِ يَنَادِيَانِ، وَإِنَّهُمَا لِيُسْمَعَانِ^(٤) الْخَلَائِقِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ^(٥): اللَّهُمَّ عَجِّلْ لِمَنْفَقٍ خَلْفًا، اللَّهُمَّ عَجِّلْ لِمَمْسِكٍ تَلْفًا. وَمَلَكَانِ يَنَادِيَانِ: يَأَيُّهَا^(٥) النَّاسُ، هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ، فَإِنَّ مَا قَلَّ وَكَفَى، خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَى^(٦)».

وعن الشَّعْبِيِّ، قال: قَالَتْ أُمُّ الْبَنِينِ بِنْتُ عَبْدِ الْعَزِيزِ أُخْتُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ - [وَكَانَتْ تَحْتَ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ] -^(٧): لَوْ كَانَ الْبَخْلُ قَمِيصًا مَا لَبِسْتُهُ، وَلَوْ كَانَ طَرِيقًا مَا سَلَكَتُهُ^(٨). وَكَانَتْ تُعْتِقُ كُلَّ^(٩) يَوْمٍ رَقَبَةً، وَتَحْمِلُ عَلَى فَرَسٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَكَانَتْ تَقُولُ: الْبَخْلُ كُلُّ الْبَخْلِ مَنْ بَخَلَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْجَنَّةِ^(١٠).

(١) المحاسن والأضداد ٧٦، ٧٧.

(٢) ط: «أدوى»، والصواب ما أثبتته من المحاسن والأضداد ٧٧.

(٣) المحاسن والأضداد: «إلا ومعهما ملكان يناديان يسمعان الخلائق؛ غير الجن والإنس، وهما الثقلان».

(٤) كذا في ك، وفي ل: «ليعرفان». (٥) المحاسن والأضداد: «أيها».

(٦) المحاسن والأضداد ٧٧. (٧) من المحاسن والأضداد.

(٨) المحاسن والأضداد: «أو طريقاً ما سلكتها»، والطريق تذكر وتؤنث.

(٩) ك: «في كل يوم».

(١٠) المحاسن والأضداد ٧٧.

قيل: وأعتقت هند بنت المهلب^(١) في يوم واحد أربعين رقبة.

وروي عن أم ذر، قالت: أرسل ابن الزبير إلى عائشة بثمانين ومائة ألف درهم، فدعت بطبق - وهي يومئذ صائمة - فقسمته بين الناس حتى أُمست وما عندها من جميع ذلك درهم واحد. فقالت: يا جارية هلُمِّي فطّرني^(٢)، فجاءتها بخبز وزيت، فقالت لها: يا عائشة، أما استطعتِ ممّا قسمت أن تشتري لحماً بدرهم! فقالت: لا تغضبي؛ فلو ذكرتني لفعلت.

وقيل: إنها صدقت بسبعين ألف درهم؛ وإن درعها لمرقع.

وقال بعض الحكماء: ثواب الجود خلف ومحبة ومكافأة، وثواب البخل حرمان وإتلاف ومذمة^(٣).

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «يا علي كن شجاعاً، فإن الله عز وجل يحب الشجاع. يا علي كن سخيّاً فإن الله عز وجل يحب السخاء؛ يا علي كن غيوراً؛ فإن الله عز وجل يحب الغيور. يا علي، وإن سائل سألك حاجة ليس لها بأهل؛ فكن أنت لها أهلاً»^(٤).

وقال ﷺ: «السخاء شجرة في الجنة، أغصانها في الدنيا، من أخذ منها بغضن قاده»^(٥) ذلك الغصن إلى الجنة.

قيل: وقال عبد العزيز بن مروان: لو لم يدخل على البخلاء في بخلهم إلا سوء ظنهم بالله عز وجل لكان عظيماً^(٦).

وقال ﷺ: «تجافوا عن ذنب السخي؛ فإن الله عز وجل يأخذ بيده كلما عثر».

وقال بهرام جور: من أحب أن يعرف فضل الجود على سائر الأشياء، فلينظر إلى ما جاد الله عز وجل به من المواهب الجليلة^(٧) النفيسة، والنسيم والريح وما وعدهم في الجنان، فإنه لولا رضاه الجود لم يصطنعه لنفسه^(٨).

قال: وقال الموبد^(٩) لأبرويز: أكنتم وآباؤكم تَمُنُّون بالمعروف، وتترصدون عليه بالمكافأة؟ فقال: لا، ولا نستحسن ذلك لخولنا وعبيدنا فكيف نرى ذلك

(١) المحاسن والأضداد ٧٧: «هند بنت عبد المطلب».

(٢) فطره: أعطاه فطوراً. (٣) المحاسن والأضداد ٧٧.

(٤) المحاسن والأضداد: «مد به».

(٥) المحاسن والأضداد ٧٨.

(٦) ل: «الجلية».

(٧) الموبد: رئيس الكهنة.

(٨) الموبد: رئيس الكهنة.

لأنفسنا! وفي كتاب ديننا: إِنَّ مَنْ أَظْهَرَ مَعْرُوفًا خَفِيًّا لِيَتَطَاوَلَ بِهِ عَلَى الْمَنْعَمِ عَلَيْهِ، فَقَدْ نَبَذَ الدِّينَ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَاسْتَوْجَبَ إِلَّا يُعَدَّ فِي الْأَبْرَارِ، وَلَا يُذَكَّرُ فِي الْأَتْقِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ^(١).

قال: وسئل الإسكندر: ما أكثر ما سُررت^(٢) به من مُلْكِكَ؟ قال: اقتداري^(٣) على اصطناع الرجال والإحسان إليهم^(٤).

قال: وقال أرسطاطاليس في رسالة له إلى الإسكندر: اعْلَمْ أَنَّ الْأَيَّامَ تَأْتِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَتُخْلِقُ الْأَثَارَ، وَتَمِيتُ الْأَفْعَالَ، إِلَّا مَا رَسَخَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ. فَأَوْدِعْ^(٥) قُلُوبَهُمْ مَحَبَّةً بِمَآثِرِكَ تَبْقَى بِهَا حُسْنَ ذِكْرِكَ، وَكِرِيمَ فِعَالِكَ. وَشَرِيفَ آثَارِكَ^(٦).

قيل: ولما قُدِّمَ بُزْرَجْمُهر إلى القتل قيل له: أنت في آخر وقت من أوقات الدنيا، وأوّل وقت من أوقات الآخرة، فتكلّم بكلام تُذَكِّرُ به، فقال: أيّ شيء أقول! الكلام كثير، ولكن^(٧) إن أمكنك أن تكون حديثاً حسناً فافعل^(٨).

قيل: وتنازع رجل من أبناء الأعاجم وأعرابي في الضيافة، فقال الأعرابي: نحن أقرى للضيف، قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنّ أحدنا ربّما لم يملك إلاّ بغيراً فإذا حلّ به ضيف نحر له، قال العجمي: فنحن أحسن مذهباً في القرى منكم. قال: وما ذاك؟ قال: نُسَمِّي الضيف «مهمان»، ومعناه أنّه أكبر من في المنزل وأملكنا به.

وقال بعض الحكماء: قام^(٩) بالجوّد، من قام بالمجهود^(٩).

وقيل: من لم يرضن^(١٠) بالموجود هو الجوّاد.

وقال المأمون: الجود بذل الموجود، والبخل سوء الظنّ بالمعبود.



(١) المحاسن والأضداد ٧٨.

(٢) المحاسن والأضداد: «ما شيدت به ملكك».

(٣) المحاسن والأضداد: «ابتداري إلى اصطناع الرجال».

(٤) المحاسن والأضداد ٧٨.

(٥) كذا في المحاسن والأضداد، وفي ط: «وأودع».

(٦) المحاسن والأضداد ٧٩.

(٧) ك: «ولكنك».

(٨) المحاسن والأضداد ٧٩.

(٩) المحاسن والأضداد: «بلغ الجود».

(١٠) ك: يضر، ك: «يظن».

قيل: وشكا رجلٌ إلى إياس بن معاوية كَثْرَةَ ما يَهَب وَيَصِل وَيُنْفَق، فقال: إِنَّ النفقة داعية إلى الرزق - وكان جالساً بين بابين - فقال للرجل: أغلق هذا الباب فأغلقه، فقال: هل تدخل الريح البيت؟ قال: لا، قال: فافتحه، ففتحه فجعلت الرياحُ تخترق البيت، فقال: هكذا الرزق، إِنَّكَ إذا غَلَقْتَ الباب لم تدخل الريح، وكذلك إذا أَمَسَكَتَ لم يَأْتِكَ [الرزق]^(١).



قيل: ووَصَلَ المأمونُ محمد بن عباد المهلبِي بمائة ألف دينار ففرَّقها على إخوانه، فبلغ ذلك المأمون، فقال: يا أبا عبد الله، إِنَّ بيوت المال لا تقوم بهذا، فقال: يا أمير المؤمنين، البخل بالموجود، سوء ظنٌّ^(٢) بالمعبود^(٣).



وعن أمية بن يزيد الأمويّ؛ قال: كنا عند عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية، فجاءه رجلٌ من أهل بيته، فسأله المعونة على تزويج^(٤)، فقال له قولاً ضعيفاً فيه وعدٌ وقلةٌ طَمَع، فلمّا قام^(٥) من عنده ومضى، دعا صاحبَ خزانته، وقال: أعطه أربعمائة دينار، فاستكثرناها وقلنا: كنت رددت عليه ردّاً ظننّا أَنَّكَ تعطيه شيئاً قليلاً، فإذا أنت قد أعطيتَه أكثر ممّا أمَل! فقال: إني أحبُّ أن يكون فعلي أحسن من قولي^(٦).



وبحاتم يُضْرَب المثل في السخاء، فحدَّثنا عن بعض رجالات^(٧) طيء قال: كان حاتمٌ جواداً شاعراً، وكان حيثما نزل عرف منزله، وكان مظهرّاً، إذا قاتَلَ غَلَب؛ وإذا غَنِمَ أَنهَب، وإذا سُئِلَ وَهَب، وإذا ضُرِبَ بالقِدْح سَبَق، وإذا أَسَرَ أطلق. وكان أقسم ألا يقتلَ واحدَ أمٍّ، ولَمّا بلغ حاتماً قولُ الملتَمِّس:

وأعلمُ علمَ حقٍّ غيرَ ظَنٍّ وتقوى الله من خيرِ العَتاد^(٨)
لحفظِ المالِ خيرٌ من بُغاه وطُوفٍ في البلادِ بغيرِ زادٍ

(١) تكملة من المحاسن والأضداد ٧٩، ٨٠.

(٢) ك: «الظن».

(٣) المحاسن والأضداد ٨٠.

(٤) ك: «التزويج».

(٥) ك: «قدم».

(٦) المحاسن والأضداد ٨٠.

(٧) المحاسن والأضداد: «حالات».

(٨) الأغاني ٢١: ١٣٦ (ساسي).

قليل المالِ تَصْلَحْه فيبْقَى ولا يَبْقَى الكثيرُ على الفَسَادِ
 قال: ما له قطع الله لسانه، حرّض الناس على البُخل! أفلا قال:
 فلا الجودُ يُفني المالَ قبلَ فنائه ولا البخلُ في مال السَّحِيح يزيْدُ^(١)
 فلا تَلْتَمِس بُخلاً بعيشٍ مقْتَر لكلِّ غِدٍ رزقٌ يعودُ جديداً
 ألم ترَ أن الرزقَ غادٍ ورائحُ وأنَّ الذي يُعطيك سوف يعيدُ!^(٢)



قيل: ولما مات حاتمٌ خرج رجل من بني أسدٍ يُعرف بالخبيريّ في نفر من قومه، وذلك قبل أن يَعْلَمَ كثيرٌ من العرب بموته، فأناخوا بقبره، فقال: والله لأحلفن للعرب أنني نزلت بحاتمٍ وسألته القرى فلم يفعل، وجعل يضربُ برجله قبره؛ وهو يقول:

أعجلُ أبا سَفَّانةٍ قِراكا فسوف أنبي سائلي ثناكا^(٣)
 فقال بعضهم: ما لك تنادي رمة! وباتوا مكانهم. فقام صاحب القول من نومه فزعاً، فقال: يا قوم، عليكم مطاياكم، فإن حاتماً أنشدني:

أبا الخيبري وأنت امرؤ ظلومُ العشيرة شَتَّامُها
 أتيت بصحبك تبغي القرى لدى حُفرةٍ صَخِبَ هامُها
 تبغي لي الدّم عند المبيتِ وحولك عَوْتُ وأنعامُها
 فإننا سنُشبع أضيافنا ونأتي المطيَّ فنعتامُها^(٤)



قيل: ونزل على حاتمٍ ضيفٌ ولم يحضره قرى، فنحر ناقة الضيف وعشاه وغداه، ثم قال له: إنك أقرضتني ناقتك فغديتك^(٥)، فاحتكم^(٦)، قال: راحلتين، قال: لك عشرون، أرضيت؟ قال: نعم، وفوق الرضا. قال: فلك أربعون، ثم قال

(١) المحاسن والأضداد ٨٠.

(٢) كذا في المحاسن والأضداد، وفي ط: «غير بعيد».

(٣) النحل: العطية.

(٤) الخبر والأبيات في المحاسن والأضداد ٨٢، وفي الأغاني ١٦: ٩٧، ٩٨، والخزانة ١: ٤٩٥، والالاء ١٤٧، مع اختلاف في الرواية.

(٥) ك: «فغديتك بها».

(٦) ك: «فأحتكم على».

لمن بحضرته من قومه: مَنْ أَتَانَا بِنَاقَةٍ فَلَهُ نَاقَتَانِ بَعْدَ الْغَارَةِ؛ فَاتَّوَهْ بِأَرْبَعِينَ فَدَفَعَهَا إِلَى ضَيْفِهِ.



وَحَكُّوا عَنْ حَاتِمٍ أَنَّهُ خَرَجَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ يَطْلُبُ حَاجَةً، فَلَمَّا كَانَ بِأَرْضِ عَنَزَةَ نَادَاهُ أَسِيرٌ لَهُمْ: يَا أَبَا سَقَّانَةَ، أَكَلَنِي الْإِسَارُ! قَالَ: وَيْلَكَ! وَاللَّهِ مَا أَنَا فِي بِلَادِي، وَمَا مَعِيَ شَيْءٌ، وَقَدْ أَسَأْتُ أَنْ نَوَّهْتُ بِي! فَذَهَبَ إِلَى الْعَنْزِيِّينَ فَسَاوَمَهُمْ بِهِ وَاشْتَرَاهُ مِنْهُمْ، وَقَالَ: خَلُّوا عَنْهُ وَأَنَا أَقِيمُ مَكَانَهُ فِي قَيْدِهِ حَتَّى أَوْدِيَ فِدَاهُ. فَفَعَلُوا فَاتَاهُمْ بِفِدَائِهِ^(١).



وَقِيلَ فِي الْمَثَلِ: هُوَ أَجْوَدُ مِنْ كَعْبِ بْنِ مَامَةَ. وَكَانَ مِنْ إِيَادٍ، وَبَلَغَ مِنْ جُودِهِ أَنَّهُ خَرَجَ فِي رَكْبٍ وَفِيهِمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ النَّمِرِ بْنِ قَاسِطٍ فِي شَهْرِ نَاجِرٍ - وَالنَّجَرِ الْعَطَشُ - فَضَلُّوا وَتَصَافَنُوا^(٢) مَاءَهُمْ، فَجَعَلَ النَّمِرِيُّ يَشْرِبُ نَصِيبَهُ، فَإِذَا أَصَابَ كَعْبًا نَصِيبَهُ قَالَ: أَعْطَ أَخَاكَ يَصْطَبِحُ، فَيُؤْثِرُهُ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى أَضَرَ بِهِ الْعَطَشُ^(٣)، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ اسْتَحَثَّ رَاحِلَتَهُ وَبَادَرَ حَتَّى رُفِعَتْ لَهُ أَعْلَامُ الْمَاءِ، وَقِيلَ لَهُ: رَدِّ كَعْبُ فَإِنَّكَ وَارِدٌ، فَغَلِبَهُ الْعَطَشُ، فَمَاتَ وَنَجَا رَفِيقُهُ^(٤).



وَقِيلَ فِي الْمَثَلِ: هُوَ أَسَمَحُ مِنْ لَافِظَةٍ، وَهِيَ الْعَنْزُ تُسْتَدْعَى لِلْحَلَبِ، فَتَجِيءُ إِلَيْهِ وَهِيَ تَلْفِظُ بِجَرَّتِهَا فَرَحًا بِالْحَلَبِ. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

يَدَاكَ يَدٌ خَيْرُهَا يُرْتَجَى وَأُخْرَى لِأَعْدَائِهَا غَائِظَةٌ
فَأَمَّا الَّتِي خَيْرُهَا يُرْتَجَى فَأَجْوَدُ جُودًا مِنَ اللَّافِظَةِ
وَأَمَّا الَّتِي شَرُّهَا يُتَّقَى فَنَفْسُ الْعَدُوِّ بِهَا فَائِظَةٌ



قِيلَ: وَخَرَجَ مَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ ذَاتَ يَوْمٍ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ: قَدْ أَمْلَيْتُكَ

(١) المحاسن والأضداد ٨٢.

(٢) تصافن القوم: تقاسموا الماء بالحصص.

(٣) محاضرات الأبرار: «فأضر بهم».

(٤) المحاسن والأضداد ٨٢ ومحاضرات الأبرار ١: ٢٦٠.

لِمُهُمْ، فما عَوْضي من ذلك! قال: إبلاغك أمنيَّتكَ، فتمنّ، قال: ألف دينار، قال: هي لك ومثلها؛ استظهاراً لبقاء النعمة عليك.

وقال المهلب بن أبي صفرة لبنيه: يا بنيّ إن ثيابكم على غيركم أحسنُ منها عليكم، ودوابكم تحتَ غيركم أحسنُ منها تحتكم.

وكان يقول لولده: لا تتكلوا على ما سبق من فعلي، وافعلوا ما يُنسب إليّ، ثم قال متمثلاً:

إنما المجد ما بنى والد الصّدق وأحيا فعاله المولود
ويقول: ابتداء الفضل يدٌ موفورة، والبذل بعد الطلب يدٌ مقبوضة.



فأمّا صِلات الخلفاء وسخاؤهم؛ فإنه حدّثنا هارون بن محمد بن إسماعيل بن موسى الهادي، قال: حدّثني عليّ بن صالح، قال: كنت يوماً على رأس الهادي وأنا غلام، وقد جَفَا^(١) المظالم ثلاثة أيام عاقر العُقار فيها، فدخل عليه الحرّاني^(٢) فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ العامّة لا تقاد - أو قال: لا تنقاد - لما أنت عليه، لم تنظر في أمر المظالم منذ ثلاثة أيام. فالتفت إليّ فقال: يا عليّ، ائذن الناس عليّ بالجفلى لا بالتقرى، فخرجت من عنده وأنا أطيّر على وجهي لا أدري ما قال لي. فقلت: أرجع فاسأله عمّا قال، فيقول: تحجّبنِي ولا تعلم كلامي! ثم أدركني ذهني؛ فبعثتُ إلى أعرابيّ كان وفَدَ علينا، فسألته عن الجفلى والتقرى، فقال: الجفلى جُفالة الرجال، والتقرى ترتيبهم. فأمرتُ بالسُّتور فرُفعت، وبالأبواب ففتّحت، فدخل الناس على بكرة أبيهم، فلم يزل ينظر في المظالم إلى الليل، فلما تقوَّض المجلس [مثلتُ بين يديه، فقال: كأنك تريد أن تذكر شيئاً يا عليّ]^(٣) قلت: [نعم]، يا أمير المؤمنين، كلّمَني بكلام لم أعرفه^(٤)، [قبل يومي هذا، وخفت مراجعتك فتقول: أتَحجّبنِي وأنت لم تعلم كلامي!] فبعثتُ إلى أعرابيّ كان عندي^(٥) ففسّره لي، وفهمني؛ فكافئه عني يا أمير المؤمنين، فقال: نعم، مائة ألف درهم تحمل إليه، فقلت: يا أمير المؤمنين، [إنه] أعرابيّ

(١) كذا في الطبري، وفي ل: «خفي»، وفي ك: «خفي عليه».

(٢) كذا في ل والطبري، وفي ك: «الخزامي».

(٣) من تاريخ الطبري.

(٤) الطبري: «لم أسمع».

(٥) الطبري: «عندنا».

جَلْف، وفي عشرة آلاف درهم ما أغناه [وكفاه]، فقال: وَيَحِكْ^(١)! أجودُ وتَبَخَّل^(٢)!



قال: وحَدَّثنا عبدُ اللَّهِ بنُ عمرو البُلْخِي، عن ابن دأب، أَنَّهُ كان يأكل مع الهادي وينادِمُهُ وكان يدعو له مَتَكاً^(٣) - وما كان يفعل ذلك في مجلسه بغيره؛ وكان لذيذ المفاكهة، طَيِّبَ المُسامرة، كثير النادرة، جيّد الشعر، حَسَنَ الانتزاع - قال: فأمر له ذات ليلة بثلاثين ألف دينار، فلما أصبح وجّه قَهْرمانُهُ إلى باب موسى وقال له: ألقِ الحاجبَ، فقل له يوجّه إلينا بهذا المال. فلقِيَ الحاجبَ، وأتاه برسالته، فتبسّم وقال: هذا ليس إليّ؛ فانطلق إلى صاحب التوقيع ليُخرج إليك^(٤) كتاباً إلى الديوان فتدبّره ثم تفعل فيه كذا وكذا. فرجع إلى ابن دأب فأخبره، فقال: دعها ولا تعرّضْ لها. قال: فبينما موسى في مستشرف له [بيغداد]^(٥) إذ نظر إلى ابن دأب قد أقبل، وليس معه إلا غلام واحد، فقال لإبراهيم الحزاني^(٦): أما ترى ابن دأب! ما غيّر من حاله شيئاً، [ولا تزيّن لنا]^(٧)؛ وقد برزناه بالأمس، لِنرى أثر ذلك عليه.

فقال إبراهيم: إن أمرني أمير المؤمنين تعرّضتُ له بشيء من أمره^(٧)؛ قال: لا، هو أعلمُ بأمره. ودخل ابنُ دأب وأخذنا في حديثه إلى أن عرّض له موسى بذكر ذلك، فقال: أرى ثوبك غسِيلاً، وهذا شتاء يُحتاج فيه إلى الثوب الجديد اللَّيّن. فقال: يا أمير المؤمنين، باعي قصير عمّا أحتاجُ إليه. قال: وكيف وقد صرفنا إليك من برّنا ما ظننّا أنّ فيه صلاحَ شأنك! قال: ما وصل إليّ ولا قبضتُه.

فدعا صاحب بيت مالِ الخَاصّة وقال: عَجَلْ له السّاعة ثلاثين ألف دينار، فأحضرتُ وجُعِلت بين يديه^(٨).



وقال الحسن بن يحيى بن عبد الخالق: حدّثني محمد بن القاسم بن الربيع،

(١) الطبري: «ويلك».

(٢) الخبر في الطبري ٣: ٥٨٢ (طبع أوروبا)، وتاريخ ابن الأثير ٥: ٨٠.

(٣) ٦: ط: «بتكاء»، وما أثبتته من الطبري.

(٤) الطبري: «له».

(٥) من الطبري.

(٦) ك: «الخزامي».

(٧) ك: «من ذلك». الطبري: «من هذا».

(٨) الخبر في تاريخ الطبري ٣: ٥٨٩، ٥٩٠ (طبع أوروبا)، وتاريخ ابن الأثير ٥: ٨٢.

قال: أخبرني محمد بن عمرو الرومي؛ قال: حدّثني أبي قال: جلّس الهادي مجلساً خاصّاً، فدعا بإبراهيم بن جعفر بن أبي جعفر، وإبراهيم بن سلّم بن قُتيبة بن سلّم، والحرّانيّ، فجلسوا عن يساره، ومعهم خادمٌ للهادي أسود يقال له أسلم، إذ دخل صالح صاحب المصلّى، فقال: هارون بن المهديّ! قال: ائذنْ له، فدخل وسلّم عليه وقبّل يده، وجلس عن يمينه بعيداً، فأطرق موسى، ثم التفت إليه وقال: يا هارون، كأنّي بك تحدّث نفسك بتمام الرؤيا وتؤمّل ما أنت منه بعيد، ودون ذلك خرط القتاد! تؤمّل الخلافة! قال: فبرك هارون على ركبتيه وقال: يا موسى، إنك إن تجرّرت وُضِعت، وإن تواضعت رُفِعت، وإن ظلمت خُتِلت^(١)، وإنّي أرجو أن يُفْضِيَ إليّ الأمر فأُنْصَف مَنْ ظَلَمْتُ، وأصل من قطعت، وأصير أولادك أعلى من أولادي، وأزوّجهم بناتي، وأبلُغ ما يجب من حق الإمام المهديّ.

فقال له موسى: ذلك الظنّ بك يا أبا جعفر، أدنْ منّي. فدنا وقبّل يده، ثم ذهب يعود إلى مجلسه فقال: لا والشيخ الجليل، والملك النبيل - أعني أباك المنصور - لا جلست إلا معي. فأجلسه في صدر المجلس معه، ثم قال: يا حرّانيّ، احمِلْ إلى أخي ألفَ ألفَ دينار وإذا افتتح الخراج فاحمل إليه النُصف، واعرض عليه ما في الخزانة^(٢) الخاصّة وسائر الخزائن من مالنا، وما أخذ من أهل بيت اللعنة^(٣) فياخذ منه ما أراد.

قال: ففعل ذلك، فلمّا قام قال لصالح: أدنْ دابّته إلى البساط.

قال عمرو الروميّ: وكان هارون يأنس به. قلت: يا سيّدي، ما الرؤيا التي قال لك؟ قال المهديّ: رأيت في منامي كأنّي دفعتُ إلى موسى قضييماً، وإلى هارون قضييماً^(٤) أورق من قضيب موسى وأعلى منه^(٥)؛ فأما قضيب هارون فأورق من أوله إلى آخره، وكان قضيب موسى دون قضيب ذلك.

فدعا المهديّ الحكم بن موسى العنزيّ^(٥). - وهو الذي بنى أبوه واسطاً للحجاج - فقال له: عبّر هذه الرؤيا. قال: يملكان جميعاً، فأما موسى فقتل أيامه،

(١) ك: «خبلت»، وفي ابن الأثير: «قتلت».

(٢) الطبري: «الخزائن».

(٣) زاد ابن الأثير: «يعني بني أمية».

(٤) الطبري: «فأورق من قضيب موسى أعلاه».

(٥) الطبري: «الضمري».

وأما هارون فيبلغ مدى آخر ما عاش خليفة، وتكون أيامه أحسن أيام وأنضرها، ودهره أحسن دهر.

قال: فلم يلبث إلا أياماً يسيرة حتى مات موسى، وتولى الأمر هارون، فزوج حمدونة من جعفر بن موسى، وفاطمة من إسماعيل، ووفى بكل ما قال. فكان دهره أحسن الدهور^(١).



محمد^(٢) بن علي بن الحسين العلوي، قال: كنت عند عمر بن الفرج الرُّخْجِيّ في اليوم الذي عَقَدَ فيه المأمون لأخيه أبي إسحاق على ثغر المغرب، ولابنه العباس على الشام والجزيرة، ولعبد الله بن طاهر على الجُند ومحاربة بابك، وعند عمر جماعة من الهاشميين، فتذاكرنا أمر هؤلاء الثلاثة، فقال عمر: فرّق أمير المؤمنين في^(٣) هؤلاء الثلاثة ما لم يفرّق مثله أحد منذ كانت الدنيا؛ أمر أخيه أبي إسحاق بخمسمائة ألف دينار، ولابنه العباس بخمسمائة ألف دينار، ولعبد الله بن طاهر بخمسمائة ألف دينار، فمن سخت نفسه بمثل هذا!



وكان للبرامكة في هذا الشأن ما لم يكن لأحد من الناس؛ منها أنهم كانوا يخرُجون بالليل سرّاً، ومعهم الأموال يتصدّقون بها، وربما دَفُّوا على الناس أبوابهم، فيدفعون إليهم الصّرة فيها ما بين الثلاثة آلاف إلى الخمسة آلاف والأكثر من ذلك والأقل، وربما طرّحوا ما معهم في عتَب الأبواب، فكان النَّاس لا يعتيادهم ذلك يعلّون إلى العتَب إذا أصبَحوا يطلبون ما أُلْقِيَ فيها.



ومنهم خالد بن برمك فإنه حدّثنا يوسف بن سلام الزعفراني، قال: حدّثني أبي قال: قال خالد بن برمك - وهو بالرّيّ، وأراد الخروج يوماً إلى مجلس له وإخراج^(٤) دوابّه إلى الخصرة^(٥) ونحن قيام بين يديه: من يخرج مع هذه الدواب؟ قال أبي: أنا - وليس أحد يجترى أن يتكلّم - فقال: أخرج معها، فخرجت وكنت

(١) الخبر في تاريخ الطبري ٣: ٥٧٦ - ٥٧٨ وتاريخ ابن الأثير ٥: ٧٨.

(٢) ك: «حدّثنا».

(٣) ك: «على».

(٤) ك: «وأخرج».

(٥) ك: «الخرصة».

أَحْسِنَ إِلَيْهَا، فلما رددْتُهَا حَمِدَ أَثَرِي فِيهَا، فقلت: أَيُّهَا الْأَمِيرُ، لِي حَاجَةٌ! فقال: وما حاجتُكَ؟ قلت: أُمِّي مَمْلُوكَةٌ لِقَوْمٍ^(١) بالبصرة، وحاجتي أَنْ يَشْتَرِيَهَا الْأَمِيرُ، قال: وكم ثمنُهَا؟ قلت: ثلاثة آلاف درهم، قال: ثلاثة آلاف؟ قلت: نعم، قال: أعطوه ثلاثة آلاف درهم، وقال لي: اشْتَرِهَا الْآنَ وَأَعْتِقْهَا. ثم قال: ما تريد؟ قلت: الْحَجَّ، أَحَجُّ وَتَحَجُّ هِيَ أَيْضاً^(٢)، قال: أعطوه ثلاثة آلاف درهم: قلت: نَحْتَاجُ إِلَى خَادِمٍ يَخْدُمُنَا. قال: أعطوه ثلاثة آلاف درهم لثَمَنٍ خَادِمٍ. قلت: نَحْتَاجُ إِلَى ثَمَنٍ كِسْوَةٍ^(٣). قال: أعطوه ثلاثة آلاف درهم لِكِسْوَتِهِمْ^(٤). فلم أزل أقولُ وَأَعِدُّ شَيْئاً شَيْئاً حَتَّى قُلْتُ: وَأَحْتَاجُ إِلَى مَنْزِلٍ، وَأَحْتَاجُ إِلَى فَرَسٍ، وَهُوَ يَقُولُ: أعطوه ثلاثة آلاف درهم، حَتَّى أَخَذْتُ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دَرَاهِمٍ.



قال: وَحَدَّثَنَا يَزِيدُ الْبَرْمَكِيُّ، قال: كَسَا خَالِدٌ كُلَّ ثَوْبٍ كَانَ لَهُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ مِنْ كِسْوَتِهِ إِلَّا طَيْلَسَانِ خَلَقَ، فَاتَّصَلَ خَبْرُهُ فِي كِسْوَتِهِ بِامْرَأَتِهِ أُمِّ خَالِدِ بِنْتِ يَزِيدٍ، وَكَانَتْ بِالرَّيِّ، فَبَعِثَتْ إِلَيْهِ بِكِسْوَةٍ مِنَ الرَّيِّ؛ طَيْلَسَانِ مُطَبَّقَ لَمْ أَرْ مِثْلَهُ جَوْدَةً وَحُسْنًا وَسَعَةً، وَكَانَ خَالِدٌ ذَا بَسْطَةٍ فِي الْجِسْمِ، فَكَانَ يَحْتَاجُ إِلَى أَسْبَغِ ثَوْبٍ وَأَتَمِّهِ، فَوُضِعَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ، فَقَالَ: يَا يَزِيدُ، كَيْفَ تَرَى هَذَا الطَّيْلَسَانَ؟ قلت: مَا رَأَيْتُ مِثْلَهُ، وَإِنَّ بِالْأَمِيرِ إِلَيْهِ لِحَاجَةٌ^(٥). قال خَالِدٌ: أَصْنَعُ بِهِ مَاذَا؟ قلتُ: تَلْبَسُهُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ. قال: أَنَا وَاللَّهِ إِلَى غَيْرِ هَذَا أَحْوَجُ. قلتُ: وَمَا هُوَ؟ قال: أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ عَلَى شَرِيفٍ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، أَوْ حَرٍّ مِنْ أَحْرَارِهِمْ فَتُتَّخِذَ بِهِ، فَيَقُومَ فَيَلْبَسُهُ كُلُّ يَوْمٍ عِيدٍ، أَوْ يَخْرُجَ^(٦) إِذَا خَرَجَ نَحْوَ أَهْلِهِ، فَيَلْبَسُهُ عِنْدَ قُدُومِهِ عَلَيْهِمْ، فَيَقُولُ: هَذَا كِسْوَةُ خَالِدٍ؛ هَذَا وَاللَّهِ أَفْضَلُ وَأَشْرَفُ مِنْ لِبْسِي إِيَّاهُ^(٧).

قال: فَكَسَاهُ بَعْضُ عِفَاتِهِ.



وَمِنْهُمْ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ، فَإِنَّهُ حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ الْأَشْقَرُ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَسْوَارٍ، قال: كُنْتُ أَخْطُ بَيْنَ يَدَيْ يَحْيَى، وَكَانَ خَطِّي يُعْجِبُهُ، فَبَيْنَا أَنَا

(١) ك: «لقرم» والقرم: السيد.

(٢) ك: «معي فقال».

(٣) ك: «الكسوة».

(٤) ك: «لثمن كسوتهم».

(٥) ك: «حاجة».

(٦) ك: «ويخرج».

(٧) ك: «له».

جالس بين يديه إذ ناوله رجل كتاباً، فَثَنَى أعلاه وَجَعَلَ يقرؤه، فدخل الفضل ابنه فسَلَّمَ وجلس، ثم أقبل على رجل يحدثه وَطَرَفَ يحيى في الكتاب الذي بيده، فقال الفضل لذلك الرجل: إني لأعجب كثيراً من أمرٍ نحن فيه! كان الرجل يصل الرجلَ بخمسين ألف درهم فتُغْنِيه وعشيرته، فيكْتَفُونَ بها، ونَرَى ذلك في وجوههم ويتبَيَّن عليهم أثره، ونحن نصل الرجلَ بخمسمائة ألف درهم والأكثر، فلا نرى ذلك في وجوههم. فالتفت إليه يحيى وقطع قراءة الكتاب، فقال: يا أبا العباس، إذا كان أَمْلُ الرجل ألف ألف درهم، وأعطيتَه خمسمائة ألف لم تَقْعُ منه مَوْقِعاً، وإنما يُرَى^(١) في وجه الرجل ما بلغ به الأمل.

فعَجَبَ أهلُ المجلس من كرمه وقوله، وما زالوا يَحْكُونَهُ^(٢) عنه.



وحدَّث ابن مَزْرُوع، عن أبيه قال: كنتُ أَسِيرُ في موكب يحيى بن خالد، فعَرَضَ له رجلٌ من العامة ومعه كتاب، فقال: أصلح الله الأمير^(٣)! اختِمَ هذا الكتاب، فبادر إليه الشاكريّة يزجرونه من حواشي موكبه، فقال: دَعُوهُ قبل ألا ننتفع به - يعني خاتمه - واستدناه فَخَتَمَهُ له. وتعجَّب مُسَايِرُوهُ من اغتنامه المعروف، وعِلِمَهُ بأفعال الرجال^(٤).



وحدَّث صالح بن سليمان، قال: وَذُكِرَ ليحيى وهو مجاور بمكة أن بجدة قوماً يصيدون السمك ويبيعونه ويشترون طعامهم به فإن^(٥) لم يجدوا صيداً مكثوا أياماً لا يأكلون، يَشُدُّ الرجل على بطنه حجراً، ولا يسألون الناس شيئاً؛ وربما مات أحدُهم جوعاً. فقال: هؤلاء أعجَبُ قوم سمعتُ بهم! ينبغي أن نلتمس الثواب فيهم، فَبَعَثَ فَحْمِلَ إليه بعضهم، فسأله عن حالهم، فأخبره، فقال: وكم أنتم؟ فذكر عِدَّة، فقال: وكلُّكم على هذه الطريقة^(٦)؟ قال: نعم. قال: فما يُغْنِيكم؟ قال: تحفر لنا بركةً يجتمع فيها ماء السماء، فإن الماء يعزُّ بالبلاد إلا على من كانت له مَصْنُعة، فيشرب منها ويبيع فضلها ويتنفع ثمنه.

قال: فبكم يكتفي أحدكم في الشهر؟ قال: بأربعة دراهم لكل رجل، وللمرأة

(٤) ك: «الزمان».

(٥) ك: «فاذا».

(٦) ك: «الحالة».

(١) ك: «ترى».

(٢) ك: «يحكون».

(٣) ك بعدها: «الوزير».

سنة دراهم، قال: فإني قد أجزيتُ لكل رجل عشرة دراهم، ولكل امرأة ثمانية عشر درهماً. فهل تتزوجون؟ قال: نعم، قال: فكم مهور^(١) نسائيكم؟ قال: أربعمئة درهم. قال: فإني أمر بإعطائكم ما أجزيت عليكم لسبع سنين، ولمهور نسائيكم عشرين ألف درهم. قال: مَنْ يدفع هذا المال إلينا؟ فأشار إلى غلام أمرّد معه، فقال: ادفع إليّ هذا المال. فدفع^(٢) إليه، فقال: أتأذن أن أشتري - أصلحك الله - من هذا المال تابوتاً أجعله فيه! قال: نعم، وأمر باتخاذ بركة لهم، بلغت النفقة عليها^(٣) عشرين ألف درهم.



وحدثنا يزيد البرمكي قال: قدم الواقدي من المدينة بأسوأ حال، فصار إلى يحيى وهو لا يعرفه، فوضع الطويلة على رأسه، فركب يحيى وخرج، فرآه جالساً على باب داره في زيّ القضاة، فقام الواقدي وأثنى عليه، ودعا له. ومرّ يحيى في موكبه إلى دار أمير المؤمنين، ثم انصرف وإذا الواقدي في مجلسه ذلك، فقام إليه ودعا له وأثنى عليه، فدخل في منزله، وجلس الواقدي فسأل يحيى عنه، وقال: مَنْ هذا الشيخ الرثّ الهيئة؟ فلم يعرفه أحد. فقال: وَيَحْكُم! لا أشك إلا أنه شيخ أصيل، معه علم وفقه، ودعا بكيس فيه أربعة آلاف دينار، وأمر وكيلاً له أن يدفعها إليه، وكان قصارى الواقدي ومناه أن يصله بألف درهم. فخرج الرسول ووضع الكيس في حجره، فلما رأى عظم الكيس، أقبل يدعو ليحيى ويشني عليه، ثم قام وانصرف إلى منزله، وقد أخذته الرعدة والحرص أن يرى ما في الكيس فيعرف منتهاه، فلما صار إلى حُجْرته استعار من بعض جيرانه ميزاناً وصنجات، ثم فتح الكيس وإذا أربعة آلاف دينار، فكاد أن يُغشى عليه من السرور، فرم من حاله، واتخذ ثياباً سويّة، وعزم على أن ينصرف إلى المدينة، فلما كان من الغد بكرّ على يحيى ليودّعه، فدخل وأنشد، فرآه عالماً فقيهاً مسامراً بليغاً. فأعجب به، فقام ليودّعه، فقال: أقم عندنا ولك في كلّ حول هذا المقدار. فأقام عنده.



وحدثنا يعقوب بن إسحاق، قال: رأى رجل من الموالى ليحيى رؤياً عجيبة، وكان يحيى على حال الخوف والوجل من الهادي، فقصّ الرؤيا على أبيه،

(١) ك: «مهر».

(٢) ك: «دفّعه».

(٣) ك: «عليه».

فقال: يا بُنَيَّ، هذه والله رؤياً^(١) عجيبة، وأخْلِقْ به؛ لأنَّ الرشيدَ في حِجره، وولايةُ العهد له.

قال: يا أبتِ؛ أفترى^(٢) أن أُخْبِرَ بها؟ قال: يا بُنَيَّ لا تفعل، فإنَّ السلطانَ غليظَ عليه، وهو يرميه بالزُّندقة، وأنا أشفقُ عليه من إتيانه، لأنَّه لا يقبلُ مثْلَ هذا في هذا الوقت، فعَصَى الرجلُ أباه وأتاه. قال الرجل: فلما دخلتُ عليه رأيتُ المصحفَ بين يديه يقرأ فيه، فعجبتُ ممّا قيل فيه، فلما خفتُ مَنْ عنده دنوتُ منه، فقصصتُ عليه الرؤيا، فقال: يابن أخِي، ما أحسنَ بالرجل أن يَلْتَمِسَ الرزقَ بالأحسن الأَجْمَل! وأقْبَحُ به أن يَلْتَمِسَهُ على هذا وبما تذكره مما يشبهه. فخرجتُ من عنده وقد سقط وجهي، فأتيتُ أبي فأعلمتهُ فقال: بعداً لك وسُحْقاً! قد نصحتُ لك فلم تقبل. ثم أقبل يشتمه وتشتُّمه أمُّه وأهله، يقولون: نشهد عليك أنَّك من الزنادقة المعطلين.

قال: ثم^(٣) لم يلبث أن توفِّي الهادي، وأفضى الأمر إلى الرشيد، وصار يحيى إلى ما صار إليه، فبينما هو في موكبهِ يوماً، إذ بَصُرَ بي، فوجَّه إليّ ودعاني فدخلتُ عليه وهو على كرسيٍّ قد طرَحَ ثوبه، وجعل يمسح وجهه، فلما دنوتُ منه قال: أين كنت عتاً؟ قلت: أعزَّكَ الله! والله ما لقيتُ منك ما يدعو إلى إتيانك، قال: ويحك! إنك أتيتنا ونحن في حال^(٤) كئنا نتخوَّف الجُدْر أن يكون فيها مَنْ يَسْعَى بنا، والإخوان أن يسعوا بنا ويحتالوا علينا، ولم يكن الرأي أن أجيبك إلا بما أجبتك. ووالله^(٥) ما فارقتني الفكر في العناية بك، والإيجاب لك، والمعرفة بحقِّك، منذ وقعتُ عليك عيني.

ثم أمر سَلاماً بإحضار عشرة آلاف درهم، فأحضرتُ، وأمر بالكتاب^(٦) إلى سليمان بن راشد بأزمينية. فدفع المال إليّ، وحَمَلَنِي وَخَلَعَ عَلَيَّ، وقال: اذهب فأصلح [بها]^(٧) شأنك، وتعالى فتسلَّم كتبك، وأمر لي بعشرة من دوابِّ البريد، فانصرفتُ إلى منزلي وتحتي دابةٌ وعليّ خِلعة، ومعِي عشرة آلاف درهم. فقال أبي: ما هذا يا بُنَيَّ؟ فأعلمتهُ الخبر، فما زلت وأهلي وأبي ندعو له ونشهدُ أنَّه من الصّديقين والشهداء والصالحين. فقلت لبعض جيراننا: ما أصنعُ بعشر دوابِّ

(١) ك: «الرؤيا والله».

(٢) ل: «فترى».

(٣) ك: «فلم».

(٤) ك: «على حال».

(٥) ك: «فوالله».

(٦) ك: «بكتاب».

(٧) من ك.

البريد؟ فقال: أكرها فإنك تصيب في السكك من تقصّر به دوابّه عن حاجته، فيكتري منك. قال: فلمّا كان من الغد عدتُ إليه، فأخذتُ كُتبي وجوّازي، فلمّا صرْتُ إلى السكّة وجدت رجلاً كبيراً قد وُجّه إلى تلك الناحية، ولم يكتفِ بما حُمِلَ عليه من الدوابّ، فأكريتُ له^(١) ثمانِي دوابّ، وخرجتُ على دابّتين، أنا على دابّة، وغلّامي على أخرى، ولم أزل في حشم المكتري حتى صرنا إلى أول العمل، فإذا يحيى قد سبقني بالكتاب إلى سليمان: أنّ رجلاً من حاله كيت وكيت، وله عندي أيادٍ، فاخترتُك له، فكن عند ظنّي بك في أمره، وافعلْ به وافعلْ.

قال: فوجّه سليمان قائداً في جند عظيم لاستقبالي، حتى إذا اتّصل به دُنوي استقبلني في وجوه أهل البلد، فلمّا دنا منّا بادر إلى الرجل المكتري منّي، ولم يشكّ أنّي هو، وسأله فأعلّمه المكتري أنّه فلان ابن فلان، فقال سليمان: توهّمْتُك فلاناً! قال: لستُ هو، ولكنّه ذاك - وأشار إليّ - فأقبل سليمان ركضاً إليّ، وتضاءلْتُ منه حياءً لثلاثة حالي، فسألني وأعلمني أنّه وجّه^(٢) إليّ وكيله، وحملَ معه هدايا، فقلتُ: ما وصل ذلك إليّ. فلما نزلنا وحططنا في بعض تلك المنازل؛ إذا وكيله قد وافى بهدياه^(٣)، وإذا دوابّ وبغال مُوقرة، وتخوت وثياب، فدخلتُ البلد وقد حسُنت حالي.

فلما كان من الغد ركب إليّ وقال: قد أعلمني أبو عليّ - أعزه الله - عن حالك، ووكد^(٤) عليّ في كتابه، وليس عندي إلا إطلاق العمل لك، وهاهنا نشوى الكبرى، ونشوى الصغرى، وهما من أجل الأعمال بأرمنيّة ونواحيها، فإن شئت أن تخرج إليهما فاخرج، وإن شئت فهاهنا من يبذل عنهما خمسمائة ألف درهم.

قلت: لا والله - أبقاك الله - إلا الخمسمائة الألف؛ عجلها لي، فأنصرف إلى أب، شيخ كبير، وعيالٍ قد خلفتهم ورائي. قال سليمان: ذاك إليك، فلمّا خرج سليمان سألت عن نشوى ونشوى قال: فليل مقاطعتهما^(٥) خمسمائة ألف درهم، ويصير إلى المقاطع مثلهما. ثم لم ألبث من الغد أن أتى رسوله بالمال، فخرجتُ وأهديتُ يحيى هدايا كثيرة، وأطافاً جليلاً ممّا كان برّني به سليمان. فلمّا دخلت إليه تبسّم إليّ وقال: إنّنا لم نوجّهك لنتنفع^(٦) بك، بل وجّهناك لنتنفع بنا،

(١) ط: «منه».

(٤) ك: «أكّد».

(٢) ك: «إليه».

(٥) ك: «مقاطعتها».

(٣) ك: «بهدايا».

(٦) ك: «بما يصير إليك».

وسَيَصِلُ^(١) معروفنا إليك فالزمنا، فكسبت بجاهه - ما مع وصل إلي منه، ولم يزل يصِلُنِي به - عشرين ألف ألف درهم.



وحدّثني أيوب بن هارون بن سليمان بن عليّ، قال: جاء يحيى ومعه ابنه جعفر إلى عبد الصمد بن عليّ، فسلم عليه، وببابة فتى من ولد عبد الله بن عليّ، فقام إلى جعفر؛ فقبل يده، فقال له: ائتني وارفع إليّ حوائجك [لأرفعها] إلى أمير المؤمنين، وقد أمرت لك بخمسة آلاف دينار. فقال يحيى: وقد أمرت لك بمثلها، وأجريت عليك ثلاثة آلاف درهم في كلّ شهر، فابعث بمن يقبض ذلك!

فلما انصرف، دعاه عبد الصمد فقال: لم فعلت ما فعلت^(٢)؟ فقال: أنا ابن أخيك، وإنما تصلني في السنة بأربعة آلاف درهم، وقد أغناني هذا وأبوه في ساعة واحدة، فكيف تلومني على ذلك!



وحدّث يحيى بن محمد، قال: لما خرج الرشيد إلى القاطول^(٣) قال ليحيى: يا أبت لا تفجعني بك، وكُنْ معي في هذا الوجه لأنس بك. فعمد إلى الشخوص معه، فقال لرجاء بن عبد العزيز - وكان على نفقاته: كم عند وكلائنا من المال؟ قال: سبعمائة ألف درهم. قال: فاقبضها إليك، فغدا إليه، فقبل يده - ومنصور بن زياد عنده - فلما خرج رجاء قال لمنصور: قد ظننت أن رجاء توهم أنا وهبنا له هذا المال، وإنما أمرناه بقبضه ليكون معنا في هذا الوجه: فقال منصور: فأنا أعلمه ذلك. قال: إذن يقول: «فقل له: يقبل يدي كما قبلت يده»؛ فلا تقل له شيئاً، وترك المال له.

وكان يحيى يقول: أسرف فإن الشرف في السرف.



ومنهم الفضل بن يحيى البرمكيّ، فإنه حدّثنا محمد بن عليّ بن عيسى بن ماهان، عن محمد بن زيد، أنه قال: دخلت على الفضل بن يحيى وقد خرج من

(١) ك: «وسيصل».

(٢) يريد تقبيل يد جعفر.

(٣) القاطول: نهر كان في موضع سائر، حفره الرشيد وبنى على فوهته قصرأ سماه أبالجند لكثرة ما كان يسقي من الأرضين، وجعله لأرزاق الجند (مراصد الاطلاع).

الحَمَام بعد العصر وهو يقول: أعوذ بالله من النار! فقلتُ: جُعلتُ فِداك! اشتر هذا الوجْه الحسن من النار. فدعا بخمسمائة ألف درهم، وقال: اشتر^(١) بها وجهي الساعة. فقلتُ: جُعلتُ فِداك! الوقت ضيق، ولكن غداً إن شاء الله، فقال: لا والله، إلّا الساعة. فوجّهتُ إلى القضاة في الجانبين ثلاثمائة ألف درهم، وحملت إلى أبي محمد السمرقندي منها صَدرًا، وأمرتهم عنه بتفريقه، وفرقتُ البقية بحضرتي، فلم تغب الشمس حتى فرّق ذلك كله.



وحدّث محمد بن الحسين بن مصعب، قال: وقَفَ الفضلُ بنُ يحيى بخراسان موقفاً لم يَقِفْه أحدٌ قطّ، خرج إلى الميدان ليضرب بالصَّوَالج، فأمر بدفاتر البقايا التي على النَّاس فأخضرتُ، وأمر الحاجب بالخروج إلى الناس، وإعلامهم^(٢) أنّه قد وهبها لهم. ثم أمر بها فضربت بالنار، وكان مبلغ ذلك أكثر من عشرين ألف ألف درهم.



وحدّث بعض الهاشميين عن خلف المصري قال: مررتُ يوماً بباب يحيى بن مُعَاذ، فوجدته مغلقاً ولم أرَ بالباب أحداً، فأنكرتُ ذلك، فدنوتُ إلى الباب واستفتحتُ، ففُتِح لي، ودخلتُ عليه، وسألته عن حاله، فذكر أنّه توارى عن غرمائه، فقلت: وكم لذيّانك عليك؟ فقال: ثلاثمائة ألف درهم، ثم مضيتُ إلى الفضل بن يحيى فأخبرته، فسكت، فلمّا انصرفتُ إلى منزلي كتب إليّ: إنّك دلّلتنا على مكرمة، فشكرناك^(٣) على ذلك وأمرنا لك بمائة ألف درهم لدلالتيك، وبعثنا إليك بثلاثمائة ألف درهم؛ لتوصلها إلى يحيى بن مُعَاذ. فأوصلتها إليه، فقبضى دينه بها.



قيل: ودفع حمزة بن جعفر بن سليمان إلى أبي التّضير الشاعر رُقعةً ليُوصلها إلى الفضل؛ يسأله فيها الإذن له في ابتياع ضيعة بفارس، وكان مبلغ ما يُوزَن في ثمنها مائة ألف درهم. قال أبو التّضير: فأخذتها منه، فدفعتها إلى الفضل، فنظر ووضعها، فاغتممتُ لما رأيت من قِلّة نشاطه لها؛ فلمّا أصبحتُ قيل لي: خرّان

(٢) ك: «وأعلمهم».

(١) ك: «إستر».

(٣) ل: «فشكرت لك ذلك».

بيت المال يطلبونك، فظننت أنه نظر لي بشيء في خاصتي، فأتيتهم، قالوا لي: أحضر من يحمل المائة الألف إلى صاحب الرقعة، فحملتها إلى حمزة، قال حمزة: فصرت إليه، فقلت له: أصلح الله الأمير! وصلت إلي صلّتك، ولا والله ما أدري كيف أشكرك إلا بقول أبي النضير فيك:

وللناس معروف وفيهم صنائع ولن يجبر الأحران إلا جدا الفضل
إذا ما العطايا لم تكن بزمكية فتلك العطايا ما تمر وما تحلي

قال أبو النضير: فالتفت إلي الفضل فقال: يا أبا النضير، جزاؤك عندي. فوصلني حتى أغناني.



وحدث أحمد بن علي السيفي^(١) وغيره ممن ينزل بنهر المهدي، قال: أقبل الفضل بن يحيى يوماً على نهر المهدي يريد منزله بباب الشماسية^(٢)، فاستقبله فتى من الأبناء قد أملك^(٣)، ومعه جماعة كثيرة قد ركبوا معه في السواد والسيوف - وهكذا كانوا يفعلون، يركبون مع الرجل عند إملاكه، ويستعيرون الدواب ويسيرون خلفه ويطرّقون بين يديه - قال: فترجل الفتى للفضل وقبل يده ورجله. فسأله عن شأنه، فأخبره فقال: كم أصدقت^(٤) أهلك؟ قال: أربعة آلاف درهم، فدعا قهرمانه وقال: احمل إليه الساعة أربعة آلاف درهم لصادق أهله، وأربعة آلاف درهم لشراء منزل ينزله، وأربعة آلاف درهم لنفقة تحويل أهله، وأربعة آلاف درهم للنفقة على الوليمة، وأربعة آلاف درهم ليتصرف بها في معيشته.

قال أحمد بن علي: فأشاروا على الفتى أن يسأله أن يأمر قواده وحشمه بإتيانه، فأمرهم بذلك، فأتوه، وجعلوا يطرحون العشرة الآلاف الدرهم والخمسة الآلاف الدرهم والأقل والأكثر في مجلسه، حتى اجتمع له خمسون ألف درهم سوى ما أعطاه الفضل.



(١) كذا في ك، والسيفي؛ بفتح السين، نسبة إلى سيف إسم رجل، وقد اشتهر بها كثيرون. وفي ل: «الشبقي». وانظر: اللباب لابن الأثير.

(٢) الشماسية، بفتح أوله وتشديد ثانيه: صحراء كانت في أعلى بغداد، ينسب إليها باب من أبوابها. مراصد الاصلاح ٢: ٨١٠.

(٣) أملك، أي تزوج.

(٤) أصدق الرجل المرأة، أي سمى لها صداقاً.

وحدّث أحمد بن عليّ، قال: حدّثنا رجل من جيراننا أنّ الفضل بن يحيى مرّ في يوم صائف^(١) منصرفاً من المدينة، يريد منزله، فقال الرجل: لا والله إنّ في منزلي قليل ولا كثير، فعطس الفضل فقلت: يرحمك الله! وقد كان سمع يميني، فأمر بعض غلمانِه أن يحملني معه على دابّته، فلمّا صار بي إلى قصره أخرج إليّ خمسة آلاف درهم وعشرة أثواب، فانصرفتُ بها إلى منزلي، فقالت لي امرأتي: والله لقد خرجت من عندنا وما^(٢) تملك قليلاً ولا كثيراً، فمن أين سرقت هذا؟ قال: فأعلمتها القصّة، فلم تصدّق قولِي، واستراب الجيران بحالي، وتناهى الخبرُ إلى السّلطان، فطمع فيّ، وأخذني فحبسني، فقلتُ له: إنّ كان من أمري كيّ وكيت، فوقع خبري إلى الفضل، فأمر بإحضاري فلما أحضرتُ ورآني عرّفني، وأمر بإطلاقي ووصلني بخمسة آلاف أخرى، وبعشرة أثواب، وقال: تعهّدنا ننفّعك.

فلم يزل ينفعه^(٣) حتى حدّث من أمرهم ما حدّث.



وعن أحمد بن محمد بن عبد الصمد، أنّ رجلاً كان ينزل على نهر المهدّي، وكانت عليه نعمة فزالت، فلم يقدر على شيء، فمطر الناس ثلاثة أيام متتابة، فبقي في منزله لا يقدر على الخروج، فأضرّ به ذلك، وبلغ إليه الجوع وإلى عياله، فلمّا كان في آخر الليل، جاء إلى البقال^(٤) بقصّعة له ليرهنها عنده على خبز، فانتهره البقال وقال: ما أصنع بهذه القصّعة! وأبى أن يعطيها عليها شيئاً.

قال: فعاد إلى منزله مغموماً لا حيلة له، فرفع يده إلى السماء وقال: اللّهمّ سقّ إليّ في هذه الليلة عبداً من عبادك تحبّه، يُفرّج عني ما أمسيتُ فيه! فما شعرتُ إلّا والباب يدق عليّ، فإذا رجل على حمار قد حَفّ به خدَم، فقال لي: كم عيالك؟ قلت: كذا وكذا، فأعطاني كيساً قدّرت أنّ فيه خمسة آلاف درهم، فقلتُ: الحمد لله الذي استجاب دعائي، وفرّج عني. فقال لي: وما كان قولك ودعاؤك؟ فخبّرتُه الخبرَ بصنيع البقال وما دعوتُ الله عزّ وجلّ به، فاستحلّفتني أني دعوتُ بهذا الدعاء! فحلّفتُ له، فأمر لي بمائة ألف درهم. فسألْتُ بعض أولئك الخدَم عنه لأعلم: هل يقدر على ما أمر لي به أم لا! فقال: هو الفضل بن يحيى بن

(١) يوم صائف، أي حار.

(٣) ك: «ينفعني».

(٢) ك: «ما»؛ وما وإن هنا نافيتان.

(٤) البقال: «بائع البقول».

خالد البرمكي، فسكنتُ إلى ذلك^(١)، وانصرفت إلى منزلي ومضيتُ إلى قهرمانه لما أصبحتُ، فقبضتُ منه المال.



وحدث خلف بن عمر المصري، قال: كنا عند الفضل ذات ليلة^(٢) فقال: أتعرفون رجلاً كانت عليه نعمة فزالت عنه حتى أردّها عليه! فقال الأشعري - وكان قاضياً: أعرفُ أصلحك الله رجلاً شريفاً من آل خالد بن عبد الله القسري بالكوفة؛ قد أضرتْ به الحاجة - وسماه له - فكتب إلى عامل الكوفة: احمل إليّ فلاناً على البريد، فقد بعثت بجوازِهِ، فلم يعلم الخالدي حتى حمله العاملُ على البريد ووجهه إليه، فلما قدم عليه دعاه وسأله عن حاله، وأمر له بمائة ألف درهم وقال: أقم بها مِروءتك حتى أنظر في أمرك، وأدبر لك ما يُصلح^(٣) حالك، ثم ولّاه كَرمان، فصار إليها، وحسنت حاله^(٤).

ثم إن كتاب صاحب البريد بها ورد على الفضل بن يحيى بوفاة الكوفي، فقال لنا: أتدرون ما قال الفارسي في مثل له، فذكر^(٥) المثل بالفارسية، ثم فسره بالعربية، فقال: إلى أن يدرك الحشيشُ قد مات الحمارُ؛ أردت بهذا الرجل الغنى؛ فمات قبل ذلك.

واغتمّ لوفاته، ولما فاته من الإحسان إليه بعد الذي قد كان أعطاه وأكسبه من مرافق العمل الذي ولّاه، وتقدّم بحمل جميع ما خلفه إلى أهله فحمل إليهم^(٦).



وحدثنا أبو طالب الجعفري قال: حدثني سليمان بن أبي جعفر، أنّ محمد بن إبراهيم الإمام، ركب إلى الفضل بن يحيى يوماً، وكان قد ركبهُ دين، وحمل حُقة^(٧) فيها جوهر، فلما وصل إليه قال: قد لزميني دين أحوجني إلى احتيال ألف ألف درهم، وعلمتُ أن التجار لا يسمّحون بإخراج مثليها، وإن وثّقنا الرهن، ولك مُعاملون، وتجار مطيعون، ومعِي رهن، فإن رأيت أن تأمر بقبضه، وحمل هذا المال إلينا، فأنت أولى بذلك! فقال الفضل: نعم، لنا تجار يطيعوننا، ويسارعون إلى أمرنا، ولكن ما هذا الرهن؟ فوضع الحُقة بين يديه، ففتحها حتى

(١) ك: «لذلك».

(٢) ك: «يوم».

(٣) ك: «ما تصلح به حالك».

(٤) ك: «أحواله».

(٥) ك: «ثم ذكر».

(٦) ك: «فحملة».

(٧) الحقة: وعاء من خشب وقد تسوى من العاج.

نظر إليها، فأعجب بالجوهر الذي فيها، ثم أمر بإعادتها إلى حالها وقال: ضع خاتمك عليها؛ فحتمها.

قال: فقال الفضل: إن نُجِّحَ الحاجة أن تقيم في منزلي الذي أنا فيه. فقال: يشق عليّ المقام. فقال: وما يشقّ عليك! إن رأيت أن تلبس من ثيابنا شيئاً دعوت لك به، وإلا فابعث إلى منزلك لتؤتي به. فأقام عنده ونهض الفضل فدعا وكيله، وأمر أن يحمل إلى منزل محمد بن إبراهيم ألف ألف درهم مبدرة، ويضعها قبالة مجلسه ليراها إذا دخل، ففعل الوكيل ذلك، وانصرف محمد إلى منزله مع المغرب، فلما دخل وقعت عينه على المال، فقال: ما هذا؟ قالوا: وجه به الفضل، قال: أحسن الله جزاءه! فإنه وإن كان وجه بذلك على ما رهناه^(١) فقد ظهر لنا من عنايته ما قدرناه فيه، قالوا: وما الرهن؟ قال: الحقّة، قالوا: قد ردّها نختمك^(٢)، فقال: أين هي؟ فأتي بالحقّة ففتحها حتّى نظر إليها وفرح فرحاً شديداً. فغدا إلى الفضل فوجده قد سبقه إلى دار أمير المؤمنين فتبعه، فلم يزل واقفاً ينتظره حتى خرج الفضل، من باب آخر، فصار إلى منزله وشكر له ما كان منه، وانصرف عنه، فلما دخل منزله وجد فيه ألف ألف درهم سوى الأولى، فقال: ما هذا؟ قالوا: بعث به الفضل فأتاه، فقال له: جعلت فداك! أما كان فيما وجهت به أمس كفاية؟ حتى أردفته بمثله! فقال: إنه والله طالت عليّ ليلتي فركبت إلى أمير المؤمنين، وأعلمته حالك، فأمرني بالتقدير لك، فقدّرتُ مائة ألف دينار؛ فما زال يقول ويماكسني حتّى وقفتُ على ألف ألف، فأمر لك بها، فلم أنصرف إلى المنزل حتّى حُمِلَ المال إليك. فقال محمد: لستُ أجِدُ لك شكراً أقضي به حقّك، غير أنّه عليّ من الأيمان المغلظة إن وقفْتُ بباب أحدٍ سواك أبداً حتّى ألقى الله عزّ وجلّ، ولا أسأل أحداً حاجةً - ما بقيتُ - سواك.

فكان لا يركب إلى أحدٍ سوى الفضل، ولا يقفُ بباب أحدٍ غيره.



ومن كرمه ما حدّث به المأمون - فكبرُ عنده واستحسنه، وعجب من جوده وسعة صدره - فأنّه بلغنا عن عمرو بن مسعدة قال: رفعت قصة إلى المأمون منسوبةً إلى محمد بن عبد الله؛ يمُت فيها بحرمة، ويزعم أنّه من أهل النعمة والقدر، وأنّه مولّى ليحيى بن خالد، وأنّه كان ذا ضيعة واسعة، ونعمة جليّة، وأنّ

(١) ك: «أرهناه».

(٢) ل: «تحت خاتمك»؛ وما أثبتته من ك.

ضِياعه قُبِضَتْ فيما قُبِضَ للبرامكة، وزالت نعمته بحلول النِّقمة عليهم. فدفعها المأمون إلى ابن أبي خالد، وأمره أن يضمَّ الرجل إلى نفسه، وأن يُجَرِّيَ عليه، ويُحسِنَ إليه. ففعل ذلك به وصلحت حاله^(١)، وتراجع أمره، وصار نديماً لابن أبي خالد لا يفارقه. فتأخَّر عنه ذات يوم لمولودٍ ولِدَ له، فبعث إليه، فاحتجب عنه، فغضب عليه ابن أبي خالد، وأمر بحبسه وتقييده وإلباسه جُبَّةً صوف، فمكث كذلك أياماً، فسأله المأمون عنه، فقصَّ عليه قصَّته، وعظَّم عليه جُرمه؛ وشكا ما يراه عليه من التَّيِّه والصِّلَف والافتخار بالبرامكة، والسموَّ بآبائهم. فأمر بإحضاره، فأحضِر في صوفه، فأقبل عليه المأمون بالتوبيخ، مصغراً لقدَّره، مُسَفِّهاً لرأيه، وعظَّم في عينه إحسان ابن أبي خالد إليه؛ مع طعن على البرامكة ووضعٍ منهم، فَأُطِنَبَ في ذلك.

فقال محمد: يا أمير المؤمنين، لقد صَغُرَتْ من البرامكة غير مصغَّر، ووضعتَ منهم غيرَ موضوع، وذهمتَ منهم غيرَ مذموم؛ ولقد كانوا شِفَاءَ أسقام دهرهم، وغيثَ إجدابِ عصرهم، كانوا مَفْزَعاً للملهوفين، وملجأً للمظلومين. وإن أذن لي أمير المؤمنين حدَّثْتُه بعض أخبارهم، ليستدلَّ بذلك على صدق قلبي فيهم، ويقفَ على جميل أخلاقهم، ومحمود مذاهبهم في عصرهم؛ والأفعال الشريفة والأأيادي النَّفِيسة. قال: هات. قال: ليس بإنصاف! محدثٌ مُقَيَّد في جُبَّة صوف! فأمر فأخذ قيَّده، فقال: يا أمير المؤمنين، أَلَمْ الجبَّة يحول بيني وبين الحديث، فأمر فخلعَ عليه، ثم قال: هات حديثك.

قال: نعم يا أمير المؤمنين، كان ولائي وانقطاعي إلى الفضل. فقال لي الفضل يوماً بمَحْضَرٍ من أبيه وأخيه جعفر: ويحك يا محمد! إنِّي أحبُّ أن تدعوني دعوةً كما يدعو الصديق صديقَه، والخليل خليلَه، فقلتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ! شأني أصغر من ذلك، ومالي يَعِجْزُ عنه، وباعي يَقْصُرُ عن ذلك، وداري تَضَيِّقُ عنه، ومُنْتَي لا تقوم له، قال: دُعْ عنك ذلك، فلا بدَّ منه. فأعدتُ عليه الاستعفاء؛ فرأيتُه جاداً في ذلك مقيماً عليه، وسألاه ذلك، وأعلَمَاه قصورَ يدي من بلوغ ما يجب ويشبه مثله، فقال لهما: لست بقانع منه دون أن يدعوني وإيَّاكما، لا رابع معنا.

فأقبل عليَّ يحيى وقال: قد أبى أن يُعْفِكَ، وإذ لم يكن غيرنا، فأفعدنا على أثاث بيتك فلا حِشْمَةَ مِنَّا، وأطعمنا من طبيخ أهلِكَ، فنحن به راضون، وعليه شاكرون. فقلتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ! إن كنتَ قد عرضتَ عليَّ ذلك وأبيتَ إلَّا هَتَكِي

(١) ك: «أحواله».

وفضيحتي؛ فلا أقلّ أن تؤجّلني حتى أتأهّب؛ فقال: استأجل لنفسك. فقلت: سنة؛ فقال: ويحك! أمعنا أمانٌ من الموت إلى سنة! فقال: يحيى: أفرطت في الأجل، ولكّني أحكم بينكما بما أرجو ألا يردّه أبو العباس، واقبله أنت أيضاً. فقلت: احكم - وفكك الله للصواب - وتفضل عليّ بالاستظهار والفسخ في المدة فقال: قد حكمتُ بشهرين.

فخرجتُ من عندهم، وبدأتُ برمّ داري، وإصلاح آلتني، وشراء ما أتجمل به من فرش وأثاث وغير ذلك، وهو في ذلك لا يزال يذكّرني، ويعدّ الأيام عليّ؛ حتى إذا كان الجمعة التي تجب فيها الدعوة قال لي: يا محمّد، قد قرب الوقت، ولا أحسبه بقيّ عليك إلا الطعام. قلت: أجل يا سيدي، فأمرت باتخاذ الطعام على غاية ما انبسطت به يدي ومقدرتي، وجاءني رسوله عشية اليوم الذي في صبيحته الدعوة، فقال لي: إلى أين بلغت؟ وهو تأذّن بالركوب؟ قلت: نعم؛ بكر. فبكر هو ويحيى وجعفر، ومعهم أولادهم وفتيانهم، فلما دخلوا أقبل عليّ الفضل وقال: يا محمّد، إنّ أوّل ما أبدأ به النّظر إلى نعمتك كلّها صغيرها وكبيرها، فقم بنا إليها حتى أدورَ فيها وأقفَ عليها، فقمّتُ معه، وطاف في المجلس، ثم خرج إلى الخزائن وصار إلى بيوت الشراب، وخرج في الإصطبلات، ونظر إلى صغير نعمتي وكبيرها، ثم عدل إلى المطبخ فأمر بكشف القدور كلّها، وأبصرَ قدراً منها فأقبل على أبيه وقال: هذا قدرك الذي يُعجبك، ولست أبرح دون أن تأكل منه. ثم كره أن يأكل فيثلم عليّ في أكله، ويفسد طعامه، فدعا برغيف فعَمَسه في القدر، وناول أباه، ثم فعل ذلك بأخيه، ودعا بخلال وخرج إلى الدار، ووقف في صحنها مقنّناً طرفه في فنائها وبنائها وسُقوفها وأزوقتها، ثم أقبل عليّ وقال: من جيرانك! قلتُ: جعلتُ فداك! عن يميني فلان ابن فلان التاجر، وعن شمالي فلان ابن فلان الكاتب، وفي ظهر داري رجلٌ من بني برجا كبير، فهو في بنائه لا يفتّر ولا يقصّر، فقال لي: أو تعرفه؟ قلت: لا، قال: كان ينبغي لك في قدرك ومحلّك من هذه الدولة ألا يجتريء أحد أن يشتري شيئاً في جوارك إلا بأمرك لا سيّما إذا كان ملاصقاً لك، ولا ترضى لنفسك إلا بجارٍ تعرفه، فقلتُ: لم يمنعني من ذلك إلا ما كنتُ فيه من الشُّغل بهذه الدعوة المباركة! فقال لي: فأين الحائط الذي يتصل بداره؟ فأومأت إليه، فقال: عليّ بنجار، فأتى به، فقال: افتح هاهنا باباً، فأقبل عليه أبوه وقال: نشدتك الله يا بُنيّ ألا تهجم على قوم لا تعرف لهم سبباً! وأقبل عليه أخوه بمثل ذلك، فامتنع دون فتح الباب، فلما رأته قد ردّ أباه وأخاه،

أمسكت عن مسألتها، ففتح الباب ودخل وأدخلني معه، فدخلت داراً حاراً بصري فيها من حُسْنِهَا، كلها لؤلؤ يُعْشِي العيون، فانتَهى إلى رواق فيه مائة مملوك في قَدِّ واحد، وزِيٍّ واحد، عليهم أقبية الدِّباج المنسوجة، والمناطق المذهبة. فلما نظروا إلى الفضل عَدَوْا ووقفوا بين يديه، وإذا شيخٌ بهيٍّ قد خرج من بعض تلك المجالس، فقبل يده، فقال: مُرُّ بنا ننظر في مرافق هذه الدار، فما دخلتُ مجلساً من مجالسه إلا وقد أفرغ تحشيتَه بالفرش الذي لا يحيط به الوصف، وكذلك مرافقها من السُّتور والبُسْط، وغير ذلك.

ثم قال للشيخ: مُرُّ بنا إلى عند الدواب، فدخلنا إصطبلًا فيه أربعمئة رأس من الدواب والبغال وغيرها، فوجدتُ ذلك الإصطبل أحسنَ بناءً من داري. ثم خرج نحو دور النساء - والشيخُ بين يديه - فلما انتهى إلى الباب، وقف الشيخُ ودخل الفضل، وجذبني إلى نفسه وأنا معه؛ حتى دخلتُ بعضَ تلك الدُّور، فإذا فيها مائة وصيفة كأنهنَّ الأقمار؛ قد أقبلن في حُلِيِّهنَّ وحُلَلِهِنَّ، فوقفن بين يديه، فقال: يا محمد، هذه الدار أجلُّ أم دارك؟ فقلت: يا سيدي، وما أنا، وما داري! هذه تصلح للأمير لا غيره - على تحرُّجٍ مِنِّي في قلبي. فقال: يا محمد، هذه الدار بما فيها من الدواب والرقيق والفرش والأواني لك، ولك عندي زيادة! فقلتُ في نفسي: يهب لي ملكٌ غيره! فعلم ما في نفسي، فقال: يا محمد، إني لَمَّا سألتُك هذه الدعوة تقدَّمت إلى هذا القهرمان بشراء البراح^(١)، وأن يعجل الفراغ منه ومن بنائه، وحولت إليها ما ترى، فبارك الله لك فيها!

وانصرف بي إلى عند أبيه وأخيه وحَدَّثهما بما جرى، فرأيت أخاه جعفرًا قد أَمْعَضُ^(٢) من ذلك، وتغيَّر وجهه تغيُّراً عرفته، ثم أقبل على أبيه يشكو الفضل ويقول: يتفرَّد بمثل هذه المكرمة من دوني! فلو شاركني فيها لكانت يداً أشكرها منه. فقال: يا أخي بقي لك منها قُطْبُها قال: وما هو؟ قال: إنَّ مولانا هذا لا يتهبُّ له ضبطُ هذه الدار بما فيها إلا بدخل جليل، فأعطه ذلك، فقال: فرجت عني يا أخي، فرج الله عنك! فدعا من وقته بصِكاكٍ لخمس قُرَيَّات واحتمل عني خراجها، فخرج عني وأنا أيسرُ أهل زمانِي! فهل تلومني يا أمير المؤمنين على ذكرهم والقول بفضلهم! فقال المأمون: ذهب القوم والله بالمكارم! ثم أمر لمحمد بمائة ألف درهم.

وتقدَّم إلى ابن أبي خالد بردَ مرتبته وتصويره في جملة خواصّه.



(٢) أمْعَضُ: أغضب.

(١) البراح: المكان الفضاء.

وحدّثنا غيره قال: اصطحب رسولٌ للفضل ورجلٌ كوفيٌّ في طريق خراسان، فأقبل الكوفيّ يسأل عن أفعال الفضل، فأخبره بإنهابه الأموال الجليلة في العطايا، فقال له الكوفيّ: خبرني عن هذه الأموال التي يهبها؛ يراها وينظر إليها! فقال: لا، قال: فمن هناك تهون عليه، فلمّا وصلا إلى الموضع دعا الفضلُ بالرسول، وسأله عمّا رأى في طريقه وعمّا سمع، فأقبل يخبره حتى انتهى إلى خبر الكوفيّ، فذكر له ما قال - وكان متكئاً فاستوى جالساً، ثم قال: يا غلام ائت صاحب بيت المال، فاسأله عن حاصله، فقال: هو: عشرة آلاف، فقال: تحمل الساعة إلى دار العامّة، وتشق عنها البدر شقّاً، وتثر في وسط الدار. قال: ففعل ذلك بها. ثم قال للرسول: هاتِ صاحبك الكوفيّ، فأتي به، وأمر الفضلُ بتفريق ذلك المال على زوّاره رجلاً رجلاً، واسماً إسماعليّاً على مقاديرهم. وما وقع لكلّ رجل منهم. ثم أمر للكوفيّ بمائة ألف درهم، وقال: هذه لك؛ لتنبهك إياي على هذا الفعل.



ومما قيل في ذلك^(١):

كريمٌ كريمُ الأمّهاتِ مُهذَّبٌ	تَحَلَّبُ كَفَّاهُ النَّدَى وَأَنَامِلُهُ
هو البحر من أيّ النواحي أتيته	فَلَجَّتُهُ الْمَعْرُوفُ وَالْجُودُ سَاحِلُهُ
جَوَادٌ إِذَا مَا جِئْتَ لِلْعُرْفِ طَالِباً	حَبَاكَ بِمَا تحوي عليه أَنَامِلُهُ
ولو لم يكن في كفّه غير رُوحه	لجَادَ بها فليَتَّقِ اللَّهَ سَائِلُهُ

وللبحتريّ في ذلك:

لو أن كَفَّكَ لم تَجِدْ لِمُؤَمِّلٍ	لكفاهُ عارضٌ وَجْهَكَ الْمُتَهَلِّلِ ^(٢)
أو أن مجدَكَ لم يكن متقدماً	أَغْنَاكَ آخِرُ سَوْدِدٍ عَن أَوَّلِ



عليّ بن يحيى النديم، قال: دعاني المتوكّل ذات يوم وهو مخمور، قال: أنشدني قولَ عُمارة^(٣) في أهل بغداد، فأنشدته:

(١) لأبي تمام، ديوانه ٣: ٢٩، مع اختلاف في الرواية.

(٢) ديوانه ٢: ١٨٠.

(٣) نسبها ياقوت في معجم البلدان ٧: ٤٠٩ إلى دعبل وقال: يهجو الحسن بن رجاء وابني هشام: أحمد وعلياء ودينار بن عبد الله ويحيى بن أكثم، وهؤلاء كانوا يسكنون المخرم.

مَنْ يَشْتَرِي مِنِّي مُلُوكَ الْمَخْرَمِ أَبْعَ حَسَنًا وابْنِي هِشَامَ بِدَرَهَمٍ^(١)
وَأُعْطِي رَجَاءً بَعْدَ ذَلِكَ زِيَادَةً وَأَمْنَحُ دِينَارًا بِغَيْرِ تَنْدُمٍ
وإن طلبوا مني الزيادة زدّتهم أَبَا دُلْفٍ والمستطيلَ ابْنَ أَكْثَمِ^(٢)
فقال المتوكل: ويلي على ابن البوال على عقبه! يهجو شقيق دولة بني
العبّاس! قلت: يا سيدي، مَنْ شقيق دولة بني العبّاس؟ فقال: القاسم بن عيسى،
فهل عندك من مديحه شيء؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قول الأعرابي الذي
يقول:

أَبَا دُلْفٍ إِنَّ السَّمَاةَ لَمْ تَزَلْ مُغَلَّلَةً تشكو إلى الله غُلَّهَا
فَبَشَّرَهَا رَبِّي بِمِيلَادِ قَاسِمٍ فَأَرْسَلَ جَبْرِيلاً إِلَيْهَا فَحَلَّهَا^(٣)
وَلِبَكْرِ بْنِ النَّطَّاحِ فِي أَبِي دُلْفٍ:
بَطَلٌ بِصَدْرِ حُسَامِهِ وَسِنَانِهِ أَجَلَانِ مِنْ صَدْرٍ وَمِنْ إِيرَادِ^(٤)
وَرِثِ الْمَكَارِمِ وَابْتَنَاهَا قَاسِمٌ بِصَفَائِحِ وَأَسْنَةِ وَجِيادِ
يَا عَصَمَةَ الْعَرَبِ الَّتِي لَوْ لَمْ تَكُنْ حَيًّا إِذَا كَانَتْ بِغَيْرِ عِمَادِ
إِنَّ الْعَيُونَ إِذَا رَأَتْكَ حِدَادُهَا رَجَعَتْ مِنَ الْإِجْلَالِ غَيْرَ حِدَادِ
وَإِذَا رَمَيْتِ الشَّجَرَ مِنْكَ بِعِزْمَةٍ فَتَحَتْ مِنْهُ مَوَاضِعَ الْأَسْدَادِ
وَكَأَنَّ رُمَحَكَ مُنْقَعٌ فِي عُصْفُرٍ وَكَأَنَّ سَيْفَكَ سُلٌّ مِنْ فِرْصَادِ^(٥)
لَوْ صَالَ مِنْ غَضَبِ أَبِي دُلْفٍ عَلَى بَيْضِ السَّيُوفِ لَذُبْنَ فِي الْأَغْمَادِ
أَذْكَى وَنَوَّرَ لِلْعِدَاوَةِ وَالْهَوَى نَارَيْنِ: نَارَ دَمٍ وَنَارَ رَمَادِ^(٦)
وقال أبو هفّان: أنشدته عبد العزيز بن أبي دُلْفٍ بسرّاً من رأى، فبرّني ثم
قال: هل خلق مثله؟ قلت: لا.



(١) المخرم: محلة ببغداد بين الرصافة ونهر المعلى.

(٢) رواية ياقوت للبيت:

فإن رُدَّ مِنْ عَيْبِ عَلَيِّ جَمِيعُهُمْ فَلَيْسَ يَرُدُّ الْعَيْبَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمِ

(٣) المحاسن والأضداد ٨٤.

(٤) المحاسن والأضداد ٨٣.

(٥) الفرصاد: صبغ أحمر.

(٦) المحاسن والأضداد: «زناد».

ولغيره في أبي دُلفٍ :

ولو يَجُورُ لقالَ الناسَ كُلَّهُم
قَرُمٌ إذا ما حوى في كَفِّهِ حَجَرًا
وأُشَدُّ أيضاً رَحِمَهُ اللَّهُ :

خَلُّ إذا جئتهُ يوماً لتَسأَلَهُ
يُخَفِّي صَنائِعَهُ وَاللَّهُ يُظْهِرُهَا
وأُشَدُّ :

يَدَاكَ يَدٌ غِيْثُهَا مُرْسَلٌ
فَأَمَّا الَّتِي سِيْبُهَا يُرْتَجَى
وَأَمَّا الَّتِي شَرُّهَا يُتَّقَى
فَتَى عَاهَدَ الرَّحْمَنَ فِي بَذْلِ مَالِهِ
فَتَى قَصُرَتْ أَمَالُهُ عَنْ فِعَالِهِ
وقال آخر :

عَادَ السُّرُورَ إِلَيْكَ فِي الْأَعْيَادِ
رِفْقاً بِشُكْرِ جَلِّ مَا أَوْلَيْتَهُ
مَلَأَ النُّفُوسَ مَهَابَةً وَمَحَبَّةً
مَا إِنْ أَرَى لَكَ مُشَبِّهاً فَيَمُنْ أَرَى
وقال آخر :

إذا ما أَتَاهُ السَّائِلُونَ تَوَقَّدَتْ
لَهُ فِي ذُرَا الْمَعْرُوفِ نُعْمَى كَأَنَّهَا
عليه مصابيحُ الطَّلَاقَةِ وَالْبِشْرِ^(٧)
مَوَاقِعُ مَاءِ الْمَزْنِ فِي الْبَلَدِ الْقَفْرِ

(١) المحاسن والأضداد ٨٤.

(٢) المحاسن والأضداد ٨٤، والرواية هناك : « حر إذا جئته ».

(٣) المحاسن والأضداد ٨٥.

(٤) المحاسن والأضداد ٨٤.

(٥) كذا في ك والمحاسن والأضداد، وفي ل : « متعمماً ».

(٦) المحاسن والأضداد :

* إن الكرامَ قليلةُ الأنداد *

(٧) المحاسن والأضداد ٨٥.

محاسن صلات الشعراء

قيل: دخل جريرٌ على عبد الملك بن مروان؛ وقد أوفده إليه الحجاج بن يوسف، فدخل محمد بن الحجاج، فقال: يا أمير المؤمنين، هذا جريرٌ مَدْحُكٌ وشاعِرُك؛ فقال: بل مَدْحُ الحجاج وشاعِرُه! فقال جرير: إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في إنشاده مَدْحَةً! قال: هات. ابدأ بالحجاج؛ قال: بل بك يا أمير المؤمنين؛ فقال: هات، ابدأ بالحجاج، فأنشده:

صَبِرْتُ النَفْسَ يَا بَنَ أَبِي عَقِيلٍ مُحَافِظَةً فَكَيْفَ تَرَى الثَّوَابَا^(١)
وَلَوْ لَمْ تُرْضِ رَبَّكَ لَمْ يُنْزَلْ مَعَ النَّصْرِ الْمَلَائِكَةُ الْغَضَابَا
إِذَا سَعَرَ الْخَلِيفَةُ نَارَ حَرْبٍ رَأَى الْحَجَّاجَ أَثَقَبَهَا شَهَابَا
فقال: صدقت! كذاك هو؛ ثم قال للأحظل: قُمْ فهاتِ مديحاً؛ فقام فأنشد وأجاد وأبلغ، فقال: أنت شاعرنا، وأنت مَدْحُنَا، قم فارْكِبْه، فألقى التَّصْرَانِيَّ ثوبَه، وقال: خَبِّ يَا بَنَ الْمَرَاغَةِ! فساء ذلك من حُضْرٍ مِنْ مُضَرٍّ، وقالوا: يا أمير المؤمنين، إن التَّصْرَانِيَّ لَا يَرْكَبُ الْحَنِيفَ الْمُسْلِمَ، فاستحيا عبد الملك وقال: دَعُهُ.
قال جرير: فانصرفْتُ أَخْرَى خَلْقَ اللَّهِ، حتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ الْوَدَاعِ دَخَلْتُ لَأُودِّعَهُ فأنشدته:

أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونَ رَاحٍ!^(٢)
فقال: بلى، نحن كذلك، أعدْ، فأعدْتُ، وأسْفَرَ لُونُهُ، وذهب ما كان في قلبه، فالتفت إلى محمد بن الحجاج فقال: أترى أَمَ حَزْرَةَ يَرْوِيهَا مَائَةٌ مِنَ الْإِبِلِ؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، إن كانت من فرائض كلبٍ فلم تُرَوِّها، فلا أرواها الله! فأمر لي بمائة من الإبل.



(١) ديوانه ١٧، من قصيدته التي مطلعها:

سَأَلْتُ مِنَ الْمَوَاصِلَةِ الْعَنَابَا وَأَمْسَى الشَّيْبُ قَدْ وَرِثَ الشَّبَابَا

(٢) ديوانه ٩٨.

وحدَّثنا المدائني؛ عن كيسان، عن الهيثم، قال: حجَّ عبد الملك بن مروان ومعه الفرزدق، فبينما هو قاعد بمكة في الحجر، إذ مرَّ عليُّ بنُ الحسين بن عليِّ بن أبي طالب، وعليه مُطَرَفُ خَزْر، فقال عبد الملك: مَنْ هذا يا فرزدق؟ فأنشأ يقول:

هذا الَّذِي تَعْرِفُ البطحاء وطأته والبيتُ يَعْرِفُهُ والحلُّ والحَرَمُ^(١)
 هذا ابنُ خيرٍ عبادِ اللَّهِ كلِّهم هذا التقيُّ النقيُّ الطاهرُ العَلَمُ
 إذا رَأَتْهُ قَريشٌ قالَ قائلُها: إلى مكارِمِ هذا يَنْتَهِي الكَرَمُ
 يكادُ يُمَسِّكُهُ عِرفانَ راحتهِ رُكنُ الحطيمِ إذا ما جاءَ يستلِمُ
 يَنمى إلى ذُرْوَةِ العِزِّ الَّتِي قَعَدَتْ عَن نَّيلِها عَرَبُ الإسلامِ والعِجَمُ
 مُشتَقَّةٌ منَ رسولِ اللَّهِ نَبْعَتُهُ طابَتْ عِناصِرُهُ والخِيَمُ والشِيَمُ
 في كَفِّهِ خِيزَرانُ رِيحِهِ عَبِقُ منَ كَفِّ أَرْوَغٍ في عِرْزِينِهِ شَمَمُ
 يَنشِقُّ نورُ الدجى عن نُورِ غُرَّتِهِ كالشمسِ تَنجِبُ عَن إشراقِها الظُّلَمُ
 يَغْضِي حِياءً وَيُغْضِي من مهابتِهِ فَمَا يَكَلِّمُ إِلَّا حينَ يَبْتَسِمُ
 من مَعْشَرِ حُبِّهِم دِينٌ وبغْضِهِم كُفْرٌ وَقُرْبُهُم مُنْجى ومَعْتَصِمُ
 يَسْتَدْفِعُ السَّوءَ والبلوى بِحَبِّهِم وَيُسْتَرْبُ به الإحسانُ والتَّعَمُّ
 لا يَسْتَطِيعُ جِوادٌ بَعْدَ غايتِهِم ولا يُدانيهِمُ قومٌ وإن كَرُمُوا
 إنَّ عُدَّ أَهْلَ النَّدَى كانوا أئمتَّهُم أو قِيلَ مَنْ خَيْرِ أَهْلِ الأرضِ قِيلَ: هُمُ
 مَقْدَمٌ بَعْدَ ذِكرِ اللَّهِ ذِكرُهُم في كُلِّ بَرٍّ ومَخْتومٌ به الكَلِمُ

قال: فلما فرغ من شعره، قال له عبد الملك: أو رافضي أنت يا فرزدق؟ فقال: إن كان حبُّ أهل البيت رَفْضاً فَنَعَمْ. فحَرَمَهُ عبد الملك جائزته، فتحمل عليه بأهل بيته، فأبى أن يعطيه، فقال له عبد الله بن جعفر بن أبي طالب: ما كنت تؤمِّل أن يُعطيك؟ قال: ألف دينار في كلِّ سنة. قال: فكم تؤمِّل أن تعيش؟ قال: أربعين سنة. قال: يا غلام، عليّ بالوكيل فدعاه إليه وقال: أعطِ الفرزدق أربعين ألف دينار؛ فقبضها منه.



قيل: ودخل الفرزدق على سَكِينَةَ بنتِ الحسين، فقالت له: مَنْ أشعر

(١) أبيات منها في الأغاني ١٥: ٣٢٧ (طبعة دار الكتب) وقال: «ومن الناس من يروي هذه الأبيات لداود بن مسلم في قثم بن العباس، ومنهم من يرويها لخالد بن يزيد معه... والصحيح أنها للحزين الكناني».

الناس؟ فقال: أنا، قالت: كذبت! أشعرُ منك الذي يقول^(١):

بِنَفْسِي مَنْ تَجَنَّبَهُ عَزِيزٌ عَلَيَّ وَمَنْ زِيَارَتُهُ لِمَامٌ
وَمَنْ أُمْسِي وَأُصْبَحُ لَا أَرَاهُ وَيَطْرُقُنِي إِذَا هَجَعَ النِّيَامُ
فقال: أما والله لئن تركتني لأسمعَنَّك ما هو أحسن منه. فقالت: أخرجوه عني، ثم عادَ من الغد. فقالت: مَنْ أشعرُ الناس؟ قال: أنا. قالت: كذبت، أشعرُ منك الذي يقول:

يَا بَيْتَ عَاتِكَةَ الَّذِي أَتَعَزَّلُ حَذَرَ الْعِدَى وَبِهِ الْفَوَاضِلُ^(٢)
إِنِّي لَأَمْنَحُكَ الصُّدُودَ وَإِنِّي قَسَمًا إِلَيْكَ مَعَ الصَّدُودِ لَأُمِيلُ
فقال: أما والله لئن تركتني لأسمعَنَّك أحسنَ منه، فقالت: أخرجوه عني. ثم عاد من الغد وعندها جوار كالتمثيل، فأخذت جاريةً منهن بقلبه، فقالت سُكينة: من أشعرُ الناس؟ قال: أنا؛ قالت: كذبت! أشعرُ منك الذي يقول:

إِنَّ الْعَيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِنَ قَتْلَانَا^(٣)
فقال: يا بنتَ رسولِ الله، إن لي حقاً بإقبالي عليك من مَكَّة، ولا أراك تَدْعِينِي أَسْمِعُكَ شِعْرِي وَلَا تَرِيدِينِي عَلَى التَّكْذِيبِ، مع أنني لأخاف لما بي أني لا أبرح إلا مَيِّتاً، ولي حاجة! قالت: فما هي؟ قال: إن أنا متُّ تأمرين بتكفيني في ثياب هذه - وأشار إلى الجارية - فقالت: هي لك، وضمت إليها جائزةً وكسوة.



وعن أبي الزناد، قال: اجتمع جرير والفرزدق وجميل وكثير ونصيب في منزل سُكينة بنتِ الحسين، فخرجت جاريةً ومعهما قِرطاس وقالت: أيكم الفرزدق؟ فقال: هأنذا! قالت: أنت الذي تقول:

أَبَيْتُ أَمْنِي النَّفْسَ أَنْ سَوْفَ نَلْتَقِي وَهَلْ هُوَ مَقْدُورٌ لِنَفْسِي لِقَاؤُهَا^(٤)
فَإِنْ أَلْقَاهَا أَوْ يَجْمَعُ الدَّهْرُ بَيْنَنَا فَفِيهَا شِفَاءُ النَّفْسِ مِنْهَا وَدَاؤُهَا
قال: نعم. قالت: قولك أحسن من مَنْظرك، وأنت القائل:

(١) الخبر في الأغاني ٧: ٥٠ (ساسي)، وفيه: «أشعر منك جرير الذي يقول»، والبيتان في ديوانه ٥١٢.

(٢) للأحوص، الأغاني ١٨: ١٩٥ (ساسي).

(٣) لجرير، ديوانه ٥٩٥.

(٤) ديوانه ١: ٧ مع اختلاف في الرواية.

وَدَّعَنْزِي بِإِشَارَةٍ وَتَحِيَّةٍ وَتَرَكْتُنِي بَيْنَ الدَّيَارِ قَتِيلًا
لَمْ أَسْتَطِعْ رَدَّ الْجَوَابِ عَلَيْهِمْ عِنْدَ الْوَدَاعِ وَمَا شَفَيْنَ غَلِيلًا
لَوْ كُنْتُ أَمْلِكُهُمْ إِذَا لَمْ يَبْرَحُوا حَتَّى أُوَدِّعَ قَلْبِي الْمَخْبُولًا
قال : نعم . قالت : أَحْسَنْتَ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ! وَأَنْتَ الْقَائِلُ :

هِمَا دَلَّتَانِي مِنْ ثَمَانِينَ قَامَةً كَمَا انْقَضَ بَارُ أَقْتَمِ الرِّيشِ كَاسِرُهُ^(١)
فَلَمَّا اسْتَوَتْ رِجْلَايَ فِي الْأَرْضِ نَادَتَا : أَحْيِي فَيَرْجِي أُمَّ قَتِيلٍ نَحَاذِرُهُ^(٢)
فَقُلْتُ ارْفَعُوا الْأَسْبَابَ لَا يَشْعُرُوا بِنَا وَوَلَّيْتُ فِي أَعْجَازِ لَيْلٍ أَبَادِرُهُ
أَحَاذِرُ بَوَابِئِن قَدْ وُكِّلَا بِهَا وَأَحْمَرُ مِنْ سَاجٍ تَبْصُ مَسَامِرُهُ^(٣)
فَأَصْبَحْتُ فِي الْقَوْمِ الْقَعُودِ وَأَصْبَحْتُ مَغْلَقَةً دُونِي عَلَيْهَا دَسَاكِرُهُ^(٤)
قال : نعم ، قالت : سُوءَةٌ لَكَ ؛ قَضَيْتَ حَاجَتَكَ فَأَفْشَيْتَ عَلَيْهَا وَعَلَى نَفْسِكَ !
فَضْرَبَ بِيَدِهِ عَلَى جَبْهَتِهِ ؛ وَقَالَ : نَعَمْ . فَسُوءَةٌ لِي !

ثُمَّ دَخَلْتُ وَخَرَجْتُ وَقَالَتْ : أَيُّكُمْ جَرِيرٌ ؟ فَقَالَ : هَاأَنْذَا ! قَالَتْ : أَنْتَ الْقَائِلُ :
رُزِقْنَا بِهِ الصَّيْدَ الْغَزِيرَ وَلَمْ نَكُنْ كَمَنْ نَبَلُهُ مُحْرُومَةٌ وَحِبَائِلُهُ^(٥)
فَهِيَاهُ هِيَاهُ الْعَقِيقُ وَمَنْ بِهِ وَهِيَاهُ حَيٌّ بِالْعَقِيقِ نُوَاصِلُهُ !^(٦)
قال : نعم ، قالت : أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ! وَأَنْتَ الْقَائِلُ :

كَأَنَّ عَيُونَ الْمُجْتَئِلِينَ تَعَرَّضَتْ وَشَمْسًا تَجَلَّى يَوْمَ دَجْنِ سَحَابُهَا^(٧)
إِذَا ذُكِرَتْ لِلْقَلْبِ كَادَ لَذْكِرِهَا يَطِيرُ إِلَيْهَا وَاعْتَرَاهُ عَذَابُهَا
قال : نعم ؛ قالت : أَحْسَنْتَ ، وَأَنْتَ الْقَائِلُ :
سَرِّ الْهَمُومُ فَبِثْنِ غَيْرَ نِيَامٍ وَأَخُو الْهَمُومِ يَرُومُ كُلَّ مَرَامٍ^(٨)

(١) ديوانه ١ : ٢٥٩ مع اختلاف في الرواية .

(٢) الديوان : « يَرْجِي » بِالْجِيمِ الْمَشْدُودَةِ .

(٣) فِي الدِّيَّانِ :

* وَأَسْمَرَ مِنْ سَاجٍ تَطُّطُ مَسَامِرُهُ *

(٤) دَسَاكِرُهُ : قُبَابُهُ .

(٥) ديوانه ٤٧٩ ، وَرَوَاتُهُ : « وَلَمْ أَكُنْ » .

(٦) رَوَايَةُ الدِّيَّانِ :

فَأَيْهَاتُ أَيْهَاتِ الْعَقِيقُ وَمَنْ بِهِ وَأَيْهَاتُ وَضَلَّ بِالْعَقِيقِ نُوَاصِلُهُ
(٧) ديوانه ٥٢ .

(٨) ديوانه ٥٥١ .

طَرَقْتُكَ صَائِدَةً الْقُلُوبَ وَلَيْسَ ذَا وَفَتَ الزِّيَارَةَ فَارْجَعِي بِسَلَامٍ
لَوْ كَانَ عَهْدُكَ كَالَّذِي حَدَّثْتَنِي لَوْصَلْتُ ذَاكَ فَكَانَ غَيْرَ زَمَامٍ
تُجَرِّي السَّوَاكَ عَلَى أَغْرَ كَأَنَّهُ بَرْدٌ تَحْدَرُ مِنْ مُتُونِ غَمَامٍ
قال: نعم، قالت: سوأة لك! جعلتها صائدة القلوب، حتى إذا أناخت ببابك
جعلت دونها حجاباً! ألا قلت:

طَرَقْتُكَ صَائِدَةً الْقُلُوبَ فَمَرَّحَباً نَفْسِي فِدَاؤُكَ فَاذْخُلِي بِسَلَامٍ
قال: نعم. فسوءة لي! ودخلت وخرجت، وقالت: أيكم كُثِير؟ فقال:
هاأنذا! قالت: أنت القائل:

وَأَعْجَبَنِي يَا عَزَّ مِنْكَ خَلَائِقُ حِسَانٌ - إِذَا عُدَّ الْخَلَائِقُ - أَرْبَعُ^(١)
دُنُوكَ حَتَّى يَطْمَعَ الصَّبُّ فِي الصَّبَا وَقَطْعُكَ أَسْبَابَ الصَّبَا حِينَ تَقْطَعُ
فَوَاللَّهِ مَا يَذْرِي كَرِيمٌ مَطْلَتِهِ أَيَشْتَدُّ إِنْ قَاضَاكَ أَمْ يَتَضَرَّعُ!
قال: نعم، قالت: أعطاك الله منك! وأنت القائل:

هَنِيئاً مَرِيئاً غَيْرَ دَاءٍ مَخَامِرٍ لَعَزَّةٍ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتِ^(٢)
فَمَا أَنَا بِالْدَّاعِي لِعَزَّةٍ فِي الْوَرَى وَلَا شَامِتٍ إِنْ نَعْلُ عَزَّةً زَلَّتِ
وَكُنْتُ كَذِي رَجُلَيْنِ رَجُلٍ صَحِيحَةٍ وَرَجُلٍ رَمَى فِيهَا الزَّمَانُ فَشَلَّتِ
قال: نعم! قالت: أحسن الله إليك! ثم دخلت وخرجت، وقالت: أيكم
نصيب! فقال: هاأنذا، قالت: أنت القائل:

وَلَوْ لَا أَنْ يَقَالَ صَبَا نُصِيبُ لَقُلْتُ: بِنَفْسِي النَّشَأُ الصَّغَارُ^(٣)
أَلَا يَأْتِيَنِي قَامَرْتُ عَنْهَا وَكَانَ يَحُلُّ لِلنَّاسِ الْقِمَارُ!
فَصَارَتْ فِي يَدِي وَقَمِرْتُ مَالِي وَذَاكَ الرَّبْحُ لَوْ عَلِمَ التَّجَارُ!
عَلَى الْإِعْرَاضِ مِنْهَا وَالتَّوَانِي فَإِنْ وَعَدْتُ فَمَوْعِدُهَا ضِمَارُ
بِنَفْسِي كُلِّ مَهْضُومٍ حَشَاها إِذَا قَهَرْتُ فَلَيْسَ بِهَا انْتِصَارُ
إِذَا مَا الزُّلْ ضَاعَفْنَ الْحَشَايَا كَفَاهَا أَنْ يُلَاثَ بِهَا إِزَارُ
وَلَوْ رَأَتْ الْفَرَّاشَةَ طَارَ مِنْهَا مَعَ الْأَرْوَاحِ رَوْحٌ مُسْتَطَارُ

(١) الموشح للمرزباني ١٦٨، ١٦٩، مع اختلاف في الرواية.

(٢) أمالي القاضي ٢: ١٠٧.

(٣) بيتان منها في الأغاني ١٤: ١١٦ (ساسي).

قال: نعم. قالت: واللّه إنَّ إحداهنَّ لتقوم من نَوْمِها فما تحسِّن أن تتوضأ!
لا حاجة لنا في شعرك.

ثم دخلتُ وخرجتُ وقالت: أيكم جميل؟ قلتُ: أنا، قالت: أنت القائل:
لَقَدْ ذَرَفَتْ عَيْنِي وَطَالَ سُفُوحُهَا فَأَصْبَحَ مِنْ نَفْسِي سَقِيمًا صَحِيحُهَا^(١)
أَلَا لَيْتَنَا كُنَّا جَمِيعًا، وَإِنْ نُمْتُ يُجَاوِرُ فِي الْمَوْتِ ضَرِيحِي ضَرِيحُهَا
أَظَلُّ نَهَارِي مَسْتَهَامًا وَيَلْتَقِي مَعَ اللَّيْلِ رُوحِي فِي الْمَنَامِ وَرُوحُهَا
فَهَلْ لِي فِي كِتْمَانِ حَبِّي رَاحَةٌ وَهَلْ تَنْفَعَنِي بَوْحَةٌ لَوْ أَبُوحُهَا!
قال: نعم، قالت: بارك الله عليك! وأنت القائل:

خَلِيلِي فِيمَا عَشْتُمَا هَلْ رَأَيْتُمَا قَتِيلًا بَكَى مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَبْلِي!^(٢)
أَبَيْتُ مَعَ الْهَلَائِكِ ضَيْفًا لِأَهْلِهَا وَأَهْلِي قَرِيبٌ مُوسِعُونَ ذُوو فَضْلٍ
فَيَا رَبِّ إِنْ تَهْلِكْ بُشَيْنَةٌ لَا أَعِشْ فُؤَادًا وَلَا أَفْرَحَ بِمَالِي وَلَا أَهْلِي^(٣)
وَيَا رَبِّ إِنْ وَقِيتَ شَيْئًا فَوْقَهَا حُتُوفَ الْمَنِيَا، رَبِّ وَاجْمَعْ بِهَا شَمْلِي
قال: نعم، قالت: أَحْسَنْتَ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ! وأنت القائل:

أَلَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ أَبَيْتَنَ لَيْلَةً بُوَادِي الْقُرَى! إِنِّي إِذَا لَسَعِيدُ^(٤)
لِكُلِّ حَدِيثٍ عِنْدُهُنَّ بَشَاشَةٌ وَكُلِّ قَتِيلٍ بَيْنَهُنَّ شَهِيدُ
وَيَا لَيْتَ أَيَّامَ الصُّبَا كُنَّ رُجْعًا وَدَهْرًا تَوَلَّى يَا بُثَيْنَ يَعُودُ!
إِذَا قُلْتُ مَا بِي يَا بُشَيْنَةُ قَاتِلِي مِنَ الْحَبِّ، قَالَتْ: ثَابِتٌ وَيَزِيدُ
وَإِنْ قُلْتُ رُدِّي بَعْضَ عَقْلِي أَعِشْ بِهِ تَنَاءَتْ وَقَالَتْ: ذَاكَ مِنْكَ بَعِيدُ
فَمَا ذُكِرَ الْخَلَّانُ إِلَّا ذَكَرْتُهَا وَلَا الْبُخْلُ إِلَّا قُلْتُ سَوْفَ تَجُودُ
فَلَا أَنَا مَزْدُودٌ بِمَا جِئْتُ طَالِبًا وَلَا حُبُّهَا فِيمَا يَبِيدُ يَبِيدُ
يَمُوتُ الْهَوَى مَتَّى إِذَا مَا لَقِيْتُهَا وَيَحْيَا إِذَا فَارَقْتُهَا وَيَزِيدُ
قال: نعم، قالت: لله أنت! جعلتَ لحديثها ملاحَةً وبشاشةً، وقَتيلَها شَهِيدًا،
وأنت القائل:

أَلَا لَيْتَنِي أَعْمَى أَصَمُّ تَقْوُدُنِي بُشَيْنَةُ لَا يَخْفَى عَلَيَّ مَكَانُهَا!

(١) ديوانه ٥١. (٢) ديوانه ١٧٦؛ ١٧٧.

(٣) فوآقا، أي قليلًا، وأصله قدر ما بين الحلبتين من الراحة.

(٤) ديوانه ٦١، ٦٢.

قال: نعم، قالت: قد رضيت من الدنيا أن تقودك بثينة وأنت أعمى أصم! قال: نعم. ثم دخلت وخرجت ومعها مدهن فيه غالية^(١)، ومنديل فيه كسوة، وصرّة فيها خمسمائة دينار، فصبت الغالية على رأس جميل حتى سالت على لحيته ودفعت إليه الصرة والكسوة، وأمرت لأصحابه بمائة مائة^(٢).



وقال سوار بن عبد الله: قال رؤية بن العجاج: أرسل إلي سليمان بن علي وهو بالبصرة. فقال: هذا رسول الأمير أبي مسلم قدم في إشخاصك. قلت: سمعاً وطاعة! أرجع إلى أهلي، فأصلح من شأني. قال: ليس إلى ذلك سبيل. ثم التفت إلى الحرسي فقال: هذا صاحبك فشأنك، فلم أنهنه أن حملت على البريد، فوافيت الأنبار مع الجمعة الأخرى، فأدخلت سرادقاً فيه عشرة آلاف رجل في السواد، واضعي أذقانهم على قبائع^(٣) سيوفهم، لا ينظر بعضهم إلى بعض إلا شزراً، ولا يكلمه إلا همساً، ثم اخترق بي سرادقاً آخر مثل الأول على مثل حالهم. فقلت في نفسي: أحسبه تذكر علي بعض قولي في بني أمية، فأراد قتلي. فأيست عند ذلك من الحياة، ثم خرجت إلى سرادق ثالث، فإذا قبة مضروبة في وسطه، فدفعني إليه، فسلمت بالإمارة عليه، فقال لي: أنت رؤية بن العجاج؟ قلت: نعم، جعلني الله فداك أيها الأمير! فقال: أنشدني كلمتك:

يرمي الجلاميد بجلمود مدق^(٤)

فحقق في نفسي ما كنت قد رثت وظننت. ثم قلت: بل أنشدك، جعلت فداك:

لببيك إذ دعوتني لببيكا تطلب حقاً واجباً عليكاً^(٥)

فسكت حتى فرغت منها، ثم أقبل عليّ فقال: أنشدني قولك:

يرمي الجلاميد بجلمود مدق

(١) المدهن: القارورة، والغالية. أخلاط من الطيب.

(٢) الموشح للمرzbاني ٢٠٠.

(٣) قبعة السيف ما على طرف مقبضه من فضة أو حديد، وجمعه قبائع، وفي ط: «قوابع» تحريف.

(٤) المدق: ما دقت به الشيء، والأرجوزة في ديوانه ١٠٤ - ١٠٨.

(٥) في ملحق ديوانه ١٨١:

قلت ونسجني مستجيداً حوكاً لببيك إذ دعوتني لببيكا

أحمد رباً ساقني إليك الحمد والتعمة في يديكا

قلت: بل أنشدك قولي^(١):

ما زال يبني خندقاً ويهدمه وعسكراً يشرعه ويهزمه
ومغنماً يجمعه ويقسمه مروان لما غره منجمه^(٢)

فأمسك حتى فرغت، ثم قال: أنشدني كلمتك:

يرمي الجلاميد بجلمود مدق

فقلت: بل أنشدك:

ما زال يأتي الأمر من أقطاره على اليمين وعلى يساره
حتى أقر المملك في قراره مشمراً لا يصطلي بناره^(٣)

فقال: أنشدني ويحك: «يرمي الجلاميد»! فأنشدته:

وقاتم الأعماق خاوي المخترق مشتبه الأعلام لماع الخفق
فأنصت حتى انتهيت إلى قولي:

يرمي الجلاميد بجلمود مدق

فوقفت. فقال: إن أمير المؤمنين وجهني إلى خراسان وبها جبال الحديد من الرجال، فدمتها حتى جعلتها دمساً^(٤)، فلم أجد لي مثلاً إلا قولك:

يرمي الجلاميد بجلمود مدق

أنا والله ذلك الجلمود، اذكر حاجتك. قلت: جعلت فداك! حاجتي أن تردني إلى أهلي، فقد خرجت من عندهم وهم على وجل! فقال: يا غلام، علي بدرة، فكانها لم تزل بين يديه. فقال: يا أبا الجحاف، إنك أتيتنا والأموال مشفوهة^(٥)، وقد أمرنا لك بشيء وهو زمر^(٦)، ولو أتيتنا ونحن على طمأنينة لأوطأت العرب عقيبك، والدهر بيننا وبينك؛ الطريق^(٧) مستتب ولك عودة، وعلينا

(١) ملحق ديوانه ١٨٦.

(٢) الديوان:

* مَرَوَانُ لَمَّا أَنْ تَهَاوَتْ أَنْجُمُهُ *

(٣) ملحق ديوانه ١٧٤، وبعده:

* وَمَرَّ مَرَوَانُ عَلَى حِمَارِهِ *

(٤) الدهس: المكان السهل، ليس برملا ولا تراب.

(٥) أموال مشفوهة؛ أي كثرت نحوها الأيدي.

(٦) زمر، أي قليل.

(٧) الطريق المستتب: الواضح اللاحب؛ وفي ط: «أطرق» تحريف.

معول! قال رؤية: فوالله ما دريت بَم أجيبه! قال: يُردُّ على السير الذي جاء عليه، فما شعر بي سليمان في الجمعة الثانية إلا وأنا عنده، فأخبرته الخبر، فقال: يا أبا الجحاف، هذه ديتك، وربحت نفسك^(١)!



قال: وحدّثني عبدُ الله بنُ عمرو بن عبيد الله، قال: حدّثني جدّي عبيد الله، قال: لَمَّا دخل مَرَوَانُ بنُ أبي حفصة على المهديّ، وأنشده شعره الذي يقول فيه:

أتى يكونُ وَلَيْسَ ذَاكَ بكائنٍ لِبَنِي البناتِ وراثَةُ الأعمامِ!^(٢)
أجازه بسبعين ألف درهم، فقال مَرَوَانُ:

بَسْبَعِينَ أَلْفًا رَاشِنِي مِنْ حَبَائِهِ وَمَا نَالَهَا فِي النَّاسِ مِنْ شَاعِرٍ قَبْلِي
فحدّثنا إدريس بن سليمان بن يحيى بن يزيد بن أبي حفصة، قال: كان سبب اتّصال مَرَوَانُ بخلفاء بني العبّاس، أن جاريةً يمانيةً أُهْدِيَتْ إلى أبي جعفر المنصور، فأنشده شعرًا لمروان يمدح به السّريّ^(٣) بن عبد الله، يذكر فيه وراثه العبّاس، فسألها: لمن الشعر؟ فأخبرته؛ فأمر بإحضار مروان، فوافاه بالربذة حاجًا، فلقي الربيع^(٤) والمنصور عليل، العلة التي مات فيها، فقال: كن قريبًا حتى ندعوك بك، فلم تزل العلة تشتدّ به حتى مات قبل أن يصل إليه مَرَوَانُ. فقال له الربيع: الحقّ بالمهديّ ولا تتخلّف عنه. وانصرف مَرَوَانُ إلى اليمامة فجعلها طريقًا، وعليها بشرٌ بن المنذر والياء، فأوفده بشر فيمن أوفد، وأعطى كلّ رجل ألف درهم؛ فقدم مروان على المهديّ، وقد مدحه بأربع قصائد؛ قوله:

صَحَا بَعْدَ جُهْدٍ فَاسْتَرَا حَتَّ عَوَاذِلُهُ وَأَقْصَرَ عَنْهُ حِينَ أَقْصَرَ بَاطِلُهُ
وقوله أيضًا:

طَافَ الْخِيَالُ فَحْيَهُ بِسَلَامٍ أَتَى أَلَمٌ وَلَيْسَ حِينَ لِمَامٍ!
وقوله أيضًا:

اعصِ الهوى وتعرّز عن سُعداكا فَلَمِثْلَ حِلْمِكَ عَنْ هَوَاكَ نَهَاكا

(١) الخبر في الأغاني ١٨ : ١٢٣ (ساسي).

(٢) الشعر والشعراء ٧٤١.

(٣) ك: «السدي».

(٤) هو الربيع بن يونس حاجب المنصور ووزيره، وانظر: ترجمته في ابن خلكان ١ : ١٨٥.

وقوله أيضاً:

مَرَى الْعَيْنَ شَوْقَ حَالٍ دُونَ التَّجَلُّدِ ففَاضَتْ بِأَسْرَابٍ مِنَ الدَّمْعِ جُسَدٌ^(١)
- جَسَدٌ؛ مِنَ الْجَسَادِ^(٢)، يَرِيدُ أَنَّهُ يَخْلِطُهَا بِهِ.

قال إدريس: فأعطى المهديّ مروان ثلاثين ألف درهم. فانصرف إلى اليمامة، ثم عاد في سنة أربع وستين ومائة، فطلب الوصولَ بيعقوب بن داود، فأقام نحواً من سنة، وغَضِبَ المهديّ على يعقوب بن داود.

قال إدريس: فحدّثني مروان قال: بينا أنا واقف على باب المهديّ؛ إذ خرج خالد بن يزيد بن منصور، فقال: يابن أبي حفصة، ذَكَرَكَ أمير المؤمنين آنفاً، وهو يراك أشعرَ الناس، غير أنّه يقول: لا حاجة لنا فيما قبلك؛ فانصرف عن بابنا. قال: فانصرفت مغموماً، ثم تذكّرت رجلاً أتحدّث عنده وأتفرّج به، وأنس لديه، فَاتَّيْتُ يزيدَ بنَ مَزِيدٍ، فشكوت إليه ما قال لي خالد بن يزيد، فقال: أدلّك على رجل صدوقٍ له رَقَّةٌ لعلّه ينفّعك! قلت: ومن هو؟ قال: الحسن الحاجب، فغدوتُ إلى الحسن، فشكوتُ إليه ما حكاه خالد من رأي أمير المؤمنين، فقال: بل من يعقوب بن داود. فقلت: بأبي أنت وأمي! أنت ترجو أن يكون ذلك مُفْتاحاً لما أنا فيه! قال: ذاك كما أقول لك؛ فانصرفتُ وقلت:

أَتَانِي مِنَ الْمَهْدِيِّ قَوْلٌ كَأَنَّمَا به احتزّ أنفي مُدْمِنُ الضُّغْنِ جَادِعٌ^(٣)
وَقُلْتُ وَقَدْ خِفْتُ الَّتِي لَا شَوَى لَهَا بلا حَدَثٍ: إِنِّي إِلَى اللَّهِ رَاجِعٌ^(٤)
وَمَا لِي إِلَى الْمَهْدِيِّ لَوْ كُنْتُ مَذْنِباً سَوَى جَلْمِهِ الصَّافِي مِنَ النَّاسِ شَافِعُ
وَلَا هُوَ عِنْدَ السُّخْطِ مِنْهُ وَلَا الرِّضَا بغير الَّذِي يَرْضَى بِهِ اللَّهُ صَانِعُ
عَلَيْهِ مِنَ التَّقْوَى رِداءً يَكُنُّهُ^(٥) وَلِلْحَقِّ نُورٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ سَاطِعُ
يُغَضُّ لَهُ طَرْفُ الْعَيُونِ وَطَرْفُهُ على غَيْرِهِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ خَاشِعُ
هَلِ الْبَابُ مُفْضٍ بِي إِلَيْكَ ابْنَ هَاشِمٍ فَعُذْرِي إِنْ أَفْضَى بِي الْبَابُ نَاصِعُ
أَتَيْتُ أَمراً أَطْلَقْتَهُ مِنْ وَثَاقِهِ وَقَدْ أَنْشَبَتْ فِي أَخْذَعِيهِ الْجَوَامِعُ

(١) ك: «حشد» تحريف.

(٢) الجساد: الزعفران.

(٣) ك: «مدمن الضعف».

(٤) لا شوى لها؛ أي لا براء منها.

(٥) ل: «يكفه».

وَجَلَّى ضَبَابَ الْعُدْمِ عَنْهُ وَرَاشَهُ
فَقُلْتُ: وَزِيرٌ نَاصِحٌ قَدْ تَتَابَعْتُ
وَمَا كَانَ لِي إِلَّا إِلَيْكَ ذَرِيعَةٌ
وَإِنْ كَانَ مَطْوِيًّا عَلَى الْغَدْرِ كَشَحُّهُ
وَقُلْ مِثْلَ مَا قَالَ ابْنُ يَعْقُوبَ يَوْسُفُ
تَنْفَسَ فَلَا تَثْرِيْبَ إِنَّكَ آمِنٌ
فَمَا النَّاسُ إِلَّا نَاطِرٌ مَتَشَوِّفٌ
قال: وقد قلتُ في قصيدة أخرى:

سَيُخْشِرُ يَعْقُوبُ بْنُ دَاوُدَ خَائِبًا
خِيَانَتُهُ الْمَهْدِيَّ أَوَدَتْ بِذِكْرِهِ
بَدَأَ مِنْكَ لِلْمَهْدِيِّ كَالصُّبْحِ سَاطِعًا
وَهَلْ لِبَيَاضِ الصُّبْحِ إِنْ لَاحَ ضَوْؤُهُ
أَمَنْزَلَةٌ فَوْقَ الَّتِي كُنْتَ نَلْتَهَا
يَلُوحُ كِتَابٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ
فَأُمْسَى كَمَنْ قَدْ غَيَّبَتْهُ الْمُقَابِرُ
مِنَ الْغَشِّ مَا كَانَتْ تُجِنُّ الضَّمَائِرُ
فَجَابَ الدُّجَى مِنْ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ سَاتِرُ!
تَعَاطَيْتَ، لَا أَفْلَحْتَ مِمَّا تَحَازِرُ!

قال: ثم أتيت بهما الحسن بعد يومين، فقال: ما صنعت؟ فأنشدتهما إياه، قال: اكتبهما لي؛ فقلت: قد فعلت. فقال: هاتهما، فتناولهما، وقال: لست واضعهما من يدي حتى أضعهما في يد المهدي. ثم مضى. وأتيته من الغد فقال: ما وضعتهما من يدي حتى وضعتهما في يد المهدي^(٢)، فقرأهما، فَرَقَّ لك وأمر بإدخالك عليه، فاحضر يوم الاثنين. فحضرت، فخرج عليّ فقال: قد علم أمير المؤمنين بمكانك، وقد أحب أن يجعل لك يوماً يشرفك فيه ويبلغ بك! قلت: فمتى بأبي أنت وأمي! قال: يوم الخميس، فعدت إليه يوم الخميس، فإذا وجوه بني العباس يدخلون على المهدي، فلما تتأَّم المجلس دعاني، فدخلت، فسلمت، فردَّ السلام، فقال: إنما حبسك عن الدخول انقطاعك إلى الفاسق يعقوب بن داود، فافتحت النشيد بما قلتُ في يعقوب، فأنشدته؛ ثم أنشدته، قولي فيه:

طَرَقْتُكَ زَائِرَةً فَحَيَّ خِيَالَهَا^(٣)

(١) التلع: «التلف».

(٢) زاد بعدها في ك: «أمير المؤمنين».

(٣) الأغاني ٩: ٣٩ (ساسي)، وبقية:

فأعجب بذلك وقال: جزاك الله خيراً! فقلت: اشهدوا، هذا والله الشرف! أمير المؤمنين يجزيني خيراً.
ثم أنشدته:

أَعَادَكَ مِنْ ذِكْرِ الْأَحَبَّةِ عَائِدُ

فلما صرت إلى قولي:

أَيَّادِي بَنِي الْعَبَّاسِ بِيضٌ سَوَابِغُ عَلَى كُلِّ قَوْمٍ بَادِئَاتٌ عَوَائِدُ
فَهُمْ يَعْدِلُونَ السَّمَكُ مِنْ قُبَّةِ الْهَدْيِ كَمَا يَعْدِلُ الْبَيْتَ الْحَرَامَ الْقَوَاعِدُ^(١)
سَوَاعِدُ عِزِّ الْمُسْلِمِينَ وَإِنَّمَا يَنْوُو بِصَوَلَاتِ الْأَكُفِّ السَّوَاعِدُ
يَزِينُ بَنِي سَاقِي الْحَجِيجِ خَلِيفَةُ عَلَى وَجْهِهِ نَوْرٌ مِنَ الْحَقِّ شَاهِدُ^(٢)
يَكُونُ غِرَاراً نَوْمُهُ مِنْ حَذَارِهِ عَلَى قُبَّةِ الْإِسْلَامِ وَالْخَلْقِ رَاقِدُ
كَأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدًا لَرَأْفَتِهِ بِالنَّاسِ، لِلنَّاسِ وَالِدُ^(٣)
عَلَى أَنَّهُ مِنْ خَالَفِ الْحَقِّ مِنْهُمْ سَقَّتُهُ بِهِ الْمَوْتَ الْحُتُوفُ الرَّوَاصِدُ^(٤)

أشار إليّ، فأمسكتُ. فقال: يا بني العباس! هذا شاعرُكم المنقطع إليكم، المعادَى فيكم، فأتوا إليه ما يسره.

فقلت: ينبغي إذ سمعوا كلامَ أمير المؤمنين وعرفوا رأيه أن يصلوني من أموالهم! فقال: أنا فارضٌ عليهم لك مالاً، ففرض على موسى ابنه خمسة آلاف درهم، وعلى هارون خمسة آلاف، ثم فرض على القوم على قدر حالاتهم، حتى فرض عليهم سبعة وثلاثين ألف درهم، والربيعُ يكتب كلَّ ما فرض على كلِّ رجل منهم.

فقال أبو عبيد الله: يا أمير المؤمنين؛ إنما نحن من أهلك، فأدخلنا فيما أدخلتهم. فجعل عليه ألفاً، وعلى الربيع ألفين، فتمَّت أربعين ألفاً.

فقلت: يا أمير المؤمنين، مَنْ لي بهذا المال؟ قال: هذا - وأشار إلى الربيع - ثم قال: إن أمير المؤمنين يُعطيك من صُلب ماله. فأمر لي بثلاثين ألف درهم في ثلاث بدَر، فجاء بهنَّ فطرحن قريباً، فدعوتُ وشكرتُ، فقال:

(١) ك: «البيت العتيق».

(٢) ساقى الحجيج، يريد العباس، جد الخلفاء.

(٣) الأغاني ١٠: ٨٩ (مطبعة الدار).

(٤) الأغاني: «سقته يد الموت».

يابن أبي حفصة، ستجيئك صلّاتي وبرّي، ويأتيك منّي ما يؤدّيك إلى الغنى .
فقلت: يا أمير المؤمنين، قد رأيت من قبولك وبشرك وسرورك^(١) بما سمعت منّي ما سآزداد به شرفاً^(٢)، وستسمع ويبلغك . وقلت: يا أمير المؤمنين، لا يبلغ ما أعطيتني لشاعر بعدي! قال: أجل، قلت، وأذني في زيارتك! قال: نعم، قلت: يا أمير المؤمنين، لي عدوّ فيك وفي أهل بيتك، فإن رأى أمير المؤمنين ألا يجعل لأحد عليّ سلطاناً دونه! قال: لا سلطان عليك دُونَ أمير المؤمنين . فقلت: اكتب إليّ بذلك كتاباً، فأمر بالكتاب بذلك .

فانصرفت، فلما صرتُ خلف السّتر خرج إليّ خادم^(٣) بمنديل فيه أربعة أثواب: ثوبٌ وشي، وثوبٌ خزّ، وجبةٌ بياض محشوة، وقميص . فقال: ألبسوه وأعيدوه إليّ، فلبستُ الخزّ والوشّي على الثّياب التي كانت عليّ، وألقيتُ القميص على أحد منكبّي والجبّة على المنكب الآخر، فقال لي: يابن أبي حفصة، أتدخل على أمير المؤمنين هكذا وقد مثلت بنفسك! فقلت: واللّه لو كانت كرامة أمير المؤمنين أحداً لما خلعتُ منها شيئاً أطيق حمّله .

ثم دخلتُ، فلما رأني تبسّم، ثم قال: مطّرف! فأبطؤوا به، فقال: المطّرف! وأنا قائم، ثم قال الثالثة: المطّرف! فلما أبطؤوا انصرفتُ وقعدتُ خلف السّتر، فلم ألبث أن رُفِع السّتر وخرج أمير المؤمنين على دابةٍ، فقمّتُ إليه، فلما رأني قال: المطّرف! فما برح حتى أتني به، فنُشر^(٤) عليّ بين يديه، وأمر بعشرة من خدام الرّوم، وقطّيعه بناحية السّواد، فبعت القطّيعه من عيسى بن موسى بعشرين ألف درهم، وبرذون بسرّجه ولجامه، قال: فلم يزل مروان على باب المهديّ حتى هلك .



وعن عبد الله بن هارون قال: حدّثني عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله، عن المغيرة، قال: دخل المغيرة بن عبد الرحمن المخزوميّ، وأبو السائب، والعثمان بن لؤلؤ الرطب، وابن أخت الأحوص على المهديّ وهو بالمدينة فقال: أنشدوني، فأنشد المغيرة:

وللناسِ بدرٌ في السماءِ يروّنه وأنت لنا بدرٌ على الأرضِ مُقمِرُ

(١) ك: «سوددك» .

(٣) ك: «الخادم» .

(٢) ل: «شعراً» .

(٤) ل: «فشن»، وما أثبتته من ك .

فباللَّه يا بَدْرَ السَّماءِ وضوءه
وما البَدْرُ إلَّا دونَ وجهك في الدُّجى
وما نظرتُ عيني إلى البدرِ ماشياً
وأنشد ابن أخت الأَحوص :

قالتُ كُلابَةٌ: مَنْ هذا؟ فقلتُ لها:
إني امرؤٌ لَجَّ بي حُبٌّ فأخرَضَني
وأنشده العثمانيّ المخزومي :

رمى القلبُ من قلبي السَّوادَ فأوْجعا
وغرَّدَ حادي البَيْنِ وأنشَقَّتِ العصا
كَفَى حَزناً من حادِثِ الدَّهرِ أنْني
وقد كُنْتُ قبلَ اليومِ بالبَيْنِ جاهلاً
وأنشده أبو السائب :

أصيحاً لداعي حُبٍّ ليلَى فيمَّما
خليليَّ إنَّ ليلَى أقامت فيأنِّي
وإنَّ أُثْبِتَ ليلَى بربعٍ يحوزُها^(٣)
فقال: واللَّه لأغنيَنَّكم الليلة!

تزالُ تكافي عُشَرَ مالِكَ أضْمُرُ
يغيب فتبْدُو حينَ غابَ فتُقْمِرُ
وأنتَ فتُمْسِي في الثياب فتسْحِرُ^(١)

هذا الَّذي أنتِ من أعدائِهِ زعموا
حتى بُليتِ وحتى شَفَّني السَّقم

وصاحَ فصيحٌ بالرحيلِ فأسمعا
فأصبحتُ مسلوبَ الفؤادِ مَفْجعا^(٢)
أرى البَيْنَ لا أسطيعُ للبَيْنِ مَدْفعا
فيا لكَ بيناً ما أَمَرَّ وأَوْجعا!

صدورُ المطايا نحوها فتَسَمَّعا
مُقيماً، وإنَّ بَأْتِ فبيننا بنا معا
قعيدٌ كما باللَّه أنْ تترعزعا

ثم قال للمغيرة: هل لك من حاجة؟ فإنه بلغني أنَّك بعثت جاريته في دَيْن كان عليك، قال: واللَّه يا أمير المؤمنين، لقد فعلتُ ذلك، قال: فلأردَّنها عليك، فأجاز ثلاثةَ منهم بعشرةَ آلاف دينار؛ إلا ابن لؤلؤ الرُّطب، فإنه سار معه، فمرَّ بدار فقال: لمن هذه الدار؟ فقال: للأحوص الَّذي يقول:

يا بُيتَ عاتكةَ الَّذي أتعزَّلُ حَذَرَ العِدا وبه الفؤادُ موَكَّلُ
وأراك تَفْعَلُ ما تقول وبعضُهم مَذِقُ الحديثِ يقولُ ما لا يفعلُ

فقال: عَزَّ عليَّ ألا تأخذ شيئاً! ثم قال للربيع: اعتق ما تملك إن لم تعطه أنت عشرةَ آلاف دينار، وأنا عشرةَ آلاف دينار.

(١) ك: «وأنت فتشمي».

(٢) ك: «مضيقاً».

(٣) كذا في ك، وفي ل: «إنثنت».

فقبضها وخرج .



قال : ودخل ابن الخياط^(١) على المهديّ فمدحه ، فأمر له بخمسين ألف درهم ، فلما قبضها فرّقها على الناس وأنشأ يقول :

لَمَسْتُ بِكَفِّي كَفَّهُ أَبْتَغِي الْغِنَى وَلَمْ أَذِرْ أَنَّ الْجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدي^(٢)
فَلا أَنَا مِنْهُ مَا أَفَادَ ذَوُو الْغِنَى أَفَدْتُ ، وَأَعْدَانِي فَبَدَّدْتُ مَا عِنْدِي^(٣)
فَأَعْطَاهُ بِكُلِّ دِرْهَمٍ دِينَارًا .



قال : ودخل سلّم بن عمرو الخاسر على المهديّ ، فقال :
أَلَيْسَ أَحَقَّ النَّاسِ أَنْ يُدْرِكَ الْغِنَى مُرَجِّي أمير المؤمنين وسائله
لَقَدْ بَسَطَ الْمَهْدِيُّ عَدْلًا وَنَائِلًا كَأَنَّهُمَا عَدْلُ النَّبِيِّ وَنَائِلُهُ !
فقال : أمّا ما ذكرت يا سلّم من الجود ، فوالله ما تعدل الدنيا عندي خاتمي هذا . وأمّا العَدْلُ فإنه لا يقاس برسول الله ﷺ أحدٌ ، وإني لأتحرّاهُ جُهدِي . ثم أمر له بعشرة آلاف درهم ، وعشرة أثواب .

ثم وفد عليه في السنة الثانية ، فأنشده :

إِنَّ الْخِلَافَةَ لَمْ تَكُنْ بِخِلَافَةٍ حَتَّى اسْتَقَرَّتْ فِي بَنِي الْعَبَّاسِ
شُدَّتْ مَنَاكِبُ مُلْكِهِمْ بِخَلِيفَةٍ كَالذَّهْرِ يَخْلِطُ لَيْنُهُ بِشِمَاسِ^(٤)
فأمر له بعشرين ألف درهم ، وعشرين ثوباً .

فلما كان في العام الثالث وفد عليه فأنشده :

أَفَنَى سَوَالِ السَّائِلِينَ بِجُودِهِ مَلِكٌ مَوَاهِبُهُ تَرُوحُ وَتَغْتَدِي
هَذَا الْخَلِيفَةُ جُودُهُ وَنَوَالُهُ نَفَدَ السَّوَالُ وَجُودُهُ لَمْ يَنْفَدِ
فأمر له بثلاثين ألف درهم وثلاثين ثوباً .



(١) ك ، ل : « الخياط » ، وما أثبتته من الأغاني ١٨ : ٩٤ .

(٢) الأغاني ١٨ : ٩٤ .

(٣) الأغاني : « فأتلقت » .

(٤) ك : « لبته بشماس » .

وعن أحمد بن بكر الباهلي؛ قال: حدّثني حاجبُ المهديّ قال: قال لي المهديّ يوماً نصفَ النهار: اخرج وانظر منْ بالباب! فخرجت فإذا شيخ واقف، فقلت: ألك^(١) حاجة؟ فقال: ما يمكن أن أخبر بحاجتي^(٢) أحداً غيرَ أمير المؤمنين. فتركته ودخلتُ على المهديّ، فقال لي: اخرج فانظر منْ بالباب! فخرجت، فإذا الشيخ، فقلت: إن كان لك حاجةٌ فاذكرها، قال: لا أذكرها إلا لأُمير المؤمنين، ففعل هذا مرّاتٍ. فقال المهديّ: انظر من بالباب! فقلت: شيخٌ^(٣) قد سألتُه غيرَ دفعةٍ عن حاجته. فقال: ما يمكن أن أخبر بحاجتي أحداً دونَ أمير المؤمنين^(٤)، وقلت^(٥): أيدخل؟ قال: نعم، ومُرّه بتخفيف؛ فخرجتُ، فقلت له: ادخل وخفّف، فدخل وسلّم بالخلافة، ثم قال: يا أمير المؤمنين، إنا قد أمرنا بالتخفيف^(٥):

فإن شئتُ خفّفنا فكنا كَرِيشَةٍ متى تَلَقَّها الأنفاس في الجوّ تَذْهَبِ
وإن شئتُ ثَقَّلْنَا فكنا كَصَخْرَةٍ متى تُلْقَها في حوْمَةِ البحرِ تَرْسُبِ
وإن شئتُ سلَّمْنَا فكنا كَرَاكِبِ متى يَقْضِ حقّاً من سلامِكَ يَعْزُبِ
فَضَحِكَ المهديّ وقال: بل تُكْرَم وتُقْضَى حاجتُك. ففَضَى حاجتَه، ووصلَه
بعشرة آلاف درهم.



قال المبرّد: حدّثني محمد بنُ عامر الحنفيّ^(٦)، قال: ذكروا أن فتّياناً كانوا مجتمعين قد اتّلفوا في نظام واحد، كلُّهم ابن نعمة، وكلُّهم قد شُرِدَ عن أهله، وقنع بأصحابه. فذكر ذاكرٌ منهم وقال: كنّا قد اكترينا داراً شارعاً^(٧) على أحدِ طرق بغداد المعمورة بالناس، [وكنّا نفلس أحياناً ونوسر أحياناً، على مقدار ما يمكن

(١) ل: «لك».

(٢) ك: «بها».

(٣) ك: «شيخ قد سألتُه: ألك حاجة؟ قال: ما يخبر إلا أمير المؤمنين».

(٤) ط: «فقلت».

(٥) ك: أضاف: «وأنشأ».

(٦) في العقد ٦: ٣٨٢: «حدّثنا محمد بن عامر الحنفي، وكان من سادات بكر بن وائل، وأدركته شيخاً كبيراً مملقاً، وكان إذا أفاد على إملاقه شيئاً جاد به، وقد كان قديماً ولي شرطة البصرة؛ فحدّثني هذا الحديث الذي نذكره ووقع إليّ من غير ناحيته، ولا أذكر ما بينهما من الزيادة والنقصان، إلا أن معاني الحديث مجموعة فيما أذكر لك». ثم ساق بقية الخبر.

(٧) كذا في العقد؛ ودار شارعاً، أي قريبة من الطريق النافذ، وفي ط: «شارعته» تحريف.

الواحد من أهله^(١)؛ وكنا^(٢) لا نستكثر أن تقع مؤونتنا على واحد منا إذا أمكنه، ويَبْقَى الواحد منا لا يقدر على شيء، فيقوم أصحابه بأمره الدَّهْرَ الأطول، فكنا إذا أَيْسَرْنَا أكلنا من الطعام أَطْيَبَه، ولبسنا من اللباس^(٣) أَلْيَقَه، ودعونا المُلْهَيْن والمُلْهِيَات، وكنا^(٤) في أسفل الدار، وإذا^(٥) عدنا الطَّرَبَ فمجلسنا^(٦) في عُرفة لنا، نتمتع فيها بالنظر إلى الناس، وكنا لا نُخِلُّ بالنبذ في عسر ولا يسر ولو نبيع الثوب من الأثواب. فإننا لكذلك يوماً إذا بفتى يستأذن علينا، فقلنا له: اصعد وادخل، فإذا رجل حُلُو الوجه؛ سريُّ الهيئة، تنبىء رؤيته^(٧) أنه من أهل النعم، فأقبل علينا فقال: إني سمعتُ بمجتمعكم وحُسنِ منادمتكم وصحة ألفتكم؛ حتى كأنتكم أدرجتم جميعاً في قلب^(٨) أحدكم. فأحببت أن أكون واحداً منكم، وألا تحتشموني^(٩). قال: وصادف ذلك منا إقتاراً من القوت، وإكثاراً من النبذ، فقال لـغلام^(١٠) معه: هات ما عندك فَعَبَّرَ عَنَّا^(١١) غير بعيد، ثم أتى بسلة خبزٍ ران فيها طعام [المطبخ]^(١٢)، من جداء ودجاج وفراخ ورُقاق^(١٣) وأشنان وأخلة^(١٤) ومَحْلَب^(١٥)، فأصبنا من ذلك الطعام، ثم أفضنا^(١٦) في شرابنا، وانبسط الرجل؛ فإذا هو أحلى خَلَقِ اللَّهِ إذا حَدَّثَ، وأحسنهم استماعاً إذا حَدَّثَ. وأمسكهم عن مُلاحاةٍ إذا خولف، ثم أفضينا معه إلى أكرم مخالعة، وأجمل معاشرة، فكنا ربما امتحناه بأن ندعوه إلى الشيء الذي نعلم أنه يكرهه، فيُظْهِرَ لنا أنه لا يحبُّ غيره،

(١) من العقد.

(٢) كذا في العقد، وفي ط: «فكنا».

(٣) ل: «الثياب».

(٤) العقد: «وكان جلوسنا».

(٥) ك: «إذا نحن».

(٦) ط: «فجلسنا»؛ والصواب ما أثبتته من العقد.

(٧) العقد: «رواؤه».

(٨) العقد: «في قالب واحد».

(٩) العقد: «فلا تحتشموا».

(١٠) ك: «لغلامه»، العقد: «لغلام له».

(١١) غبر: ذهب، وفي العقد: «غاب».

(١٢) من العقد.

(١٣) الرقاق: الخبز المنبسط الرقيق.

(١٤) الأخلة: جمع خلال؛ وهو ما تخلل به الأسنان.

(١٥) المحلب، كمسكن: شجر له حب يجعل في الطيب.

(١٦) كذا في ل، وفي ك والعقد: «أفضينا».

وَيَرَى ذَلِكَ فِي أَسَارِيرِ وَجْهِهِ، فَكُنَّا نَغْنَى بِهِ عَنْ حَسَنِ الْغِنَى^(١) وَنَتَمَثَّلُ بِكَلَامِهِ، وَنَتَدَارِسُ أَخْبَارَهُ. فَشَغَلْنَا بِظَرْفِهِ، وَبِمَا عَاشَرْنَا بِهِ عَنْ وَصْفِهِ، وَالسُّؤَالِ عَنْ تَعْرِفِ اسْمِهِ وَنَسَبِهِ، فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَنَا مِنْ أَمْرِهِ إِلَّا مَعْرِفَةُ الْكُنْيَةِ، فَإِنَّا سَأَلْنَاهُ عَنْهَا، فَأَنْبَأَنَا أَنَّهُ يَكْنَى أبا الْفَضْلِ.

فَقَالَ لَنَا يَوْمًا بَعْدَ اتِّصَالِ الْأَنْسِ: أَلَا أَخْبِرْكُمْ كَيْفَ عَرَفْتُمْ؟ قُلْنَا لَهُ: إِنَّا لَنُحِبُّ ذَاكَ، فَقَالَ: أَحَبَبْتُ جَارِيَةً فِي جَوَارِكُمْ، وَكَانَتْ مَوْلَاتُهَا^(٢) ذَاتَ حَبَائِبٍ، فَكَانَتْ تَخْتَلِفُ بِالرِّسَائِلِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَبَائِبِهَا، وَكَانَتْ أَجْلَسُ لَهَا فِي الطَّرِيقِ، وَرَأَيْتُ غَرَفَتَكُمْ هَذِهِ، فَسَأَلْتُ عَنْ خَبَرِهَا، فَخُبِّرْتُ عَنْ اتِّلَافِكُمْ وَمُسَاعَدَةِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا، فَكَانَ الدَّخُولُ عِنْدِي فِيمَا أَنْتُمْ فِيهِ آثَرُ عِنْدِي مِنَ الطَّفَرِ بِالْجَارِيَةِ. فَسَأَلْنَاهُ، فَخَبَّرَنَا بِمَكَانِهَا، فَقُلْنَا لَهُ: فَإِنَّا نَخْدَعُهَا لَكَ^(٣) حَتَّى يُطْفِرَكَ اللَّهُ بِهَا، قَالَ: يَا إِخْوَتِي^(٤)؛ إِنِّي وَاللَّهِ عَلَى مَا تَرَوْنَ مِنْ شِدَّةِ الشُّوقِ إِلَيْهَا^(٥) وَالْكَأَفِ بِهَا^(٦)، مَا قَدَّرْتُ فِيهَا حَرَامًا قَطُّ، وَمَا تَقْدِيرِي إِلَّا مَطَاوِلَتَهَا وَمَصَابِرَتَهَا؛ إِلَى أَنْ يَمَنَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِثَرْوَةٍ فَأَشْتَرِيهَا.

فَأَقَامَ مَعَنَا شَهْرَيْنِ وَنَحْنُ بِهِ عَلَى غَايَةِ الْإِغْتِبَاطِ، وَبَقَرَبِهِ عَلَى غَايَةِ السَّرُورِ، ثُمَّ احْتَبَسَ^(٧) عَنَّا، فَنَالَنَا^(٨) بِفِرَاقِهِ تُكُلُّ مَمَضٍ^(٩) وَلَوْعَةٌ مُؤْلِمَةٌ، وَلَمْ نَعْرِفْ لَهُ مَنْزِلًا نَلْتَمِسُهُ فِيهِ، فَيَكُونُ فَقْدُهُ أَخْفَ عَلَيْنَا، فَكَدَّرَ عَيْشُنَا الَّذِي كَانَ صَافِيًا قَدْ طَابَ لِبَابُهُ، وَقُبِحَ مَا كَانَ قَدْ حَسُنَ لَنَا بِقَرَبِهِ، وَانْصَرَمَ الْغَمُّ بِمَحَادَثَتِهِ، فَكُنَّا فِيهِ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

يُذَكِّرُنِيهِمْ كُلُّ خَيْرٍ رَأَيْتُهُ وَشَرٌّ فَمَا أَنْفَكُ مِنْهُمْ عَلَى ذِكْرِ^(٩)

فَغَابَ عَنَّا عَشْرِينَ يَوْمًا لَا نَلْتَذِهُنَّ^(١٠)، ثُمَّ نَحْنُ يَوْمًا مُجَازُونَ فِي الرُّصَافَةِ، فَإِذَا بِهِ وَقَدْ طَلَعَ فِي مَوْكَبٍ^(١١) نَبِيلٍ، وَزِيٍّ جَلِيلٍ، فَحِثْ بَصَرُ بِنَا انْحَطَّ عَنْ دَابَّتِهِ،

(١) العقد: «عن تعرف اسمه ونسبه».

(٢) العقد: «سيدتها».

(٣) العقد: «نخدعها».

(٤) العقد: «يا إخواني».

(٥) ساقطة من ل والعقد.

(٦) العقد: «ما» من غير واو.

(٧) العقد: «اختلس».

(٨) ط: «فتألمنا لفراقه كل ممض». والأجود ما أثبتته العقد.

(٩) لعكرشة العبسي، من كلمة له في الحماسة - التبريزي ٣: ٧٨ - ٧٩، يرثي بنيه.

(١٠) ساقطة من العقد.

(١١) العقد: «مركب». وفي ل: «موكب عظيم».

وانحطّ غلمائه. ثم قال: يا إختوتي، ما هنأني عيش بعدكم! ولست أماً طلّكم بحديثي وخبري حتى نبلغ المستقر^(١). ثم مال بنا إلى مسجد فقال: أعرفكم أمّ أولاً نفسي^(٢)، أنا العباس بن الأحنف؛ وكان من خبري أنّي انصرفت من عندكم إلى منزلي؛ والمسوّد قد أحاطت بي، فمضيت^(٣) بي إلى دار أمير المؤمنين، فصرت إلى يحيى بن خالد، فقال: ويحك يا عباس! إنّما اخترتك من ظرفاء الشعراء لقرب مأخذك، وحسن تأتيك. وإنّ الذي ندبتك له من شأنك، وقد عرفت خطرات الخلفاء؛ وإنّي أخبرك أن ماردة هي الغالبة على أمير المؤمنين، وقد جرى بينهما عتب؛ وهي بدالة^(٤) المعشوق تأبى أن تعتذر، وهو بعزة الخلافة وشرف الملك يأبى ذلك، وقد رُمّت الأمر من قبلهما فأعياني، وهو أخرى أن تستعزه^(٥) الصبابة، فقلّ شعراً تسهّل به هذا السبيل. ففضى كلامه، ثم دعاه أمير المؤمنين فصار إليه، وأعطيت قرطاساً ودواة، فاعتراني الزمّع^(٦)، ونفر عني كلّ شيء من العروض، ثم انفتح لي شيء من الأشياء، والرسول ما تُغبّني، فجاءتني أربعة أبيات رضيتهما؛ وقعت صحيحة المعنى، سهلة الألفاظ، ملائمة لما طُلب، مني. فقلت لأحد الرسل: أبلغ الوزير أنّي قد قلت أربعة أبيات، فإن كان فيها مقنّع [وجّهت بها]. وفي قدر ذهاب الرسول ومجيئه حضرني بيتان من غير ذلك الروي، فكتبت الأربعة الأبيات في صدر الرقعة وعقبت بالبيتين. فكتبت:

العاشقان كلاًهما متغضّب	وكلاًهما متوجّد متجنّب ^(٧)
صدّت مغاضبةً وصدّ مغاضباً	وكلاًهما ممّا يعالج متعبّ
راجع أحبّتك الذين هجرتهم	إنّ المتيمّ قلّما يتجنّب
إنّ التجنّب إنّ تطاول منكما	دبّ السؤلولة، فعزّ المطلب

ثم كتبت تحت ذلك:

لا بدّ للعاشق من وقفةٍ تكون بين الوصل والصّرم^(٨)

(١) العقد: «حتى آتي المنزل».

(٢) : «بنفسي».

(٣) ك: «فمضوا»، وما أثبتته من ل والعقد.

(٤) كذا في العقد، وفي ط: «بعزة دلالة».

(٥) تستعزه: تغلبه، وفي ط: «تستفزه»، وما أثبتته من العقد.

(٦) الزمّع: الدهش والخوف.

(٧) العقد: «متعنت».

(٨) الأغاني ٦: ٢٩٥ (طبعة الدار)، وذكر بعد هذا البيت:

حتى إذا الهمُّ تمادى به راجعَ مَنْ يَهْوَى عَلَى رُغْمٍ
قال: ووجهت بالكتاب، فدفعه إلى الرشيد، فقال: والله ما رأيتُ شعراً أشبه
بما نحن فيه من هذا، والله لكأنِّي قُصِدْتُ به. فقال يحيى: فأنت والله المقصودُ به
يا أمير المؤمنين؛ هذا يقوله العباس بنُ الأحنف في هذه القصة، فلما قرأ البيتين
وأفضى إلى قولِي:

راجِعَ مَنْ يَهْوَى عَلَى رُغْمٍ

استفرغ ضحكاً [حتى سمعت ضحكته] ^(١). ثم قال: إي ^(٢) والله، أراجعها
على الرِّغم! وقال: يا غلام، نَعْلِي! فنهض وأذهله الجَدَلُ والسرور عن أن يأمرني
بشيء، فدعاني يحيى وقال: إن شعرك قد وقع بغاية الموافقة، وأذهل أمير
المؤمنين السُّرور عن أن يأمر لك بشيء. قلت: لكن هذا الخبر لم يقع ^(٣) منِّي بغاية
الموافقة. قال: إذا أوقعه. ثم جاء إنسان فسارّه بشيء. فنهض ونهضتُ لنهوضه،
فقال: يا عباس، أُمِيتَ أنبل ^(٤) النَّاسِ، أتدري ما سارني به هذا الرسول؟ قلت:
لا، قال: ذَكَرَ أَنَّ ماردة تلقتُ أمير المؤمنين لما علمت بمجيئه، فقالت: كيف كان
هذا يا أمير المؤمنين؟ فأعطاهما الشَّعر، وقال: هذا الذي جاء بي. قالت: فمن
يقوله؟ قال: العباس بن الأحنف. قالت: فبكم كُوفِيء؟ قال: ما فعلتُ شيئاً.
قالت: إذاً والله لا أجلس حتى يكافأ، فأمر المؤمنين قائم لقيامها، وأنا قائم
لقيامهما ^(٥)، وهما يتناظران في صلتك، فهذا كله لك. قلت: ما لي من هذا إلا
الصَّلَة! فضحك وقال: هذه أحسنُّ من شعرك، فأمر لي أمير المؤمنين بمال كثير،
وأمرتُ هي لي بمال دونه، وأمر لي الوزير بمالٍ دون ما أمرتُ به، وحملتُ على ما
ترون من الظَّهر. ثم قال لي الوزير: تمام اليد عنك ألا تخرج من الدار حتى
يؤثَّل ^(٦) لك بهذا المال، فاشتريتُ لي ضياع تغلَّ عشرين ألف درهم، ودفع إليَّ بقية
المال.

يَعْتَبُ أَحْيَاناً وَفِي عَثْبِهِ إِظْهَارُ مَا يُخْفِي مِنَ السُّقْمِ
إِشْفَافُهُ دَاعٍ إِلَى ظَنِّهِ وَظَنُّهُ دَاعٍ إِلَى الظُّلْمِ

(١) من العقد.

(٢) ط: «إني»، وما أثبتته من العقد.

(٣) العقد: «ما وقع».

(٤) العقد: «أملأ الناس»؛ من قولهم: ملأ الرجل، فهو مليء، صار ثقة غنياً.

(٥) العقد: «وأنا قائم لقيام أمير المؤمنين».

(٦) التأثيل: التهيئة والتأصيل.

فهذا هو خبري الذي عاقني عنكم؛ فهلّموا حتى أقاسمكم الضياع، وأفرّق بينكم المال!

فقلنا: هنّاك الله مالك، كلّنا^(١) يرجع إلى نعمة من أبيه وأهله فأقسّم وأقسمنا؛ وقال: أنتم أسوتي فيه، قلنا: أمّا هذا فنعم؛ فامضوا بنا إلى الجارية حتى نشترّيها.

قال: فمضينا إلى صاحبته^(٢) - وكانت جارية جميلة حلوة لا تحسن شيئاً أكثر ممّا بها^(٣) من الطّرف - وكانت تساوي على وجهها خمسين ومائة دينار.^(٤) فاستامت بها صاحبتها خمسمائة دينار^(٥)، فأجبتها بالتعجب، فحطّت مائة. فقال لنا العباس: يا فتیان، إني أحشم والله أن أقول بعد ما قلت، ولكن هي جارية في نفسي؛ بها يتم سروري. إنّ هذه الجارية أريد إثارة نفسي بها، وأكره أن تنظر إليّ بعين من مأكس في ثمنها، فدعوني أعطيها خمسمائة دينار. قلنا: قد حطت مائة. قال: وإن فعلت!

فصادفت مولاتها رجلاً حرّاً؛ وأخذت من الثمن ثلاثمائة، وجهرتها بالباقي. فما زال عشيراً حتى فرّق بيننا وبينه الموت.



وعن المبرّد قال^(٥): حدّثني من أعتد عليه أنّ مُسلم بن الوليد كان يمدح من دون الخليفة، وكان يقول: إنّ نفسي تذوب حشرات من أنه يحوي خزائن^(٦) الخلفاء من لا يقاريني في أدب، ولا يوازي^(٧)ني في نسب، ولا يصلح أن يكون شعره خادماً لشعري. وكان إذا كَسب جمع أصحابه فلم يخرج من منزله؛ حتى يأتي على جميع ما معه، فلا يزال في أكل وشرب وقصص حتى يُفني [جميع]^(٨) ما معه. فعرف بذلك، وكانت البرامكة ويزيد بن مَزيد الشَّيباني، ومحمد بن

(١) العقد: «فكلما».

(٢) ك: «سيدتها».

(٣) ك: «فيها»، وفي العقد: «أكثر ما فيها ظرف اللسان وتأدية الرسائل».

(٤) العقد: «فلما رأى مولاها ميل المشتري استام بها خمسمائة».

(٥) الخبر في ترجمة مسلم بن الوليد، الملحقة بديوانه، ص ٤٢٩ (نشرة الدكتور سامي الدهان)، عن كتاب جمهرة الإسلام.

(٦) ك: «الجوائز».

(٧) وكذا في الديوان، وفي ك: «يوازي».

(٨) من ك.

منصور بن زياد يَبْرُونَهُ ويعطفون عليه، ويتفقّدون مِنْ حاله. فخرج ذاتَ يوم فلقيَ يزيدَ بنَ منصور الحميريّ بباب الرشيد، فسَلَّمَ عليه، فردَّ عليه السَّلام، ورَحَّبَ به، وسأله عن شأنه؛ فخبَّره وسأله أن يقرِّبه من الخليفة، وأن يحتال حتَّى يُعَدَّ في مادحيه^(١) ومن تَجْري عليه أرزاقه، فقال الحميريّ: سأأتى لوصولك إلى أمير المؤمنين، فدخل الحميريّ، فأصاب أمير المؤمنين لَقَسَ النفس، قد اشتمل عليه الفكرُ، [فقال له يحيى: ما بك يا أمير المؤمنين؟ قال: الفكر]^(٢) في سرعة تقضي أمور الدنيا، وأنا لا نتشبَّث^(٣) منها بشيء إلا كان كالظِّلِّ الزائل، والسراب الخادع.

فقال له جعفر بن يحيى: يا أمير المؤمنين، أفتظنّ أن هذا الفكر يحبس عليك الأيَّام، أو يمنحك ممَّا لا تستمتع به! إنما هذا الذي أنت فيه، عارضٌ عَرَضٌ لك، وقد كان مَلِكٌ من الملوك يقال له: «بُهْمَان»^(٤) - وكان من أجلِّ ملوك العجم، وكان حكيماً - يقول: الهمُّ مَفْسِدَةٌ للنفس، وَمَضَلَّةٌ للفهم، وَمَشْدَهَةٌ^(٥) للقلب، وَمِنْ أعظم الخطأ التشاغل بما لا يمكن دفعه، وقد قالت الحكماء: بالسرور يطيب العيش، ومع الهمِّ تمثي الموت^(٦).

قال له سليمان بن أبي جعفر^(٧): يا أمير المؤمنين؛ يُروى عن لقمان الحكيم^(٨) أنه قال: مَنْ يملك يستأثر، ومن لا يستشير يندم؛ والهم نصف الهرم، والفقْر الموت الأكبر.

قال: فكأنَّ الرشيد نشِطَ واندفع عنه ما اعتراه من ذلك الفكر، فتقدّم إليه الحميريّ وقال: يا أمير المؤمنين؛ خلّفتُ بالباب أنفأ رجلاً من أخوالك الأنصار؛ متقدِّماً في شعره وأدبه وظرفه، أنشدني قصيدةً يذكر فيها أنسه ولهوه ولعبه ومحادثته إخوانه؛ ويذكر مجالس اتصّلت له؛ بأبلغ قول وأحسن وصف، وأقرب رصف، تبعثُ واللّه على الصُّبابة والفرح، وتُباعد عن الهمِّ والتَّرح، وكأنه قد وُفِّقَ بيمنُ أمير المؤمنين وسعادةً جدّه لأنَّ يكون مبرراً من هذه الشكوى، وزائداً في سرور أمير المؤمنين^(٩)، مستدعيّاً له صِلَةً رَحِمِهِ؛ والتشرّفَ بخدمته.

(١) ط: «ممازحيه»، وما أثبتته من الديوان.

(٢) من الديوان.

(٣) الديوان: «كيومرد».

(٤) الديوان: «مدهشة».

(٥) ل: «منصور».

(٦) ل: «يتمنى».

(٧) الديوان: «الخليفة».

(٨) الديوان: «القس».

قال: فاستفزّه السرور والقلق إلى دخوله عليه، واستماع قصيدته، وجعل يتابع الرسل بعضهم في أثر بعض حتى دخل. وكان حلوَ الشمائل، فوصل إليه في وقت قد كان خرج فيه من رسم الشباب وشيرته^(١)، ولم يكن في عداد من قد اضطرب سنًا^(٢). وكان ناهيك من رجل! معه فهم وتجربة وتمييز ومعرفة، فأمهّل حتى سكّن، ثم أذن له في الجلوس والانبساط، واستدعى منه أن يزيد في الأنس.

فانبرى مُسلم ينشد قصيدته، فجعل الرشيد يتناول لها؛ ويستحسن ما حكاها من وصف شرابٍ ولهوٍ، ودُمائَةٍ وعَزَلٍ، وسهولة ألفاظ. ثم أمر له بمالٍ، وأمر أن يُتخذ له مجلس يتحوّل إليه، وجعل الرشيد وأصحابه يتناشدون قصيدته. فسَمّاه يومئذٍ بآخر بيت من قصيدته: «صريع الغواني»، والرشيد الذي سمّاه بهذا الاسم، والقصيدة هي هذه:

ولا تطلّبا من عند قاتلتي دَحلي^(٣) ولكن على مَنْ لا يحلُّ لها قَتلي دَعيه الثريا منه أقرب من وصلي^(٤) إليها تزيد القلب حَبلاً على حَبْلٍ فلم يدر ما بي فاسترحت من العذل^(٥) يَهودِيّة الأصهار مسلمة البعل بنارٍ ولم يُجمَع لها سَعْفُ النخل فجاء بها يمشي العَرَضَنَة في مَهْل^(٦) بها شفقاً بين الكروم على رجل جزيل العطايا غير نكسٍ ولا وغلٍ	أديراً عليّ الكأس لا تشرباً قبلي فما جزعي أنني أموت صَبابةً أحبُّ التي صَدّت وقالت لِتربّها: بَلَى ربّما وكَلْتُ عيني بنظرةٍ كتمتُ تباريح الصبابة عاذلي ومانحة شُرّابها الملك قهوةٍ ربّبة شمسٍ لم تُهَجّن عروقها بعثنا لها منّا خطيباً لبُضعها قد استودعت دُنا لها فهو قائمٌ فوافى بها عذراء خلّ أخو ندّى
---	--

(١) الديوان: «ونزقه».

(٢) الديوان: «حياء».

(٣) ديوانه ٣٣، مع اختلاف في الرواية والذحل: طلب الثأر.

(٤) بعده في الديوان:

أما نلت وأحيث مُهَجّتي فهي عندها
وما نلت منها نائلاً غير أنني

(٥) تباريح الصبابة: حرارتها.

(٦) العرضة: مشية فيها انحراف من التيه.

مُعَلّقة بين المواعيد والمَطْل
بشجو المحبين الأولى سَلَفُوا قبلي

- معتقة لا تشتكي دم عاصِر
أغارَتْ على كف المٌديرِ بلونها
أماثت نفوساً من حياةٍ قريبة
شققنا لها في الدنّ عينا فأسبلت
كأن فنيقاً بازلاً شقّ نحره
ودارت علينا الكأس من كف ظبية
كأنّ طباءً عُكفاً في رياضها
وَحَنَّ لنا عودُ فباح بِسرّه
تضاحكه طوراً، وتُبكيه تارةً
إذا ما علّت منّا ذؤابةً واحدٍ^(٨)
فلا نحنُ مِنّا موتة الدهر بغتةً
سأنقأذ للذات مُتبع الهوى
هل العيشُ إلّا أن أروح مع الصّبا
- حُروريّة في جوفها دُمها يغلي^(١)
فصارت له منها أناملُ كالذبل^(٢)
وفاتت فلم تُطلب بوثرٍ ولا تبيل^(٣)
كما أخضلت عينُ الخريدة بالكحل^(٤)
إذا أسفرت منها الشُعاع على البزل^(٥)
مُبتلة حوراء كالرشاء الطفل^(٦)
أباريقُها أوجسَنَ قعقعة النبل
كأنّ عليه ساقٍ جارية عطل
خدلجةً هيّفاء ذات شوى عبِل^(٧)
تمشّت به مشي المقيّد في الوحل
ولا هي عادت بعد علّ ولا نهل^(٩)
لأُمضي هماً؛ أو أصيب فتى مثلي^(١٠)
وأعدو صريع الكأس والأعين النجل!



- (١) الديوان: «وطء عاصر»، وشبهها برجل حروري يغلي دمه.
(٢) الذبل: عظام صفر كعظام الفيل.
(٣) الديوان: «تبيل ولا ذحل». والوتر والتبل والذحل بمعنى.
(٤) الديوان: «عين الخريد بلا كحل». والخريد والخريدة: المرأة الحية المحتشمة.
(٥) الفنيق: الجمل الأبيض، وفي الديوان: «إذا ما استدرت كالشعاع على البزل».
(٦) الديوان: «من كف طفلة». والمبتلة: كاملة الخلق.
(٧) الخدلجة: الحسنه الخلق. والهيفاء: الضامرة البطن؛ وبعده في الديوان:
لنا عن ثنايا، لا قصارٍ ولا تُغل
حكى نائحاتٍ بثنّ يبكين من كُحل
ورُحنا حَميدي العيش مُتفتي الشُكل
ومالت عَلينا بالخديعة والنجل
- إذا ما اشتَهينا الأُفحوانِ تَبَسَمَتْ
وأُسَعَدَها المزمَارُ يَشْدُو كَأَنَّهُ
عَدُونَا على اللذاتِ نجني ثمارها
أقامتْ لنا الصُّهْبَاءُ صَدْرَ قَنَاتِهَا
- (٨) الديوان: «ذؤابة شارب».
(٩) بعده في الديوان:
وساقية كالريم هيّفاء طفلة
تَنَزَّهُ طرفي في محاسن وجهها
- (١٠) الديوان «متبع الصبا».

قيل: وأدخل الفضل بن يحيى أبا نؤاس عند^(١) الرشيد، فقال له الرشيد: أنت القائل:

عُتِّقْتَ فِي الدَّنِّ حَتَّى هِيَ فِي رِقَّةٍ دِينِي
أَحْسِبُكَ زَنْدِيقاً! قال: يا أمير المؤمنين، قد قلت ما يشهد لي بخلاف ذلك.
قال: وما هو؟ قال: قلت:

أَيَّةَ نَارٍ قَدَحَ الْقَادِحُ وَأَيَّ حَدٍّ بَلَغَ الْمَازِحُ^(٢)
لَلَّهِ دُرُّ الشَّيْبِ مِنْ وَاغِظٍ وَنَاصِحٍ لَوْ قُبِلَ النَّاصِحُ!
فَاغْدُ فَمَا فِي الْحَقِّ أَغْلُوطَةٌ وَرُخٌّ لِمَا أَنْتَ لَهُ رَائِحٌ
مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فَذَاكَ الَّذِي سَيَقُ إِلَيْهِ الْمَتَجَرُّ الرَّابِحُ
لَا يَجْتَلِي الْحَوْرَاءُ مِنْ خِذْرُهَا إِلَّا أَمْرُؤٌ مِيزَانُهُ رَاجِحٌ
فَاسْمُ بَعِينِكَ إِلَى نَسْوَةٍ مُهَوَّرُهُنَّ الْعَمَلُ الصَّالِحُ
فقال الفضل: يا سيدي، إنه يؤمن بالبعث، ويحمله المجنون على ذكر ما لا
يعتقده، ثم أنشده:

لَقَدْ طَالَ فِي رَسْمِ الدِّيَارِ بَكَائِي وَقَدْ طَالَ تَرْدَادِي بِهَا وَعَنَائِي^(٣)
كَأَنِّي مُرِيغٌ فِي الدِّيَارِ طَرِيدَةٌ أَرَاهَا أَمَامِي مَرَّةً وَوَرَائِي^(٤)
فَلَمَّا بَدَا لِي الْيَأْسُ عَدَيْتُ نَاقَتِي عَنْ الدَّارِ وَاسْتَوَلَى عَلَيَّ عَزَائِي
إِلَى بَيْتِ حَانَ لَا تَهْرُ كِلَابُهُ عَلَيَّ وَلَا يَنْكَدُنْ طَوْلَ ثَوَائِي
فَمَا رُمْتَهُ حَتَّى أَتَى دُونَ مَا حَوْتُ يَمِينِي وَحَتَّى رَيْطَتِي وَجْدَائِي^(٥)
وَكَأْسٍ كَمَصْبَاحِ السَّمَاءِ شَرِبْتُهَا عَلَى قُبْلَةٍ أَوْ مَوْعِدٍ بَلَقَاءِ
أَتَتْ دُونَهَا الْأَيَّامُ حَتَّى كَانَتْهَا تَسَاقَطُ نُورٌ مِنْ فَتُوقِ سَمَاءِ
تَرَى ضَوْءَهَا مِنْ ظَاهِرِ الْبَيْتِ سَاطِعاً وَلَوْ غَطَّيْتُهَا بِغَطَاءِ
تَبَارَكَ مَنْ سَاسَ الْأُمُورَ بِقُدْرَةٍ وَفَضَّلَ هَارُونَاً عَلَى الْخُلَفَاءِ!
نَرَاكَ بِخَيْرٍ مَا انْطَوَيْنَا عَلَى الثَّقَى وَمَا سَاسَ دُنْيَانَا أَبُو الْأَمْنَاءِ

(١) ط: «إلى عندي».

(٢) ديوانه ١٩٢، مع اختلاف في الرواية وترتيب الأبيات.

(٣) ديوانه ٦٢، وروايته: «لقد طال».

(٤) مريغة؛ من قولهم: أرغ الصيد؛ إذا تتبعه.

(٥) الريطة: الملاعة.

إِمَامٌ يَخَافُ اللَّهَ حَتَّى كَأَنَّمَا يُؤَمِّلُ رُؤْيَاهُ صَبَاحَ مَسَاءٍ
 أَشْمُ طُوالِ السَّاعِدَيْنِ كَأَنَّمَا يُنَاطُ نِجَادًا سَيْفِهِ بِلَوَاءٍ
 فخلع عليه الرشيد ووصله بعشرة آلاف درهم، والفضل بمثلها؛ فنظر إلى
 جارية تختلف كأنها لؤلؤة، فقال: يا أمير المؤمنين، أنا ميت في ليلتي هذه، فإذا مت
 فمره أن أدفن في بطن هذه الجارية! فقال له الرشيد: خذها لا بارك الله لك فيها!
 قال أبو نؤاس: فأخذتها وانصرفت بمثل الشمس حسناً، وفي منزلي غلام
 مثل القمر، فلقيني محمد بن يسير^(١) الشاعر، فقال: أتيتك مهتئاً بما حباك به أمير
 المؤمنين. فقلت: نعمة تتبعها نقمة! فقال: ولم ذاك؟ فقلت: عندي غلام مثل
 القمر، وهذه مثل الشمس، وإن جمعتهما أتخوف ما تعلم، وإن أفردت الجارية لم
 آمن عليها، وغلامي لا بد منه. قلت: اجعلها عند بعض إخوانك إلى وقت
 حاجتك إليها. قلت: فلعل الحارس هو المتحرّس منه! قال: فصيرها عند عجوز
 تثق بها. قلت: لعلّي أسترعي الذئب!

قال: ثم افترقنا، فالتقى معه أبو نؤاس بعد ثلاثة أيام، فقال له: يا محمد بن
 يسير، ما على الأرض شرّ منك! شاورتك في أمر فلم تفتح عليّ فيه شيئاً، فلما
 فارتقتك ازدحم عليّ الرأي المصيب. قال محمد: فماذا صنعت؟ قال: زوجت
 الشمس من القمر، فحصلت لهما لأقضي بهما وطري؛ قال: كان الشيء عليك حلالاً
 فجعلته حراماً، قال: يا أحمق، أشاورتك في الحلال والحرام! إنما قلت: كيف
 الرأي في تحصيلهما؟ ثم أنشأ:

زَوَّجْتُ هَذَاكَ بِهِذِي لَكِي أَنْكِحَ ثِنْتَيْنِ فثِنْتَيْنِ
 أَنْكِحْ هَذَاكَ مَرَّةً ثُمَّ ذَا أَدِيرُ رُمَحاً بَيْنَ صَفَيْنِ
 مَتَّعْتُ نَفْسِي بِهِمَا لَذَّةً يَا مَنْ رَأَى مَطْلِعَ شَمْسَيْنِ!



وحدثنا محمد بن أيوب بن جعفر بن سليمان، وهو أمير البصرة، قال: كان
 بالبصرة رجل من بني تميم، وكان شاعراً ظريفاً، وكنت أنس به، فأردت أن
 أخدعه^(٢) [وأستزله]^(٣)، فقلت: يا أبا نزار، أنت شاعر وظريف، والمأمون أجود

(١) ط: «بشير»، تصحيف.

(٢) كذا في الطبري، وفي الأصول: «أنفعه».

(٣) من الطبري.

من السحاب الحافل، والريح العاصف، فما يمنحك منه؟ قال: ما عندي ما أتحمّل به^(١). قلت: أنا أعطيك نجيباً فارهاً، ونفقة سابعة؛ تخرُج إليه وقد امتدحتّه، فإنك إن حظيت بلقائه صرتَ إلى أمنيّتك. قال: واللّه أيّها الأمير، إني لأظنّك^(٢) صادقاً. قلت: أجل؛ فدعوتُ بنجيبه فارهة، فقال: هذه إحدى الحسينين^(٣)، فما بال الأخرى! فدعوتُ له بثلاثمائة درهم، فقال: وهذه الثانية، ثم قال: أحسبك أيّها الأمير قصّرتَ في النفقة، قلت: لا، هي لك كافية إن قبضتَ يدك عن السّرّف. قال: ومتى رأيتَ السّرّف في أكابر بني سعد، فكيف في أصاغرّها! فأخذ النّجيبه والنفقة، ثم عمل أرجوزة ليست بطويلة، فأنشدنيها وحذف منها ذكرِي، فقلت له: ما صنعتَ شيئاً. قال: وكيف ذلك؟ قلت: تأتي الخليفة وأنت وافد، فلا تشي على أميرك! قال: أيّها الأمير، أردت أن تخذعني فوجدتني خداعاً، ولمثلها ضرب هذا المثل: «من ينيك العيّرينك نائكاً»، واللّه ما لكرامتي حملتني، وجُدّت لي بمالك الذي ما رامه أحد إلّا جعل اللّه خدّه الأسفل، ولكن لأذكرك [في شعري، وأمدحك عند الخليفة، افهم هذا. قلت: صدقت، فقال: أمّا إذ أبديت ما في ضميرك، فقد ذكرتُك وأثنت عليك]^(٤). قلت: فأنشدني ما قلت، فأنشدني. فقلت: أحسنت وأجدت^(٥)، فتركني وخرج حتى أتى الشام والمأمون بسلغوس^(٦). فأخبرني، قال:

بيننا أنا في عداة^(٧) قرّة، قد ركبْتُ نجيبِي، ولبست أطماري، وأنا أريد العسكر؛ فإذا أنا بكهّل على بغل فارِهِ ما يقرّ قرارُهُ، ولا يُدرِك خطاه. فتلقّاني مكافحة ومواجهة وقال: السلام عليكم - بكلام جهوريّ، ولسانٍ بسيط - فقلت: وعليكم السلام، فقال: قف إن شئت. فوقفت، فتضوّعت منه رائحة المسك الأذفر. فقال: ممّن؟ قلت: رجل من مُضر، قال: ونحن من مُضر، ثم ماذا؟ قلت: من بني تميم، قال: وما بعدهم؟ قلت: من بني سعد. قال: هيه! فما أقدمك [هذا البلد]^(٨)؟ قلت: قصدتُ هذا المَلِك الذي ما سمعتُ بمثله أُندي راحة

(١) الطبري: «ما يقلني».

(٢) الطبري: «ما إخالك أبعدت».

(٣) كذا في الطبري، وفي الأصول: «الحسنتين».

(٤) من الطبري.

(٥) كذا في الطبري: وفي تصويبات ط: «ولعنت».

(٦) سلغوس: حصن في بلاد الثغور بعد طرسوس (مرصد الاطلاع).

(٧) الطبري «غزة».

(٨) من الطبري.

ولا أوسع باحة، ولا أطول باعاً، ولا أمدّ يفاعاً^(١) منه . قال : فما الذي قصدته به؟ قلت : شعراً طيباً، يلدّ على أفواه الرواة، ويحلّو في أذان المستمعين . قال : فأنشدني . فغضبت^(٢) وقلت : يا ركيك، أخبرك^(٣) أني قصدت الخليفة بشعر قلته، ومديح حبرته، فتقول : أنشدني! فقال : وما الذي تأمل فيه؟ قلت : إن كان على ما ذكر لي فالف دينار، قال : أنا أعطيك ألف دينار إن رأيت الشعر جيداً، والكلام عذّباً، وأضع عنك العناء وطول الترداد . متى تصل أنت إلى الخليفة [و]^(٤) بينك وبينه عشرة آلاف رامح ونايل! قلت : فلي عليك عهد الله أن تفعل! قال : لك الله أن أفعل . قلت : ومعك مال؟ قال : بغلي هذا خير من ألف دينار، أنزل لك عن ظهره . قال : فغضبت وعارضتني مرة بني سعد، وخفة أحلامها، وقلت : ما يساوي هذا البغل هذا النجيب! قال : فدع عنك هذا، ولك الله أن أعطيك ألف دينار، فأنشدته الأرجوزة، وقلت :

مأمون يا ذا المنن الشريفه	وصاحب المرتبة المنيفه
وقائد الكتيبة الكثيفه	هل لك في أرجوزة ظريفه!
أظرف من فقه أبي حنيفه	لا والذي أنت له خليفه
ما ظلمت في أرضنا عفيفه	أميرنا شكتة خفيفه ^(٥)
وما اختبى شيئاً سوى الوظيفه	فالذب والتعجه في سقيفه
واللص والتاجر في قطيفه	

فوالله ما أتممت إنشادها حتى جاء زهاء عشرة آلاف فارس قد سدوا الأفق، وهم يقولون : السلام عليك يا أمير المؤمنين! فأخذني القلق، ونظر إليّ بتلك الحال وشملي قد تبدد فقال : لا بأس عليك! قلت : يا أمير المؤمنين، أُمعذري أنت؟ قال : نعم، ثم التفت إلى خادم في جانبه وقال له : أعطه ما معك، فأخرج له كيساً فيه ثلاثة آلاف دينار، وقال : هاك، سلام عليك! فكان آخر العهد به^(٦) .



(١) الطبري : «بقاعاً» .

(٢) كذا في الطبري، وفي ط : «فمضيت» .

(٣) الطبري : «أخبرتكَ» .

(٤) من الطبري .

(٥) الطبري : «مؤننه» .

(٦) الخبر في تاريخ الطبري ٣ : ١١٤٤ - ١١٤٨ (طبع أوروبا) .

حدَّثنا إبراهيم بن عبد السلام، عن الحسين بن الضحّاك، قال: دخلتُ أنا ومحمد بن عمرو الرّومي دارَ المعتصم بالله، فخرج علينا كالحا، فجاء إيتاخ^(١) وقال: المهلون على الباب: مخارق، وعَلَوِيه، وفلان، وفلان. فقال: اغزُب، عليك وعليهم لعنة الله! قال: فتبسّمتُ إلى محمد وتبسّم إليّ، فقال المعتصم: ممّ تبسّمت يا حسين؟ قلت: من شيء خَطَرَ لي. قال: هاته، فأنشده:

إِنْ فِ عَن قَلْبِكَ الْحَزَنُ بَدُنُو مَنْ السَّكَنُ
وَتَمَتَّعَ بِكَرَّ طَرُ فِكَ فِي وَجْهِهِ الْحَسَنُ^(٢)

فدعا بألفي دينار: ألف لي، وألف لمحمد بن عمرو. فقلت: يا أمير المؤمنين، الشعرُ لي، فما معنى «ألف لمحمد»؟ قال: لأنه جاء معك. وأمر الملهين بالدخول، فأدخلوا؛ فما زال يومه ذاك ينشد الشعر، ولقد قام يريد البول، فسمعه يردّده^(٣).



قال أبو العيّن: أنشدني المعتصم بعقب مدح جرى ببغداد:

سَقَانِي بَعِينِيهِ كَأْسَ الْهَوَى فَظَلْتُ وَبِي مِنْهُ مِثْلَ اللَّمَمِ
بَعِينِي مَهَاةً تَبَيَّنَتْهُ وَشُنْبٍ عَذَابٍ وَقَرْعِ أَحَمِ
قال أبو العيّن: فتوهّمْتُ أنّه يعني سُرَّ مَنْ رَأَى، ويكني عنها بذلك الكلام. فقلت: يا أمير المؤمنين، قال مروان في جدك:

قَرِيشُ الْأَبْلَجُ ذُو الْبَهَاءِ غِيثُ الْعُقَاةِ فِي عَدِ الْأَنْوَاءِ
وَهُمْ زَمَامُ الدَّوْلَةِ الزَّهْرَاءِ

(١) هو إيتاخ التركي المعتصمي. كان غلاماً خزرياً لسلام الأبرش، فاشتراه منه المعتصم، ثم رفعه، ومن بعده الواثق، وضما إليه من أعمال السلطان أعمالاً كثيرة؛ وكل من أراد المعتصم أو الواثق أن يقتله قتله، وقتل بذلك كثيرين. ثم تولى الحكم بالديار المصرية من سنة ٢٣٠-٢٣٥، ثم كتب المتوكل إلى إسحاق بن إبراهيم بن مصعب بالقبض عليه في الباطن إن أمكنه؛ فتحايل عليه إسحاق حتى قبض عليه وقيده بالحديد، وقتله عطشاً سنة ٢٣٥هـ. وانظر: حواشي الأغاني ٧: ١٨٤ (طبعة الدار).

(٢) بعده في الأغاني:

إِنْ فِيهِ شَفَاءٌ صَدَّ رَكَ مِنْ لَاعِجِ الْحَزَنِ

(٣) الخبر في الأغاني ٧: ١٨٥ (طبعة الدار).

فقال: قُلْ يا أبا عبد الله في مدح بني هاشم لك ولغيرك، فلقد أصبت مقالاً،
فأنشدته لمروان بن أبي حفصة:

إلى مَلِكٍ مِثْلِ بَدْرِ الدُّجَى عَظِيمِ الفَناءِ رَفِيعِ الدَّعَمِ
قَرِيعِ نِزارِ غِداةِ الفِخارِ وَلَوْ شِئْتُ قُلْتُ جَمِيعِ الأُمَمِ
لَهُ كَفٌّ جَوْدٍ تَفِيدُ الغِنَى وَكَفٌّ تَبِيدُ بِسِيفِ النُّقَمِ
فقال: زدني، فأنشدته:

انتجعي يا ناقُ مُلْكٍ غالِبٍ^(١) قَرِيشَ بَطحاءِ أُولى الأَهاضِبِ
والرأسُ ممدودٌ على المَنابِ مَدَّ القِباطِيَّ على المِشاجِبِ
فقال: زدني، فأنشدته:

يا قُطْبَ رَجْراحَةِ المَلْحاءِ وَمَنزَلَ البَدْرِ مِنَ السَّمَاءِ
والمَجْتَدَى في السَّنَةِ العَجْفاءِ

فقال: حسبك يا أبا عبد الله! ثم التفت إلى جارية بين يديه فقال: عشر بدر،
ووصيفة وفرساً ومملوكاً وخمسين ثوباً الساعة! فجيء بذلك كله، فأعطاه إياه
وانصرف. فقال له الناس: يا أبا العيناء، ما هذا؟ قال: مال الله، على يد
عبد الله، الحمد لله، والشكر لأمر المؤمنين ما دامت السماء، وما حملت مقلتي
الماء.



قال أحمد بن أبي طاهر: أخبرني مروان بن أبي الجنوب: قال: لما
استخلف المتوكل بعثت إليه بقصيدة، مدحت فيها ابن أبي دؤاد، وفي آخرها بيتان
ذكرت فيهما ابن الزيات بين يدي ابن أبي دؤاد، وهما:

وقيل لي الزَّيَّاتُ لاقَى حِمَامَهُ فقلتُ أَتاني اللهُ بالفتح والنَّصرِ!
لقد حَفَرَ الزَّيَّاتُ بِالْعَدْرِ حُفْرَةً فَأَلْقَيْ فيها بالخِيانةِ والعَدْرَ

فلما صارت القصيدة في يدي ابن أبي دؤاد، ذكر ذلك للمتوكل، وأنشده
البيتين، قال: أحضرنيه، قال: هو باليمامة. قال: يُحْمَل، قلتُ: عليه دين، قال:
كم؟ قلتُ: ستّة آلاف دينار. قال: يُعطاها، فأعطيتُ ذلك وحملتُ، وصرتُ إلى
سُرٍّ من رأى؛ وامتدحتُ المتوكل بقصيدة أقول فيها:

(١) في الأصلين: «ملوك».

رَحَلَ الشَّبَابُ وَلَيْتَهُ لَمْ يَرَحَلَ وَالشَّيْبُ حَلَ وَلَيْتَهُ لَمْ يَحْلَلِ
فلما صرْتُ من القصيدة إلى هذين البيتين:
كَانَتْ خِلَافَةً جَعْفَرُ كَنْبَوَّةٍ جَاءَتْ بِلا طَلَبٍ وَلَا بِتَبَخُّلِ
وَهَبَ إِلَهُ لَهُ الْخِلَافَةَ مِثْلَمَا وَهَبَ النُّبُوَّةَ لِلنَّبِيِّ الْمَرْسَلِ
أمر لي بخمسين ألف درهم.



قال: وكان عليّ بن الجهم يقع^(١) في مروان ويثلبه، حسداً لمنزلته من أمير المؤمنين^(٢). فقال له المتوكل: يا عليّ، أيُّكما أشعر، [أنت أو مروان؟]^(٣) قال: أنا أشعر منه. قال: ما تقول يا مروان؟ قال: إذا حققت شعرك في أمير المؤمنين، لم أبال بمن زيف شعري. ثم التفت مروان إلى عليّ؛ فقال: يا عليّ، أنت أشعر منّي! قال: نعم، تشك في ذا! قال: [نعم أشك وأشك و]^(٤) أمير المؤمنين بيني وبينك، قال: هو يحابيك، فقال المتوكل: هذا من عيِّك، ثم التفت إلى حمدون النديم، فقال: ذا حَكَم بينكما، فقال: يا أمير المؤمنين. تركنني بين لحيي الأسد، قال: لا بد أن تصدقني، قال: يا أمير المؤمنين، أعرفهما في الشعر أشعرهما. فقال المتوكل: يا مروان، هجّه، قال: لا أبدؤه، ولكن يقول. فقال عليّ: قد كظني التبيذ، ولست أقدر أن أقول؛ قال مروان: لكني أقول:

إِنْ ابْنُ جَهْمٍ فِي الْمَغِيبِ يَعِيبُنِي وَيَقُولُ لِي حَسَنًا إِذَا لَاقَانِي^(٥)
وَإِذَا التَّقِينَا نَاكَ شِعْرِي شِعْرُهُ وَنَزَا عَلَى شَيْطَانِهِ شَيْطَانِي^(٦)

(١) الأغاني: «يطعن».

(٢) الأغاني: «ويثلبه حسداً له على موضعه من المتوكل».

(٣) من الأغاني.

(٤) من الأغاني.

(٥) بعده في الأغاني:

صَعَرْتُ مَهَابَتُهُ وَعُظِّمَ بَطْنُهُ فَكَأَنَّمَا فِي بَطْنِهِ وَلَدَانِ
(٦) في الأغاني: فضحك المتوكل والجلساء معه، وانخزل ابن الجهم؛ فلم يكن عنده أكثر من أن قال: جمع حيلة الرجال وحيلة النساء، فقال له المتوكل: هذا أيضاً من عيِّك وبردك؛ إن كان عندك شيء فهاته، فلم يأت بشيء، فقال لمروان: بحياتي إن حضرك شيء فهاته، ولا تقصر في شتمك، فقال مروان:

لَعَمْرُكَ مَا الْجَهْمُ بْنُ بَدْرِ بِشَاعِرٍ وَهَذَا عَلِيٌّ بَعْدَهُ يَدْعِي الشُّعْرَا
وَلَكِنْ أَبِي قَدْ كَانَ جَاراً لَأُمِّهِ فَلَمَّا ادَّعَى الْأَشْعَارَ أَوْهَمَنِي أَمْرَا
قال: فضحك المتوكل، وقال: زده بحياتي. ثم ساق الأبيات.

إِنَّ ابْنَ جَهَنَّمَ لَيْسَ يَرْحَمُ أُمَّهُ لَوْ كَانَ يَرْحَمُهَا لَمَا عَادَانِي
 فقال المتوكل: يا مروان، بحياتي لا تقصّر، فقال:
 يَا عَلِيُّ يَا ابْنَ بَذْرٍ^(١) قُلْتَ أُمِّي قُرْشِيَّةَ
 قُلْتَ مَا لَيْسَ بِحَقٍّ فَاسْكُتِي يَا نَبْطِيَّةَ
 اسْكُتِي يَا بِنْتَ جَهَنَّمَ اسْكُتِي يَا حَلَقِيَّةَ^(٢)
 قال^(٣): فجعل المتوكل يضرب برجليه ويضحك، وأمر لي بألف دينار^(٤).



قال مروان: صرت إلى المتوكل فقلت:

سَقَى اللَّهُ نَجْدًا وَالسَّلَامُ عَلَى نَجْدٍ وَيَا حَبِذَا نَجْدٌ عَلَى الْقُرْبِ وَالْبَعْدِ!
 نَظَرْتُ إِلَى نَجْدٍ وَبَغْدَادُ دُونَهَا لَعَلِّي أَرَى نَجْدًا، وَهِيَهَاتَ مِنْ نَجْدٍ!
 وَنَجْدٌ بِهَا قَوْمٌ هَوَاهُمْ زِيَارَتِي وَلَا شَيْءَ أَحَلَّى مِنْ زِيَارَتِهِمْ عِنْدِي
 قال: فلما أتممت إنشادها أمر لي بعشرين ومائة ألف درهم وخمسين ثوباً،
 وثلاثة من الظَّهر: فرس وبغلة وحماراً، فما برحتُ حتى قلتُ في شكره:
 تَخَيَّرَ رَبُّ النَّاسِ لِلنَّاسِ جَعْفَرًا فمَلَّكَه أَمْرَ الْعِبَادِ تَخِيَّرًا
 فلما صرت إلى هذا البيت:

فَأَمْسِكْ نَدَى كَفَيْكَ عَنِّي وَلَا تَزِدْ فَقَدْ خَفْتُ أَنْ أَطْعَى وَأَنْ أَتَجَبَّرَا
 قال: لا، والله لا أمسك حتى أغرقك بجودي، ولا تبرح أو تسأل حاجة.
 قلت: يا أمير المؤمنين، الضيعة التي أمرت بإقطاعي إياها من اليمامة، ذكر
 ابن المدبر أنها وقف من المعتصم. قال: فإني أقبلُكها^(٥) بخراج درهم. قلت: لا

(١) الأغاني:

* يَا ابْنَ بَذْرٍ يَا عَلِيَّةَ *

(٢) يقال: أتان حلقية، إذا تداولتها الحمر فأصابها داء في رحمها.

(٣) في الأغاني: «فأخذ عبادة هذه الأبيات فغناها على الطبل وجاوبه من كان يغني، والمتوكل يضحك ويضرب بيديه ورجليه؛ وعلي مطرق كأنه ميت؛ ثم قال: علي بالدواة. فأتي بها فكتب:

بَلَاءٌ لَيْسَ يَشْبَهُهُ بَلَاءٌ عِدَاوَةٌ غَيْرُ ذِي حَسَبٍ وَدِينٍ
 يَبِيحُكَ مِنْهُ عِرْضًا لَمْ تَصُنْهُ وَيَرْتَعُ مِنْكَ فِي عِرْضٍ مَصُونٍ

(٤) الخبر بتمامه في الأغاني ١٢: ٨١ - ٨٣ (طبعة الدار).

(٥) أقبلُكها، أي ضممتها لك والتزمت بذلك، والاسم القباله.

يحسن أن يؤدّي درهم. فقال ابن المدبّر: فألف درهم. قلت: نعم، فأمضاها لي؛ ثم قال: ليست هذه حاجة؛ قلت: فضياعي التي كانت لي وحال ابن الزيات بيني وبينها. فأمر بردها^(١).



قال: وقال أبو يعقوب الخطابي: كنتُ جالساً عند معن بن زائدة، وإذا عليه إزار يساوي أربعة دراهم، فقال: يا أبا يعقوب، هذا إزاري، وقد قسّمت العام في قومك خاصّة أربعين ألف دينار، فبينما نحن نتحدّث؛ إذ أبصر أعرابياً يحطّ به الآل من حَوْخَةٍ مشرفة له على الصحراء، فقال لحاجبه: إن كان هذا يريدنا فأدخِله، فدخل الأعرابي وسلّم؛ وأنشأ يقول:

أصلحك الله قلّ ما بيدي فلا أطيّق العيال إذ كثروا
ألح دهر رمى بكلكله فأرسلوني إليك وانتظروا
قال: فاضطرب وقال: أرسلوك وانتظروا! يا غلام ما فعل بغلتنا الفلانية؟
قال: حاضرة، قال: كم هي؟ قال: ألف دينار، قال: اطرّحها إليه، ثم قال: اذهب إليهم بما معك، ثم إذا احتجّت فارجع.



وعن أبي يعقوب الخطابي قال: دخل أعرابيّ معه ظبيّ صغير^(٢) في نطع إلى معن بن زائدة، وقال:

سمّيت معناً بمعنٍ ثم قلتُ له هذا سمّي امرئ في الناس محمود
أنت الجواد ومنك الجود أوّلُه لا بلّ يميّنك منها صورة الجود
فأعطاه ألف دينار.



قال: ودخل يزيد بن مزيد مسجداً باليمن، فوجد في قبلته مكتوباً:
مضى معنٌ وخلاني ببئّي على معن بن زائدة السّلام
فسأل عن قائله، فإذا هو معهم، فقال: يا غلام، أمعك شيء؟ قال: نعم.

(١) الخبر في الأغاني ١٢: ٨٠، ٨١، مع اختلاف في العبارة.

(٢) ك: «ومعه صبي».

ألف دينار، قال: فادفعها إليه، فخرج الرجل وهو يقول: رحم الله أبا الوليد! وصَلِّني حيًّا وميتًا.



وحدثنا جعفر بن منصور بن المهدي قال: حدَّثني أبي قال: حجَّ المهدي فنزل زُبالة^(١)، فدخل حسين بن مطير الأسدي عليه، فقال:

أضحتَ يمينُكَ من جُودٍ مُصَوَّرةٍ لا بَلْ يمينُكَ منها صُورةُ الجود
من حُسن وجهك تضحِي الأرضُ مُشرقةً ومن بَنَانِكَ يجري الماءُ في العُودِ
فقال له المهدي: كذبت! قال: ولم ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: لقولك في
معن بن زائدة:

أَلَمَّا عَلَى مَعْنٍ وَقُولَا لِقَبْرِهِ سَقَتْكَ الْعَوَادِي مَرْبَعًا ثُمَّ مَرْبَعًا^(٢)
فيا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَهُ وَقَدْ كَانَ مِنْهُ الْبَرُّ وَالْبَحْرُ مَتَرَعًا!
فلما مَضَى مَعْنٌ مَضَى الْجُودُ وَانْقَضَى وَأَصْبَحَ عِرْنَيْنُ الْمَكَارِمِ أَجْدَعًا
فكنتَ لدارِ الْجُودِ يا مَعْنُ عامرًا فَقَدْ أَصْبَحْتَ قَفْرًا مِنَ الْجُودِ بَلْقَعًا
أَبَى ذَكَرَ مَعْنٍ أَنْ يُمَيَّتَ فَعَالَهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ لاقَى حِمَامًا وَمَصْرَعًا
فَتَى عَيْشٍ فِي مَعْرُوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ كَمَا كَانَ بَعْدَ السَّيْلِ مَجْرَاهُ مَرْتَعًا
فقال: يا أمير المؤمنين، إنما معنٌ حسنةٌ من حسناتك، وفعلةٌ من فعلاتك؛
فأمر له بألف دينار، ثم قال: سل حاجتك، فقال:

بِيضَاءُ تَسْحَبُ مِنْ قِيَامِ فَرَعِهَا وَتَغَيِّبُ فِيهِ وَهُوَ جَعْدٌ أَسْحَمُ
فكَأَنَّهَا فِيهِ نَهَارٌ مُشْرِقٌ وَكَأَنَّهُ لَيْلٌ عَلَيْهَا مَظْلِمٌ
قال: خذ بيدها - لجارية كانت على رأسه^(٣) - فأولدها مُطِيرُ بن الحسين بن
مطير.



قال: ودخل مروان بن أبي حفصة على جعفر بن يحيى يسأله إيصاله إلى الرشيد، وأنه قد مدحه بقصيدة ينشدها إياه، وقد كان جعفر وصله بثلاثين ألف

(١) زباله: موضع بطريق مكة.

(٢) ديوان الحماسة بشرح التبريزي ٢: ٣٩٢، مع اختلاف في الرواية وعدد الأبيات.

(٣) ك: «وكان على رأس المهدي جارية فقال له: خذ بيدها، فأخذها».

درهم، كتب له بها إلى صالح الصيرفي، وكانت فيها دراهم طبرية؛ فقال:
 ثلاثون ألفاً كلها طبرية دعا لي بها لما رأى الصك صالح^(١)
 دعا بالزئوف الناقصات وإنما عطاء أبي الفضل الجياد الرواجح^(٢)
 فقلت له لما دعا بزئوفه: أألجد هذا منك أم أنت مازح؟
 فلما أنشد ذلك جعفرأ ضحك، وقال: أنشدني مرثيتك في معن بن زائدة،
 فأنشده:

كأن الشمس يوم أصيب معن من الظلماء ملبسة جلالاً
 وكان الناس كلهم لمعن إلى أن زار حفرته - عيلاً
 فقال جعفر: هل أثابك على هذه المروية أحد من ولده وأهله؟ قال: لا، فلو
 كان حيّاً ثم سمعها منك بكم كان يثيبك؟ قال: بأربعمائة دينار، قال: أظن أنه كان
 لا يرضاها لك. قد أمرنا لك عن معن بأربعة كما ظننت، وزدناك^(٣) مثلها كما ظنناه
 به فيك، فاعُد على الخازن لقبضها منه.



قال^(٤): ودخل أعرابي على داود بن يزيد^(٥) بالسُّند، فقال: أيها الأمير،
 تأهب لمديحي؛ فتأهب، ثم قال: لئن أحسنت لأحسنن إليك، ولئن أسأت لأردن
 شعرك عليك، فقال:

أمنت بدادود وجود يمينه من الحدث المخشي والبؤس والفقر
 وأصبحت لا أخشى بدادود نبوة ولا حدثاناً إذ شددت به أزر^(٦)
 فما طلحة الطلحات ساواه في الندى ولا حاتم الطائي ولا خالد القسري
 له حكم لقمان وصورة يوسف ومملك سليمان وصدق أبي بكر
 فتى تهرب الأموال من طل كفه كما يهرب الشيطان من ليلة القدر^(٧)

(١) في الأصول: «دعاني».

(٢) زئوف: جمع زائف؛ وهو الدرهم الرديء المردود لغش فيه.

(٣) ل: «وزودناك».

(٤) ك: «قيل».

(٥) الخبر في العقد ١: ٢٩٨؛ وفيه «داود بن المهلب».

(٦) العقد: «من الحدثان إذ شددت».

(٧) العقد: «من جود كفه».

فقال: يا أعرابي، أحسنت فاحتكم، وإن شئت فاردد الحكم إليّ. فقال: ما عند الأمير ما يسعه حكمه، فقال: أنت في هذا أشعر، وأمر له بعشرة آلاف درهم.



قال: ودخل محمد بن الجهم على المأمون، فقال: أنشدني أحسن ما سمعته في المديح، فقال: نعم يا أمير المؤمنين، قوله:

تَجُودُ بِالنَّفْسِ إِذْ ضَنَّ الْجَوَادُ بِهَا وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ^(١)

فقال: أنشدني أخبث ما سمعته في الهجو، فقال: قوله:

قَبَحْتُ مَنَازِرَهُمْ فَحِينَ خَبَرْتُهُمْ حَسَنْتُ مَنَازِرَهُمْ لِقَبْحِ الْمَخْبَرِ^(٢)

قال: فأنشدني أحسن ما سمعته في المراثي، فقال: قوله:

أَرَادُوا لِيُخَفُّوا قَبْرَهُ عَنْ عَدُوِّهِ فَطَيَّبُ تَرَابِ الْقَبْرِ دَلٌّ عَلَى الْقَبْرِ
ومثله أيضاً:

عَلَى قَبْرِهِ بَيْنَ الْقُبُورِ مَهَابَةٌ كَمَا قَبْلَهُ كَانَتْ عَلَى سَاكِنِ الْقَبْرِ

قال: فأنشدني أحسن ما سمعته في الغزل، قال: قوله:

حُبٌّ مُجَدُّ وَحَبِيبٌ يَلْعَبُ وَأَنْتَ مُلْقَى بَيْنَهُمْ مُعَذَّبٌ^(٣)

فاستحسن الأبيات، ثم أمر بتقليدي الصيمرة والسيروان ومهرجان قذق، والدينور ونهاوند. فانصرف من عنده بولاية الجبل.

(١) لمسلم بن الوليد، ديوانه ١٦٤.

(٢) لمسلم بن الوليد، ديوانه ٣٢١.

(٣) لمسلم بن الوليد، ديوانه ٣٢٠.

مساوىء منع الشعراء والبخل

قيل: كان أبو عطاء السّنديّ بباب أمير المؤمنين أبي العباس، وبنو هاشم يدخلون ويخرّجون، فقال:

إنّ الخيارَ من البريّة هاشمٌ وبَنُو أُمَيَّةَ أَرَذَلُ الْأَشْرَارِ
وبنو أُمَيَّةَ عودُهم من خِرْوَعٍ ولهاشم في المجدِ عودٌ نُضَارِ
أما الدُّعَاةُ إلى الجِنَانِ فهاشمٌ وبَنُو أُمَيَّةَ من دُعَاةِ النَّارِ
وبهاشم زَكَتِ البلادُ وأعشبتُ وبنو أُمَيَّةَ كالسَّرابِ الجاري
فلم يؤدّنْ له في الدخولِ على أبي العباس، ولم يصله أحد من بني هاشم، فولّى وهو يقول:

يا ليت جورَ بني مَرْوَانَ عَادَ لَنَا وَأَنْ عَدَلَ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي النَّارِ



قال: وقال المؤمّل المحاربيّ: شخّصْتُ إلى المهديّ؛ وهو بالريّ، فامتدّحتُه فأمر لي بعشرين ألف درهم، فَرُفِعَ الخبر إلى المنصور، فبعث قائداً إلى جسر التَّهْرَوَانِ يَسْتَقْرِئُ^(١) القوافل، فلما وردتُ عليه قال: من أنت؟ قلت: أنا المؤمّل، أقبلت من عند الأمير من الريّ، فقال: إِيَّاكَ أَرَدْتُ، ثم أخذ بيدي فأدخلني على المنصور وهو بباب الذهب، فقال: أتيت غلاماً غَرّاً فخدعتُه فقلت: بل أتيت غلاماً غَرّاً كريماً فخدعتُه فانخدع. فقال: أَنشِدْنِي ما قلّته فيه، فَأَنشَدْتُهُ:

هو المَهْدِيُّ إِلَّا أَنْ فِيهِ مَشَابَهَ صُورَةِ الْقَمَرِ الْمَنِيرِ
تَشَابَهَ ذَا وَذَا فَهُمَا إِذَا مَا أَنَارَا يُشْكِلَانِ عَلَى الْبَصِيرِ
فهذا في الظلامِ سِرَاجٌ لَيْلٍ^(٢) وهذا بالنَّهَارِ سِرَاجٌ نَوْرِ
ولكنْ فَضَّلَ الرَّحْمَنُ هَذَا عَلَى ذَا بِالْمَنَابِرِ وَالسَّرِيرِ
وبالْمُلْكِ الْعَزِيزِ فَذَا أَمِيرٌ وَمَا ذَا بِالْأَمِيرِ وَلَا الْوَزِيرِ

(١) ط: «يستبرئ».

(٢) أمالي الزجاجي: «نار».

ونَقُصُ الشَّهْرُ يُخْمَدُ ذَا وَهَذَا^(١) مُنِيرٌ عِنْدَ نَقْصَانِ الشُّهُورِ
 فَيَا بَنَ خَلِيفَةَ اللَّهِ الْمَصْقَى بِهِ تَعْلُو مُفَاخِرَةَ الْفُخُورِ
 لَئِنْ فَتَّ الْمُلُوكَ وَقَدْ تَوَافَوْا إِلَيْكَ مِنَ السُّهُولَةِ وَالْوُغُورِ
 لَقَدْ سَبَقَ الْمَلُوكَ أَبُوكَ حَتَّى تَرَاهُمْ بَيْنَ كَابٍ أَوْ أُسِيرِ^(٢)
 وَجِئْتَ وَرَاءَهُ تَجْرِي حَثِيثًا وَمَا بَكَ حِينَ تَجْرِي مِنْ فُتُورِ
 فَقَالَ النَّاسُ: مَا هَذَا إِنْ إِلَّا كَمَا بَيْنَ الْخَلِيقِ إِلَى الْجَدِيرِ^(٣)
 فَإِنْ بَلَغَ الصَّغِيرُ مَدَى كَبِيرِ فَقَدْ خُلِقَ الصَّغِيرُ مِنَ الْكَبِيرِ

فقال: ما أحسن ما قلت! ولكن لا يساوي ما أخذت. يا ربيع، خذ منه ستة شعر ألفاً، وخذله وما سواها. قال: فحطّ واللّه الربيع ثقلِي^(٤) حتى أخذ مِنِّي ستة عشر ألفاً، فما بقيت معي إلّا نُفَيْقَةٌ، فألَيْتُ على نفسي ألا أدخُلَ العراقَ وللمنصور بها ولاية. فلمّا بلغني موتُ المنصور، واستخلافُ المهديّ قدمتُ بغدادَ وقد جعلَ المهديّ على المظالم رجلاً يقال له: ابنُ ثوبان، فرفعتُ إليه قِصَّةً أذكرُ فيها خبري، فعرضها على المهديّ، فضحك حتى استلقَى وقال: هذه مَظْلَمَةٌ أنا بها عارف، رُدُّوا عليه ماله، وزيدُوا له عشرين ألفاً. فأخذتها وانصرفتُ^(٥).



قيل: ودخل عَوْنُ عليّ عمر بن عبد العزيز، فقال: يا أمير المؤمنين، هذا جريرٌ بالبَابِ يريدُ الدخولَ عليك. فقال عُمر: ما أدري أنّ أحداً من أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ يُحْجَبُ عَنِّي! قال: إنّه يريدُ إذناً خاصّاً. قال: أدخِله، فخرج عَوْنُ وأخذ بيده فأدخَلَه، فشكا إليه طولَ المُقامِ وشِدَّةَ الحال، وإلحاحَ الزَّمان، وجَهْدَ العِيال، وسأله أن يأذن له في إنشاده شِعْراً، فقال: إنّ أمير المؤمنين لفي شُغْلٍ عن الشَّعر، فقال: إنها رسالةٌ من أهل الحجاز، قال: هايتها، فقال:

قد طالَ قَوْلِي إِذَا مَا كُنْتَ مُجْتَهِداً يَا رَبَّ عَافِ قَوَامَ الدِّينِ وَالْبَشَرِ^(٦)

(١) أمالي الزجاجي: «نعلي».

(٢) أمالي الزجاجي: «بمنزلة الخلق».

(٣) كذا في الطبري والأغاني والزجاجي، وفي الأصول: «بغلي».

(٤) الخبر مع اختلاف في الرواية، في الأغاني ١٩: ١٤٧، ١٤٩، وأمالي الزجاجي ٦٠-٦٢، وتاريخ الطبري ٣: ٤٠٦-٤٠٨ (طبع أوروبا).

(٦) ديوانه ٢٧٤-٢٧٦، ومطلعها:

لَجَّتْ أَمَامَهُ فِي لُومِي وَمَا عَلِمْتُ عَرَضَ السَّمَاءِ رُوحَاتِي وَلَا بُكْرِي

خليفةُ الله ثم الله يحفظُهُ عند المُقام وإمّا كان في السّفَرِ
 إنا لَنَرُجُو إذا ما العَيْثُ أَخْلَفْنَا من الخليفة ما نَرُجُو من المطرِ
 نال الخلافة إذ كانت له قدراً^(١) كما أتى ربّه موسى على قدر
 ما زلتُ بعدك في دارٍ تُورّقني^(٢) قد طال في الحيّ إصعادي ومنحدري
 أذكرُ الجهدَ والبلوى التي نزلتُ أم قد كفاني الذي نبئت من خبري
 كمّ بالمواسم من شعشاء أزملة ومن يقيم ضعيف الصوت والنظر!
 أمسى حزيناً يبكى فقد والده كالفرخ في العش لم ينهض ولم يطير
 إن تسه عنه فمن يرجو لفاقته أو تُنح منها فقد أنحيت من ضرر!
 أنت المبارك والمهدي سيرته تعصي الهوى وتقوم الليل بالسور
 ما ينفع الحاضر المجهود بادينا ولا يعود لنا بادٍ على حصر
 هذه الأرامل قد قضيت حاجتها فمن حاجة هذا الأرملة الذكر!
 الخير ما دمت حياً لا يفارقنا بُوركت يا عمر الخيرات من عمر

فبكى عمر، ثم رفع رأسه، وقال: ما حاجتك يا جرير؟ قال: حاجتي ما عودتني
 الخلفاء قبلك. قال: وما ذاك؟ قال: أربعمائة من الإبل برعاتها وتوابعها من الحُمَلاَن
 والكُسى. قال له عمر: أمن المهاجرين أنت؟ قال: لا، قال: فمن الأنصار؟ قال: لا،
 قال: فممن أنت؟ قال: من التابعين بإحسان. قال: إذا نُجِري عليك كما نُجِري على
 مثلك، قال: فإنني لا أريد ذاك، قال: فما أرى لك في بيت المال حقاً، قال: إنما
 جئت أسألك من مالك، قال: فإن لي كسوة ونفقة وأنا أقاسمُكهما، قال: بل أوثرك
 وأحمدك يا أمير المؤمنين. فانصرف من عنده وهو يقول:

وجدتُ رُقَى الشيطان لا تستفِزُهُ وقد كان شيطاني من الجنّ راقياً^(٣)



ولبعض الشعراء في مثله:

إن حراماً قبول مدحتنا ومنع ما يُرتجى من الصّفَدِ

وأبيات منها مع الخبر في الأغاني ٨: ٤٧ - ٤٩ (طبعة الدار) مع اختلاف في الروايات.

(١) كذا في الديوان والأغاني، وفي ط: «بدا الخلافة أم كانت».

(٢) الأغاني والديوان: «تعرقني» أي تفقره ولا تترك له شيئاً.

(٣) قبله:

تركتُ لكم بالشام حبلَ جماعة أمين القوى مستحصِد العَقْدِ باكباً

كما الدنانيرُ والدراهمُ في الـ صَّرفٍ حرامٍّ إلَّا يداً بيدٍ



أبو نجدة في مثله :

فلَمَّا أنْ بَلَّوْنَاكَ ولم نلقَكَ بالناشطِ
أَطْعَنَّا فِيكَ مِيْمُوناً فصورناكَ في الحائطِ
إذا لم تَكُ نَفْعاً فأنتَ النازحُ الشاحطُ
سَوَاءٌ أَنْتَ فِي عَيْنِي بِجَيِّ كُنْتَ أَمْ وَاسِطُ^(١)



وروي في الحديث قال: «لا يجتمع الشُّحُّ والإيمانُ في قلب عبدٍ أبداً». ويقولون: الشَّحِيحُ أَعْدَرُ مِنَ الظَّالِمِ، وَأَقْسَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعِزَّتِهِ لَا يَسَاكُنُهُ بَخِيلٌ.

وقال النبي ﷺ: «من فُتِحَ له باب من الخير فلينتهزه، فإنه لا يدري متى يُغلق عليه».

وقال الشاعر في ذلك :

ليس في كلِّ ساعةٍ وأوانٍ تَهَيَّأُ صَنَائِعُ الإِحْسَانِ
فإذا أمكنتُ تَقَدَّمْتُ فِيهَا حَذِراً مِنْ تَعَذُّرِ الإِمْكَانِ



وسئل بعضُ الحكماء: مَنْ أَكْبَسُ النَّاسُ فِي زَمَانِنَا؟ فقال: ابن أبي دؤاد حيث يقول فيه الشاعر:

بدا حينَ أُنْزِلَ بِإِخْوَانِهِ فَفَلَّلَ عَنْهُمْ شَبَابَ الْعَدَمِ
وحذَّره الحَزْمُ صَرْفَ الزَّمَانِ فبادَرَ قَبْلَ انْتِقَالِ النُّعَمِ
فليس وإنْ بَخِلَ الْبَاخِلُو ن يَفْرَعُ سِئَالَهُ مَنْ نَدَمِ
ولا يَنْكُتُ الْأَرْضَ عِنْدَ السُّؤَالِ لِيَمْنَعَ سُؤَالَهُ عَنْ نَعَمِ
ولكن يُرَى مُشْرِقاً وَجْهَهُ لِيَرْتَعَ فِي مَالِهِ مَنْ عَدِمِ

(١) جي: اسم مدينة أصبهان القديمة، وواسط: مدينة بين الكوفة والبصرة، وفي ط: «يحي»، تصحيف.

وفضّل لبعضهم في هذا المعنى :

إنَّ لأَيام القُدرة على الخير غنائم فاصطنعها ما دامت راهنةً لديك وأنت منها متمكّنٌ؛ قبل أن تنقضي عنك .



وفي المثل السائر في البُخل : «هو أبخل من مادر»، وهو رجل من بني هلال بن عامر، بلغ من بخله أنه سقى إبله فَبَقِيَ في أسفل الحوض ماءً قليل، فسَلَح فيه ومَدَّر الحوض^(١)، فسَمِّي مادراً.



وذكروا أن بني فزارة، وبني هلال، تنافروا إلى أنس بن مُدرك وتراضوا به، فقالت بنو هلال: يا بني فزارة، أكلتم أَيْرَ الحمار، فقال بنو فزارة: [أكلناه و]^(٢) لَمْ نعرفه. وكان سبب ذلك، أن ثلاثة أنفار اصطحبوا: فزاري، وتغلبّي، وكلابي، فصادوا حِمَارَ وحشٍ، فمضى الفزاري في بعض حوائجه، فطَبَخَاه، وأكلاه، وخَبَأَ للفزاري أَيْرَ الحمار، فلَمَّا رجع قالَا له: قد خبأنا لك. فكل، فأقبل يأكل ولا [يكاد]^(٣) يُسِغُه، فجعلَا يضحكان، ففَظُن وأخذ السيفَ وقام إليهما، فقال لهما: إن أكلتماه^(٤) وإلّا قتلْتُكما. فامتنعا؛ فَضَرَب أحدهما فأبان رأسه، وتناولهُ الآخر فأكل منه، فقال فيهم الشاعر:

نَشَدْتُكَ يَا فَزَارَ وَأَنْتَ شَيْخٌ إِذَا خَيْرَتَ تَخْطِئُ فِي الْخِيَارِ
أَصِيْحَانِيَّةٌ أَدَمْتُ بِسْمَنِ^(٥) أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ أَيْرُ الْحِمَارِ!
بلى أَيْرُ الْحِمَارِ وَخُصِيَّتَاهُ أَحَبُّ إِلَى فَزَارَةَ مِنْ فَزَارِ^(٦)

فقالت بنو فزارة: منكم يا بني هلال من سقى إبله، فلما رويث سَلَح في

(١) مدر الحوض: وضع فيه القدر .

(٢) من مجمع الأمثال .

(٣) من مجمع الأمثال .

(٤) من مجمع الأمثال: «لتأكلانه أو لأقتلنكما» .

(٥) الصيْحَانِي: ضرب من تمر المدينة أسود صلب المضغة، نسب إلى صيْحان، وهو كبش كان يربط إلى نخل المدينة .

(٦) في مجمع الأمثال: «فحذف الهاء من فزارة كما تحذف في الترخيم، وإن كان هذا في غير النداء» .

الحوض ومَدَّره بُخلاً. فقضى أنس بن مُدْرِك على الهَلَالِيِّينَ، وأخذ الفزاريُّونَ منهم مائةً بغير، وكانوا تَراهنوا عليها^(١).

وفي بني هلال يقول الشاعر:

لقد جُلِّلَتْ خِزْيَاً هَلَالُ بَنٍ عامرٍ بني عامرٍ طُرّاً بِسَلْحَةٍ مَادِرٍ^(٢)
فأفَّ لَكُمْ لا تذكروا الفَخْرَ بعدها بني عامرٍ، أنتم شِراؤُ المعاشر



وفي المثل: «هو أَبْخَلُ من نارِ الحُبَابِ»، وهو رجل كان في الجاهليَّة، مِن بُخله أنه كان يُسرج السراج، فإذا أراد أحدٌ أن يأخذ^(٣) منه أطفأه؛ فَضُربَ به المثل^(٤).



ومنهم صاحب نجيح بن سُلَيْف اليربوعي، فإنه ذكر أن نَجِيحاً خرج يوماً إلى الصَّيد، فَعَرَضَ له حمارٌ وحش، فاتَّبعه حتى دفع إلى أكمة، فإذا هو برجل أعمى أسود قاعد، في أطمار، بين يديه ذهب وفضَّة ودُرٌّ وياقوت، فدنا منه نَجِيح فتناول منها بعضَها، فلم يستطع أن يحرك يده حتى ألقاها، فقال: يا هذا، ما الذي بين يديك؟ وكيف تستطيع حمله؟ ألك هو أم لغيرك؟ فإنِّي أعجب ممَّا أرى؛ أجوادُ أنت فتجود لنا، أم بخيلٌ فأعذرك؟ فقال الأعمى: كيف تطلب مال رجل قد غاب منذ سنتين؛ وهو سعد بنُ خَشْرَم بن شماس، فأتني بسعد يعطك ما تشاء. فانطلق نَجِيح مُسرِعاً قد استطير فؤاده حتى وصل إلى محلته، ودخل خِباءه، فوضع رأسه ونام لما به من الغم، لا يدري مَنْ سعد! فأتاه آتٍ في منامه فقال له: يا نَجِيح، إنَّ سعد بن خَشْرَم في حيِّ محلِّم، من ولد ذهل بن شيبان. فخرج وسأل عن بني محلِّم، ثم سأل عن خَشْرَم، فإذا هو بشيخ قاعد على باب خِباءه، فحيَّاه نَجِيح، فردَّ عليه، فقال له نَجِيح: من أنت؟ قال: خَشْرَم بن شماس؛ قال: وأين ابنك؟ قال: خرج في طلب نَجِيح بن سُلَيْف اليربوعي، وذلك أنَّ آتياً أتاه في منامه فحدَّثه أنَّ مالاَّ له في نواحي بني يربوع، لا يعلم به إلا نَجِيح، فضرب نَجِيح بطنَ فرسه وهو يقول:

(١) الخبر في مجمع الأمثال للميداني ١: ١١٢، والمحاسن والأضداد ٨٧، ٨٨.

(٢) مجمع الأمثال ١: ١١٢.

(٣) ك: «يسرج منه إنسان».

(٤) المحاسن والأضداد ٨٧.

أَيْطَلُبُنِي مَنْ قَدْ عَنَانِي طِلَابُهُ فَيَا لَيْتَنِي أَلْقَاكَ سَعْدَ بْنَ خَشْرَمٍ!
 أَتَيْتَ بَنِي يَرْبُوعَ تَطْلُبُنِي بِهِ وَقَدْ جِئْتُ كَيْ أَلْقَاكَ حَيَّ مُحَلِّمٍ
 فلما دنا من محلته استقبل سعداً فقال له: أيها الراكب، هل لقيت سعداً في
 بني يربوع؟ قال: أنا سعد. فهل تدل على نجيح! قال: أنا نجيح، وحدثه
 بالحديث؛ ثم قال: الدال على الخير كفاعله - وهو أول من قاله - فانطلقا حتى أتيا
 ذلك المكان، فتوارى الرجل حين أبصرهما، وترك المال، فأخذه سعد كله، فقال
 له نجيح: يا سعد، قاسموني، فقال له: اطو عن مالي كشحاً. وأبى أن يعطيه،
 فانتضى نجيح سيفه، فجعل يضربه حتى برد، فلما وقع قتيلاً تحول الرجل الحافظ
 للمال سعلأة، فأسرع في أكل سعد، وعاد المال إلى مكانه، فلما رأى نجيح ذلك،
 ولّى هارباً إلى قومه^(١).



قال: وكان أبو عُمَيْسٍ بخيلاً، فكان إذا وقع الدرهم في يده نقره بإصبعه، ثم
 يقول له: كم من مدينة قد دخلتها، ويد قد وقعت فيها! والآن استقر بك القرار،
 واطمأنت بك الدار. ثم يرمي به في صندوقه، فيكون ذلك آخر العهد به.



قيل: ونظر سليمان بن مراحم إلى درهم فقال: في شقٍّ «لا إله إلا الله»، وفي
 شقٍّ: «محمد رسول الله ﷺ»، ما ينبغي أن يكون هذا إلا معاذة؛ وقدّفه في صندوقه^(٢).



وذكروا أنه كان بالريّ عاملٌ على الخراج يقال له: المسيّب، فأتاه شاعرٌ
 فامتدّحه، فسعل سعلة فضرط، فأنشأ الشاعر يقول:

أَتَيْتُ الْمَسِيَّبَ فِي حَاجَةٍ فَمَا زَالَ يَسْعُلُ حَتَّى ضَرَطَ
 فَقَالَ غَلِطْنَا حَسَابَ الْخَرَاجِ فَقُلْتُ: مِنَ الضَّرَطِ جَاءَ الْغَلْطُ
 فولع به الصبيان، فكان كلما مرّ قالوا: «من الضرط جاء الغلط»، فما زالوا
 يقولون ذلك حتى هرب منها من غير عزل^(٣).



(١) الخبر في المحاسن والأضداد ٨٨ - ٩٠ ومحاضرة الأبرار ١: ٢٥٨.

(٢) المحاسن والأضداد ٩٠، ومحاضرة الأبرار ١: ٢٥٨.

(٣) المحاسن والأضداد ٩٠، ٩١.

وكان أبو الأسود الدؤليّ بخيلاً، وهو القائل لبنيه: لا تجاودوا الله، فإنه أجود وأمجّد، ولو شاء أن يوسّع على الناس كلّهم حتى لا يكون فقير لفعل. وسمع رجلاً يقول: من يعشّي الجائع؟ فعشاه ثم ذهب ليخرج، فقال: هيهات! تخرج فتؤذي غيري من المسلمين كما آذيتني! ووضع رجله في الأدّهم حتى أصبح^(١).



قال: وكان رجل يأتي ابن المقفّع فيلحّ عليه ويسأله الغداء عنده، فيقول: لعلّك تظن أنّي أتكلّف لك شيئاً، والله لا أقدم إليك إلّا ما عندي. فلما أتاه إذا ليس في بيته إلّا كسر يابسة، وملح جريش، وجاء سائل إلى الباب فقال: وسّع الله عليك! فلم يذهب. فقال: والله لئن خرجت إليك لأدقّن ساقك. فقال ابن المقفّع للسائل: لو عرفت من صدق وعيده ما أعرف من صدق وعده لم تردد^(٢) كلمة، ولم تُقيم طرفه باباه^(٣).



المدائني عن خالد كيلويه، قال: كنت نجّاراً حاذقاً، فذهب بي إلى المنصور، فقال: افتح لي باباً أنظر منه إلى المسجد وعجل الفراغ منه. قال: ففتحت الباب، وعلقت عليه باباً، وجصّصته وفرغت منه قبل وقت الصلاة، فلما نودي بالصلاة جاء فنظر إليه، فأعجبه عملي، وقال لي: أحسنت بارك الله عليك! وأمر لي بدرهمين.



قال: وقال المنصور للمسيّب بن زهير: أحضّر لي بئاً حاذقاً الساعة، فأحضّره، فأدخله إلى بعض مجالسه وقال له: ابن لي بإزائه طاقاً يكون شبيهاً بالبيت، فلم يزل يؤتي بالجصّ والأجر حتى بناه وجوّده ونظر إليه واستحسنه، فقال للمسيّب: أعطه أجره، فأعطاه خمسة دراهم، فاستكثرها وقال: لا أرضى بذلك، فلم يزل حتّى نقصه درهماً، ففرح بذلك وابتهج كأنه أصاب مالا.



(١) المحاسن والأضداد ٩٠.

(٢) البيان والتبيين: «لم تراده».

(٣) الخبر في البيان والتبيين ١: ١٩٧، ١٩٨.

وحكي عن المنصور أنه لُدِغ، فدعا مولى له - يقال له: أَسْلَمَ - رَقَاءً، فأمره أن يَرْقِيَه، فرفاه، فبرىء. فأمر له برغيف، فأخذ الرغيف فَثَقَبَه وصَيَّرَه في عنقه، وجعل يقول: رَقِيتَ مولايَ فبرىء، فأمر لي برغيف. فبلغ المنصور ذلك فقال: لم أَمْرُكَ أن تشنَّع عليّ، قال: لم أَشْنَعُ إنما أَخْبَرْتُ بما أَمَرْتُ. فأمر أن يُصَفَّعَ ثلاثة أيام في كلِّ يوم ثلاث صَفَعَات.



وعن الأصمعيّ؛ قال: دخل أبو بكر الهَجْرِيّ ذاتَ يوم على المنصور، فقال: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. أَتَنْقُضُ عَلَيَّ فَمِي، وَأَنْتُمْ أَهْلُ بَيْتِ بَرَكَةٍ! فلو أَذْنُتَ لي لَقَبَلْتُ رَأْسَكَ لَعَلَّ اللَّهَ يَشُدُّ فَمِي! فقال المنصور: اخْتَرُ ذَلِكَ أَوْ الْجَائِزَةَ، فقال: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَهَوْنُ عَلَيَّ مِنْ ذَهَابِ دَرَاهِمِ الْجَائِزَةِ أَلَّا يَبْقَى فِي فَمِي حَاكَةٌ. ومنه مكاتبات:

كتب أرسطاطاليس إلى رجلٍ في رجلٍ يَصِلُهُ بشيء، فلم يفعل، فكتب إليه: إِنْ كُنْتَ أَرَدْتَ فَلَمْ تَقْدِرْ فَمَعْذُورٌ، وَإِنْ كُنْتَ قَدَرْتَ فَلَمْ تُرِدْ، فسيأتيك يوم تريد فيه فلا تَقْدِرُ^(١).

قيل: وكتب إبراهيم بن سيّابة إلى رجلٍ صديق له كثير المال يستسلفه، فكتب إليه: العيال كثيرٌ، والدُّخْلُ قليلٌ، والمال مكذوبٌ. فكتب إليه: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَجَعَلَكَ اللَّهُ صَادِقًا؛ وَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَجَعَلَكَ اللَّهُ مَعْذُورًا^(٢).



قال: وكتب بعضهم يصف^(٣) رجلاً: أمّا بعد، فإنك كتبتَ تسألُ عن فلان، فكأنك هممتَ أو حدثتَ نفسك بالقدوم عليه، فلا تفعلْ أمتع الله بك! فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِهِ لَا يَقَعُ فِي الْوَهْمِ إِلَّا بِخِذْلَانِ اللَّهِ، وَإِنَّ الطَّمْعَ فِيمَا عِنْدَهُ لَا يَخْطُرُ عَلَى الْقَلْبِ إِلَّا بِسُوءِ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ، وَإِنَّ الرَّجَاءَ لَمَّا فِي يَدِهِ لَا يَنْبَغِي إِلَّا بَعْدَ الْيَأْسِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ. إنه يرى الإقتار الذي نهى الله عنه، هو التّبيذير الذي يعاقب الله عليه، والاقتصاد الذي أمر الله عزَّ وجلَّ به هو الإسراف الذي يعذب الله عزَّ وجلَّ عليه. وأن بني إسرائيل لم يَسْتَبْدِلُوا الْعَدَسَ بِالْمَنْ وَالْبَصَلَ بِالسَّلْوَى، إِلَّا بِفَضْلِ

(١) المحاسن والأضداد ٩١.

(٢) المحاسن والأضداد ٩٢.

(٣) المحاسن والأضداد: «وكتب آخر إلى آخر».

أحلامهم، وقديم علم توارثوه من آبائهم. وإن الصنعة مرفوعة، والصلة موضوعة، والهمة مكروهة، والصدقة منحوسة والتوسع ضلالة، والجود فسوق، والسخاء من همزات الشياطين، وإن مواساة الرجل أخاه من الذنوب الموبقة، وإفضاله عليه من إحدى الكبائر.

وإن الله عز وجل لا يغفر أن يؤثر المرء في خصاصة على نفسه ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾. ومن أثر على نفسه فقد ضلّ ضلالاً بعيداً، وخسر خسراناً مبيناً؛ كأنه لم يسمع بالمعروف إلا في الجاهلية الذين قطع الله أدبارهم، ونهى جلّ اسمه عن اتباع آثارهم، وإن الرجفة لم تأخذ أهل مدين إلا لسخاء كان فيهم، وإن الريح العقيم أهلكت عاداً وثمود لتوسع كان فيهم. وهو يخشى العقاب على الإنفاق، ويرجو الثواب على الإقتار، ويعدّ نفسه العقوق، ويأمرها بالبخل، خيفة أن تمرّ به قوارع الدهور، وأن يصيبه ما أصاب القرون الأولى.

فأقم رحمتك الله بمكانك، واصبر على عُسرك، لعلّ الله أن يُبدلنا وإياك ﴿خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾.



ومنه فنّ آخر. وصف أعرابي رجلاً فقال له: بشر مُطمع، ومطلّ مؤنس؛ فأنت منه أبداً بين اليأس والطمع، لا منع مُريح، ولا بذل سريح^(١).



وقال أعرابي: أنا من فلان في أمانيّ تُهبط العُصم، وخُلف يذكر العُدم، ولست بالحريص الذي إذا وعده الكذب أعلق نفسه لديه، وأتعب راحلته إليه.



وذكر أعرابي رجلاً فقال: له مواعيد عواقبها المطل، وثمارها الخلف، ومحصولها اليأس.

ويقال: سرعة اليأس أحد التُجحين.

وقال بعضهم: مواعيد فلان مواعيد عُقوب، ولمع الآل، وبرق الخُلب، وأمانيّ الكُمون، ونار الحُباجب، وصيف تحتة راعدة^(٢).



(١) المحاسن والأضداد ٩٢، ٩٣.

(٢) المحاسن والأضداد ٩٥.

ولبعض الكتاب فصل في هذا المعنى: أما بعد، فإن كثرة المواعيد من غير نجاح، عارٌّ على المطلوب، وقلتها عند الحاجة، مكرومةٌ من صاحبها، وقد رددتنا في حاجتنا هذه مع كثرة مواعيدك من غير نُجَح لها؛ حتى كأننا قد رَضِينَا بالتعلُّل بها دون النجاح، كقول الأول:

لا تجعلنا كمون بمزرعةٍ إن فاتَه الماءُ أروثَه المواعيدُ^(١)



ولآخر منهم: ما رأيتَ مثِلَ طيِّب قولك، أمرَه سوءُ فعلك، ولا مثِلَ بَسْطِ وَجْهك، خالفَه ضيقُ تنكِّدك، ولا مثِلَ قرب مواعيدك، باعدَها فَرطُ مَطْلِك، ولا مثل أنس بديهتك، أوحش منه قبيح عواقبك، حتَّى كأنَّ الدهر أودعك لطيفَ الحيلة بالمكر بأهل الخلَّة، وكأنَّه زينك فيهم بالخديعة لتُدرك منهم فرصةَ الهَلَكَة. وقد قيل: وعد الكريم نَقْد وتعجيل، ووعد اللئيم مَطْل وتأجيل.



وقال بعضهم: وعدتنا مواعيدَ عُرقوب، ومطلتنا مَطْل نَعاس الكلب، وغرَّزتنا غرورَ السَّراب، ومَيَّتنا أمانِيَّ الكُمون.



ولبعضهم: أما بعد، فلا تدعني متعلِّقاً بوعدك، فالعذر الجميل، أحسنُّ من المطل الطويل، فإن كنت تريد الإنعام فأنجِّح، وإن تعذرت الحاجة فأوضح، وأعلِّمني ذاك لأصرف وجهَ الطَّلَب إلى غيرك.



وذكروا أن فتى من مُراد كان يختلف إلى عمرو بن العاص، فقال له ذات يوم: ألك امرأة؟ قال: لا، قال: أفتزوّج وعليّ المهر! فرجع إلى أمّه فأخبرها، فقالت:

إذا حدَّثتكَ النفسُ أنك قادرٌ على ما حوت أيدي الرجال فكذب
فتزوّج، ثم أتى عمرو بن العاص فاعتلّ عليه، ولم ينجز له وعده، فشكا ذلك إلى أمّه، فقالت:

(١) المحاسن والأضداد ٩٢، ٩٣.

لَا تَغْضِبَنَّ عَلَىٰ امْرِئٍ فِي مَالِهِ وَعَلَىٰ كِرَائِمٍ مَالٍ نَفْسِكَ فَاغْضِبِ^(١)



ولبعض الشعراء في هذا المعنى :

أَرْوَحُ وَأَغْدُو نَحْوَكُمْ فِي حَوَائِجِي فَأَصْبِحُ مِنْهَا غَدَوَةً كَالَّذِي أُمِسِي^(٢)
وَقَدْ كُنْتُ أَرْضَىٰ لِلصَّدِيقِ شِفَاعَتِي فَقَدْ صرْتُ أَرْضَىٰ أَنْ أَشْفَعَ فِي نَفْسِي
وَلَأَبِي نُؤَاسُ :

وَعَدْتَنِي وَعْدَكَ حَتَّىٰ إِذَا أَطْمَعْتَنِي فِي كَنْزِ قَارُونِ
جِئْتُ مِنَ اللَّيْلِ بِغَسَّالَةٍ تَغْسِلُ مَا قُلْتُ بِصَابُونِ
وَأُنْشِدُ لِأَبِي تَمَامُ :

يَحْتَاجُ مَنْ يَرْتَجِي نَوَالَكُمْ إِلَىٰ ثَلَاثٍ بِغَيْرِ تَكْذِيبِ
فَكَنْزُ قَارُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَعَمْرُ نُوحٍ وَصَبْرُ أَيُّوبِ
وَلَا آخِرُ :

إِنِّي لِأَعْجَبُ مِنْ قَوْلٍ غُرِرْتُ بِهِ حُلُوٍ يَلْذُ إِلَيْهِ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ^(٣)
لَوْ تَسْمَعُ الْعُصْمُ فِي صَمِّ الْجِبَالِ بِهِ ظَلَّتْ مِنَ الرَّأْسِيَّاتِ الْعُصْمُ تَنْحَدِرُ
كَالْخَمْرِ وَالشَّهْدِ يَجْرِي فَوْقَ ظَاهِرِهِ وَمَا لِبَاطِنِهِ طَعْمٌ وَلَا خَبْرُ
وَكَالسَّرَابِ شَبِيهَاً بِالْغَدِيرِ وَإِنْ تَبَغَّ السَّرَابَ فَلَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرُ
لَا يَنْبُتُ الْعُشْبَ عَنْ بَرْقٍ وَرَاعِدَةٍ غَرَاءَ لَيْسَ بِهَا سَيْلٌ وَلَا مَطَرُ



ومما قيل من الشعر في البخل بالطعام لبعضهم :

رَأَيْتُ أَبَا عَثْمَانَ يَبْذُلُ عِرْضَهُ وَخَبِرُ أَبِي عَثْمَانَ فِي أَكْرَمِ الْحَرْزِ^(٤)
يَحْنُ إِلَىٰ جَارَاتِهِ بَعْدَ شَبْعِهِ وَجَارَاتُهُ غَرَثِي تَحْنُ إِلَىٰ الْخَبْرِ



(١) في اللسان: الكلب يوصف بكثرة النعاس، وفي المثل: «مسطل كنعاس الكلب».

(٢) الخبر في المحاسن والأضداد ٩٤.

(٣) المحاسن والأضداد ٩٥.

(٤) المحاسن والأضداد ٩٥، ٩٦، ونسبهما إلى حسان بن ثابت.

آخر:

ما كنتُ أحسبُ أنَّ الخبزَ فاكهةٌ حتى نزلتُ على عوفِ بنِ خنزيرِ^(١)
الحابسُ الروثُ في أعفاجِ بغلتهِ بُخلاً على الحبِّ من لقطِ العصافيرِ



ولغيره:

نوالُكَ دونهُ خرطُ القتادِ وخيرُكَ كالثريا في البعادِ^(٢)
ترى الإصلاحَ صومَكَ لا لنُسكِ وكسراً للرَّغيفِ من الفسادِ
أرى عمرَ الرَّغيفِ يطولُ جدًّا لَدَيْكَ كأنَّهُ من قومِ عادِ



ولآخر:

اللَّؤْمُ منك على الطعامِ طباعُ فعيالُ بيتِكَ ما حَيَّيتَ جِباعُ
وإذا يَمُرُّ ببابِ دارِكَ سائلُ هَرَّتْ عليه نوابِجُ وسِباعُ
وعلى رَغيفِكَ حَيَّةٌ مَسْمومَةٌ وعلى خِوانِكَ عَقْرَبُ وشُجاعُ^(٣)



ولآخر:

يا تاركَ البيتِ على الضَّيفِ وهارباً منه مِنَ الخوفِ^(٤)
ضَيْفُكَ قد جاءَ بزادٍ لَهُ فارجعَ فكن ضَيْفاً على الضيفِ
إذا اشْتَهَى الضيفُ طَبِيخَ الشَّتَا أتاهُ بالشَّهْوَةِ في الصَّيفِ
وإن دنا المسكينُ من بابِهِ شدَّ على المسكينِ بالسَّيفِ



ولآخر:

يَكْتَبُ بِالْحَبْرِ على خُبْرِهِ «واللَّهِ لا يأكُلُهُ الجارُ»
ويسألُ الخادِمَ من بخلِهِ أيُّ رَغيفٍ فِيهِ آثَارُ!
ويختِمُ القِدْرَ على أهْلِهِ وَيَشْعَبُ العِظَمَ بمِسمارِ

(١) المحاسن والأضداد ٩٦.

(٢) المحاسن والأضداد ٩٦.

(٣) الشجاع: الحية.

(٤) المحاسن والأضداد ٩٧.

والماء في منزله طُرْفَةٌ يشربه الناس بمقدارٍ



ولآخر:

أرى ضَيْفَكَ في الدَّارِ وكُرْبُ الموتُ يَغْشَاهُ^(١)
على خُبْرِكَ مَكْتُوبٌ: «سيكفيكم الله»



ولآخر:

لأبى نوح رَغِيْفٌ أبداً في حَجَرٍ دَائِيهِ^(٢)
أبداً يَمَسُّهُ الدَّهْرُ ر ب كُمْ وَوَقَايَهُ
ولهُ كَاتِبٌ سِرٌّ خَطٌّ فِيهِ بَعْنَايَهُ:
فسيكفيكم الله ه إلى آخر الآيهِ



آخر:

الخبزُ يُبْطِي حِينَ يَدْعُو بِهِ كأنه يَتَقَدَّمُ مِنْ قَافٍ^(٢)
وَيَمْدُخُ الْمَلَحَ لِأَصْحَابِهِ يَقُولُ: هذا ملحٌ سِيرَافٍ
سَيَّانٍ أَكَلُ الْخَبْزِ فِي دَارِهِ وَقَلْعُ عَيْنِيهِ بِخُطَّافٍ



وقال آخر:

فَتَّى لَا يَغَارُ عَلَى عَرْسِهِ وَلَكِنْ يَغَارُ عَلَى خُبْرِهِ^(٢)
فَمِنْهُ يَدُ الْجُودِ مَقْبُوضَةٌ وَكَفُّ السَّمَاحَةِ فِي عَجْزِهِ



آخر:

يصونون أثوابهم في التُّخُوتِ وَأَزْوَاجُهُمْ يَخْتَرِقْنَ السَّكَّكَ^(٣)

(١) المحاسن والأضداد ٩٧.

(٢) المحاسن والأضداد ٩٨.

(٣) المحاسن والأضداد ٩٨.

يُنَحُّونَ مَنْ رَامَ رُغْفَانَهُمْ وَيُذْنُونَ مَنْ رَامَ حَلَّ التَّكْكِ



ولآخر:

وَلَوْ أَنَّ الذُّبَابَ تَرَاهُ يَوْمًا غَدَتُ غَرَّتِي لَصَحْفَتِهِ تَرُومُ
لِنَادَى فِي الْعَشِيرَةِ: أَذْرِكُونِي أَلَا أَيْنَ الْقَمَاقِمُ وَالْقُرُومُ!
فِيَا وَيْلَ الذُّبَابِ إِنْ أَذْرِكُوهُ وَفِي الْهَيْجَا عَدُوَّهُمْ سَلِيمُ



ولآخر:

أَمَّا الرِّغِيفُ لَدَى الْخَوَا نِ فَمَنْ كَرِيمَاتِ الْحُرَمِ^(١)
مَا إِنْ يُجَسَّ وَلَا يُحَ سٌ وَلَا يُذَاقُ وَلَا يُشَمُّ
فَتَرَاهُ أَخْضَرَ يَابَسًا بِأَلِي النَّقُوشِ مِنَ الْهَرَمِ



ولآخر:

أَتَيْنَا أَبَا طَاهِرٍ مُفْطِرِينَ إِلَى رَحْلِهِ فَرَجَعْنَا صِيَامًا^(٢)
وَجَاءَ بِخَبْزٍ لَهُ حَامِضٌ فَقُلْتُ: دَعُوهُ وَمُوتُوا كِرَامًا



وعن حذيفة بن محمد الطائي قال: قال الرشيد: لا أعرف لمولدي أهجى من قول أبي نُوَّاس:

وَمَا رَوَّحَتْنَا لِتَذُبَّ عَنَّا وَلَكِنْ خِفْتُ مَرْزِيَّةَ الذُّبَابِ^(٣)
شِرَابُكَ كَالسَّرَابِ إِذَا التَّقِينَا وَخَبْزُكَ عِنْدَ مُنْقَطَعِ التَّرَابِ



ولآخر:

خَانَ عَهْدِي عَمْرُو وَمَا خُنْتُ عَهْدَهُ وَجَفَانِي وَمَا تَغَيَّرْتُ بَعْدَهُ^(٤)

(١) المحاسن والأضداد ٩٧.

(٢) المحاسن والأضداد ٩٩.

(٣) المحاسن والأضداد ٩٩.

(٤) المحاسن والأضداد ٩٩.

ليس لي ما حييتُ ذنبٌ إليه غير أنني يوماً تغدّيتُ عنده



الخليل بن أحمد:

كفّاهُ لم تُخلَقْ للندى ولم يكُ بخلهما بدعه^(١)
فكفّ عن الخير مقبوضةً كما نقصت مائة تسعة



ولآخر:

أتيتُ أبا عمرو أرجي نواله فزاد أبو عمرو على حزني حُزناً^(٢)
فكنتُ كباغي القرن أسلم أذنه فأب بلا أذنٍ ولم يستفد قرناً



(١) المحاسن والأضداد ٩٩.

(٢) المحاسن والأضداد ١٠٠.

مساوىء من استدعى الهجاء ومن هجا نفسه

قال أبو العتاهية: خرجت مع المهدي إلى الصيد، فتفرق أصحابه وبقىْتُ معه، وقد أقبل علينا المطر، فانتبهنا إلى ملاح معه زورق، فقال لنا: ادخلَا من هذا المطر، فدخلنا، ووقعت الرعدة على المهدي من شدة البرد، فقال له الملاح: هل لك أن ألقِي عليك جُبِّي؟ فقال: نعم. فألقاها عليه، فما زال يتقرقُ حتى نام، ثم أقبل الخدم والغلمان وألقوا عليه الخز والوشى، فلما انتبه أمرَ بدفع ذلك إلى الملاح وقال: يا أبا العتاهية، ألا هجوْتني! فقلتُ: يا أمير المؤمنين، وكيف تطيب نفسي بهجائك! قال: فأني أسألك بالله، فقلتُ:

يا لابسِ الوشي على شيبهِ ما أقبحَ الأشيبَ في الداح! ^(١)
فنقر نقرةً ثم قال: زدني، فقلتُ:
لو شئت أيضاً جُلّت في خامّة وفي وشاحين وأوضح
فقال: ويلك! زدني، فقلتُ:
كَمْ مِنْ عَظِيمِ الشَّانِ فِي نَفْسِهِ قَد باتَ فِي جُبّةِ مَلاحٍ



قيل: وشرب يزيد بن معاوية ذات يوم وعنده الأخطل، فلما ثمل قال: يا أخطل، اهْجُني ولا تُفْجِسْ، فأنشأ يقول:

أَلَا اسْلَمْ سَلِمْتَ أبا خالِدٍ وَحَيَّاكَ رَبُّكَ بِالْعَنْقَرِ ^(٢)
وَرَوَى عَظَامَكَ بِالْخُنْدَرِ سِ قَبْلَ المَمَاتِ وَلَمْ تَعْجَزِ ^(٣)
أَكَلْتَ الدَّجَاجَ فَأَفْنَيْتَهَا فَهَلْ فِي الْخَنَانِيصِ مِنْ مَعْمَزِ ^(٤)

(١) الداح: نقش يلوح به للصبيان يلعبون به.

(٢) الأبيات في الصحاح ٢: ٨٨٥ ونسبها إلى الأخطل؛ وليست في ديوانه؛ وفي الصحاح: العنقر: المرزنوش وقضيب الحمار.

(٣) في الصحاح: «فلا تعجز».

(٤) الخنانيص: جمع خنوص؛ وهو الحمار.

ودينك حقاً كدين الحمّا ر بل أنت أكفر من هُرْمَز
فرفع يده ولطمه وقال: يابن اللّخناء! ما بكلّ هذا أمرتُك^(١)!



قال: ودخل أبو دلامة على المنصور وعنده المهديّ وعيسى بن موسى، فقال
له المنصور: أهُجّ بعض من في المجلس، فقال في نفسه: مَنْ أهُجّوا! الخليفة؛ أم
ابن أخيه! ما أحد أحقّ بالهجاء منّي! فقال:

ألا أبلغ لديك أبداً دلامةً فلست من الكرام ولا كرامه
جمعت دمامةً وجمعت لؤماً كذاك اللؤم تتبعه الدمامه
إذا لبس العمامة قلت قرداً وخنزيراً إذا وضع العمامه
فضحك المنصور وأمر له بجائزة.



قيل؛ وأتى أعرابيُّ عبد الله بن طاهر فقال: أيها الأمير، اسمع مديحي!
فقال: لست أنحاش^(٢) له، قال: فاسمع شعري في نفسي، فقال: هات، فقال:

ليس من بخلك أني لم أجذ عندك رزقا
ذا لجدي ولشؤمي ولحرفي المبقى^(٣)
فجزاك الله خيراً ثم بُعداً لي وسحقاً!
فضحك ثم قال: تلطّفت في الطلب؛ وأمر له بألف دينار.

(١) انظر: ملحق ديوان الأخطل ٣٨٨.

(٢) يقال: فلان ما ينحاش من فلان، أي ما يكثرث له، وفي الأصول: «اتحاش».

(٣) الحرف: الحرمان.

محاسن الرجال

ومدح أعرابيٍّ رجلاً، فقال: فتى آتاه الله الخير ناشئاً فأحسن لبسه، وزين نفسه.

ومدح أعرابيٍّ رجلاً فقال: كان والله للأخلاء وصولاً، وللمال بذولاً، وكان الوفاء بهما عليه كفيلاً، فمن فاضله كان مفضولاً.

ومدح أعرابيٍّ رجلاً فقال: هو أكسبهم للمعدوم، وأكلهم للمأدوم، وأعطاهم للمحروم^(١).

ومدح أعرابيٍّ رجلاً فقال: ما زلت لأحسن ما يرجى من الإخوان منك راجياً، وما زلت لأكثر ما أرجو منك مصداً.

ومدح أعرابيٍّ رجلاً فقال: كان والله تبعاً في طلب المكارم، وغير ضالٍّ في مصالح طرقتها، ولا متشاغل عنها بغيرها.

ومدح أعرابيٍّ رجلاً فقال: لسانه أخلى من الشهد، وقلبه سجنٌ للحقد.

ومدح أعرابيٍّ رجلاً فقال: ذاك صحيح النسب، مستحكم الأدب، من أي أقطاره أتيتَه قَبْلَكَ بكرم فعّال، وحسن مقال.

ومدح أعرابيٍّ رجلاً فقال: إذا أنبتت الأصول في القلوب، نطقت الألسن بالفروع، والله يعلم أنني لك شاكر، ولساني بشناك ذاكِر، وما يظهر الودُّ السليم، إلا من القلب المستقيم.

ومدح أعرابيٍّ رجلاً فقال: كان إذا نزلت به النوائب قام إليها ثم قام بها، ولم تُعِدْهُ عِلَات النفوس عنها.

ومدح أعرابيٍّ رجلاً وفرسه؛ فقال: كان والله طويل العذار، أمين العثار، إذا رأيت صاحبه عليه حسبته بازياً على مَرَقَب^(٢)، معه رمح يقبض به الآجال.

ومدح أعرابيٍّ رجلاً فقال: لا تراه الدهر إلا كأنه لا غنى به عنك، وإن كنت

(١) ساقطة من ك.

(٢) المرقب: المكان العالي المشرف.

إليه أحوج، وإذا أذنبْتَ غَفَرَ. وكأنه المُذنب، وإن احتجْتَ^(١) إليه أحسن. وكأنه المسيء.

قال: وقال أعرابي لرجل: أما والله لقد كنت لجاماً لأعدائك ما تُفلّ شكيמתه، إذا كبح به الجموح أفعى على رجليه.

قال: ولقي أعرابي أعرابياً فقال: كيف وجدت فلاناً؟ قال: وجدته والله رزين الحلم، واسع العلم، خصيب الجفنة، إن فاحزته لم يكذب، وإن مازحته لم يُحفظ.

ومدح أعرابي رجلاً فقال: كان يفتح من الرأي أبواباً^(٢) منسدة، ويغسل من العار وجوهاً مسودة.

ومدح أعرابي قوماً فقال: أولئك غيوثُ جذب، وليوثُ حرب، إن قاتلوا أبلوا، وإن أعطوا أغنوا.

ومدح أعرابي رجلاً فقال: ذاك من شجر لا يجف ثمره، وماء لا يخاف كدره.

(١) ك: «لم يخفضه».

(٢) كذا في ك، وفي ل: «عيوناً».

مساوىء الرجال

وذمّ أعرابيٌّ رجلاً فقال: يا نطفة الحمار، ونزيع الطؤورة، وشبيه الأخوال.
وذمّ قوماً، فقال: إن آل فلان قوم غدر، شرّابون للخمر، ثم هذا في نفسه
نطفة خمار في رحم صناجة^(١).

وذمّ أعرابيٌّ رجلاً فقال: يقطع نهاره بالمنى، ويتوسّد ذراع الهمّ إذا أمسى.
وذمّ أعرابيٌّ رجلاً فقال: ما قنّع كميّاً سيفاً^(٢)، ولا قرى يوماً ضيفاً، ولا
حميدنا له شتاءً ولا صيفاً.

وقال أعرابيٌّ لامرأته: أقام الله ناعيك، وأشمت أعاديك^(٣).
وذمّ أعرابيٌّ رجلاً فقال: عليه كلُّ يوم قسامة^(٤) من فعله، تشهد عليه بفسقه؛
وشهادات الأفعال أعدل منك شهادات الرجال.

وذمّ أعرابيٌّ رجلاً فقال: تسهر زوجته جوعاً إذا نام شبعاً، ولا يخاف عاجل
عار، ولا أجل نار، كالبهيمة أكلت ما جمعت، ونكحت ما وجدت.
وذمّ أعرابيٌّ رجلاً فقال: ذاك أعيا ما يكون عند الناس، أبلغ ما يكون عند
نفسه.

وذمّ^(٥) أعرابيٌّ رجلاً: تقطع أخاك لأبيك وأمك! فقال: إنّي لأقطع الفاسد من
جسدي؛ وهو أقرب إليّ من أخي، وأعزّ فقداً منه!
وذمّ أعرابيٌّ قوماً فقال: يا قوم لا تسكنوا^(٦) إلى حلاوة ما يجري من القول

(١) الصناجة؛ المرأة صاحبة الصنج، والصنج: صفيحة مدورة يضرب بها على أخرى مثلها
للطرب.

(٢) الكمي: الشجاع أو لابس السلاح؛ سمي بذلك لأنه كمي نفسه، أي سترها. وقنّع رأسه بالسيف
والسوط والعصا: غشاه به.

(٣) ل: «عاديك».

(٤) القسامة، بالفتح: الجماعة يقسمون، أي يحلفون على الشيء.

(٥) ل: «ولام».

(٦) ك: «لا تسكتوا».

على ألسنة بني فلان، وأنتم تروون الدماء^(١) تسيل من أفعالهم، وقد جعلوا المعاذير ستوراً، والعِلَل حُجُباً.

وذم أعرابي رجلاً فقال: إذا سأل الحَف، وإذا سُئِل سَوَف، يحسد أن يفضّل؛ ويزهد أن يُفضّل.

وذم أعرابي رجلاً فقال: يكاد أن يُعدي بلوئه من تسمي باسمه.

وذم أعرابي رجلاً فقال: تعدو إليه مواكب الضلالة، وترجع من عنده بهلاك الأنام، مُعِدِّمٌ مما يحب، مُثَرِّمٌ مما يكره.

وقال أعرابي لرجل: واللّه ما جفائكم بعظام، ولا أجسامكم بوسام، ولا بدت لكم نار، ولا طلبتم بثار.

ورأى أعرابي رجلاً ظلوماً يدعُو، فقال: يا هذا، إنما يُستجاب لمظلوم أو مؤمن، ولست أحداً منهما! أراك تخفّ عليك الذنوب، وتحسن عندك عندك مقابح العيوب.

وذم أعرابي رجلاً فقال: فلان لا يستحي من الشرّ، ولا يحبّ أنه أحبّ الخير، ولا يكون في موضع إلا حُرمت فيه الصلاة، ولو قذِف لُؤمه على الليل طُمست نجومه، ولو أفلتت^(٢) كلمة سوء لم تصل إلا إليه.

وسأل أعرابي رجلاً فقال: لقد نزلت بوادٍ غير ممطور، وبرجل بك غير مسرور، فارتجل بندم، أو أقم بعدم.

وذم آخر رجلاً فقال: ما كان عنده فائدة ولا عائدة، ولا رأي جميل، ولا إكرام لدخيل.

وقيل لأعرابي: ما بلغ من سوء خلقك؟ قال: تبدؤ لي الحاجة إلى الجار أو الصاحب في بعض الليل، فأصبح غضبان عليه، أقول: كيف لم يعلمها!

وذكر أنه تنافر رجلان من بني أسد إلى هَرَم بن سنان المرّي في الشرّ وعنده الحطيئة، فقال أحدهما: إنّي بقيت زماناً أرى أنّي شرّ الناس وألأمهم، حتى أتاني هذا، فزعم أنه شرّ مني! فقال هَرَم: أخبراني عنكما، فقال أحدهما: لم يمرّ بي أحدٌ^(٣) قطّ إلا اغتبتّه، ولا ائتمني إلا خُننّه، ولا سألني إلا منعتّه. وقال الآخر: أما

(١) ك: «الدنيا».

(٢) ك: «أقبلت».

(٣) ك: «رجل».

أنا فأبطرُ الناس في الرِّخاء، وأجبنُهُم في اللِّقاء، وأقلِّهم حَياءً، وأمنعهم حِباء. فقال هَرِم: وأبيكما لقد تردَّيْتُمَا في الشرِّ، ولكن أخبركما بمن هو شرُّ منكما. قالا: ما ولدتُ ذاك النساء! قال: بلى، هذا الحطيئةُ هجا أباه وأُمَّه ونفسَه ومن أعطاه ومن أحسن إليه، فقال لأبيه:

لحَاكَ اللّٰهُ ثُمَّ لِحَاكَ حَقًّا أَبَا وَلِحَاكَ مِنْ عَمٍّ وَخَالٍ^(١)
فبئسَ الشَّيْخُ أَنْتَ عَلَى النَّوَادي وبئسَ الشَّيْخُ أَنْتَ لَدَى الْمَعَالِي
جَمَعْتَ اللُّؤْمَ لَا حَيَّاكَ رَبِّي وَأَبْوَابَ الْمَخَازِي وَالضَّلَالِ
وقال لأُمِّه:

تَنَحَّيْ فاقْعُدِي مِنِّي بَعِيدًا أَرَاخَ اللّٰهُ مِنْكَ الْعَالَمِينَ^(٢)
أَغْرِبَالًا إِذَا اسْتُودِعْتَ سِرًّا وَكَانُونَا عَلَى الْمُتَحَدِّثِينَ!
أَلَمْ أَوْضِحْ لَكَ الْبَغْضَاءَ مِنِّي وَلَكِنْ لَا أَخَالُكَ تَعْلَمِينَ!
وقال لنفسه:

أَبْتُ شَفَتَايَ الْيَوْمَ إِلَّا تَكَلُّمًا بَشَرٌ؛ فَمَا أَدْرِي لِمَنْ أَنَا قَائِلُهُ^(٣)
أَرَى لِي وَجْهًا شَوَّهَ اللّٰهُ خَلْقَهُ فَقُبِّحَ مِنْ وَجْهِ وَقُبِّحَ حَامِلُهُ!
وقال لمن أعطاه:

سُئِلْتُ فَلَمْ تَبْخُلْ وَلَمْ تُعْطِ نَائِلًا فَسَيَّانٍ لَا ذِمَّ عَلَيْكَ وَلَا حَمْدُ^(٤)
قيل: ولَمَّا حَضَرَتِ الْحَطِيئَةُ الْوَفَاءُ، قيل له: أَوْصِ، فقال:
الشَّعْرُ صَعْبٌ وَطَوِيلٌ سُلْمُهُ إِذَا ارْتَقَى فِيهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ^(٥)
زَلْتُ بِهِ إِلَى الْحَضِيضِ قَدَمُهُ وَالشَّعْرُ لَا يَسْطِيعُهُ مَنْ يَظْلِمُهُ
يريد أن يُعَرِّبَهُ فَيَعْجُمُهُ^(٦)

فَقِيلَ لَهُ: أَوْصِ لِلْمَسَاكِينِ بِشَيْءٍ، فَقَالَ: أَوْصِيَهُمْ بِالْمَسْأَلَةِ مَا عَاشُوا؛ فَإِنَّهَا تِجَارَةٌ لَّنْ تَبُورَ. قِيلَ: أَوْصِ فَقَدْ حَضَرَكَ أَمْرُكَ، فَقَالَ: مَالِي لِلذَّكُورِ مِنْ وَلَدِي،

(١) ديوانه ١١٩.

(٢) الأغاني ٢: ١٦٣ (طبعة الدار).

(٣) ديوانه ١٢٠، والأغاني ٢: ١٦٣.

(٤) ديوانه ٩١، وفي ط: «سألت»؛ وهو أيضاً في الأغاني ٢: ١٦٨.

(٥) ديوانه ١١، والأغاني ٣: ١٩٦.

(٦) الفاء هنا للاستئناف، أي فإذا هو يعجمه.

دون الإناث؛ قيل له: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لم يأمر بهذا، قال: لكنِّي أَمُرُّ به، فقيل له: اعتق غلامك يساراً الأسود. قال: هو مملوك ما دام على ظهر الأرض عَبَسِي^(١)؛ قيل له: مَنْ أشعر الناس؟ فقال: هذا المَحَجَن ما أُطْمَع في خير - وأوماً إلى لسانه - ثم جعل يبكي، فقيل له: ما يبكيك؟ أجزأ من الموت يا أبا مُلَيْكَة! قال: لا؛ ولكن ويلٌ للشَّعر من راوية السوء. ثم قال: أَبْلَغُوا الشَّمَاخ أَنَّهُ أَشْعَرُ غَطْفَان^(٢) على وجه الأرض، وإن مِتُّ فاحملوني على حمار، فإنه لم يَمُت عليه كريمٌ قطّ.

وفي غير هذه الرواية أنه قال: احملوني على حمار، فإنه لم يمت عليه كريم قطّ؛ لعلِّي أن أجو؛ ثم أنشأ يقول:

لِكُلِّ جَدِيدٍ لَذَّةٌ غَيْرَ أَنَّنِي رَأَيْتُ جَدِيدَ الْمَوْتِ غَيْرَ لَذِيذٍ^(٣)

له نكهةٌ ليست بطعم سفرجلٍ ولا طعم تفاحٍ ولا بنبيذٍ^(٤)

ثم خرجت روحه، فلما مات قال فيه الشاعر:

لا شاعرٌ أَلَأَمُّ مِنْ حُطَيِّهِ هَجَا بَنِيهِ وَهَجَا الْمُرِيَّةِ^(٥)

من لؤمِه ماتَ على فُرِيَّةِ^(٦)



قال: وقيل لمعاوية بن أبي سفيان: مَنْ رَأَيْتَ شَرَّ النَّاسِ؟ فقال: علقمة بن وائل الحضرمي، قَدِمَ على رسول الله ﷺ، فأمرني أن أنطلق به إلى رجل من الأنصار أنزله عليه، فانطلقتُ معه وهو على ناقته، وأنا أمشي في ساعة حارّة، وليس عليّ حذاء، فقلتُ: احملني يا عمّ من هذا الحرّ؛ فإنه ليس عليّ حذاء، فقال: لست من أرداف الملوّك، قلت: أنا ابنُ أبي سفيان، قال: قد سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول ذلك، قال: فقلت: أَلْقِ إِلَيَّ نَعْلَيْكَ، قال: لا تقلّهما قدماك،

(١) والخطيئة من بني عبس.

(٢) في الأغاني: «لما حضرت الخطيئة الوفاة اجتمع إليه قومه فقالوا: يا أبا مليكة، أوص، فقال:

ويل للشعر من راوية السوء؛ قالوا: أوص رحمتك الله يا حطيء! قال: من الذي يقول:

إِذَا أَتَبَضَّ الرَّأْمُونَ عَنْهَا تَرْتَمَتْ تَرْتَمَ تَكَلَّى أَوْجَعَتْهَا الْجَنَائِزُ

قالوا: الشماخ قال: أَبْلَغُوا غَطْفَان أَنَّهُ أَشْعَرُ الْعَرَبِ».

(٣) ديوانه ١٢٠، والبيت الأول في الأغاني ٢: ١٩٦ ونسبة إلى ضابئ البرجمي.

(٤) رواية البيت في الديوان:

لَهُ خَبْطَةٌ فِي الْحَلْقِ لَيْسَ بِسُكَّرٍ وَلَا طَعْمٍ رَاحٍ يَشْتَهَى وَنَبِيذٍ

(٥) ديوانه ١٢٠، والأغاني ١: ١٩٧.

(٦) في الأغاني: «الفريّة: الأتانة»، والخبر هناك في ٢: ١٩٥ - ١٩٧، مع اختلاف في الرواية.

ولكن امش في ظلّ ناقتي، وكفى لك بذلك شرفاً؛ وإن الظلّ لك لكثير! فما مرّ بي مثل ذلك اليوم، ثم أدرك سلطاني فلم أؤاخذه بذلك، بل أجلسته على سريري هذا، وقضيت حوائجه.



ومنهم دؤيد بن زيد بن نهد^(١)، وكان من المعمّرين، قال: يا بنيّ أوصيكم بالنّاس شراً، لا تبتغوا لهم خيراً، كلّموهم نزراً، والحظوهم شزراً، ولا تقبلوا لهم عُذراً، ولا تُقلوهم عثرة، ثم أنشأ يقول:

يا رَبِّ نهبٍ صالحٍ حوَيْتُهُ ورُبَّ غَيْلٍ حَسَنٍ لَوَيْتُهُ^(٢)
لو كان للدَّهرِ بَلَى أبليتُهُ أو كان قِرْنِي واحداً كَفَيْتُهُ^(٣)
اليومَ يُبْنِي لدؤيدِ بَيْتُهُ

(١) ورد الاسم محرفاً في الأصول؛ والصواب ما أثبتته من أمالي المرتضى ١: ٢٣٦، وطبقات الشعراء لابن سلام ٢٧، ٢٨، وفيها الأبيات مع اختلاف الرواية.

(٢) الغيل: الساعد للريان الممتلىء.

(٣) القرن: الذي يلقاك ليقاومك.

محاسن ذكر النعم

يُضْرَبُ المثل بِخُرَيْمِ النَّاعِمِ، وَهُوَ خُرَيْمُ بْنُ عَمْرٍو، مِنْ بَنِي مُرَّةَ بْنِ عَوْفٍ، قِيلَ لَهُ: «النَّاعِمُ»، لِأَنَّهُ كَانَ يَلْبَسُ الْخَلْقَ فِي الصَّيْفِ، وَالْجَدِيدَ فِي الشِّتَاءِ. وَسَأَلَهُ الْحَجَّاجُ: مَا النُّعْمَةُ؟ قَالَ: الْأَمْنُ، فَإِنِّي رَأَيْتُ الْخَائِفَ لَا يَنْتَفِعُ بِنَفْسِهِ وَلَا بِعَيْشِهِ؛ قَالَ: زِدْنِي. قَالَ: الْغِنَى، فَإِنِّي رَأَيْتُ الْفَقِيرَ لَا يَنْتَفِعُ بِعَيْشٍ؛ قَالَ: زِدْنِي، قَالَ: الصَّحَّةُ، فَإِنِّي رَأَيْتُ السَّقِيمَ لَا يَنْتَفِعُ بِعَيْشٍ؛ قَالَ: زِدْنِي، قَالَ: الشَّبَابُ، فَإِنِّي رَأَيْتُ الشَّيْخَ لَا يَنْتَفِعُ بِعَيْشٍ؛ قَالَ: زِدْنِي؛ قَالَ: لَا أَجِدُ مَزِيدًا.



قَالَ: وَقَالَ زِيَادٌ لِحُلَسَائِهِ: مَنْ أَنْعَمُ النَّاسُ عَيْشًا؟ قَالُوا: أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: هِيَاهُ! فَأَيْنَ مَا يَلْقَى مِنَ الرَّعِيَّةِ! قَالُوا: فَأَنْتَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ، قَالَ: فَأَيْنَ مَا يَرُدُّ عَلَيَّ مِنَ الثَّغُورِ وَالْخِرَاجِ! بَلْ أَنْعَمَ النَّاسُ عَيْشًا شَابُّ لَهْ سِدَادٌ مِنْ عَيْشٍ، وَحَظٌّ مِنْ دِينٍ، وَامْرَأَةٌ حَسَنَاءَ رَضِيئَةٍ وَرَضِيئَةٍ، لَا يَعْرِفُنَا وَلَا نَعْرِفُهُ.



قَالَ: وَقَالَ عَمْرٍو بْنُ الْعَاصِ لِمَعَاوِيَةَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا بَقِيَ مِنْ شَبَابِكَ وَتِلْكَذُكَ؟ قَالَ: وَاللَّهِ مَا بَقِيَ شَيْءٌ يَصِيبُهُ النَّاسُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَقَدْ أَصَبْتُهُ، أَمَّا النِّسَاءُ فَلَا إِرْبَ لِي فِيهِنَّ وَلَا لِهِنَّ فِيَّ، وَأَمَّا الطَّيِّبُ فَقَدْ شَمَمْتُهُ؛ حَتَّى مَا أَبَالِي بِهِ؛ وَأَمَّا الثِّيَابُ فَقَدْ لَبَسْتُ مِنْ لَيِّنِهَا وَجَيِّدِهَا حَتَّى مَا أَبَالِي مَا أَلْبَسُ؛ فَمَا شَيْءٌ أَلِدُّ عِنْدِي مِنْ شَرِبَةٍ بَارِدَةٍ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، وَنَظَرِي إِلَى بَنِي وَبَنِي بَنِي يَدْرَجُونَ حَوْلِي؛ فَأَنْتَ يَا عَمْرٍو؛ مَا بَقِيَ مِنْ لَذَّتِكَ؟ قَالَ: أَرْضُ أَغْرَسَهَا فَأَكُلُ مِنْ ثَمَرِهَا، وَأَنْتَفِعُ بِغَلَّتِهَا؛ ثُمَّ التَفْتُ مَعَاوِيَةَ إِلَى وَرْدَانَ فَقَالَ: يَا وَرِيدُ، مَا بَقِيَ مِنْ لَذَّتِكَ؟ قَالَ: صَنَائِعُ كَرِيمَةٍ أَعْتَقَلْتُهَا فِي أَعْنَاقِ الرِّجَالِ، لَا يَكْفِئُونَنِي عَلَيْهَا؛ تَكُونُ لِأَعْقَابِي مِنْ بَعْدِي. فَقَالَ مَعَاوِيَةُ: تَبًّا لِهَذَا الْمَجْلِسِ، يَغْلِبُنَا عَلَيْهِ هَذَا الْعَبْدُ!



قَالَ: وَقَالَ قُتَيْبَةُ بْنُ مَسْلَمٍ لَوَكَيْعِ بْنِ أَبِي سُودٍ: مَا السُّرُورُ؟ قَالَ: لَوَاءٌ

منشور، وجلس على السرير، والسلام عليك أيها الأمير!
وقيل لحُصَيْن بن المنذر: ما السرور؟ قال: امرأة حسناء، في دار قوراء،
وفرس بالفناء.

وقيل لرجل من بني قُشَيْر: ما السرور؟ قال: الأمن والعافية؛ قيل: صدقت!
وقد قيل: العيش في سعة الرزق، وصحة الجسم، وإقبال الزمان، وعز
السلطان، ومعاشرة الإخوان.

وقيل: نعيم المتوسطين لو مشيع، وكأس مُتَرَع، وصديق مُتَمِّع، وغنى مُقْنِع.
وقيل: راحة البدن النوم، وراحة الدار أن تُسَكَن.

وقال بعضهم: ليس سرور النفس بالجدّة، إنما سرورها بالأمل.
وقيل لبعضهم: أيّ الأمور أمتع؟ قال: الأمانى، وأنشد في ذلك:
إذا تمنيتُ بثّ الليل مغتبطاً إنّ المنى رأسُ أموالِ المفاليس
لولا المنى مِتُّ من همٍّ ومن جَزَعٍ إذا تذكّرتُ ما في داخل الكيس^(١)
وقيل لعبد الله بن الأهتم: ما السرور؟ قال: رفعُ الأولياء، وحطُّ الأعداء.

وقال بعضهم: السرور توقيعُ نافذ، وأمرٌ جائز.
وقال عبد الرحمن بن أبي بكر: السرور إدراك الأمانى.
وقال آخر: السرور معانقة الأحبة، والرجوع إلى الكفاية.
وقال بعضهم: العيش محادثة الإخوان، والانتقال إلى كفاية.
وقيل لطرفة: ما السرور؟ قال: مَطْعَمٌ شهيّ، ومركبٌ وطيّ، وملبسٌ دَفِيّ.
وقيل للأعشى: ما السرور؟ فقال: صهباء صافية، تمزجها غانية، بصوب
غادية.

وقيل لملك: ما السرور؟ فقال: حمى ترعاه، وعدوُّ تُنْعَاه.
وقيل لراهب: ما السرور؟ قال: الأمان من الوجل، إذا انقضت مدة الأجل.
وقيل لبعضهم: ما السرور؟ قال: زوجة وسيمة، ونعمة جسيمة.
وقيل لمغن: ما السرور؟ قال: مجلس يقلّ هذرُه، وعُودٌ يصفو وترُه،
وعقولٌ تفهم ما أقول.

(١) ك: «تفكرت».

وقيل لمظلوم: ما السرور؟ قال: كفاية ووطن، وسلامة وسكن.
وقيل لورّاق: ما السرور؟ قال: جلود وأوراق، وحبر بَرّاق، وقلم مَشاق^(١).
وقيل لبعضهم: ما السرور؟ قال: بنون أغیظ بهم أعدائي، ولا تُفَرِّعَ معهم صَفَاتِي^(٢).
وقيل لفتاة: ما السرور؟ فقالت: زوجٌ يملأ قلبي جلالاً، وعيني جمالاً، وفِنائي جمالاً.
وقيل لطفيّ: ما السرور؟ فقال: ندامى تُسَكِّنُ صُدُورهم، وتُعَلِّي قُدُورهم، ولا تُغَلِّق دُورهم.
وقيل لقانص: ما السرور؟ فقال: قوس مَأْطُورَة^(٣)، وشِرْعَة مشزورة^(٤)، ونبالٌ مطرورة^(٥).
وقيل لمحبوس: ما السرور؟ فقال: فِكَاكٌ يَفْجَأُ، وإِطْلَاقٌ لا يَزُزُّ.
وقيل للوطي: ما السرور؟ فقال: شَخْصٌ ناضِر^(٦)، ودرهم حاضر.
وقيل لعاشق: ما السرور؟ فقال: لَفِيَّةٌ تشفي من الفُرْقَة، واعتناقٌ يداوي من الحُرْقَة.
وكان يقال: إنه حُكِي عن الحكماء أن لَذَّة الثوب يوم، ولَذَّة المركب جمعة، ولَذَّة المرأة شهر، ولَذَّة الضَّيْعَة سنة، ولَذَّة الدار الأبد.



الشعر في هذا الفن

أَطِيبُ الطَّيِّبَاتِ قَتْلُ الْأَعَادِي واختيال على مُتُونِ الْجِيَادِ^(٧)
وَأَيَادٍ تَحْبُو بِهِنَّ كَرِيماً إِنَّ عِنْدَ الْكَرِيمِ تَزْكُو الْأَيَادِي

(١) قلم مشاق: سهل الكتابة سريعا.

(٢) الصفاة في الأصل: الحجر الصلد، والكلام على الاستعارة.

(٣) قوس مأطورة: معطوفة مقوسة.

(٤) الشرعة: الوتر، وشزر الحبل: فتله عن يسار، وهو أشد فتله.

(٥) مطرورة: محدبة.

(٦) في الأصول: «ناظر».

(٧) ل: «واحتفال».

ورسولٌ يأتي بوعدٍ حبيبٍ
وللخليع :

أطيبُ الطيباتِ أمرٌ ونهيٌّ
وامتطاءُ الخيولِ في كنفِ الأمِ
وسَماعُ الصَّهيلِ في لجبِ المومِ
الموصلي :

وحبيبٌ يأتي على ميعادٍ

لا يُردّانِ في الأمورِ الجسامِ
نِ بغيرِ الإقدامِ والإحجامِ
كِبِ تحتِ اللّواءِ والأعلامِ

وندامُ المنعماتِ العَواني
ح على شَدوِ ماهراتِ القِيانِ
ليسَ تُفْنِيهِ نائباتُ الزمانِ

أطيبُ الطيباتِ طيبُ الزَّمانِ
واحتِساءُ العُقارِ في غُرّةِ الصبِ
وأمانٌ من الهُمومِ ومالٌ

محاسن الفقر

رُوي في الحديث أن الفقير الصبور يدخل الجنة قبل الغني الشكور بأربعين عاماً.

ورُوي عن أبي الدرداء أنه قال: لأن أموت وعليّ أربعة آلاف درهم أنوي قضاءها، أحب إليّ من أن أترك مثلها حلالاً.

وقال سلمان الفارسي: قد خشيت أن أكون قد تركت عهد رسول الله ﷺ. قيل: ولم ذاك؟ قال: لأنه قال: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلَا يَكُونَنَّ»^(١) زاده من الدنيا إلا كزاد الراكب»، وأنا قد جمعت ما ترون؛ فقوموا ما عنده فبلغ ثمانية عشر درهماً.

وكان يقال: مَنْ أصبح آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فعلى الدنيا عفء.

ورُوي عن النبي ﷺ أنه كان من دعائه: «اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَسْكِيناً، وَأَمِتْنِي مَسْكِيناً، واحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ؛ اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافاً»، فسئل بعضهم: ما الكفاف؟ فقال: جُوعٌ يوم، وشبع يوم.

وروي أنّ عيسى ابن مريم عليه السلام كان لا يأوي [إلى] سَقْف بيت، فألجأه المطر ذات ليلة إلى غار، فدخله فإذا سَبُعٌ قد سَبَقَهُ إليه، فكأن صدره ضاق، فأوحى الله عز وجل إليه: يا عيسى، ضاق صدرك! فوعزتي لأزواجك أربعة آلاف حوراء، ولأولمنّ عليك ألف عام!

قال: وكان الفضيل بن عياض يقول في دعائه: اللَّهُمَّ أَجْعَلْنِي وَأَجْعَلْ عِيَالِي، وتركتنا في ظلم الليل بلا مصباح، وإنما تفعل هذا بأوليائك، فبأي منزلة نلتُ هذا منك يا رب!

(١) كذا في ك، وفي ل: «الفقراء».

مساوىء الفقر

قيل: أمر الله عز وجل موسى عليه السلام فقال: أثت كورة كذا وكذا. فقال: يا رب، إني قتلت منهم نفساً، وأنا^(١) خائف. فقال الله عز وجل: إني قد أمت أقرباءه^(٢). فصار إليها، فأول ما استقبله قرابة للمقتول، فقال: يا رب، هذا أخوه. قال: يا موسى، إني جعلته فقيراً، والفقير ميت من العقل، وعند الناس ميت، وعند الحلال والحرام ميت، والفقر الموت الأكبر.

وقيل: إنه إذا أيسر الفقير ابتلي به ثلاثة: صديقه القديم يجفوه، وامراته يتزوج عليها، وداره يهدمها وبينها.

وكان في الجاهلية رجل حسن الحال، وكان بنو عمه وأخواله يختلفون إليه فيعطيههم ويموئهم ويقوم بأموئهم. ثم اختل أمره، فأتاهم فحرموه، فأتى أهله كئيباً، فقالت له امرأته: ما حالك! فقال: دعي عنك، وأنشأ يقول:

دعي عنك عدلي ما من العدل أعجب ولا بُدَّ حالٍ بعد حالٍ تقلبُ
وكان بنو عمي يقولون مرحباً فلمَّا رأوني مُقتراً ماتَ مرحبُ
كأنَّ مقبلاً حين يغدو لحاجةٍ إلى كلِّ مَنْ يلقي من الناس مُذنبُ



وقال بعضهم: رُبَّ مغبوطٍ بميسرة هي داؤه، ومرحوم من عُدْم هو شفاؤه، والدنيا دُول، فما كان لك منها أتاكَ على ضعفك، وما كان عليك لم تدفعه بقوتك، ومن عتبَ على الدهر طالت معتبته.



وقال الأضبط:

أرَضَ من الدهرِ ما أتاكَ به مَنْ قَرَّ عينا بعيشه نفعه
قال: وسمع سفيان الثوري قوماً يقول بعضهم لبعض: كيف حالك؟ فقال:

(١) ك: «وإني».

(٢) ك: «قرباء».

لقد بلغني أنّ مَنْ كان قبلكم كان يكره أن يسأل أخاه عن حاله، إلّا من يكون مجمعاً على تغيير سوء حاله إذا أخبره.

قال: وقال أوس بن حارثة: خير الغنى القنوع، وشرّ الفقر الخضوع.

قيل: ومَرَّ رجل من الأغنياء برجل من أهل العلم، فتحرك له وأكرمه، فقيل له: هل كانت لك إليه حاجة؟ قال: لا؛ ولكنّ ذو المال مهيب. وقال فيه الشاعر:

أَرَى كُلَّ ذِي مَالٍ يُجَلُّ لِمَالِهِ وَمَنْ لَيْسَ ذَا مَالٍ يُهَانُ وَيُحَقَّرُ
وَيُخَذِّلُهُ الْإِخْوَانُ إِنْ قَلَّ مَالُهُ وَلَيْسَ بِمُحْبُوبٍ، بَلَى هُوَ يُهَجَرُ
وَأَقْنَعُ بِالْمَالِ الْقَلِيلِ تَكْرُمًا لَا أَغْنَى بِهِ عَمَّا لَدَيْكَ وَأَصْبِرُ



وذكروا أن زياد بن أبي سفيان أرق ذات ليلة وهو بالبصرة، فبعث إلى غيلان بن خرشة الضبي، وسويد بن منجوف السدوسي، والأحنف بن قيس السعدي، فلما توافوا إليه قال: أتدرون فيم بعثت إليكم؟ إنه كان عندي ثلاثة من دهاقين كسرى؛ يحدثون بما كانت الأكاسرة فيه من ملوكها، وعظيم شأنها، فتقاصر إليّ ما نحن فيه، فبعثت إليكم لتصفوا لي ما كانت العرب فيه من البؤس وشدة الحال لنقنع بما نحن فيه، فإنّ الغنى القناعة.

قال غيلان: إن اقتصرت عليّ دون أصحابي حدثتُك. قال: هات. قال: أخبرني عمّ لي صدوق أنّه خرج في سنة أصابت العرب فيها شدة حتى أكلوا القدّ من القحط، واحمرّ أديم الأرض وأفاق السماء، قال: فطفقت ثلاثاً ما أطعم فيهنّ شيئاً إلّا ما يأكل بعيري من حشرات الأرض، حتى أصابني الميّد^(١)، فشددت على بطني حَجراً من الجوع، فإنّي كذلك في جوف الليل إذ دفعت إلى حيّ عظيم فسلمت، فقالوا: مَنْ هذا؟ قلتُ: طارق ليل يلتمس القرى، فقالوا: واللّه ما أبقت لنا هذه السنّة قرى ولا فضلاً، فقالت امرأة كانت إلى جانب القبّة: يا عبد الله، دونك القبّة العظيمة، فإن كان عند أحدٍ خير فعندها. فأممتها، فلما دَفَعْتُ إليها سلمت، فقيل لي: مَنْ هذا؟ فقلتُ: طارق ليل يلتمس قرى، فقال رجل منهم: يا فلان، هل عندك قرى؟ قال: نعم؛ قد أبقيت في ضَرْع الفلانة^(٢) رسلاً^(٣) لطارق

(١) الميّد هنا: الغثيان والدوار.

(٢) الفلانة، بآل التعريف؛ كناية عن اسم ما لا يعقل؛ ويريد به هاهنا الناقة.

(٣) الرسل: ما كان من بقية لبن.

ليل، ثم سار إليها فناداها، فانبعثت وتفاجّت^(١) عن مثل الطَّبِّي القنيص، فضرب زُبُونَتَهَا^(٢)، ثم حلب في عُلْبَةٍ^(٣) معه؛ حتى علثها رَغْوَةُ اللبن، وكلّ ذلك بمرأى مني ومسمع! فلقد سمعتُ الغناء الحُداء. فما سمعتُ شيئاً كان أحبّ إلى مسامعي من صوت شخبها في تلك العُلْبَةِ. ثم أقبل بها يريدني، فلما أهويت لآخذهما عَثَرُ فانكفأت العُلْبَةُ وذهب ما فيها؛ فوالله لقد فقدتُ الأهل والمالَ فما أصبْتُ بشرّ كان أفرغَ لقلبي، ولا أعظمَ موقعاً عندي من انكفاء تلك العُلْبَةِ على مثل الحال التي كنتُ فيها! فلما رأي صاحبُ القَبَةِ ورأى ما بي من شدّة الجهد، خرج حتى دخل في إبله وهو يقول: صدق أخو بني قيس في قوله:

هُم يَطْرُدُونَ الْفَقْرَ عَنْ جَارِهِمْ حَتَّى يُرَى كَالْغُصْنِ الْناضِرِ
فأخذ ناقة كَوْمَاءَ فكشف عن عُزْقوبيها ثم قال: دونك السّنام، فلما وافى الودك بطني وحفوف الماء - ولا عهد لي قبل ذلك بشيء منه - خَرَزْتُ مَغْشِياً عليّ، فوالله ما أيقظني إلا بَرْدُ السَّحَرِ.

فقال زياد: قَطْنِي، قد اكتفيتُ بهذا، هذا والله غاية الجهد؛ فالحمد لله الذي مَنَّ علينا بمحمّد ﷺ، وهدانا إلى الإسلام، وجعلنا ملوكاً، ثم قال: لا أَبَ لشائئك. فمن الرجل؟ فقال عامر بن الطُّفَيْل، فقال أبو عليّ! والله كان لها ولأمثالها^(٤).



قال: وقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: لقد رأيتني في الجاهلية وأُخِيّة لي؛ وإنا لنرعى ناضحاً^(٥) لأبوينّا، قد زوّدنا أُمناً يُمَنِّتُهَا من الهَبِيد^(٦)، فإذا أَسَخَنْتُ علينا الشمس أَلْقَيْتُ الشَّمْلَةَ على أُخْتِي، وخرجتُ عُريّانَ أَسْعَى، فنظّل نرعى ذلك النَّاضِحَ، فَنرجع إلى أُمنا من الليل. وقد صنعتُ لَنَا لَفِيّةً^(٧) من ذلك الهَبِيد فتعشّى، فواخصبّاه!

(١) تفاجت: أفرجت رجلها.

(٢) الزبونة: العنق.

(٣) العُلْبَةُ: قدح ضخم من جلود الإبل يحلب فيه.

(٤) الخبر مع اختلاف في الرواية في عيون الأخبار ٣: ٢٤٤.

(٥) الناضح: البعير يستقي عليه؛ ثم استعمل في كل بعير وإن لم يحمل الماء.

(٦) الهَبِيد: حب الحنظل.

(٧) لَفِيّة: العصيدة المغلظة؛ لأنها تلفت؛ أي تلوّى.

قال بعض جلسائه: فوالله لقد حسدته على ذلك .



قال: وسئل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن جهد البلاء، فقال: قلة المال، وكثرة العيال.

وكان الفضيل يقول: المال يسود غير السيد، ويقوي غير الأيد.

وفي كتاب «كليلة ودمنة»: الرجل إذا افتقر اتهمه من كان له مؤتمناً، وأساء به الظن من كان يظن به حسناً، وإن أذنب غيره ظنوه به، وإن كان لسوء الظن والتهمة موضعاً حملوا على ذلك الذي يفعله غيره.

وأنشده في ذلك:

إذا قلّ مال المرء قلّ صديقُه وأومت إليه بالعيوب الأصابعُ
ولآخر^(١):

إذا قلّ مال المرء قلّ حياؤه وضافت عليه أرضه وسماؤه
وحار ولا يدري وإن كان حازماً أقدامه خير له أم وراؤه!
إذا قلّ مال المرء قلّ حياؤه ولا خير في وجه يقلّ حياؤه

وقيل لأعرابي: ما أشدّ الأشياء؟ قال: كبد جائعة، تؤدي إلى أمعاء ضيقة.

وقيل لأعرابي: لم يقول أهل الحضر: باعك الله في الأعراب؟ قال: لأنّا والله نُعري جلدّه، ونُجيع كبده، ونطيل كده.

ومما قيل فيه من الشعر:

أعظم من فاقة وجوع مُقام حرّ على خضوع
فلا تُردّه ولا تُردّ ما أنيل بالذلّ والخشوع
واطلب معاشاً بقدر قوت وأنت في منزل رفيع
لعلّ دهرأ غداً بنّحس يعود بالسعد في الرجوع!
آخر:

الموت خير للفتى من أن يعيش بغير مال
والموت خير للكر يم من الصّراعة للرجال

(١) لصالح بن عبد القدوس، وانظر: أدب الدنيا والدين ٢٢٥.

آخر:

ولكن رأيتُ الفقيرَ شرَّ سبيلٍ
وللبخلِ خيرٌ من سؤالِ بخيلٍ
فلا تلقَ مخلوقاً بوجهٍ ذليلٍ
فللموتِ خيرٌ من سؤالِ سؤولٍ

بخلتُ وليسَ البخلُ مِنِّي سجيّةً
لموتُ الفتى خيرٌ من البخلِ للفتى
لعمركَ ما شيءٌ لوجهك قيمةً
ولا تسألنَ مَنْ كان يسألُ مرّةً

آخر:

فإنّما الموتُ سؤالُ الرجالِ
أشدُّ من هذا لذلّ السؤالِ^(١)

لا تحسبنَ الموتَ موتُ البلى
كلاهما موتٌ ولكنّ ذا

آخر في معناه:

فنحنُ من نظارة الدنيا
كأننا لفظٌ بلا معنى

مَنْ كانَ في الدنيا أخا ثروةٍ
نرمقُها من كثبٍ هكذا

ولآخر:

مّ شديداً وعذاباً
وعبيداً ودواباً
وحصّاداً وكراباً^(٢)
لبني الدُّنيا ببابٍ
وحطّطنا عن ركبّ
نَ بصيراً بالحساب

قد أراحَ الله من غمّ
واسترحنا من عيالٍ
وضياعٍ ونخيلٍ
واسترحنا من وقوفٍ
وقنعنا وأقمنا
حبّذا الوَحْدَةُ إنْ كا

آخر:

ولا لخليّ عليّ إفضالُ
وخادمي والوكيلُ بقالُ

الحمدُ لله ليسَ لي مالُ
الخانُ بيتي، ومشجبي بدني

لآخر:

أخفّ الكيسَ إغلاءَ الشعيرِ
وصرتُ من البغالِ إلى الحميرِ

بقيتُ ومركبي البردؤنُ حتّى
وصرتُ إلى البغالِ فأعجزتُني

(١) ك: «ذاك على كل حال».

(٢) الكراب: تقلب الأرض للزراع.

فَعَزَّزْتَنِي الْحَمِيرُ فَصَرْتُ أَمْشِي أَزَجِّي الرَّجُلَ تَزْجِيَةَ الْكَسِيرِ
وَلَا آخِرَ :

أَتْرَانِي أَرَى مِنَ الدَّهْرِ يَوْمًا لِي يَوْمًا مَطِيَّةٌ غَيْرُ رَجُلِي^(١)!
وَإِذَا كُنْتُ فِي جَمِيعٍ فَقَالُوا قَرَّبُوا لِلرَّحِيلِ قَرَّبْتُ نَعْلِي
حَيْثَمَا كُنْتُ لَا أَخْلَفُ رَحْلًا مَنْ رَأَى فَقَدْ رَأَى وَرَحْلِي
أَبُو هِفَّانَ :

يَا مَوْلَجَ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ صَبْرًا عَلَى الذَّلِّ وَالصَّغَارِ
كَمْ مِنْ حِمَارٍ لَهُ حِمَارٌ وَمِنْ جَوَادٍ بِلَا حِمَارٍ!
الْحَمْدُ لِي :

تَسَامَى الرِّجَالُ عَلَى خَيْلِهِمْ وَرِجْلِي مِنْ بَيْنِهِمْ حَافِيَهُ
فَإِنْ كُنْتَ حَامِلَنَا رَبَّنَا وَإِلَّا فَأَرْجُلُ بَنِي الزَّانِيَهُ



قال : وكان أعرابيٌّ بالبصرة في بيت ، فكان إذا خرج استوثق من غَلَقِ بابه ،
فيظن جيرانه أن له مالا ، فقال :

لَيْسَ إِغْلَاقِي لِبابِي أَنْ لِي فِيهِ مَا أَخْشَى عَلَيْهِ السَّرْقَا
إِنَّمَا أَغْلَقْتُهُ كَيْ لَا يَرَى سَوْءَ حَالِي مَنْ يَمُرُّ الطُّرُقَا
لَيْسَ لِي فِيهِ سِوَى بَارِيَةٍ^(٢) وَبَلِي أَخْلَقْتُ لِبُدَا خَلَقَا
مَنْزَلٌ دَاخِلُهُ الْفَقْرُ فَلَوْ دَخَلَ السَّارِقُ فِيهِ سُرِقَا
وَلَا آخِرَ :

يَبِيتُ يُرَاعِي النِّجْمَ مِنْ جُوعِ بَطْنِهِ وَيُصْبِحُ يُلْقَى ضَاحِكًا مُتَبَسِّمًا
وَلَا آخِرَ :

وَعَاقِبَةُ الصَّبْرِ الْجَمِيلِ جَمِيلَةٌ وَأَحْسَنُ أَخْلَاقِ الرِّجَالِ التَّفَضُّلُ
وَلَا عَارَ أَنْ زَالَتْ عَنِ الْمَرْءِ نِعْمَةٌ وَلَكِنْ عَارًا أَنْ يَزُولَ التَّجْمُلُ^(٣)

(١) العقد ٣ : ٤٦ ، ٦ : ٢١٥ ونسبها إلى أبي الشمقمق .

(٢) البارية : الحصيرة .

(٣) ل : «التحمل» .

ولآخر:

وكم من فقيرٍ بعد جَهْدٍ وحاجةٍ هو اليومَ محسودٌ وقد كان يُرْحَمُ!

ولآخر:

قد يكثرُ المالُ يوماً بعدَ قلتهِ ويكتسي العُصْنُ بعد اليُبْسِ بالورقِ

آخر:

كم من غنيٍّ رأيتُ الفقرَ أدركهُ ومن فقيرٍ غنيٍّ بعدَ إقلالِ

آخر:

وكم من غنيٍّ كانَ بالمالِ مُثْرِيًّا هو اليومَ مرحومٌ وقد كان يُحْسَدُ

آخر:

وكم من فتًى كانَ ذا ثروةٍ رَمَتْهُ الحوادثُ حتى افتقرَ

آخر:

إذا كانَ جدُّ المرءِ في الشيءِ مقبلاً تأتتْ له الأشياءُ من كلِّ جانبِ

وإن أذبرتْ دُنياهُ عنه توَعَّرتْ عليه، وأعيثتْ وُجوهُ المطالبِ

وإن قلَّ مالُ المرءِ أقصاهُ أهلهُ وأعرَضَ عنه كلُّ إلِفٍ وصاحبِ

وكذبهُ الأَقْوامُ في كلِّ منطقٍ وإن كانَ فيه صادقاً غيرَ كاذِبِ

آخر:

متى ما يرى الناسُ الفقيرَ وجارهُ يقولونَ: هذا عاجزٌ وجليدٌ

وليسَ الغنى والفقرُ من حيلةِ الفتى ولكن أحاطَ قُسمتْ وجدودُ

وقال عبدُ الأعلى القاضي: الفقير مَرَقْتُه سِلْقَةٌ، ورداؤُه عِلْقَةٌ، وَسَمَكْتُهُ سِلْقَةٌ^(١).

ولآخر:

مَنْ كَانَ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ فَلَمْ يقنعْ فذاكَ الموسِرُ الْمُقْتِرُ

الفقرُ في النَّفْسِ وفيها الغنى وفي غنى النفسِ الغنى الأكبرُ



(١) السِّلْقَةُ: نبت يؤكل، والعِلْقَةُ: قميص بلا كمين، والسِّلْقَةُ: ضرب من السمك.

وكتب بعضهم يستميح بعض الأغنياء :

هذا كتابُ فتى أزرى الزّمان به
شطّلت منازله عنه وضعّعه
يُذري الدموعَ بعينٍ غير جامدةٍ
أضحى ببابك محزوناً له أملٌ
يا ذا المقدّم في الأفعال من كرمٍ
ولآخر :

خُلِقَ واسعٌ، ومالٌ قليلٌ
ما اختيالُ الفتى بدولةٍ دهر
كلّما رام نهضةً أقعدتهُ
واعتداءً من الزمان طویلٌ
وعليه بالنائبات تدولُ!
غائلات من الزمان تغولُ^(١)



فيمن أثرى بعد الفقر، أنشد لرجل من المحدثين :

لئن كنتَ قد أعطيتَ خزاً تجرّه
فلا تعجبن أن تملك الناس إنني^(٢)
تبذلّته من فروة وإهابٍ
أرى أمة قد أدبرت لذهابٍ
ولآخر :

تاه على إخوانه بالغنى
أعادَه اللّه إلى حاله
لدعبل الخزاعي :

عطاياها تغدو على سايح
فلو خُصّ بالرزق بُخلُ الكرا
ولكنّه الرزقُ ممن يعي
وطوراً على بغلةٍ ندبه^(٤)
م مانال خيطاً ولا هُدْبَه
ش في رزقه الكلبُ والكلبه
ولآخر :

كنتَ إذ كنتَ عديماً
لي خلاً ونديماً

(١) ط : «عالمه . . . تعول» .

(٢) ك : «أن تملك الدهر» .

(٣) ك : «فقره» .

(٤) الفرس السايح : السريع ، والبغلة الندبة : الماضية النشطة .

ثُمَّ أَثَرَيْتَ فَأَعْرَضْتُ وَلَمْ تَرْعَ قَدِيمَا
 صَارَ مَا نِلْتَ مِنَ الْمَا لِنَا ذَنْبًا عَظِيمَا
 هَكَذَا يَفْعَلُ بِالْإِخْوَا نَ مَنْ كَانَ لئِيمَا^(١)
 وَلَا خَر:

صَحْبُتُكَ إِذْ أَنْتَ لَا تَصْحَبُ وَإِذْ أَنْتَ تَفْرَحُ بِالزَّائِرِينَ
 وَإِذْ أَنْتَ تَكْثُرُ ذَمُّ الزَّمَانِ وَمَشْيُكَ أَضْعَافُ مَا تَرْكَبُ
 فَقُلْتَ كَرِيمٌ لَهُ هَمَّةٌ يَنَالُ فَأَدْرُكُ مَا أَطْلُبُ
 فَنَلْتَ وَأَقْصَيْتَنِي جَانِبًا كَأَنِّي ذُو عُورَةٍ أَجْرُبُ^(٢)
 وَنَفْسُكَ نَفْسُكَ تَسْتَحِجُّ وَنَفْسُكَ أَضْعَافُ مَا تَرْكَبُ
 كَأَنِّي ذُو عُورَةٍ أَجْرُبُ^(٣)

(١) ط: «كريماً».

(٢) الموكب: من يلزم الموكب.

(٣) العرة: قرحة الجرب.

محاسن الثقة بالله عز وجل

قيل: خطب سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ؛ فقال: الحمد لله الذي أنقذني من ناره بخلافته.

وقال الوليد بن عبد الملك: لأشفعن للحجاج بن يوسف، وقرّة بن شريك [عند ربّي] ^(١).



وقال الحجاج: يقولون: مات الحجاج! فمه ^(٢)! ما أرجو الخير كله إلا بعد الموت، والله ما رضي الله البقاء إلا لأهون خلقه عليه إبليس؛ إذ قال: ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْني إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [سورة الحجر: ٣٦-٣٨].

وقال أبو جعفر المنصور: الحمد لله الذي أجارني بخلافته، وأنقذني ^(٣) من النار بها.



وحدثنا إبراهيم بن عبد الله، رُفِعَ الحديث إلى أنس بن مالك قال: دخلنا على فتى من الأنصار: وهو ثقيل في مرضه، فلم نخرج من عنده حتى قُضِيَ ^(٤) عليه، وإذا عجوز عند رأسه، فالتفت إليها بعض القوم وقال: استسلمي لأمر الله عز وجل واحتسي. قالت: أمات ابني؟ قال: نعم؛ قالت: أحق ما تقولون! قلنا: نعم؛ فمدت يدها إلى السماء ثم قالت: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تعلم أنني أسلمت لك، وهاجرتُ إلى نبيك محمد ﷺ؛ رجاء أن تُعينني عند كل شدة، اللَّهُمَّ فلا تحمِلني هذه المصيبة اليوم. فكشف ابئها الثوب الذي سجّيناه به عن وجهه؛ وما برحنا حتى طعم وطعمنا معه ^(٥).



(١) تكملة من المحاسن والأضداد ١٦٦.

(٢) المحاسن والأضداد: «مه».

(٣) ل: «أبعدني».

(٤) المحاسن والأضداد: «حتى قضى نحبه».

(٥) الخبر في المحاسن والأضداد ١٦٦، ١٦٧.

قيل: وبيننا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعرض الناس، إذ هو برجل معه صبي له، فقال له عمر رضي الله عنه: ويحك! ما رأيتُ غراباً أشبه بغرابٍ من هذا بك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، والله ما ولدته أمه إلا وهي ميتة، فاستوى عمر رحمه الله جالساً وقال: ويحك! حدثني، قال: خرجتُ في غزاةٍ وأمُّه حاملٌ به. فقالت: تخرج وتدعني على هذه الحالة حاملاً مثقلاً! فقلت: أستودع الله ما في بطنك! فغبتُ ثم قدمتُ وإذا بابي مغلق، فقلتُ: ما هذا؟ وما فعلتُ فلانة؟ قالوا: ماتت. فذهبتُ إلى قبرها وكنْتُ عنده، فلما كان من الليل قعدتُ مع بني عمِّي أتحدّث؛ وليس يسترنا من البقيع^(١) شيء، فرفعت لي ناراً بين القبور، فقلتُ لبني عمِّي: ما هذه النار؟ قال أحدهم: يا أبا فلان، نرى على قبر فلانة كلَّ ليلة ناراً. فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون! والله لقد كانت صوامة قوامة عفيفة، والله لأنبشَنَ قبرها، ولأنظرَنَ ما حالها؟ فأخذتُ فأساً وأتيتُ القبرَ فإذا هو مفتوح والمرأة ميتة، وهذا حيٌّ يدبُّ حولها، فنادى منادٍ: أيها المستودع ربّه وديعته، خذ وديعتك، أما إنَّك لو استودعته أمُّه لوجدتها. فأخذته، وعاد القبر كما كان، وهو والله يا أمير المؤمنين هذا!

(١) البقيع، ويضاف أحياناً إلى الغرقد: مقبرة أهل المدينة.

مساوىء الثقة

قال : قال عيسى ابن مريم عليه السلام : يا معشر الحواريين ، إن ابن آدم خُلِقَ في الدنيا في أربعة منازل ، هو في ثلاثة منها واثقٌ بالله عزَّ وجلَّ ، وهو في الرابع سيءُ الظنِّ ، يخاف خُذْلانَ الله عزَّ وجلَّ إياه ، فأما المنزلُ الأولي فإنه خُلِقَ في بطن أمه خَلْقاً من بعد خَلْقٍ في ظلمات ثلاث : ظُلْمَةُ الْبَطْنِ^(١) ، وظُلْمَةُ الرَّجَمِ ، وظُلْمَةُ الْمَشِيمَةِ^(٢) ، يُنْزَلُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ عليه رِزْقُهُ في جوف ظُلْمَةِ الْبَطْنِ ، فإذا خرج من ظُلْمَةِ الْبَطْنِ وقع في اللبن ، لا يخطو إليه بقدم ولا ساق ولا يتناولهُ بيده ، ولا ينهض بقوة ، ويكره عليه إكراهاً ، ويؤجره إيجاراً ؛ حتى ينبت عليه عظمه ودمه ولحمه ، فإذا ارتفع من اللبن وقع في المنزلِ الثالثة في الطعام ، بين أبوين يكتسبان عليه من حلالٍ وحرام ، فإن مات أبواه من غير شيء عَطَفَ عليه الناس ؛ هذا يُطْعِمُهُ ، وهذا يسقيه ، وهذا يؤويه^(٣) ، فإذا وقع في المنزلِ الرابعة واشتدَّ واستوى وكان رجلاً خَشِي ؛ ألا يرزق ، فيثب^(٤) على الناس ، فيخون^(٥) أماناتهم ، ويسرق أمتعتهم ، ويكابرهم^(٦) على أموالهم مخافة خُذْلانِ الله عزَّ وجلَّ إياه^(٧) !

(١) كذا في ك والمحاسن والأضداد ، وفي ل : «البصر» .

(٢) المشيمة : غشاء ولد الإنسان ، يخرج معه عند الولادة .

(٣) في الأصول : «يرويه» .

(٤) ط : «يثب» ، وما أثبتته من المحاسن والأضداد .

(٥) ل : «يخون» .

(٦) ك : «ويكاثروهم» .

(٧) المحاسن والأضداد ١٦٧ .

محاسن طلب الرزق

بلغنا عن ابن السَّمَاك أَنَّهُ قَالَ: لَا تَشْتَغَلْ بِالرَّزْقِ الْمَضْمُونِ، عَنِ الْعَمَلِ الْمَفْرُوضِ؛ وَكَانَ الْيَوْمَ مَشْغُولًا بِمَا أَنْتَ عَنْهُ غَدًا مَسْئُولٌ. وَإِيَّاكَ وَالْفُضُولَ؛ فَإِنَّ حَسَابَهَا طَوِيلٌ^(١).

وَقَالَ عَمْرُو بْنُ عُثْبَةَ: مَنْ لَمْ يَقْدِّمِ الْخَزْمَ، أَخَّرَهُ الْعَجْزُ^(٢).

وَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا بَنَى آدَمَ، أَحْدِثْ لِي سَفَرًا، أَحْدِثْ لَكَ رِزْقًا^(٣).
وَفِي بَعْضِ الْحَدِيثِ: «سَافِرُوا تَغْنَمُوا».

وَقَالَ الْكَمَيْتُ:

وَلَنْ يُزِيحَ هُمُومَ النَّفْسِ إِذْ حَضَرَتْ حَاجَاتُ مِثْلِكَ إِلَّا الرَّحْلُ وَالْجَمَلُ
وَقَالَ الطَّائِي:

وَطُولُ مُقَامِ الْمَرْءِ فِي الْحَيِّ مُخْلِقٌ لِدِيَابِجَتِيهِ فَاغْتَرِبْ تَتَجَدَّدُ^(٣)
فَإِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ زِيدَتْ مَحَبَّةً إِلَى النَّاسِ إِذْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمِدِ
وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: لَا تَدْعِ الْحِيلَةَ فِي التَّمَاسِ الرِّزْقَ بِكُلِّ مَكَانٍ؛ فَإِنَّ الْكَرِيمَ مُحْتَالٌ، وَالْدَنِيَّ عِيَالٌ^(٤).

وَقَالَ:

فَسِرْ فِي بِلَادِ اللَّهِ وَالتَّمَسِ الْغِنَى تَعِشْ ذَا يَسَارٍ أَوْ تَمُوتْ فَتُعْذَرَ
وَلَا تَرْضَ مِنْ عَيْشٍ بَدُونٍ وَلَا تَنْمِ وَكَيْفَ يَنَامُ اللَّيْلُ مَنْ كَانَ مُعْسِرًا^(٥)!
وَتَقُولُ الْعَرَبُ^(٦): كَلْبُ جَوَالٍ، خَيْرٌ مِنْ أَسَدٍ رَابِضٍ.

(١) المحاسن والأضداد ١٧٠: «يطول».

(٢) المحاسن والأضداد ١٦٨.

(٣) هو أبو تمام، ديوانه ٢٣٢.

(٤) المحاسن والأضداد ١٦٨.

(٥) المحاسن والأضداد ١٦٨ بدون نسبة.

(٦) المحاسن والأضداد ١٦٨: «العامّة».

وتقول أيضاً: من عَلَى دماغه صائفاً، غلت قِدره شاتياً.
 ووقع عبدُ الله بنُ طاهر: «من سعى رعى، ومن لزم المنام، رأى الأحلام». .
 وقال^(١) الكِسْرَوِيُّ: احذر من توقيع أنوشروان بالفارسية^(٢) «هرك روز خُزْد
 هرك خُسِيد خاف ويند»^(٣)، وأنشد:

كفى حزناً أن النوى قذفت بنا بعيداً، وأن الرزق أعيت مذهبهُ
 ولو أننا إذ فرّق الدهر بيننا غنى واحدٍ منا تمّول صاحبهُ
 ولكننا من دهرنا في مؤونةٍ يكالبنا طوراً، وطوراً نكالبهُ



ولآخر:

إذا المرء لم يَبْغِ المعاش لنفسه شكا الفقر؛ أو لام الصديق فأكثر
 وصار على الأذنين كلاً وأوشكت صلات ذوي القربى له أن تُنكرا^(٣)

ولآخر:

ومن يك مثلي ذا عيالٍ ومقتراً من المال يطرح نفسه كلّ مطرح^(٤)
 ليبلغ عُذراً؛ أو ينال غنيمةً ومبلغ نفسٍ عُذرها مثل مُنجح

ولآخر:

وليس الرزق عن طلبٍ حثيثٍ ولكن ألّق دلوّك في الدلاءِ^(٥)
 تجيء بملئها يوماً ويوماً تجيء بحمأةٍ وقليلٍ ماءٍ

ولآخر:

وقد علمت وعلم المرء ينفعه أن الذي هو رزقي سوف يأتي^(٦)

-
- (١) المحاسن والأضداد: «هذا المعنى سرقه من توقيعات أنوشروان بالفارسية فإنه يقول» .
 (٢) رجعت في ترجمة هذا النص الفارسي إلى السيد نصر الله الطرازي مفهرس الكتب الفارسية
 والتركية بالدار؛ فأفادني بأنه يوافق في المعنى ما ذكر من توقيع عبد الله بن طاهر .
 (٣) ط: «على الأذنين» تصحيف .
 (٤) لعروة، ديوانه ٨٨ .
 (٥) من أبيات تنسب إلى أبي الأسود الدؤلي، ملحق ديوانه ٤٣ .
 (٦) لعروة بن أذينة، من مقطوعة له في أمالي المرتضى ١: ٤٠٨، ٤٠٩؛ وروايته البيت الأول
 هناك:

* لَقَدْ عَلِمْتُ وما الإشراف من خُلُقي *

أَسْعَى لَهُ فَيَعْنِيَنِي تَطْلُبُهُ وَلَا آخِرَ:	وَلَوْ قَعَدْتُ أَتَانِي لَا يُعْنِيَنِي
لَعَمْرُكَ مَا كُلُّ التَّبْطُلِ ضَائِرٌ إِذَا كَانَتْ الْأَرْزَاقُ فِي الْقُرْبِ وَالتَّوَى وَإِنْ ضِغْتُ فَاصْبِرْ يَفْرُجِ اللَّهُ مَا تَرَى وَلَا آخِرَ:	وَلَا كُلُّ شُغْلٍ فِيهِ لِلْمَرْءِ مَنْقَعَةٌ ^(١) عَلَيْكَ سَوَاءٌ، فَاعْتَنِمِ لَذَّةَ الدَّعَةِ أَلَّا كُلُّ ضَيْقٍ فِي عَوَاقِبِهِ سَعَةٌ
سَهْلٌ عَلَيْكَ فَإِنَّ الْأَمْرَ مَقْدُورٌ يَأْتِي الْقَضَاءُ بِمَا فِيهِ لِمَدَّتِهِ لَا تَكْذِبَنَّ وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدُقُهُ آخِرَ:	وَكُلٌّ مُسْتَأْنَفٌ فِي اللَّوْحِ مَسْطُورٌ ^(٢) وَكُلٌّ مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَمَحْظُورٌ إِنَّ الْحَرِيصَ عَلَى الدُّنْيَا لِمَغْرُورٌ
لَا يُتَعَبَّنَكَ شَيْءٌ أَنْتَ تَطْلُبُهُ وَلَا آخِرَ:	وَقَدْ تَقَدَّمَكَ الْمَقْدُورُ وَالْقَلَمُ
لَا تَعْتَبِنَنَّ عَلَى الْعِبَادِ فَإِنَّمَا وَلَا آخِرَ:	يَأْتِيكَ رِزْقُكَ حِينَ يُؤْذَنُ فِيهِ
هِيَ الْمَقَادِيرُ تَجْرِي فِي أَعْنَتِهَا يَوْمًا تَرِيشُ خَسِيسَ الْقَوْمِ تَرْفَعُهُ وَلَا آخِرَ:	فَاصْبِرْ فَلَيْسَ لَهَا صَبْرٌ عَلَى حَالٍ ^(٣) دُونَ السَّمَاءِ، وَيَوْمًا تَخْفِضُ الْعَالِي ^(٤)
اصْبِرْ عَلَى زَمَنِ جَمٍّ تَلَوْنُهُ تَلْقَاهُ بِالْأَمْسِ فِي عَمِيَاءٍ مُظْلِمَةٍ وَلَا آخِرَ:	فَلَيْسَ مِنْ شِدَّةٍ إِلَّا لَهَا فَرْجٌ ^(٥) وَيُضْبِحُ الْيَوْمَ قَدْ لَاحَتْ لَهُ السُّرُجُ
أَلَا رَبِّ رَاجِي حَاجَةٍ لَا يَنَالُهَا	وَأَخْرَقْتُ تَقْضَى لَهُ وَهُوَ آيَسٌ ^(٦)

(١) المحاسن والأضداد ١٧٠.

(٢) المحاسن والأضداد ١٧٠.

(٣) كذا في ل، وفي ك والمحاسن والأضداد ١٧١: «دع المقادير».

(٤) ل: «خسيس القدر».

(٥) المحاسن والأضداد ١٧١: «جم نوائيه».

(٦) المحاسن والأضداد ١٧١ من غير نسبة.

يَجُولُ لَهَا هَذَا، وَتُقْضَى لغيرِهِ
وَلَا خَر:

أَتَطْلُبُ رِزْقَ اللَّهِ مِنْ عِنْدِ غَيْرِهِ
وَتَرْضَى بَصْرَافٍ وَإِنْ كَانَ مُشْرِكًا
كَأَنَّكَ لَمْ تَفْنَعْ بِمَا فِي كِتَابِهِ
وَلَا خَر:

إِنِّي لِأَكْرِمُ نَفْسِي أَنْ أَدْنَسَهَا
وَاللَّهُ ضَامِنٌ رِزْقِي مَا حَيِّتُ وَمَا
إِنِّي رَأَيْتُ سَوَالَ اللَّهِ مَكْرَمَةً
بَشَيْنَ عِرْضِي وَبَذَلَ الْوَجْهَ لِلنَّاسِ
فِي ضَمْنِ ذِي الْعَرْشِ مِنْ شَكٍّ وَلَا بَاسٍ
وَفِي سَوَالِ سِوَاهُ أَعْظَمُ الْيَاسِ



قِيلَ: وَوُجِدَ فِي بَعْضِ خَزَائِنِ مَلُوكِ الْعَجَمِ لَوْحٌ مِنْ حَجَارَةٍ فِيهِ مَكْتُوبٌ: كُنْ لِمَا
تَرْجُو أَرْجَى مِنْكَ لِمَا تَرْجُو، فَإِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ خَرَجَ يَقْتَبِسُ نَارًا فَنُودِيَ بِالنُّبُوَّةِ.
وَأُنْشِدَ:

وَلَمَّا أَنْ عَيِّتُ بِمَا أَلَا قِي
ذَكَرْتُ اللَّهَ لَا أَرْجُو سِوَاهُ
وَأَعَيَّنِي الْمَسَائِلُ بِالْقُرُوضِ^(١)
وَرُبُّ الْعَرْشِ ذُو فَرْجٍ عَرِيضٍ
وَلَا خَر:

يَا صَاحِبَ الْغَمِّ؛ إِنْ الْغَمَّ مَنْقِطَعٌ
الْيَأْسُ يَقْطَعُ أَحْيَانًا بِصَاحِبِهِ
إِذَا ابْتُلِيَتْ فَتَقُّ بِاللَّهِ وَارْضَ بِهِ
وَلَا خَر:

كَمْ رَأَيْنَا مِنْ صَحِيحٍ قَدْ هَوَى
لَا تَكُنْ إِنْ رَابَ أَمْرٌ آيَسًا
وَأَخِي سُقْمٌ مِنَ السَّقَمِ خَرَجَ
فَلَعِنْدَ الْيَأْسِ يَأْتِيكَ الْفَرْجُ
وَلَا خَر:

وَإِذَا تُصِيبُكَ مِنَ الْحَوَادِثِ نَكْبَةٌ
فَاصْبِرْ، فَكُلُّ ضَبَابَةٍ تَتَكَشَّفُ^(٢)

(١) ط: «والقروض»، وما أثبتته من المحاسن والأضداد ١٧١.

(٢) المحاسن والأضداد ١٧٢: «فكل بلية».

مساوىء طلب الرزق

لديك الجن :

أحل وأمرز معاً، ولين تارةً واخـ
وأغث واستغث بربك في الأز
لا تقف للزمان في منزل الضي
وأهـن نفسك الكريمة للـمـو
فلعمري للموت أزين للحر
أي ماء يدور في وجهك الحـ
ثم لا سيما إذا عصف الدـهـ
غاضت المكرمات وانقرض النـا
فقليل من الوري من تراه
وكذاك الهلال أول ما يبـ
ثم يزداد ضوءه فتراه
عاد تدميثك المضاجع للجنـ
وأدرع يلمق اجتياح دجى الليـ
عاملي التتاج تطوى له الأز
جرشع لاحق الأياطل كالأعـ
واتخذ ظهره من الذل حصناً

شـن ورش واثن، وانتدب للمعالي
ل إذا جـلـحـت صـرـوف الليالي^(١)
م ولا تستكن لرقـة حال
ت وقـحـم بها على الأهوال
من الذل ضارعا للرجال^(٢)
ر إذا ما امتهنته بالسؤال
ر بأهل التدى وأهل التوال
س وبادت سحائب الإفضال
يـرـتـجى، أو يصون عـرضاً بمال
دو نحيلاً في دقة الخلخال^(٣)
قـمـراً في السـمـاء غير هلال
ب؛ فعال الخريدة المكسال
ل بطرف مضبر الأوصال^(٤)
ض إذا ما استعد لأنقال
فـرـصـافي السبب غير مـذال^(٥)
نعم حصن الكريم في الزلزال!

(١) ك: «أعن واستعن»، والأزل: الشدة.

(٢) ك: «أزين بالحر».

(٣) ل: «عندما يبدو».

(٤) اليلق: القباء المحشو، والطرف: الكريم من الخيل، والمضبر: المكتنز اللحم.

(٥) الجرشع: العظيم من الإبل، والأياطل: جمع أياطل؛ وهو مجتمع الأضلاع. ولاحق الأياطل: ضامرهما. والسبب من الفرس: شعر العرف، وغير مـذال، أي ذيله قصير.

لا أحبُّ الفتى أراه إذا ما
 مُستكيناً لذي الغنى خاشع الطَّرْ
 أين جوبُّ البلاد شرقاً وغرباً
 واعتراضُ الرِّقاق يوضع فيها
 عضُّ الدهرُ جاثماً في الضَّلال
 ف ذليلُ الإِدبار والإقبال
 واعتسافُ السُّهول والأجبالِ!
 بظباءِ النَّجاد والعمَّالِ!
 ف، وإلا فمُت شديد الهُزال
 ذهبَ الناسُ فاطلبِ الرزق بالسَّيِّ

محاسن استصلاح المال

رُوِيَ عن عبد الله بن جعفر، قال: بعثني عليُّ بن أبي طالب إلى حكيم بن حزام^(١)، يسأله سَلَفَ ثلاثين ألف درهم، فأتَيْتُهُ فانْطَلَقَ بي إلى منزله، فوجد في الطريق صُوفاً فأخذه، ومَرَّ بقطعة كِسَاء فأخذها، فلما صار إلى منزله أعطاني طَرَف الصُّوف، فجعلتُ أَفْتِلَهُ ويُرسِل حتى قَتَلْتُهُ، ثم دعا بغيرارة مخرقةٍ فرفعها بالكِسَاء، وخاطها بالخَيْط، وصيّرَ فيها ثلاثين ألف درهم، وحملتُ معي.



قال: وأتى قومٌ قيسَ بن سعد بن عبادة، يسألونه في حِمالة، فصادفوه في حائط^(٢) له يتتبع ما يسقط من الثَّمَر، فيعزل جيده عن رديئه، ويجعل كلَّ صِنْف منها على حدِّته. فهمّوا أن يرجعوا عنه، وقالوا: ما نظنّ عند هذا خيراً. ثم عَزَمُوا على لقائه، فأقاموا حتى فرغ من حائطه فكلّموه فأعطاهم، فقال رجل من القوم له: لقد رأيناك تصنع شيئاً لا يُشَبِّهُ فعَالَكَ، وأخبروه. فقال: إنّ الذي رأيتم من صنيعي قَضَيْتُ به حاجتكم.



عبد العزيز بن أبان، عن هشام الثَّقَفِيّ، عن رجل أتى طلحة بن عبيد الله يسأله حِمالةً، فرآه يَهْنَأُ بغيراً له، فقال: يا غلام، أخرج له بَدْرَةً، فقبضَها، ثم قال: أردت أن أنصرف حين رأيته تَهْنَأُ^(٣) البعير! فقال: إنّنا لا نضيّع الصغير، ولا يتعاضدُنا الكبير.

وكان يقال: مَنْ أنفق ولم يحسب، عَطِبَ ولم يَشْعُر.

وقيل: الإفلاس سوءُ التدبير.

الأصمعيّ؛ قال: سمعتُ بعض المهلبيين^(٤) يقول لبنيه: لا تشتروا الغنم؛

(١) ك: «ابن خويلد».

(٢) الحائط هنا: البستان.

(٣) هنأ البعير: طلاه بالهناء، وهو القطران.

(٤) ط: «الهالبين».

فإنها مال الرِّقَّة^(١)، ولا تشتروا البقر؛ فإنها مال الذَّلَّة، واشتروا الإبل واقتنوها؛ فإنها رَقْوُ الدَّم، وصدقات الحرائر، وسُفْنُ البرِّ، وفيها قضاء الحقوق. ولا تتزوّجوا المُمِيتات، فإنَّهنَّ يضربن على رؤوسكم مَنْ كان قبلكم، وتزوّجوا المطلّقات؛ فإنهن أضعف نفساً، وإنَّكم تضربون على رؤوسهنَّ مَنْ كان قبلكم.

وقال بعضهم في جمع القليل إلى القليل:

رُبَّ كَبِيرٍ هَاجَهُ صَغِيرٌ وفي البحور تَغَرَّقُ البحور
وقال آخر:

قَدْ يَلْحَقُ الصَّغِيرُ بِالْجَلِيلِ وَإِنَّمَا الْقَرْمُ مِنَ الْأَفِيلِ^(٢)
وَسُحْقُ النَّخْلِ مِنَ الْفَسِيلِ^(٣)

(١) في اللسان: «يقال في حاله رقق ورقة، أي قلة».

(٢) الأفيل: صغير الإبل، والقرم: الفحل منها.

(٣) سحق: جمع سحق، بالفتح؛ وهي النخلة الطويلة، والفسيل: جمع فسيلة؛ وهي النخلة الصغيرة تقلع من الأرض أو تقطع من الأم فتغرس.

محاسن الدين

قيل: قديم رجل مع إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة، وهو على قضاء البصرة، فأقام أكثر من سنة متعطلاً، فكثُر عليه الدين لرجل من أهل البصرة، فتوَعَّدَه أن يقدِّمه إلى القاضي، فأتى الرجل إسماعيل فأخبره بما تخوفه من حبس الرجل إياه؛ فقال: إذا قدِّمك فأقِرَّ له بحقه، ثم قل: أبيع داري وأقضيه، فإنه سيقول: لا دار لك؛ قل: فأبيع دابتي وضيعتي، فإنه سينكر أن يكون لك شيء. ففعل، فجرى بينهما ما قاله القاضي، فقال القاضي: قد أقررت أنه لا شيء له، فكيف أحبسه! فخلَّى سبيله.



قال: وكان لرجل من التجار صاحب عينة^(١) على رجل من الجند مالاً، فخرج عطاء الجند ولم يقض صاحبه، فأرسل إليه التاجر غلاماً يلزمه، وعلى الغلام كساء أحمر فلزمه. فجعل الرجل يتلو: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٠]. والغلام يتلو: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [سورة النساء: ٥٨]. فلما طال ذلك على الرجل، واشتدَّ إلحاح الغلام عليه، أتى صاحبه فقال: مُنِعَ الرُّقَادُ فَمَا أَعْمَضُ سَاعَةً من غمّ تعذيب الكساء الأحمر يتلو التي فيها الأمانة منهما لؤماً، وأتلو آية المتيسر فضحك الرجل، ووهب له ما كان عليه من دينه.

(١) العينة: خيار المال، وفي ك: «يمنة».

مساوىء الدين

قال أبو اليقظان: كان الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب الشاعر يسلف الناس، فإذا حلّ ماله ركب حماراً^(١) اسمه «شارب الريح»، فيقف على غرمائه ويقول:

بني عمنا ردّوا الدراهم إنّما يفرّق بين الناس حُبّ الدراهم



وكان رجل من بني الدئل عسر القضاء، فإذا تعلّق به غرماؤه فرّ منهم، وقال:
فلو كنت الحديد لكسروني ولكنني أشدّ من الحديد
فأقرضه الفضل بن العباس، فلما كان قبل المجلّ^(٢) جاء فبني مغلّفاً على باب داره، وكان يقال له: «عقرب»، فلقي كل واحد منهما من صاحبه شدة، فهجاه، فقال:

يا عجباً للعقرب التاجرة!	قد تجرّت في سوقنا عقرب
ليس لها دنيا ولا آخرة	قد ضاقت العقرب واستيقنت
وكانت النعل لها حاضرة	فإن تعدّ ترجع بما ساءها
وتتقى شرّتها دابرة	كلّ عدوّ يتقى مقبلاً
لغير ذي كيد ولا بادرة ^(٣)	إنّ عدوّا كيده في إسته



قال: وقدم أعرابيان غريماً لهما إلى قاض، فحلف ثم قال:
ألم تعلم أنّي طموحٌ عنائهُ وأنّي لا يقضي عليّ أميرُ
طمستُ الذي في الصكّ منّي بحلفَةٍ سيغفرها الرحمن وهو غفورُ

(١) ك: «حماراً له».

(٢) المحل، بكسر الحاء: وقت حلول الدين، وفي ك: «الموعد».

(٣) الخبر والأبيات في الأغاني ١٥: ٧ (ساسي) مع اختلاف في الرواية.

ولآخر:

أرى الغرماء قد كُثروا وضُجُّوا إلى السلطان غيرَ مُقَصِّرِينَا
فإن سألوا اليمينَ فقد ربحْنَا وإن سألوا الشهودَ فقد خزِينَا

ولآخر:

الدَّيْنُ حقاً كاسمه دَوِيٌّ قد يخضعُ المرءُ له القويُّ
كم من شريفٍ غَاظَهُ غَبِيٌّ

محاسن إصلاح البدن

قال: جَمَعَ الرشيدُ أربعةً من الأطباء: عراقياً، ورومياً، وهندياً، وسوادياً، فقال: ليصف كل واحد منهم الدواء الذي لا داء فيه. فقال الرومي: الدواء الذي لا داء فيه حبُّ الرِّشاد الأبيض. وقال الهندي: الماء الحار. وقال العراقي: الإهليلج الأسود.

وكان السَّواديُّ أبصرهم، فقال له: تكلم، فقال: حبُّ الرِّشاد يولِّد الرطوبة، والماء الحارَّ يرخي المعدة، والإهليلج يُرِقُّ المِعْدة. قال: فأنت ما تقول؟ قال: الدواء الذي لا داء فيه أن تقعد على الطَّعام وأنت تشتهيهِ، وتقوم عنه وأنت تشتهيهِ.



وقال بعضهم: سألتُ أسقفَ فارس، فقلت: إنَّا قوم نغترب وتتغيَّر علينا المياه، فصف لنا ما نتعالج به، فقال: دعوا الأدوية، وعليكم بالأغذية، وما يخرج من الضَّرْع والنَّحْل، وعليكم بأكل اللحم، وشرب ماء الكَرَم ودخول الحمام، ولبس الكتان.

وعن الهيثم بن عدي قال: قلت لثيادوق - وكان متطبِّب الحجاج: أوصني بشيء أحفظه عنك فإنِّي مسافر، فقال: لا تنامنَّ حتى تعرِّض نفسك على الخلاء، ولا تذوقن طعاماً وفي معدتك طعام، واتق ما تُخرجه النعجة والنَّحْلَة، فإن اعتلتت فأنا الضَّمين، إلَّا علَّة الموت.

وقال سُودة: سألت بُخْتِشُوع: ما معنى البلغم؟ فقال: تفسيره «بلاء وغم».

وقال بعض الفلاسفة: ينبغي للعاقل أن يتَّقِيَ البرد في أوَّل الشتاء وفي آخره، فقليل له: ففي وَسْطه؟ قال: ذاك يتَّقِيه العاقل والأحمق!



قيل: وأوصى بعض الحكماء ولده فقال له: إياك أن تسير شبراً من الأرض

وأنت تحاف؛ ولا تذوقن نبتة ولا تشمتنّها حتى تعرفها، وإياك وأن تبول في شقّ الأرض فتخرج منه عليك داهية، ولا تشرب من فم قرّبة ولا إداوة حتى يكون الماء معيناً، واحذر مرافقة المَعْرِفة، ومن لا تعرف فلا تصاحب، وإياك والسجود على بارية^(١) جديدة حتى تمسحها بكمك، فربّ شظية حقيرة فقأت عيناً خطيرة، ولا تنظرن في بئر عادية^(٢)، ولا تشهدن من الحيوان الكبار ما هو في النزع، واقلن وصيتي ترشّدن، ولا تدعها فتندم.



قيل: ودخل أعرابي ذو كدنة^(٣) على معاوية بن أبي سفيان فأعجبه، فقال: يا أعرابي، ممّ هذا السمن؟ قال: لا أكل حتى أجوع، وأستوثق من أطرافي في الشتاء، وأغفل غاشية الهجر^(٤).

وقال بعض الفلاسفة: اخضع للرّيح خضوعك للملك، وجاهد البلغم مجاهدة عدوك، ودار المِرّة مداراتك صديقك، وأنزل دمك في السنة مرّة أو مرتين، وروّ مشاشك من ماء لحوم الطير، وعليك بالشراب الأصفر فإنّه حليف الروح.



وذكر أبو الحسين محمد بن أحمد بن يحيى بن أبي البغل، عن أحمد بن أبي الأصبغ^(٥) - وكان كاتباً لأحمد - عن يحيى بن ماسويه، قال: أكل الفالوذ لصاحب النبيذ عندنا من شرّ الطب.



وقيل: ما من أحدٍ إلّا وفيه أربعة عروق: عرق الجذام، وعرق البرص، وعرق العمى، وعرق الجنون، فإذا تحرّك عرق الجذام، قمعه الله بالزكام فأذهب، وإذا تحرّك عرق البرص سلط الله عليه الدّماميل فأذهبته، وإذا تحرّك عرق الجنون سلط الله عليه البلغم فقطعه، وإذا تحرّك عرق العمى سلط الله عليه الرّمّد فأذهب.



وقد روي عن النبي ﷺ: «لا تكثرهوا أربعاً لأربع: لا تكثرهوا الزكّام؛ فإنه

(١) البارية: الحصيرة.

(٢) البئر العادية: القديمة؛ منسوبة إلى عاد.

(٣) الكدنة: كثرة الشحم.

(٤) الهجر: نصف النهار.

(٥) ك: «أصبغ».

يقطع عرق الجُدام، ولا تَكْرَهُوا السُّعال؛ فإنه يقطع عِرْقَ الفالج، ولا تَكْرَهُوا الرَّمْد؛ فإنه يقطع عرق العَمَى، ولا تَكْرَهُوا الدَّمَامِيل؛ فإنها تقطع عرق البرص». ورُوي عن عليّ رضي الله عنه أنه قال: من ابتدأ غَدَاءَهُ بالملح أذهب الله عنه سبعين نوعاً من السُّوء، وَمَنْ أَكَلَ إحدى وعشرين زبينة حمراء لم يَر في جسده شيئاً يكرهه، وَمَنْ أَكَلَ سَبْعَ ثَمَرَاتِ عَجْوَةٍ، قَتَلَتْ كُلَّ دَابَّةٍ فِي بطنه، واللَّحْمُ والشَّرِيد طعام العرب، والسَّوَاكُ وقراءة القرآن يذهبان بالبلغم، والبقَرُ لحومها داءٌ، وألبانها دواءٌ، وسَمْنُها شفاءٌ. والسَّمَكُ يذيب الجَسَدَ، والشَّحْمُ يخرج مثله من الداء، ولن يتداوى الناس بمثل السَّمْنِ، ولن تستشفى النفساء بمثل الرُّطْبِ، والمرء يسعى بجَدِّه، والسيْفُ يَقْطَعُ بحدِّه، ومن أراد البقاء - ولا بقاء - فليباكر الغداء، وليخفف الرداء، وليقلل من غشيان النساء؛ وخفة الرداء قلة الدين.



قيل: مَنْ بات والهُندَاء في جوفه بات آمناً من الدُّبَيْلَةِ^(١)، وَمَنْ بات والفَجَل في جوفه بات آمناً من البَشَم، ومن بات والكَرْفَس في جوفه بات آمناً من وجع الأضراس، وَمَنْ بات والجِرْجِير في جوفه بات وعروق الجذام تتردد في صدره، ومن بات والكَرَّاث في جوفه بات آمناً من البواسير.



وقال بعض الفلاسفة: لا ينبغي للعاقل أن يستخف بالقليل من ثلاثة أشياء: بالقليل من النَّار، والقليل من السلطان، والقليل من السَّقَم.



وقال أبو هِفَان: حَدَّثَنِي العَبَّاسُ بن المأمون قال: كنت عند المأمون ذات يوم وعنده المؤبَّد، فسأله: ما أنفع الأشياء؟ فقال: الاقتصاد في الطُّعْم^(٢) والشُّرْب؛ فإنَّ كثيره يُثَقِّلُ الجسم، ويوهنُ العلم والفهم، ويكدر صفاء البَشَرَةِ، ويفتح الأدواء، ويخمد نارَ المعدة، ويمحق شرفَ صاحبه. فقال المأمون: لو أسلمت يا مؤبَّد، ولم أستقْصِصْكَ، كنت قد ضيَّعتُ حِجَّةَ الله في أرضه!



الحسنُ بن عليّ بن زيد؛ قال: سمعت عليّ بن الجَعْد يقول: لَمَّا قدم

(١) الدبيلة: داء في الجوف.

(٢) الطعم، بالضم: الطعام.

بُخْتِيشوع الأكبر على أبي جعفر من السُّوسِ، أمر له بالطعام، فلما وُضِعَ بين يديه الخَوَانُ قال: الشراب! قيل له: لا يُشْرَبُ على مائدة أمير المؤمنين؛ قال: لا آكل طعاماً ليس معه شراب، فأخبر أمير المؤمنين بذلك فقال: دَعُوهُ، فلما حضر العشاء فعل به مثل ذلك، فطلب الشراب، ف قيل له: لا يُشْرَبُ على مائدة أمير المؤمنين، فتعشَّى وشَرِبَ ماءً دِجْلَةً، فلما كان الغد نظر إلى مائه فقال: ما كنتُ أحسب شيئاً يجري مجرى الشراب، فهذا ماءٌ دِجْلَةٌ يجري مجرى الشراب - يريد في المنفعة أنه مثله.

مساويء ما يفسد البدن

قال: وقال رجل لعبد الملك بن أبجر: أشتهي أن أمرض، فقال له: كُلْ سَمَكًا مَالِحًا، واشرب نبيذًا حُلُوءًا، واقْعُدْ فِي الشَّمْسِ، واستمرِضِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنْ لَمْ تَمْرُضْ فَأَنْتَ حَمَار!

محاسن الندامة

رُوِيَ عن عائشة رضي الله عنها، أنها دخلت على أم سلمة بعد رجوعها من وقعة الجمل، وقد كانت أم سلمة حلفت ألا تكلمها أبداً من أجل مسيرها إلى محاربة علي بن أبي طالب، فقالت عائشة: السلام عليك يا أم المؤمنين، فقالت: يا حائط، ألم أنهك! ألم أقل لك! قالت عائشة: فإنني أستغفر الله وأتوب إليه، كَلَّمَنِي يا أم المؤمنين، قالت: يا حائط، ألم أقل لك! ألم أنهك! فلم تكلمها حتى ماتت. وقامت عائشة وهي تبكي وتقول: وأسفاه على ما فرط مني!



قيل: وسُئِلَتْ عائشة رضي الله عنها، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فقالت: وما عسيْتُ أن أقول فيه وهو أحب الناس إلى رسول الله ﷺ! لقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ قد جمع شملته على علي وفاطمة والحسن والحسين، وقال: «هؤلاء أهل بيتي، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا»، قيل لها: فكيف سرت إليه؟ قالت: أنا نادمة، وكان ذلك قدراً مقدوراً.



وعن جميع بن عُمير، قال: قلت لعائشة: حدّثيني عن علي رضي الله عنه، فقالت: تسألني عن رجل سالتُ نفسَ رسول الله ﷺ في يده، وولي غسله وتغميضه وإدخاله قبره! قلت: فما حملك على ما كان منك؟ فأرسلت خمارها على وجهها وبكت وقالت: أمرٌ كان قُضِيَ عليّ.



قال: وقال ابن المعافى لأبي مسلم صاحب الدولة: أيُّها الأمير، لقد قمتَ بأمر لا يُقَصَّرُ بك ثوابه عن الجنة، في إقامة دولة بني العباس، فقال: خَوْفِي من النار والله، أولى من الطمع في الجنة، إني أطفأت من أمية جَمْرَةَ، وألهبت من بني العباس نيراناً، فإن أفرخ بالإنطفاء فواحننا من الإلهاب!



وحدّث أبو نملة عن أبيه، قال: سمعت أبا مسلم بعَرَفات في الموقف يقول باكياً: اللَّهُمَّ إِنِّي تائب إليك ممّا لا أظنّ أن تغفره لي! فقلت: أيها الأمير، أيعظم على الله عزّ وجلّ غفرانُ ذنبٍ! فقال: إِنِّي نسجت ثوباً من الظُّلم لا يبلى ما دامت الدّولة لبني العبّاس، فكم من صارخ وصارخة تلعنّني عند تَفاقُم هذا الأمر، فكيف يغفر الله عزّ وجلّ لمن هذا الخلق خصماؤه!

قيل: ولما سَخِطَ عليه المنصور، ووَكَّلَ به شهرام المروزيّ قال له يوماً: الويل لك من الخليفة المنصور! فقال: الويل لي من ربّي! وأين يقع ويلُ ساعةٍ من عذاب الأبد!

مساوىء الندامة

قال : وإلى الكسعي^(١) يُضرب المثل في الندامة ، وذلك أنه كان يرعى إبلاً له بوادٍ كثير العُشب ، فبينما هو كذلك إذ بَصُرَ بَنَبْعَةٍ^(٢) في صخرة ، فأعجبته فقال : ينبغي أن تكون هذه قَوْساً ، فجعل يتعهدها حتى إذا أدركت قطعها وجففها واتخذ منها قَوْساً ، فأنشأ يقول :

يا رَبِّ وَفَّقْنِي لِنَحْتِ قَوْسِي فَإِنَّهَا مِنْ لَذَّتِي لِنَفْسِي
وَانْفَعْ بِقَوْسِي وَلَدِي وَعَرْسِي أَنْحُتُهَا صَفَرَاءَ مِثْلِ الْوَرَسِ
صَفَرَاءَ لَيْسَتْ كَقِسِّي النَّكْسِ^(٣)

ثم دهنها وخطمها بوتر ، ثم عمَد إلى ما كان من بُرايتها ، فجعل منه خمسة أسهم ، فجعل يقلبها في كفه ويقول :

هُنَّ وَرَبِّي أَشْهُمٌ حِسَانُ تَلَذُّ لِلرَّامِي بِهَا الْبِنَانُ
كَأَنَّمَا قَوْمُهَا الْمِيزَانُ فَأَبْشِرُوا بِالْخُصْبِ يَا صَبِيانُ
إِنْ لَمْ يَعْقُنِي الشُّؤْمُ وَالْحِرْمَانُ

ثم خرج حتى أتى مواردَ حُمُرِ الوحش فكَمَنَ فيها ، فمرَّ قطيع منها ، فرمى غيراً فأمْخَطَهُ^(٤) السهم حتى جازه وأصاب الجبل ، فأورى ناراً ، فظنَّ أنه أخطأ فقال :

أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الرَّحْمَنِ مِنْ نَكْدِ الْجَدِّ مَعَاً وَالْحِرْمَانِ
مَالِي رَأَيْتُ السَّهْمَ بَيْنَ الصَّوَّانِ يَوْرِي شَرَاراً مِثْلَ لَوْنِ الْعَقِيَانِ
فَأَخْلَفَ الْيَوْمَ رَجَاءَ الصَّبِيَانِ

ثم مكث على حاله ، فمرَّ به قطيعٌ آخر ، فرمى غيراً منها فأمْخَطَهُ السهم ، فصنع صنيعَ الأوَّل ، فقال :

(١) في مجمع الأمثال عن حمزة : «هو رجل من كسع واسمه محارب بن قيس» .

(٢) النبعة : واحدة النبع ؛ وهو شجر تتخذ منه القسي ، ومن أغصانه السهام ، ينبت في قلة الجبل .

(٣) ط : «صلباء» ، وما أثبتته من مجمع الأمثال .

(٤) مجمع الأمثال : «أي أنفذه فيه وجازه» .

لا بَارَكَ الرَّحْمَنُ فِي رَمِي الْقَتَرِ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْ سُوءِ الْقَدَرِ
أَمَخَطَ السَّهْمُ لِإِرْهَاقِ الضَّرَرِ أَمْ ذَاكَ مِنْ سُوءِ احْتِيَالٍ وَنَظَرٍ!
ثم مكث على حاله، فمرّ به قطيع آخر فرمى غيراً منها؛ فأمخطه السهم، فقال:

ما بال سهمي يوقدُ الحُبَّاجِبَا قد كنتُ أرجو أن يكون صائبَا
وأمكن العَيْرُ وأبدى جانبَا فصار رأيي فيه رأياً خائباً^(١)
ومكث مكانه، فمرّ به قطيع آخر، فرمى غيراً منها، فأصرد^(٢) السهم، فصنع صنيع الأول فقال:

أبعدَ خمسٍ قد حفظتُ عدّها أحملُ قَوْسِي وأريدُ رَدّها
أخزى الإلهَ لينها وشدّها واللّه لا تسلمُ عندي بعدّها
ولا أرجي ما حييتُ رفدّها
ثم عمَدَ إلى القوس فضرب بها حجراً فكسرهما، ثم بات، فلما أصبح إذ الحمُرُ مطرحةٌ حوله، وأسهمهُ مضرجةٌ بالدم، فندم على كسر قوسه، وشدّ على إبهامه فقطعها، وأنشأ يقول:

ندمتُ ندامةً لو أن نفسي تطاوعني إذا لقطعتُ خمسي
تبين لي سفاه الرأي مني لعمرُ أبيك حين كسرتُ قوسي
وقال الفرزدق:

ندمتُ ندامةً الكسعي لما غدت مني مطلقةً نواز^(٣)
وكانت جتتي فخرجت منها كآدم حين لجّ به الضرارُ



ومنه ما قيل في خُفْي حُنين، وكان حُنين إسكافاً من الحيرة، فساومه أعرابيٌّ بخفيّه، واختلفا في ذلك حتى أغضبه، فأراد أن يغيب الأعرابي، فلما ارتحل أخذ

(١) في مجمع الأمثال: «ثم مكث مكانه؛ فمرّ به قطيع آخر، فرمى غيراً منها، فصنع صنيع الثالث، فأنشأ يقول:

يا أسفاً للشؤم والجد النكد أخلف ما أرجو لأهلٍ وولد
(٢) أصرد: أخطأ.

(٣) ديوانه ٣٦٣، وانظر: مجمع الأمثال ٢: ٣٤٨، ٣٤٩.

حُنين الحُفَّين، فألقى أحدهما على الطريق، وألقى الآخرَ في موضع آخر من طريقه، فلما مرَّ الأعرابيُّ رأى أحدهما، فقال: ما أشبه هذا بخفِّ حُنين! ولو كان معه أخوه نزلتُ فأخذه، ومضى. فلما انتهى إلى الآخر ندم على ترك الأول، وأناخ راحلته، فأخذه ورجع إلى الأول، وقد كمن له حُنين، فعمدَ إلى راحلته، فذهب بها وما عليها، وأقبل الأعرابيُّ وليس معه إلا الحُفَّان، فقال له قومه: ما الذي أتيت به؟ قال: أتيتُ بخفِّ حُنين، فضربتُه العرب مثلاً، وقال الشاعر في مثله:

لَتَقْرَعَنَّ عَلَيَّ السَّنُّ مِنْ نَدَمٍ إِذَا تَذَكَّرْتَ يَوْمًا بَعْضَ أَخْلَاقِي^(١)

(١) مجمع الأمثال ٢: ٢٧٢، المفاهر ٩٧.

محاسن الحنين إلى الوطن

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ [سورة النساء: ٦٦]؛ فَقَرَنَ جُلَّ ذِكْرِهِ الْجَلَاءَ عَنِ الْوَطَنِ بِالْقَتْلِ، وَقَالَ جُلَّ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نُفْتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ [سورة البقرة: ٢٤٦]، فَجَعَلَ الْقِتَالَ ثَأْرًا لِلْجَلَاءِ.

وقال النبي ﷺ: «الخروج عن الوطن عقوبة».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لولا حُبُّ الوطنِ لخرب بلدُ السَّوءِ.

وكان يقال: بحبِّ الأوطانِ، عُمرت البلدان.

وقال جالينوس: يتروَّح العليل بنسيم أرضه، كما تتروَّح الأرض الجدبة ببَلَلِ المطر.

وقال بُقْرَاط: يداوَى كلَّ عليل بعقاقير أرضه، فإن الطبيعة تنزع إلى غذائها.

ومما يؤكِّد ذلك قولُ أعرابيٍّ وقد مرض بالحُمرة^(١)، فقال له قائل: ما تشتهي؟ قال: مَحْضًا^(٢) رَوِيًّا وَضَبًّا مَشْوِيًّا.

وحدَّث عن بعض بني هاشم قال: قلت لأعرابيٍّ: من أين أُقْبِلْتُ؟ قال: من هذه البادية، قلتُ: وأين تسكن منها؟ فقال: مساقط الحمى، حِمَى ضَرِيَّة^(٣) هالِعمَرِ اللّهِ ما نُريد بها بدلاً، ولا نبغي عنها حَوَلاً، نَفَحَتْهَا الْقَدَوَاتُ^(٤) وَحَقَّتْهَا الْقَلَوَاتُ، فلا يعلولج^(٥) ترابُّها، ولا يتمعر^(٦) جنابُّها،

(١) ط: «الحضرة»، تصحيف. والحمرة من الأدواء المعروفة.

(٢) المحض: اللبن الخالص.

(٣) ضرية: قرية في طريق مكة من البصرة.

(٤) القداء: الرائحة الطيبة.

(٥) ياقوت: «يملولح».

(٦) لا يتمعر: لا يجذب.

ولا يملولح ماؤها، ليس بها أذى ولا قذى، ولا موم، فنحن فيها بأزفه عيش، وأنعم معيشة وأرغد نعمة!

قلت: فما طعامكم؟ قال: بخ بخ، عيشنا عيشٌ تعلل جاذبه، وطعامنا أطيّب طعام وأهّنؤه وأمرؤه: الفت^(١)، والهيبد^(٢)، والصليب^(٣) والعنكث^(٤) والعلهز^(٥) والذآنين^(٦)، والينمة^(٧)، والعراجين^(٨)، والحسلة^(٩)، والضباب واليرابيع والقنافذ والحيّات، وربّتما واللّه أكلنا القيد، واشتوينا الجلد، فما نعلم أحداً أخصب منا عيشاً ولا أرخي بالاً، ولا أعمر حالاً، أو ما سمعت قول الشاعر، وكان واللّه بصيراً برقيق العيش ولذيذه؟ قلت: وما قال؟ قال: قوله:

إذا ما أصبنا كل يوم مذيقةً وخمس تُميراتٍ صغارٍ كوانز^(١٠)
فنحن ملوك الناس خصباً ونعمة^(١١) ونحن أسود الناس عند الهزاهز
وكم مُتمنّ عيشنا لا يناله ولو ناله أضحى به حقّ فائز!
فالحمد لله على ما بسط من حسن الدعة ورزق من السعة، وإياه نسأل تمام النعمة^(١٢).



وقيل لأعرابي: كيف تصنع بالبادية إذا انتصف النهار. وانتعل كل شيء ظلّه؟ وهل العيش إلا ذاك! يمشي أحدنا ميلاً فيرفض عرقاً كأنّه الجُمان، ثم ينصب

(١) الفت: حب بري يأكله أهل البادية عام القحط بعد دقه وطبخه.

(٢) الهيبد: الحنظل.

(٣) الصليب: الودك.

(٤) العنكث: نبت يشتهي الضب.

(٥) العلهز: دم القراد والوبر يخلط ويشوى ويؤكل زمن الجذب.

(٦) الذآنين: نبت تنشق عنه الأرض فيخرج مثل سواعد الرجال لا أوراق له.

(٧) الينمة: نبت من أحرار البقول ينبت في السهل له أوراق طوال لطاف محدب.

(٨) العراجين: نوع من الكمأة.

(٩) الحسلة: جمع حسل؛ وهو ولد الضب.

(١٠) معجم البلدان: «كنائز».

(١١) معجم البلدان: «فنحن ملوك الناس شرقاً ومغرباً».

(١٢) الخبر في معجم البلدان ٥: ٤٣٣، ٤٣٥.

عصاه، ويُلقِي عليها كساءه، وتقبل عليه الرِّيح من كلِّ جانب، فكأنَّه في إيوان كسرى.

ذَكَرَ مِنْ اخْتَارَ الْوَطْنَ عَلَى الثَّرْوَةِ

قال بعض الأدباء: عُسْرُكَ فِي بَلَدِكَ؛ خَيْرٌ مِنْ يُسْرِكَ فِي غُرْبَتِكَ.
وقيل لأعرابيٍّ: ما الغبطة؟ قال: الكفاية، ولزوم الأوطان، والجلوس مع الإخوان. قيل: فما الذَّلَّةُ؟ قال: التنقُّل في البلدان، والتنحِّي عن الأوطان.

وقال بعض الأدباء: الغربة ذِلَّةٌ، فَإِنْ رَدِفَهَا عِلَّةٌ، وَأَعَقَبَتْهَا قِلَّةٌ، فَتَلِكْ نَفْسٌ مَضْمَحَلَّةٌ.

وقالت العرب: الغربة ذِلَّةٌ، وَالذَّلَّةُ قِلَّةٌ.

وقال آخر: لَا تَنْهَضْ عَنْ وَكْرِكَ فَتَنْقُصَكَ الْغُرْبَةُ، وَتَضْيِمَكَ الْوَحْدَةُ.



وشبَّهت العرب والحكماء الغريبَ باليتيم اللَّطِيم الذي ثكل أبويه؛ فلا أُمَّ تَرَأَى لَهُ، وَلَا أَبَ يَحْدُبُ عَلَيْهِ.

وكان يقال: الجالي عن مَسْقَطِ رَأْسِهِ كَالْعَيْرِ النَّاشِزِ عَنْ مَوْضِعِهِ، الَّذِي هُوَ لِكُلِّ سَبْعٍ فَرِيصَةٌ، وَلِكُلِّ كَلْبٍ قَنِيصَةٌ، وَلِكُلِّ رَامٍ رَمِيَّةٌ.
وكان يقال: الغريب عن وطنه ومحلِّ رِضَاعِهِ، كَالْغُرْسِ الَّذِي زَايَلَ أَرْضَهُ، وَفَقَدَ شَرَبَهُ، فَهُوَ ذَاوٍ لَا يُثْمِرُ، وَذَابِلٌ لَا يَنْضُرُ، وَأُنْشِدَ:

وَمُغْتَرِبٍ بِالْمَرْجِ يَبْكِي لَشَجْوِهِ وَقَدْ غَابَ عَنْهُ الْمُسْعِدُونَ عَلَى الْحَبِّ
إِذَا مَا أَتَاهُ الرُّكْبُ مِنْ نَحْوِ أَرْضِهِ تَنْفَسَ يَسْتَشْفِي بِرَائِحَةِ الرُّكْبِ
آخر:

إِذَا مَا ذَكَرْتُ الثَّغْرَ فَاضْتُ مَدَامِعِي وَأَضْحَى فَوَادِي نُهْبَةً لِلْهَمَاهِمِ
حَنِيناً إِلَى أَرْضٍ بِهَا اخْضَرَ شَارِبِي وَحَلَّتْ بِهَا عَنِّي عَقُودُ التَّمَائِمِ
وَأَلْطَفُ قَوْمٍ بِالْفَتَى أَهْلُ أَرْضِهِ وَأَرْعَاهُمْ لِلْمَرْءِ حَقَّ التَّقَادِمِ
وآخر:

أَجِنُّ إِلَى أَرْضِ الْحِجَازِ وَحَاجَتِي خِيَامٌ بِنَجْدٍ دُونَهَا الطَّرْفُ يَقْصُرُ

وما نظري من نحو نجدٍ بنافعي
أفي كل يوم نظرة ثم عبرة
متى يستريح القلبُ إمّا مجاورُ
الطائي:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى
كم منزل في الأرض يألفه الفتى
ما الحبُّ إلّا للحبيبِ الأول
وحنيئُهُ أبداً لأوّل منزل!

مَسَاوِيءُ مَنْ كَرِهَ الْوَطْنَ

قال بعضُ الفلاسفة: اطلبُوا الرِّزْقَ في البُعد، فَإِنَّكُمْ إِن لَّمْ تَكْسِبُوا مَالاً، غَنِمْتُمْ عَقْلاً كَثِيراً.

وقال آخَرُ: لَا يَأْلَفُ الْوَطْنَ، إِلَّا ضَيِّقُ الْعَطَنِ.

وقيل لآخر: مَا أَصْبَرَكَ عَلَى الْغُرْبَةِ؟ فقال: أُنِسْتُ بِالنَوَائِبِ حَتَّى مَا أَعْرِفُ غَيْرَهَا، وَغُذِيتُ بِالمَكَارِهِ فَمَا أَجِدُ ضَيْرَهَا.

ومدح أعرابيُّ رجلاً فقال: خَرَجْتُهُ الْغُرْبَةَ، وَدَرَّبْتُهُ التَّجْرِبَةَ، وَضَرَسْتُهُ النَوَائِبَ.

وقال آخَرُ: مَا حَنَّ أَحَدٌ إِلَى بَلَدٍ لَا جَمْعَ فِيهِ شَمْلُهُ إِلَّا لَوْصَمَةٍ فِي عَقْلِهِ، وَلَا تَنْزَعَ نَفْسُهُ إِلَى بَلَدٍ قَلَّ بِهِ رِفْدُهُ، إِلَّا لَاسْتِيلاءِ الْمُوقِ عَلَيْهِ.

وقيل لآخر: مَا الْعَيْشُ؟ فقال: دَوْرَانِ الْبُلْدَانِ، وَلِقَاءُ الْإِخْوَانِ، وَمَغَاذِلَةُ الْقِيَانِ، وَاسْتِمَاعُ الْأَغَانِي وَالنِّعَمَاتِ مِنَ الزَّيْرِ^(١) وَالْمِثْنَانِي^(٢).

وقد قيل: مَنْ صَبَرَ عَلَى الْغُرْبَةِ أَمِنَ الْكُرْبَةَ، وَأَفْضَلَ الْعُدَّةَ، الصَّبْرُ عَلَى الشَّدَةِ.

وقالوا: لَا تَوْحِشَنَّكَ الْغُرْبَةُ إِذَا أُنِسْتَ بِالكِفَايَةِ، وَلَا تَجْزَعْ لِفِرَاقِ الْأَهْلِ مَعَ لِقَاءِ الْيَسَارِ.

وقيل: الْفَقِيرُ فِي الْأَهْلِ مَضْرُومٌ، وَالْغَنِيُّ فِي الْغُرْبَةِ مُوصُولٌ.

وقيل: أَوْحِشْ قَوْمَكَ مَا كَانَ فِي إِحْشَاهُمْ أَنْسُكَ، وَاهْجُرْ وَطَنَكَ مَا نَبَتْ عَنْهُ نَفْسُكَ.

وقرىء على بابِ خَانِ بَطْرَسُوسَ:

مَا مِنْ غَرِيبٍ وَإِنْ أَبْدَى تَجَلُّدَهُ إِلَّا تَذَكَّرَ عِنْدَ الْغُرْبَةِ الْوَطْنَ

(١) الزير: الدقيق من الأوتار.

(٢) المثنائي من أوتار العود: ما بعد الأول، واحده مثنى.

وأسفله مكتوب :

أَيُّرُ الْحِمَارِ وَأَيُّرُ الْبُعْلِ فِي الْقَرْنِ فِي اسْتِ الْغَرِيبِ إِذَا مَا حَنَّ لِلْوَطَنِ
الطَائِي :

لَا يَمْنَعُنْكَ خَفْضُ الْعِيشِ تَطْلُبُهُ نِزَاعُ شَوْقٍ إِلَى أَهْلٍ وَأَوْطَانٍ
تَلْقَى بِكُلِّ بِلَادٍ إِنْ حَلَلْتَ بِهَا أَهْلًا بِأَهْلٍ وَجِيرَانًا بِجِيرَانٍ
وآخر :

نَبَتْ بِكَ الدَّارُ فَسِرْ آمِنًا فَلِلْفَتَى حَيْثُ انْتَهَى دَارُ
وَرُوِيَ عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّهُ وَصَفَ وَحْشَةَ الْمَدِينَةِ لَغِيْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ :
تَنَكَّرَتِ الْبِلَادُ فَمَا هِيَ بِالْبِلَادِ الَّتِي تَعْرِفُ ، وَتَنَكَّرَ النَّاسُ فَمَا هُمْ بِالنَّاسِ الَّذِينَ نَعْرِفُ .

وفي معناه قال الشاعر :

فَمَا النَّاسُ بِالنَّاسِ الَّذِينَ عَهْدَتْهُمْ وَلَا الدَّارُ بِالدَّارِ الَّتِي كُنْتُ أَعْرِفُ
وَأَنشَد :

لَا تَقْنَعَنَّ وَمَطْلَبُ لَكَ مُمَكِّنٌ فَإِذَا تَضَايَقَتِ الْمَطَالِبُ فَاقْنَعِ
وَأَنشَد :

كَمْ الْمَقَامُ وَكَمْ تَعْتَاذُكَ الْعِلُّ^(١) مَا ضَاقَتِ الْأَرْضُ فِي الدُّنْيَا وَلَا السُّبُلُ
إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الْأَرْضَ وَاسِعَةٌ فِيهَا لَغَيْرِكَ مُرْتَادٌ وَمُرْتَحِلٌ
فَارْحَلْ فَإِنَّ بِلَادَ اللَّهِ مَا خُلِقَتْ إِلَّا لِيُسَلِّكَ مِنْهَا السَّهْلُ وَالْجَبَلُ
اللَّهُ قَدْ عَوَّدَ الْحَسَنَى فَمَا بَرِحْتُ عِنْدِي لَهُ نِعَمٌ تَثْرَى وَتَتَّصِلُ
إِنْ ضَاقَ بِي بِلَدٍ هَيَّأْ لَهُ عِوَضًا وَإِنْ نَأَى مَنْزِلُ بِي كَانَ لِي بَدْلُ
وَأَنْ تَغَيِّرَ لِي عَنْ وَدِّهِ رَجُلٌ أَصْفَى الْمَوَدَّةَ لِي مِنْ بَعْدِهِ رَجُلٌ
لَمْ يَقْطَعْ اللَّهُ لِي مِنْ صَاحِبٍ أَمْلًا إِلَّا تَجَدَّدَ لِي مَنْ بَعْدَهُ أَمْلُ
لَا تَمْتَهِنُ أَبَدًا خَدْيِكَ مِنْ طَمَعٍ فَمَا لَوَجْهَكَ نَوْرٌ حِينَ يُبْتَذَلُ
وَابِغِ الْمَكَاسِبَ مِنْ أَزْكَى مَطَالِبِهَا مِنْ حَيْثُ تَحْمَلُ حَتَّى يَنْفِذَ الْأَجَلُ
وآخر :

إِذَا مَا أَطَالَ الْمَرْءُ مُكْثًا بِبِلَدَةٍ تَعَقَّبَهُ مِنْ بَعْدِ جِدَّتِهِ نَكْسُ

(١) ك : «تقتادك» .

ولو أن هذي الشمس دَامَ طلوعها
فَجُلٌ طالباً للرزق في الأرض واغترَبَ
ولا آخر:

وإذا الديارُ تَنَكَّرَتْ عن أهلها
ليس المُقامُ عليك حتماً واجباً
آخر:

إذا خِفْتُ مَنْ دارٍ هَوَاناً فإنَّما
يَنَجِّيكَ مَنْ دارِ الهوانِ اجتنابُها
ولا آخر:

إصبرْ على حَدَثِ الزمانِ فإنَّما
وإذا رأيتَ من ابنِ عمِّك جَفْوَةً
إنَّ المُقامَ على الهوانِ مَذَلَّةٌ
والعجزُ آفَةٌ حيلةُ المحتالِ



وقد قيل في حبِّ الوطن: أَحَقُّ الْبُلْدَانِ بَنَزَعِكَ إِلَيْهِ بَلَدٌ أَمَصَّكَ حُبُّ رِضَاعِهِ .
وقيل: احفظْ بِلَدًا أَرشَحَكَ^(١) غِداؤُهُ، وَارْعَ حِمِّيَ أَكْنَكَ^(٢) فِناؤُهُ .
وقيل: لا تَشْكُونْ بِلَدًا فِيهِ قَبَائِلُكَ، وَلَا أَرْضًا فِيهَا قَوَابِلُكَ .

وقيل: من علامة الرِّشْدِ أَنْ تَكُونَ النَفْسُ إِلَى أَوْطَانِهَا مُشْتَاقَةً، وَإِلَى مَوْلِدِهَا تَوَّاقَةً .
قيل: ولما خَرَجَ الرِّشِيدُ إِلَى خُرَاسَانَ وَصَارَ بِعَقِبِهِ هَمَذَانُ، أَنْشَأَ يَقُولُ:

حَتَّى مَتَى أَنَا فِي جِلٍّ وَتَرَحَّالٍ
وَنَازِحُ الدَّارِ لَا يَنْفَكُ مُعْتَرِباً
عَنِ الْأَحْبَةِ لَا يَدْرُونَ مَا حَالِي
لَا يَخْطُرُ الْمَوْتُ مِنْ حُرْصِي عَلَى بَالٍ
وَلَوْ قَنَعْتُ أَتَانِي الرِّزْقُ فِي دَعَةٍ
إِنْ الْقُنُوعُ الْغِنَى لَا كَثْرَةُ الْمَالِ



وذكروا أَنَّ أَبَا دُلْفٍ لَمَّا وَلِيَ الشَّامَ، طَالَ مُقَامُهُ، فَحَنَّ إِلَى وَطَنِهِ، فَكَتَبَ إِلَى
يَزِيدَ بْنِ مَخَشٍ^(٣):

(١) فِي الْمَحَاسَنِ وَالْأَضْدَادِ: «أَرَسَخَكَ» . (٢) الْمَحَاسِنُ وَالْأَضْدَادِ: «اكَتَفَكَ» .

(٣) ل: «مَحْنَش» .

أَيَزِيدُ طَالَتْ غُرْبَةً وَمُقَامُ
 أَيَزِيدُ هَلْ مِنْ مَطْمَعٍ فِي أُوبَةٍ
 لَعِبَ الْفِرَاقُ بِنَوْمِهِ فَأَفَاقَهُ
 مَا نَامَ عَنْهُ وَإِنْ رَقَدْتُمْ شَوْقُهُ
 وَالشَّوْقُ أَلْزَمَهُ الْبُكَاءَ لِنَفْسِهِ
 يَا طَائِفًا أَهْدِي السَّلَامَ إِلَى فَتَى
 أَنْتَى وَكَيْفَ يَنَامُ صَبُّ هَائِمٍ
 يَا جَانِبَ الْأَهْوَاِزِ جَادِكَ وَابِلٍ
 كَمْ فِيكَ مِنْ شَجْنٍ وَمَأْنَسٍ وَخَشَةِ^(١)
 فَلْتَنْ أَحْلُكَمَا الزَّمَانُ بِبِلْدَةٍ
 وَشَوَاهِقُ تَزْعُ السَّحَابِ، شَوَامِخُ
 أَنْتَى أَرَى الْأَيَّامَ تَجْمَعُ بَيْنَنَا
 أَيَزِيدُ سَاعِدُكَ الزَّمَانُ وَخَانِنَا
 تَمْسِي ضَجِيعَ خَرِيدَةٍ وَمُضَاجِعِي
 وَتَجَرُّ أَذْيَالَ النَّعِيمِ مُرَقَّلًا
 مُتَسَرِّبَلًا حَلَقَ الْحَدِيدِ يَحْفُنِي
 مِنْ كُلِّ أَشْعَثَ فِي الْحَدِيدِ مُقْتَنَعٍ
 وَالْحَرْبُ حَرَفْتَنَا وَلَيْسَتْ حَرْفَةً
 نَعْرِي السِّيُوفَ فَلَا تَزَالُ عَرِيَّةً
 مَا لِلزَّمَانِ اعْتَاقِنَا مِنْ بَيْنِكُمْ
 يَا لَيْتَهُ إِذْ لَمْ يَدُمْ إِحْسَانُهُ
 فَبَلَغَ شَعْرَهُ الْمَأْمُونُ فَقَالَ: حَنَّ الْقَاسِمُ بَنُ عَيْسَى إِلَى وَطْنِهِ، وَأَمْرُهُ
 بِالْأَنْصِرَافِ.



وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ: قَدِمَ سَعِيدُ بْنُ ضَمْضَمٍ عَلَى الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ فَأَنشَدَهُ

(١) ل: «كَمْ قِيلَ».

(٢) اللّهُمَّ: الجيش العظيم؛ كأنه يلتهم كل شيء.

قصيدة يصف فيها حينه إلى سوء حاله بالبادية ويستميحه :

سقياً لحى باللوى عهدتهم
عهدتهم والعيش فيه غرة
ولم يبينوا النوى قذافة
فليت شعري هل لهم من مطلب
أو يُعذَرْنَ بالبكاء إن بكى
مُكَلَّفٌ بالشوق لا ينسأهم
وينذُرُ النذور إن رآهم
ولا وربَّ العرش لا يلقاهم
وكيف يلقاهم كبير سته
هيهات عدَّ النَّفس عن ذكراهم
هذا وقد رأيتني فلم أَلَمْ
أدعو ابن سهل حسناً ومجده^(١)
أظُلُّ أدعو باسمه ودونه
تَخَيَّراً اخترتُه عليهم
ناموا فلما أن رأيت نومهم
يابن كرام كابراً عن كابر
كانوا همُّ الأشراف سادوا كلهم
بنوا جميع المجد فيما قد مضى
في شرفٍ مؤيدٍ أركانُه
فيا بن سهل وابن آباء له
والله ما تصبُّح بين معشر
والناس آخاذاً وماءً نافع^(٢)
والناس أجناس كما قد مثَّلوا
حاشا أمير المؤمنين إنَّه

منذُ زمانٍ ثمَّ هذا ربَّعهم
ولم يُناوِ الحدثانُ شعبهم
تقطعُ حُبلي من وصال حبلهم
أو أجَدَنَّ ذات يومٍ بذلهم
صبُّ مُعْنَى مُسْتَخَفٍّ إثرهم
يمنحهم ودًا ويرعى عهدهم
وعاد يوماً عيشُهُ وعيشهم
ولا يعودُ عيدُهُ وعيدهم
وقد مضى الدهرُ وطاح نجمهم
واقصد لنحو آخرين غيرهم
رأيي إذا لام الرجال رأيهم
حين تَعَيَّا بعيالي أمرهم
قومٌ كثيرٌ رغبةً تركتهم
ولا بهم بأسٌ ولا ذممتهم
عني تحمَّلتُ فما أيقظتهم
زانوك زيناً باقياً وزنتهم
ما في جميع العالمين مثلهم
وأنت تبنيه كذاك بعدهم
لم يَبْنِه بانٍ سواهم قبلهم
كانوا مناجيب قديماً فضلهم
إلا وأنت شمسهم وبدرهم
وغدُرٌ تجري وأنت بحرهم
وفيهمُ الخيرُ وأنت خيرهم
خليفةُ الله وأنت صهرهم

(١) ل «مجدهم» .

(٢) الإخاذاً: الغدير، ويجمع نادراً على آخاذاً.

إليك أشكو صبيّةً وأمَّهُمْ
 قد أكلوا الوحش فلم يشبِعْهُمْ
 وامتدّقوا المذق فذا دُنْيَاهُمْ^(١)
 لا يعرفون الخيرَ إلَّا ذكره
 وما رأوا فاكهةً في عيصِها
 وما لهم من كاسبٍ علمته
 وجحشهم قد بات منهوبَ القرى
 كأنني فيهم وإن وليتهم
 مجتهداً بالنصر لا ألوههم
 وتارة أقول ممّا قد أرى:
 يأوون بالليل إذا ما أخرجوا
 بها يطوفون إذا ما أجرنثموا^(٥)
 زُغب الرؤوس فُرعت هاماتهم
 بل لو تراهم لعلمت أنهم
 وكالسَّعالي في طوى مُسوكها
 قد جرّسوا الدّهر وقد بلاهم^(٧)
 ولا يعيشون بعيشٍ سابغ
 وقد رجونا يابن سهل نائلاً
 فإنما أنت حياً أمثالهم
 واسدِ نِعماك إليهم واتّخذ
 هذا وأنت قد حُرمت حظّهم
 لا يشبعون وأبوهم مثلهم
 وشربوا الماء فطال شربهم
 والمضغ إن نالوه فهو حسبهم^(٢)
 والدهر هيهات فليس عندهم
 ولا رأوها وهي تهوي نحوهم
 على جديّد الأرض غير جحشهم
 ومثل أعواد الشُّكاعى كلبهم^(٣)
 كانوا موالىّ وكنت عبدهم
 أدعولهم: يا ربّ سلّم أمرهم
 يا ربّ باعدهم وباعد دارهم
 إلى ذرّ اللّهم وهي قدزهم^(٤)
 وهي أبوهم عندهم وأمهم
 من البلاء واسمأذ سمعهم^(٦)
 قومٌ مساغيبٌ قليل نومهم
 فلو يعضّون لذكي سُمهم
 هذا وهذا دأبه ودأبهم
 ولا يموتون وذاك قصرهم
 منك يرمّ فقرهم وبؤسهم
 فجدّ لهم بنائل لا تنسهم
 حمداً وشكراً كلّ ذاك عندهم
 فلا تجودنّ لخلقٍ بعدهم
 فقال له الحسن: سل ما شئت^(٨) وتمنّ ما أحببت، فلو خرجتُ إليك
 من ملكي كلّ ما كافأتك. فقال: تشتري لي غُنيّات، وتردّني إلى البداية.
 فقال: تحنّ إلى مكان تصفه بهذه الصّفة! قال: الوطن، الوطن! فاشتري له

(١) ط: «فيا دنياهم».

(٢) ط: «حسهم».

(٣) الشكاعى: شجر ذو شوك.

(٤) اللّهم: القدر الواسعة.

(٥) اجرنثموا: اجتمعوا.

(٦) اسمأذ الشيء: ذهب.

(٧) المجرس: الذي جرب الأمور.

(٨) ك: «حاجتك».

ألف شاة وأعطاه عشرين ألف درهم، وردّه إلى وطنه .



ومما قيل فيمن كره الغربه . قال ابن أبي السرح : قرأت على حائط خان
بالأهواز :

إنَّ الغريب ولو يكونُ ببلدٍ يُجبى إليه خراجُها للغريبِ
وأقلُّ ما يلقي الغريبُ من الأذى أن يُستذلَّ وقوله مكذوبُ



قال : وقرأت على حائط خان بعسكر مُكرَم، من الأهواز :

إنَّ الغريب إذا ينادي مُوجعاً عند الشدائد كان غيرَ مُجابِ
فإذا نظرتُ إلى الغريب فكن به مُراحماً لتباعد الأحابِ



قال : وقرأت على حائط خان ببغداد في الجانب الغربي :

غريبُ الدار ليس له صديقُ جميع سؤاله : كيف الطريقُ؟
تعلّق بالسؤال بكلّ شيءٍ كما يتعلّق الرجلُ الغريقُ
فلا تجزع فكلّ فتى ستأتي على حالاته سعةٌ وضيقُ
قال : ووجدتُ على بابٍ مكتوباً :

عليك سلامُ الله يا خير منزلٍ رَحَلْنَا وخلفناك غيرَ دَمِيمِ
فإن تكن الأيامُ فرّقن بيننا فما أحدٌ من ربّها بسليمِ
وأنشد :

أقمنا مُكرهين بها فلمّا ألفناها خَرَجْنَا مُكرهينَا
وما حُبُّ البلاد بنا ولكن أمرُ العيش فرقةٌ من هَوِينَا
ولآخر :

أقمتُ بأرضكم بالكُره منّي فلمّا طاب لي فيها المقيـلُ
وأوطنتُ البلادَ وجنّ قلبي بغزلانٍ بها، أَرِفَ الرحيلُ!
ولآخر :

وإنّ اغتراب المرء من غير فاقةٍ ولا حاجةٍ يسموها لعجيبُ

ونال ثراءً أن يقال غريبٌ
فردٌ وحيدٌ ناءٍ عن الوطن!
يكحلُ عيناً بمنظر حسن

فكم قد رَدَّ مثلك من غريبٍ
ولا تياس من الفرج القريب

لعلَّ إيابَ الظاعنين قريبٌ
ألا لا تُعزِّيني فلستُ أجيْبُ!
وكلُّ غريبٍ للغريب حبيبٌ
لطيَّبتهم، إني إذاً لكذوبٌ
ففاضت لها من مُقلَّتِي غُرُوبٌ

مُجَلِّحَةً يشيبُ لها الوليدُ



فحسبُ الفتى بخساً وإن أدرك الغنى^(١)
أي سرورٍ لعيشٍ مُغتربٍ
لا تطمعُ النَّفسُ في هواه ولا
ولآخر:

سَلَّ اللّهُ الإياب من المغيب
وسَلَّ الحزن عنك بحسن ظنٍّ
آخر:

تصَبَّر ولا تعجل وُقيت من الرَدَى^(٢)
فقلتُ وفي قلبي جوَى لفراقها
أعاذلُ حَبِّي للغريب سجيَّةٌ
لئن قلت لم أجزع من البين إن مضوا^(٣)
بلى غَبْرَاتُ الشَّوق أضرمت الحشا
ولآخر:

إذا اغترب الكريمُ رأى أموراً

قال أبو الحسين محمد بن أحمد بن يحيى بن أبي البغل: أنشد أبو العباس
أحمد بن يحيى ثعلب:

ن كذا تفرَّقنا سريعاً
نُبْقَى كما كنّا جميعاً
وأحلّك البلد الشَّسيعة
ل، فصرْتُ أنتظرُ الرجوعا

داما عليه، فتمَّ الوصلُ واتَّفقا
ريبُ الزمانِ وصرْفُ الدَّهرِ فافترقا

ما كنتُ أحسبُ أن يكو
بَخِلَ الزمانُ عليّ أن
فأحلّني في بلدةٍ
قد كنتُ أنتظرُ الوصا
ولآخر:

إلغان كانا لهذا الحب قد خُلقا
كنّا كعُصْنَيْنِ في عودٍ فغالهما^(٤)

(٣) ك: «قضا».

(٤) ك: «فناهما».

(١) المحاسن والأضداد: «نحساً».

(٢) ك: «سلمت».

فأصْفَرَّ عودُهُما من بعد خضرته
ولآخر:

أَتظعنُ والذي تهوى مُقيمٌ
إذا ما كنت للحدَثانِ عوناً
لعمرك إن ذا خطبٍ عظيمٌ!
عليك وللفراق، فمن تلومُ!
آخر:

لقد شقَّنِي أنِّي أدورُ ببلدةٍ
أقلَّبُ طَرْفي في البلاد فلا أرى
أخلاي منها نازحون بعيدُ
وُجوه أخلاي الذين أريدُ!
آخر:

قف بالمنازل وقُفَّة المشتاقِ
لا تبخلنَّ على الديار بأدْمَعِ
لكنها صَفَرٌ من الطُّراقِ
فالدَّمْعُ ينطقُ والرسومُ بواقِي
والعَيْشُ غَضٌّ مُورِقُ الأوراقِ!
كسف الهَلالِ عراه وجهُ محاقِ
خوفُ الحذارِ وشدةُ الإشفاقِ
لكنَّ أيامَ البلاءِ بواقِي
شَتَّانَ بينَ مشائمٍ وعراقِ!
لما أظْلَهُمُ وشيكُ فراقِي!
تُرَوِّي غليلَ مُتِيْمٍ مشتاقِ!



ومنها نجديات:

أَلَا هَلْ أرى حُوراً تبرَّقَعْنَ بالحمى
لعلِّي أرى نجداً ومنَّ حلَّ بالحمى
خليلي قد داوَيْتُ عقلاً سُلِبَتْهُ
فلم أرْ بعد الدَّارِ يشفي من الجوى

(١) ك: «كما علمت».

(٢) ل: «لم ينحه».

بلى إِنَّ فِي النَّأْيِ التَّقْطُوعَ وَالْأَسَى
وَحُبُّ سُلَيْمَى الْقَلْبِ مِنْ بَيْنِهِمْ أَوْدَى!
وَلَا آخِرَ:

نَسِيمُ الْخُزَامَى وَالرِّيَّاحُ الَّتِي جَرَتْ
أَتَانِي نَسِيمُ السِّدْرِ طَيِّباً مِنَ الْحَمَى
وَلَا آخِرَ:

آلَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ أَبَيْتَنَ لَيْلَةً
وَهَلْ أُرْدَنَ الدَّهْرَ حَصَنَ مُجَاشِعٍ
وَلَا آخِرَ:

أَقُولُ لِمُصَاحِبِي وَالْعَيْسُ تَخْذِي
تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيمِ عَرَارِ نَجْدٍ
أَلَا يَا حَبَّذاً نَفَحَاتُ نَجْدٍ
شُهُورٌ يَنْقُضِينَ وَمَا شَعَرْنَا
أَمَّا لَيْلُهُنَّ فَخَيْرُ لَيْلٍ
بُنَا بَيْنَ الْمَنِيفَةِ وَالضُّمَارِ^(١)
فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ عَرَارٍ
وَرِيّاً رَوْضَهُ غَبِّ الْقَطَارِ
بِأَنْصَافٍ لِهَنٍّْ وَلَا سِرَارٍ
وَأَنْضُرُ مَا يَكُونُ مِنَ النَّهَارِ



قال: وقال الفتح بن خاقان: ورد عليّ أعرابيٌّ من البادية نجديّ فصيحٌ،
فبات ليلةً عندي على سطح مشرف على بستان، فسمع فيه صوت الدواليب، فقال:
ما أشبه هذا إلا بحنين الإبل! وأنشد:

بكرت تحنّ وما بها وجدي
فدُمُوعُهَا تَحْيَا الرِّيَاضَ بِهَا
وَأَجِنُّ مِنْ شَوْقٍ إِلَى نَجْدٍ
وَدُمُوعُ عَيْنِي أَحْرَقَتْ خَدِّي

(١) للصمة بن عبد الله القشيري، ديوان الحماسة ٣: ١٢٤٠.

محاسن الدعاء للمسافر

بأيمن طالع وأسرّ طائر!

لا كبّا بك مركب، ولا أشتّ بك مذهب، ولا تعذر عليك مطلب!
سهل الله لك السيّر، ويسّر لك القصد، وطوى البعد بمسرة الظفر، وكرامة
المدخر!

بأيمن طائر، وأسعد جدّ!

على الطائر الميمون، والكوكب السعد!

وفي رسالة للبحرّي:

إلى حيث تتقاصر أيدي الحوادث عنك، وتتقاعس نوائب الأيام دونك!
فصل:

وحُصّصت بسهولة المطلب ونجاح المنقلب!

كان الله في سفرك خفياً، وفي حضرك ظهيراً.
آخر:

بسعي نجيح، وأوب سريع وسريح!

آخر:

قصر الله محله، وهدى رحله، وسرّ بأوبته أهله. ولا زال آمناً، مقيماً وظاعناً!
آخر:

بأسعد جدّ، وأنجح مطلب، وأسرّ منقلب، وأكرم بدأة، وأحمد عاقبة!

فصل:

فاشخص مصحوباً بالسّلامة والكلاءة، آيباً بالنجح والغبطة، محوطاً فيما
تطالعه بالعناية والشفقة. في ودائع الله وضمّانه، وكنفه وجواره، وسرّه وأمانه،
وحفظه وذماره^(١).

(١) المحاسن والأضداد: «وذماره».

وقال رجل للنبي ﷺ: إني أريد سفراً، فقال: «في حفظ الله وكنفه، زودك الله التقوى، ووجهك إلى الخير حيث كنت».

كتب أبو العيناء:

أستخلف الله فيك، وأستخلفه منك.

لابن أبي السرح:

في كنف الله وفي ستره من ليس يخلو القلب من ذكره

وأنشد الآخر:

فارحل أبا بشرٍ بأيمن طائرٍ وعلى السعادة والسلامة فانزل

مَسَاوِي الدَّعَاءِ لِلْمُسَافِرِ

بالبَارِحِ الْأَشْأَمِ^(١)، والسَّانِحِ الْأَعْضَبِ^(٢)، والصُّرْدِ^(٣) الْأَنْكَدِ، لِلسَّفَرِ الْأَبْعَدِ.
 لَا اسْتَمَرَّتْ مَطِيَّتُهُ، وَ[لَا]^(٤) اسْتَتَبَّتْ [بِهِ]^(٥) أَمْنِيَّتُهُ. وَلَا تَرَاحَتْ مَنِيَّتُهُ.
 بِنَحْسٍ مُسْتَمَرٍّ، وَعَيْشٍ مُرٍّ، لَا قَرَىٰ إِنْ اسْتِضَافَ، وَلَا أَمْنٌ إِنْ خَافَ.
 وَيُقَالُ إِنْ عَلِيًّا لَمَّا اتَّصَلَ بِهِ مَسِيرٌ مُعَاوِيَةَ قَالَ: لَا أَرْشِدَ اللَّهَ قَائِدَهُ، وَلَا أَسْعِدُ
 رَائِدَهُ، وَلَا أَصَابُ غَيِّثًا. وَلَا سَارَ إِلَّا رَيْثًا، وَلَا وَافَقَ إِلَّا لَيْثًا!
 أَبْعَدَهُ اللَّهُ وَأَسْحَقَهُ، وَأَوْقَدَ نَارًا عَلَىٰ أَثَرِهِ!
 لَا حَطَّ اللَّهُ رَحْلَهُ، وَلَا كَشَفَ مَحَلَّهُ، وَلَا بَشَّرَ بِهِ أَهْلَهُ!
 لَا زَكَّىٰ لَهُ مَطْلَبٌ، وَلَا رَحُبَ لَهُ فِيهِ مَذْهَبٌ!
 لَا سَقَاهُ اللَّهُ غَمَامًا، وَلَا يَسَّرَ لَهُ مَرَامًا!
 لَا فَرَجَ اللَّهُ هَمَّهُ، وَلَا سَرَ غَمَّهُ، وَلَا حَلَ عَقْدَهُ، وَلَا أَوْزَىٰ زَنْدَهُ!
 جَعَلَهُ اللَّهُ سَفَرَ الْفِرَاقِ. وَعَصَا الشَّقَاقِ!
 وَأَنْشُدْ:

بَأَنْكَدِ طَائِرٍ وَبَشَرٍ فَالٍ لِأَبْعَدِ غَايَةٍ وَأَخْسٍ حَالٍ
 بِحَدِّ السَّنَدِ حَيْثُ يَكُونُ مَنِّي^(٥) كَمَا بَيْنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ
 غَرِيبًا تَمْتَطِي قَدَمَيْكَ دَهْرًا عَلَى خَوْفٍ تَحْنُ إِلَى الْعِيَالِ

(١) البَارِح: ما مر من الطير والوحش من يمينك إلى يسارك؛ والعرب تنظير به؛ لأنه لا يمكنك أن تمر حتى تنحرف (اللسان).

(٢) السانح: ما مر بين يديك من جهة يسارك إلى يمينك والعرب تتيمن به؛ لأنه أمكن للعبد وقد يتشاءمون به أيضاً، قال زهير:

جَرَتْ سُنْحًا فَقَلْتُ لَهَا أَجِيزِي نَوَى مَشْمُولَةً فَمَتَى الْلِقَاءُ!
 والأعضب: المكسور القرن، وهو مما يتشاءم به.

(٣) الصرد: طائر فوق العصفور، وكان العرب يتشاءمون به أيضاً لصوته.

(٤) من المحاسن والأضداد.

(٥) ل والمحاسن والأضداد ١٢٦: «السد».

الباهلي:

إذا استقلت بك الركابُ
وحيث لا يُبتَغى فلاحُ
ابن أبي السرح:

فسرْ بالأنحوسِ إلى بلدةٍ
ولا تمرْ الأرضُ من نهرها^(٢)
تفيضُ البحارُ بها مرةً
الباهلي:

أدنى خطاك الهندُ والصينُ
بحيث لا يأنسُ مستأنسُ
تهوي بك الأرضُ إلى بلدةٍ
وكلُّ نحسٍ بك مقرونُ
وحيث لا يفرحُ محزونُ
ليسَ بها ماءٌ ولا طينُ

(١) المحاسن والأضداد ١٢٧.

(٢) المحاسن والأضداد: «من زهرها».

محاسن الرؤيا

حدّثنا أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد، قال: كان المأمون يُبطل الرؤيا، ويقول: ليست بشيء، ولو كانت على الحقيقة كنّا نراها ولا يسقط منها شيء، فلمّا رأينا أنّما يصحّ منها الحرف والحرفان من الكثير، علمنا أنّها باطل، وأنّ أكثرها لا يصحّ.

وكان بعث بابنه العباس^(١) إلى بلاد الروم، فأبطأ عليه خبره، فصلّى ذات يوم الصبح، وخفق وانتبه، ودعا بدابّته وركب، وقال: أحذّثكم بأعجوبة؛ رأيت الساعة كأنّ شيخاً أبيض الرأس واللحية، عليه فُرّوة، وكساؤه في عنقه، ومعه عصاً وفي يده كتاب، فدنا منّي وقد ركبت، فقلت: من أنت! فقال: رسول العباس بالسلامة - وناولني كتابه. فقال المعتصم: أرجو أن يحقّق الله رؤيا أمير المؤمنين ويسرّه بسلامته. قال: ثم نهض، فوالله ما هو إلّا أن خرج فسار قليلاً إلّا وبصّر بشيخ قد أقبل نحوه في تلك الحال، فقال المأمون: هذا والله الذي رأيته في منامي، وهذه صفته. قال: فدنا منه الرجل فنحّاه خدمه، وصاحوا به فقال: دعوه! فجاء الشيخ فقال له: من أنت؟ قال: رسول العباس وهذا كتابه، قال: فبُهِتْنَا وَطال منه تعجُّبنا، فقلت: يا أمير المؤمنين، أتبطل الرؤيا بعد هذه؟ قال: لا.



وحدّثنا عليّ بن محمد، قال: حدّثني أبي، عن محمد بن عبد الله، قال: رأيت فيما يرى النائم في آخر سلطان بني أمية، كأنّي دخلتُ مسجدَ رسول الله ﷺ فرفعتُ رأسي، ونظرت إلى الكتاب الذي فوق المحراب، فإذا فيه: هذا ما أمر به أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، فإذا قائل يقول: يُمَحّي هذا الكتاب، ويكتب مكانه اسمُ رجل من بني هاشم، يقال له: محمد، فقلت: فأنا محمد، فابن من؟ قال: ابن عليّ، قلت: فأنا ابن عليّ، فابن من؟ قال: ابن عبد الله، قلت: فأنا ابن عبد الله، فابن من؟ قال: ابن عباس؛ فلو لم أكن بلغتُ العباس ما شكّكتُ أني صاحب الأمر.

(١) ك: «العباس ابنه».

فتحدثت بهذه الرؤيا في ذلك الدهر، ولا نعرف نحن المهديّ فتحدثت الناس بها حتى وُلِّي المهديّ، فدخل مسجد رسول الله ﷺ، فرفع رأسه. فإذا اسم الوليد، وإني لأرى اسم الوليد في مسجد رسول الله ﷺ إلى اليوم. فدعا بكرسيّ، فألقني له في صحن المسجد، فقال: ما أنا ببارح حتى يُمَحَى ويكتب اسمي مكانه، فأمر بأن يحضر العمّال والسايليم، وما يحتاج إليه لذلك، فلم يبرح حتى غُيِّر؛ وكتب اسمه.



قال: ورأى رجل أبا دُلف فيما يراه النائم، فقال: ما حالك؟ فقال: فلو أنا إذا مِتْنَا تُرِكْنَا لكان الموت راحةً كلّ حيٍّ ولكنا إذا مِتْنَا بَعِثْنَا ونُسأل بعده عن كلّ شيء



قال: ورأى رجل الحجاج بن يوسف الثقفي فيما يراه النَّائم، فقال له: ما حالك! فقال: ما أنت وذاك! لا أم لك! فقال: سفيه في الدنيا سفيه في الآخرة.



وعن إسحاق بن إسماعيل بن عليّ، قال: حدّثني عمّي عيسى بن عليّ، قال: دخلت على المنصور. فقال: يا أبا العباس، أتذكر رؤيائي بالشّرة؟ قلت: يا أمير المؤمنين، أيّ رؤيا؟ قال: مثلك ينساها! كان يجب أن تكتبها بقلم من ذهب في رقّ، وتوصي بها بنيك وبني بنيك! قلت: فاخبرني بها يا أمير المؤمنين، قال: رأيت كأني بمكة. إذ فتّح باب الكعبة. فخرج رجل، فقال: عبد الله بن محمد! فقام أخي فقال الرجل: ابن الحارثية! فدخل أخي. فأبطأ هنيهة ثم خرج، وفي يده لواء. فخطا خطاً خمساً، ثم سقط اللواء من يده، ثم خرج الرجل بعينه، فقال: عبد الله! فقام عمي عبد الله بن عليّ. وصعد الدرجة، فزحمته ببعض أركانها، فسبقت، فإذا بأبي، وإذا رسول الله ﷺ، فقال لي الرجل: إبدأ برسول الله ﷺ؛ فسلمت عليه؛ فدعا بلواء فعقده لي، ثم قال: هاك فيك وفي ولدك. حتى تقتلوا به الرجال. فخطوت خطأ؛ لو شئت أن أخبركم بها لأخبرتكم.



وحَدَّثنا محمد بن يونس، قال: أخبرني منصور بن أبي مزاحم، عن طيفور مولى أبي جعفر. قال: قال المنصور: رأيت في السّنة التي ولي فيها هشام بن

عبد الملك كأني راكب حماراً أسود وعليه حمل تبن عظيم - وكان بالمؤصل رجلاً يعبر الرؤيا - فحجبت تلك السنة، فرأيته بمنى وقصصت عليه الرؤيا، فقال: أخبرني لمن هذه الرؤيا؟ فقلت: لرجل من أفناء الناس. قال: ما قلت الحق، أصدقني وأصدقك؟ فقلت: لرجل من بني هاشم؛ قال: الآن جئت بالحق، إن صدقت الرؤيا صار صاحبها خليفة. قال: فانسلت كالهارب خوفاً أن يظهر من قولي وقوله شيء.

قال: فبينما الربيع ذات يوم قد دخل؛ فقال: يا أمير المؤمنين، رجل بالباب معبر يستأذن، قال: أدخله، فأدخله، فلما رآه تبسم، وقال: هذا صاحبي، فدنا منه وقبل يده، فقال: أتذكر رؤيائي؟ قال: نعم، وهي التي حملتني إليك. قال: كيف كنت تأولتها، قال: قلت: راكب حماراً أسود، والحمار جد الرجل، وسواده سودده، قلت: وكان على الحمار تبن، فقلت، الحنطة والشعير تخرجان من التبن، ومن قعد عليه وصار مالكة، فقد ملك الأقوات فهذا رجل يملك الناس.

قال: لله أبوك! ما أحسن ما عبرت! وأسرع ما صحت. وأمر له بصلة وقال: أقم عندنا، وحوّل عيالك؛ فإنا نأمر لك بأرزاق تسعك وإياهم، ففعل ذلك.



وبلغنا عن مزاحم، مولى فاطمة بنت عبد الملك، عن فاطمة، قالت: كنت مع عمر بن عبد العزيز وهو نائم، فانتبه. وقال: يا فاطمة، لقد رأيت رؤياً، ما رأيت أحسن منها! قلت: حدثني بها يا أمير المؤمنين، قال: حتى أصبح، قال: فجاء المنادي، فناداه بالصلاة، فقام فصلّى بالناس الفجر، ثم رجع إلى مجلسه. فأتيته؛ فقلت: يا أمير المؤمنين. حدثني بالرؤيا. فقال: رأيت كأني في أرض خضراء. لم أر أرضاً أحسن منها. ورأيت في تلك الأرض قصوراً زبرجد. ورأيت جميع الخلائق حول ذلك القصر؛ فبينما أنا كذلك، إذ نادى منادٍ من القصر: أين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب؟ فقام النبي ﷺ، فدخل القصر، فقلت: سبحان الله! أنا في ملائكتهم رسول الله ﷺ. ولم أسلم عليه!

فلم ألبث إلا قليلاً. حتى خرج المنادي، فنادى: أين أبو بكر الصديق؟ فقام أبو بكر رحمه الله فدخل.

فما لبثت إلا قليلاً، حتى خرج المنادي، فنادى: أين عمر بن الخطاب؟ فقام عمر فدخل، فقلت: سبحان الله! أنا في جمع فيهم أبي. ولم أسلم عليه.

فما لبثت إلا قليلاً حتى خرج المنادي ينادي: أين عثمان بن عفان؟ فقام عثمان رحمه الله، فدخل.

فما لبثت إلا قليلاً. حتى خرج المنادي. فنادى: أين علي بن أبي طالب؟ فقام علي، فدخل.

فما لبثت إلا قليلاً. حتى خرج المنادي، فنادى: أين عمر بن عبد العزيز؟ فقامت فدخلت. فرأيت النبي ﷺ قاعداً. ورأيت أبا بكر عن يمينه، وعمر عن يساره، وعثمان وعلياً بين يديه. فقلت: أين أقعد؟ لا أقعد إلا إلى جنب أبي. قال: فقعدت عند عمر بن الخطاب؛ فرأيت فيما بين النبي ﷺ وأبي بكر شاباً حسن الوجه. فقلت: يا أبت، من هذا؟ قال: هذا عيسى ابن مريم.

قال: فما لبثت إلا قليلاً. حتى سمعت منادياً ينادي: يا عمر بن عبد العزيز؛ أثبت على ما أنت عليه.

قال: ثم قمت، فخرجت فلم ألبث إلا قليلاً، حتى خرج علي عثمان؛ وهو يقول: الحمد لله الذي نصرني. ثم ألبث إلا قليلاً؛ حتى خرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: الحمد لله الذي غفر لي!

مَسَاوِي الرُّؤْيَا

روي عن عمر بن حبيب القاضي، أنَّ رجلاً كان بالبصرة. وكانت له امرأة؛ وله منها ابنان؛ فمات وترك لهم شاة، فرأت المرأة في النوم؛ كأنَّ أحد ابنيها يقول: يا أمة^(١). ما ترين هذا الجدي، قد أفنى علينا لبن هذه الشاة! وليس بدَّ من أن أقوم فأذبحه، فقالت: لا تفعل يا بُني. فقال: لا بُدَّ من أن أذبحه. فقام فذبحه، وسَمَطَه وشَوَاه، وأخرجه من التَّنُّور؛ فقعد هو وأخوه يأكلان، فكَلَّمَه أخوه بشيء، فأخذ السُّكِين فشَقَّ بطنه.

فانتبَهَتْ فزعة؛ وإذا ابنها يقول: يا أُمُّه؛ أما ترين هذا الجدي. قد أفنى علينا لبن هذه الشاة. أقوم فأذبحه! فقالت: لا تفعل يا بُني. فجعلت تتعَجَّب من تصديق الرؤيا فأخذت بيد أخيه. فدخلت بيتاً، وأغلقت الباب من داخله؛ فبينما هي مفكرة مهتمة، إذ غَفَلَتْ، فرأت النبي ﷺ في النوم، فقال: ما شأنك؟ فخبَّرته الخبر. فنادى: يا رؤيا. فإذا الحائط قد انصدع. وخرجت امرأة جميلة بارعة الجمال، فقال لها النبي ﷺ: ما أردتِ إلى هذه المسكينة! قالت: لا والذي بعثك بالحق نبياً ما أتيتها في منامها. فنادى: يا أضغاث أحلام، فخرجت امرأة دونها. فقال: ما أردتِ إلى هذه المسكينة؟ قالت: رأيتهم بخير؛ فحسدتهم، فأردت أن أعَمِّهم. فقال ﷺ: «ليس عليك بأس» فانتبَهَتْ وأكلت مع ابنيها. ولم يزالوا بخير.

(١) ك: «يا أُمَاه!».

محاسن الإزكان

قال: نظر إياس بن معاوية إلى نسوة قد فزغن من بعير؛ فأشار إليهن. فقال: هذه بكر، وهذه حامل، وهذه مريض. فقام إليهن رجل، فسألهن فكن كما قال. فقليل له: كيف علمته؟ قال: رأيتهن لما فزغن، وضعت كل واحدة منهن يدها على أهم المواضع إليها، فوضعت الحامل يدها على بطنها، ووضعت الممرض يدها على ثديها، ووضعت البكر يدها على قُبْلِها.



قال: ونظر إياس يوماً إلى رجل متأبط شيئاً، فقال: معه سُكَّر. وقد وُلد له غلام، فاتَّبعه الرجل فسأله: فإذا هو كما قال. فقليل له في ذلك، فقال: رأيت الذُّباب قد أطافت به، فقلت: معه حلاوة وهو سُكَّر. ورأيتَه نشيطاً، فقلت: وُلد له غلام.

مَسَاوِءُ الْإِزْكَانِ

قال: واستقبل إياس رجلاً، فقال: خذوه؛ فإنه سرق، وسيأتي من يطلبه. فأخذوه فلم يتجاوز ساعة حتى جاء قومٌ يطلبونه، فأخذوه. ف قيل له في ذلك، فقال: رأيتُه يُرْعَدُ ويعدو مُدْلِهًا، متغيّر اللون يُكثر الالتفات. فزكنتُ فيه هذا: وإنه لصّ.



قال: ورأى رجلاً على عاتقه جرّة عسل، فقال: فيها سُمٌّ أو حيّة، فنظروا فإذا حيّة؛ فسئل عن ذلك. فقال: رأيت الذباب تحوم حوله ولا تسقط عليه. فعلمت أنه حيّة أو سمّ.

تم الجزء الأول من كتاب المحاسن والمساوىء

ويليه الجزء الثاني

وأوله: محاسن الفأل

فهرس المحتويات

٥	 مقدمة
٧	 وبه الأمان من الخذلان
٢١	 مَحَاسِنُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
٣١	 محاسن المعراج
٣٧	 مساوئ من تنبأ
٤٠	 مَحَاسِنُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضوان الله عليه ورحمته
٤٣	 مَحَاسِنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضوان الله عليه ورحمته
٤٥	 مَحَاسِنُ عِثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ رضي الله عنه ورحمه
٤٦	 مَحَاسِنُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضوان الله عليه ورحمته
٥٣	 مَحَاسِنُ مَنْ أَمْسَكَ عَنِ الْوُقُوعِ فِي أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ
	 مساوئ تلك الحروب ومن تنقص علي بن أبي طالب رضوان الله ورحمته
٥٥	 وبركاته عليه
٥٧	 مساوئ مَنْ عَادَى عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه
٦٢	 مَحَاسِنُ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ ابْنَيْ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنهم
٦٤	 مساوئ قتلة الحسين بن علي رضوان الله عليهما
٧٠	 مساوئ الحرّة
٧٦	 مَحَاسِنُ السَّبْقِ إِلَى الْإِسْلَامِ
٧٩	 مساوئ من ارتدّ عن الإسلام
٨٢	 مَحَاسِنُ الْمَفَاخِرَةِ
٨٥	 مَحَاسِنُ كَلَامِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رضي الله عنه

- ٩٦ محاسن كلام عبد الله بن العباس رضي الله عنه
- ١٠٠ محاسن كلام غانمة بنت غانم في شرف بني هاشم وفخرهم
- ١٠٣ محاسن مجالس أبي العباس السفاح في المفخرة
- ١٠٨ محاسن الافتخار بالنبي ﷺ
- ١٠٩ محاسن ما قيل في ذلك من الشعر
- ١١١ مساوىء الافتخار
- ١١٣ مساوىء أصحاب الصناعات
- ١١٤ محاسن التناج
- ١١٧ مساوىء التناج
- ١١٨ محاسن الوفاء
- ١٣٢ مساوىء قلة الوفاء والسعاية
- ١٣٤ محاسن الشكر
- ١٣٨ مساوىء الشكر
- ١٤٠ محاسن الدهاء والحيل
- ١٥٦ مساوىء العي وضعف العقل
- ١٥٨ محاسن التيقظ
- ١٧٠ مساوىء التيقظ وتركه
- ١٧١ محاسن الرُّسل
- ١٧٣ مساوىء الرُّسول
- ١٧٤ محاسن الحجاب
- ١٧٨ مساوىء الحجبة
- ١٨٢ محاسن الولايات
- ١٨٥ مساوىء الولايات
- ١٨٦ محاسن بُعد الهمة
- ١٩٠ مساوىء سقوط الهمة
- ١٩٢ محاسن كرم الصَّحبة

٢٠١	مساوىء الصَّحبة
٢٠٣	محاسين السَّخاء
٢٣٠	محاسين صِلات الشعراء
٢٦٦	مساوىء منْع الشعراء والبخل
٢٨٢	مساوىء من استدعى الهجاء ومَن هجا نفسه
٢٨٤	محاسين الرِّجال
٢٨٦	مساوىء الرِّجال
٢٩١	محاسين ذكر التَّعَم
٢٩٣	الشعر في هذا الفن
٢٩٥	محاسين الفقر
٢٩٦	مساوىء الفَقْر
٣٠٥	محاسين الثقة بالله عزَّ وجلَّ
٣٠٧	مساوىء الثَّقة
٣٠٨	محاسين طلب الرِّزق
٣١٢	مساوىء طلب الرِّزق
٣١٤	محاسين استصلاح المَال
٣١٦	محاسين الدِّين
٣١٧	مساوىء الدِّين
٣١٩	محاسين إِصلاح البدن
٣٢٣	مساوىء ما يفسد البدن
٣٢٤	محاسين النَّدامة
٣٢٦	مساوىء النَّدامة
٣٢٩	محاسين الحنين إلى الوطن
٣٣٠	ذُكر من اختار الوطن على الثروة
٣٣٢	مساوىء من كَرِه الوطن
٣٤٢	محاسين الدَّعاء للمُسافر

٣٤٤	مَسَاوِىءُ الدَّعَاءِ لِلْمُسَافِرِ
٣٤٦	مَحَاسِنُ الرُّؤْيَا
٣٥٠	مَسَاوِىءُ الرُّؤْيَا
٣٥١	مَحَاسِنُ الْإِزْكَانِ
٣٥٢	مَسَاوِىءُ الْإِزْكَانِ